

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة مريم

دكتور
محمد شفيق طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

الجزء السادس عشر

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾
صدق الله العظيم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله
وأصحابه وأتباعه ، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « مريم » ، أكتبه بعد أن كتبت قبله تفاسير
لسور : البقرة ، آل عمران ، النساء ، المائدة ، الأنعام ، الأعراف ، الأفعال ،
التوبة ، يونس ، هود ، يوسف ، الرعد ، إبراهيم ، الحجر ، النحل ، الإسراء ،
الكهف ...

والله - تعالى - أسأل ، أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، ونافعا
 لعباده ، وشفيعا لنا يوم نلقاه ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله
 بقلب سليم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر

١٦ من شوال سنة ١٤٠٤ هـ - ١٥ / ٧ / ١٩٨٤ م

د / محمد سيد طنطاوى

مفتى جمهورية مصر العربية

تعريف بسورة مريم

١ - سورة مريم من السور المسكية .

قال القرطبي : وهي مكية بالإجماع . وهو تسعون وثمان آيات (١) .

وقال ابن كثير : وقد روى محمد بن إسحاق في السيرة ، من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة ، أن جعفر بن أبي طالب - رضى الله عنه - قرأ صدر هذه السورة على النجاشي (٢) وكان نزولها بعد سورة فاطر (٣) .

٢ - ويبدو أن تسميتها بهذا الاسم كان بتوقيف من النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فقد أخرج الطبراني والديلمي ، من طريق أبي بكر بن عبد الله ابن أبي مريم ، عن أبيه عن جده ، قال : أتيت النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالت : ولدت لي الليلة جارية . فقال : والليلة أنزلت على سورة مريم .

وجاء فيما روى عن ابن عباس ، تسميتها بسورة دكيعص (٤) .

وقد تكرر اسم مريم في القرآن ثلاثين مرة ، ولم تذكر امرأة سواها باسمها الصريح .

٣ - والذي يقرأ هذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل ، يراها زاخرة بالحديث عن عدد من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - .

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٧٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١١٠ .

(٣) الإنفاق في علوم القرآن للسيوطي ج ١ ص ٢٧ .

(٤) تفسير الألوسي ج ١٦ ص ٥٦ .

فقد افتتحت بالحديث عن تلك الدعوات التي تضرع بها زكريا إلى ربه ،
ليكي يهب له وليا ، يرثه ويرث من آل يعقوب .

وقد استجاب الله - تعالى - دعاء زكريا ، فوهبه يحيى كما قال - تعالى - :
« يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا » .

٤ - ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن قصة مريم ، بصورة فيها شيء من
التفصيل ، فذكرت اعتزالها لقومها ، وما دار بينهم وبينها من محاورات ،
ومولدها لعيسى وإتيانها به قومها ، وما دار بينها وبينهم في شأنه . ثم ختمت
هذه القصة بالقول الحق في شأن عيسى ، قال - تعالى - : « ذلك عيسى ابن مريم
قول الحق الذي فيه يمترون » . ما كان لله أن يتخذ من ولد - سبحانه - ، إذا
قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا
صراط مستقيم » .

٥ - ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن طرف من قصة إبراهيم وموسى
وإسماعيل وإدريس ، وختمت حديثها عن الرسل الكرام بقوله - تعالى - :
« أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ، ومن حملنا مع نوح .
ومن ذرية إبراهيم وإسماعيل . ومن هدينا واجتبيينا ، إذا قتل عليهم آيات الرحمن
خروا سجدا وبكيا » .

٦ - ثم حكمت السورة الكريمة أنماطا من الشبهات التي تفوه بها الضالون ،
ومن هذه الشبهات ما يتعلق بالبعث والنشور ، ومنها ما يتعلق بموقفهم من
القرآن الكريم أو منها ما يتعلق بزعمهم أن الله ولدا ... وقد ردت على كل
شبهة من هذه الشبهات بما يبطلها ، ويخرس السنة قائلها .

ومن ذلك قوله - تعالى - : « ويقول الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ... » ،

وقوله - سبحانه - : « أفرأيت الذي كفر بآياتنا قال لا توطين مالا وولدا .

أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا . كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا . وزنه ما يقول وبأتينا فردا

وقوله - عز وجل - : وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدا . تسكاد السموات بتفطرن منه . وتنفق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا

٧ - ومن هذا العرض الإجمالى آيات السورة السكرية ، يتبين لنا أن سورة مريم قد اهتمت بإقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى نفى الشريك والولد عن ذاته - سبحانه - ، كما اهتمت - أيضا - بإقامة الأدلة على أن البعث حق ، وعلى أن الناس سيحاسبون على أعمالهم يوم القيامة .

كما ذخرت السورة بالحديث عن قصص بعض الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - تارة بشيء من التفصيل كما فى قصة زكريا وعيسى ابن مريم ، وتارة بشيء من الاختصار والتركيز كما فى قصة إبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس .

كما نراها بوضوح نحكى شبهات المشركين ، ثم ترد عليها بما يبطلها ...

وقد سافت السورة مسافت من قضايا ، بأسلوب عاطفى بديع ، بهيج المشاعر نحو الخير والحق والفضيلة ، وينفر من الشر والباطل والذنبلة ، ويطلع العقول على نماذج شتى من مظاهر رحمة الله - تعالى - بعباده الصالحين ترى ذلك فى مثل قوله - تعالى - : ذكر رحمة عبده زكريا

وفى مثل قوله - سبحانه - : لمن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا . .

٨ - قال بعض العلماء ماملخصه : والظل الغالب فى جو السورة هو ظل الرحمة والرضا والإنعام . فهى تبدأ بذكر رحمة ربك لعبده زكريا . ويتكرر لفظ الرحمة ومعناها وظلها فى ثانيا السورة كثيرا . ويكثر فيها اسم الرحمن .

وإنك لتحس لمسات الرحمة الندية . ودبيها اللطيف في الكلمات .
والعبارات والظلال ، كما تحس إنتفاضات المكون وارتجافاته لوقع كلمة الشريك
التي لا تطيقها فطرتة ...

كذلك تحس أن للسورة إيقاعا موسيقيا خاصا ، يفتي جرس ألفاظها
وفواصلها فيه رخاء ، وفيه عمق كالألفاظ: رضا، مريا ، حفيا ، نجيا ...
فأما المواضع التي تقتضى الشدة والعنف ، فتجىء فيها الفاصلة مشددة في
الغالب ، كالألفاظ : ضدا ، هدا ، إدا ، أزا (١) .

٨ - وبعد : فهذا تعريف لسورة مريم ، نرجو أن يكون القارئ له ،
قد أخذ صورة مركزة عن أهم المقاصد التي اشتملت عليها السورة الكريمة .
والحمد لله الذي بنعمته تم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه وسلم .

التفسير

قال الله تعالى : « كَيْبَيْصَ (١) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبُّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبًّا شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَدَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَائِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبُّ رَضِيًّا (٦) » .

سورة مريم ، من السور القرآنية التي افتتحت ببعض حروف التمجى . وقد سبق أن تكلمنا بشيء من التفصيل ، عن آراء العلماء في المراد بهذه الحروف التي افتتحت بها بعض السور ، وذلك عند تفسيرنا أسور : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ...

ورجحنا أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت في إفتتاح بعض سور القرآن ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .

فيكان الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله - تعالى - ، هاكم القرآن تزونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تقولون به كلامكم ، ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم في شك من كونه منزلا من عند الله فهايتوا مثله ، أو عشر سور من مثله ، بل بسورة واحدة من مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكي يعاونكم في ذلك ...

فلما عجزوا — وهم أهل الفصاحة والبيان — ثبت أن غيرهم أعجز ، وأن

هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

وقوله - تعالى - : ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، خير لمبتدأ محذوف .
أى : المتلو عليك ذكر رحمة ربك عبده زكريا .

ولفظ : ذكر ، مصدر مضاف لمفعوله . ولفظ : رحمة ، مصدر مضاف لفاعله وهو ربك ، وعبده ، مفعول به المصدر الذى هو رحمة .

وزكريا ، هو واحد من أنبياء الله الكرام ، وينتهى نسبه إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم السلام - .

والمعنى : هذا الذى تذكره لك يا محمد ، هو جانب من قصة عبدنا زكريا ، وطرف من مظاهر الرحمة التى اختصصناه بها ، ومنحناه إياها .

وقوله : إذ نادى ربه نداء خفياً ، ظرف لرحمة ربك . والمراد بالنداء : الدعاء الذى تضرع به زكريا إلى ربه - عز وجل - .

أى : هذا الذى قرأناه عليك يا محمد فى أول هذه السورة . وذكرناه لك ، هو جانب من رحمتنا لعبدنا زكريا . وقت أن نادانا وتضرع إلينا فى خفاء وسر ، ملتصقا منا الذرية الصالحة .

ولما أخفى زكريا دعاءه ، لأن هذا الإخفاء فيه بعد عن الرياء ، وقرب من الإخلاص ، وقد أمر الله - تعالى - به فى قوله : أدعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين ، .

ويبدو أن هذا الدعاء قد تضرع به زكريا إلى ربه . فى أوقات تردده على مريم ، وإطلاعه على ما أعطاه الله - تعالى - من رزق وفير .

ويشهد لذلك قوله - تعالى - : فقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها المحراب وجد عندها

روقا ، قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء .
بغير حساب . .

هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع
الدعاء . (١)

ثم بين - سبحانه - ما نادى به زكريا ربه فقال : « قال رب إنى وهن
العظم منى . . . ، والوهن : الضعف . يقال وهن الجسم يهن - من باب وعد -
إذا ضعف .

وخص العظم بالذكر ، لأنه دعامة البدن ، وعماد الجسم ، وبه قوامه ، فإذا
ضعف كان غيره من أجزاء الجسم أضعف . وأفرد لفظ العظم لإرادة الجنس .
« واشتعل الرأس شيبا ، والمراد باشتعال الرأس شيبا : إنتشار بياض
الشيب فيه . والالف واللام فى لفظ « الرأس » ، قاما مقام المضاف إليه .

والمراد : واشتعل رأسى شيبا ، وهذا يدل على تقدم السن ، كما يشهد له
قوله - تعالى - « وقد بلغت من الكبر عتيا » وقوله - عز وجل - : « وقد
بلغنى الكبر . . . » .

قال صاحب الكشف : « شبه الشيب بشواظ النار فى بياضه وإنتشاره
فى الشعر . . باشتعال النار ، ثم أخرجه مخرج الاستعارة ، ثم أسند الاشتعال
إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس ، وأخرج الشيب مجزا ولم يضاف إلى
الرأس لإكتفاء بعم المخاطب أنه رأس زكريا ، فن ثم فصحت هذه الجملة وشهد
لها بالبلاغة . . . » (٢)

(١) سورة آل عمران من الآيات ٣٧ ، ٣٨

(٢) تفسير الكشف ج ٣ ص ٤

وقوله : « ولم أكن بدعائك رب شقيا ، أى : ولم أكن فيما مضى من
عمرى مخيب الدعاء وإنما تعودت منك يا إلهى لإجابة دعائى ، وما دام الأمر
كذلك فأجب دعائى فى الزمان الآتى من عمرى ، كما أجبتّه فى الزمان
الماضى منه .

فأنت ترى أن ذكرىا - عليه السلام - قد أظهر فى دعائه أسمى ألوان الأدب
مع خالقه ، حيث توسل إليه - سبحانه - بضعف بدنه ، وبتقدم سنه ، وبما
عوده إليه من لإجابة دعائه فى الماضى .

ثم حكى - سبحانه - بعض الأسباب الأخرى لإلحاح ذكرىا فى الدعاء
فقال : « وإننى خفت الموالى من ورائى ، وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من
لدنك وليا . يرثى ويرث من آل يعقوب .

والموالى : جمع مولى . والمراد بهم هنا : عصبته وأبناء عمومته الذين يلون
أسره من بعد موته ، وكان لا يثق فيهم لسوء سلوكهم .

والعاقر : العقيم الذى لا يلد ، وبطلق على الرجل والمرأة ، يقال : امرأة
عاقرة ، ورجل عاقرة .

أى : وإننى - يا إلهى - قد خفت ما يفعله أقاربى « من ورائى ، أى : من
بعد موتى ، من تضييع لأموال الدين ، ومن عدم القيام بحقه . وكانت امرأتى
عاقرا ، لأننى قط لا فى شبابها ولا فى غير شبابها ، « فهب لى ، يا إلهى » من
لدنك ، أى : من عندك « وليا ، أى : ولدا من صلبى ، هذا الولد يرثى ،
فى العلم والنبوة « ويرث ، أيضا ، من آل يعقوب ، ابن إسماعيل بن إبراهيم
العلم والنبوة والصفات الحميدة « واجعله ، يارب « رضىا ، أى : رضىا عندك
فى أقواله وأفعاله وسائر تصرفاته .

ففى هاتين الآيتين نرى ذكرىا يجتهد فى الدعاء بأن يرزقه الله الولد ، لamen
أجل شهوة دنيوية ، وإنما من أجل مصلحة الدين والخوف من تضييعه وتبدله

والحرص على من يرثه في علمه ونبوته، ويكون مرضيا عنده - عز وجل - .
قال الآلوسی ما ملخصه : وقوله «من ورائی» المراد به بعد موتی، والجار
والمرور متعلق بمحذوف ينساق إليه الذهن أى : خفت فعل الموالى من ورائی
أرجو الموالى ... وم عصبة الرجل ... وكانوا على سائر الأقوال شرار
بنی اسرائیل ، يخاف أن لا يحسنوا خلافته في أمته ، (١) .

وفي قوله «فهب لی من لدنك وليا» إعراف عميق بقدره الله - تعالى -
لأن مثل هذا العطاء لا يرجی إلا منه - عز وجل - ، بعد أن تقدمت بذكرها
الدين ، وبعد أن عهد من زوجه العقم وعدم الولادة .

وقد أشار - سبحانه - في آية أخرى إلى أنه أزال عنها العقم وأصلحها
للولادة فقال : «وذكریأ إذ نادى ربه لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين
فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه» (٢) ، أى : وجعلناها
صالحة للولادة بعد أن كانت عقيمة من حين شبابها إلى شيخها ..

والمراد بالوارثة في قوله «يرثني» وراثته العلم والنسب والصفات الحميدة
قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وقوله : «ولمى خفت الموالى من ورائی»
قرأ الا كثرون بنصب الياء من الموالى على أنه مفعول ، وعن الكسائي أنه
سكن الياء ..

ووجه خوفه أنه خشى أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفا سيئا .
فسأل الله ولدا يكون نبيا من بعده ليسوسهم بنبوته . . . لا أنه خشى من
ورائهم له ماله . فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدرا من أن يشفق على ماله إلى
هذا الحد ، وأن يأتف من وراثته عصيته له ، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز
ميراثه دونهم .

(١) تفسير الآلوسی - ١٦ ص ٦١

(٢) سورة الأنبياء الآيتان ٨٩ ، ٩٠ .

وقد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : (لا نورث ما تركنا صدقة) وفي رواية عند الترمذى بإسناد صحيح : (نحن معاشر الأنبياء لا نورث) .

وعلى هذا فتمين حمل قوله : فهب لى من لدنك وليا يرثى ، على ميراث النبوة ولهذا قال : ويرث من آل يعقوب ، كقوله : ويرث سليمان داود ، أى : فى النبوة ، إذ لو كان فى المال لما خصه من بين إخوته بذلك ، ولما كان فى الإخبار بذلك كبير فائدة ، إذ من المعلوم المستقر فى جميع الشرائع والمثل ، أن الولد يرث أباه ، فلو لا أنها ورائة خاصة لما أخبر بها ، وكل هذا يقرره ويثبتته ما صح فى الحديث : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة ، (١) .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : ومعنى يرثى ، أى : يرث علم ونبوة ، ودعوة إلى الله والقيام بدينه ، لا يرث مال ، ويدل لذلك أمران .

أحدهما قوله : ويرث من آل يعقوب ، ومعلوم أن آل يعقوب إنقرضوا من زمان ، فلا يرث عنهم إلا العلم والنبوة والدين .

والأمر الثانى ما جاء من الأدلة أن الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - لا يرث عنهم المال ، وإنما يرث عنهم العلم والدين ، فمن ذلك ما أخرجه الشيخان عن أبى بكر الصديق أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : لا نورث ما تركنا صدقة ، (٢) .

ثم بين القرآن الكريم أن الله - تعالى - قد أجاب بفضله وكرمه دعاء عبده زكريا . كما بين ما قاله زكريا عندما بشره ربه بسلام اسمه يحيى فقال - تعالى -

(١) راجع تفسير ابن كثير - ٣ ص ١١١

(٢) راجع تفسير أضواء البيان - ٤ ص ١٩٦ للشيخ الشنيطى - رحمه الله -

« يازكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سمياً (٧) قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً (٨) قال كذلك قال ربك هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ولم نك شيئاً (٩) قال رب اجعل لى آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً (١٠) فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وحشياً (١١) » .

قال القرطبي : قوله - تعالى - « يازكريا ، فى الكلام حذف ، أى : فاستجاب الله دعاءه فقال : « يازكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ... » فتضمنت هذه البشارة ثلاثة أشياء . أحدها : إجابة دعائه وهى كرامته . الثانى : إعطاؤه الولد وهو قوة . الثالث : أن يفرد بتسميته ... ، (١) .

وقد بين - سبحانه - فى آيات أخرى أن الذى بشر زكريا هو بعض الملائكة ، وأن ذلك كان وهو قائم يصلى فى المحراب ، قال - تعالى - : « وفنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ، أن الله يبشرك يحيى ، مصداقاً بكلمة من الله ، وسيدا وحصورا ونبياً من الصالحين » ، (٢) .

وقوله - سبحانه - : « اسمه يحيى ، يدل على أن هذه التسمية قد سماها الله - تعالى - ليحيى ، ولم بكل تسميته لزكريا أو لغيره ، وهذا لون من التشريف والتكريم .

وقوله - تعالى - : « لم نجعل له من قبل سمياً ، أى لم نجعل أحداً من قبل مشاركا له فى هذا الاسم ، بل هو أول من تسمى بهذا الاسم الجميل .

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٨٢ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٣٩ .

قال بعض العلماء : « قول من قال : إن معناه : لم نجعل له من قبل سميا ، أى : نظيرا يساويه في السمو والرفعة غير صواب ، لأنه ليس بأفضل من إبراهيم ونوح وموسى . فاقول الأول هو الصواب ، ومن قال به : ابن عباس ، وقتادة ، والسدى ، وابن أسلم وغيرهم ... » (١) .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك وما قاله زكريا بعد هذه البشارة السارة . فقال تعالى : « قال رب أنى يكون لى غلام ، وكانت امرأتى عاقرا . وقد بلغت من الكبر عتيا » .

فالجملـة الكريمة لإستئناف مبنى على سؤال تقديره : فإذا قال زكريا عندما بشره الله - تعالى - بيهي ؟

ولفظ « أنى » بمعنى : كيف ، أو بمعنى : من أين .

أى قال زكريا مخاطبا ربه بعد أن بشره بابنه يحيى : يارب كيف يكون لى غلام ، وحال امرأتى أنها كانت عاقرا فى شبابهـا وفى شيخوختها ، وحالى أنا أنى قد بلغت من الكبر عتيا ، أى : قد تقدمت فى السن تقدما كبيرا .

يقال : عنى الشيخ يعتو عتيا - بكسر العين وضمة - إذا بلغ النـمـاية فى الكبر .

قال ابن جرير ، قوله : « وقد بلغت من الكبر عتيا » ، يقول : وقد عتوت من الكبر فهضرت نحيل العظام يابسها ، يقال منه العود اليا بس : عات وعاس . وقد عتيا يعتو عتوا وعتيا ... وكل متناه فى كبر أو فساد أو كفر فهو عات ... » (٢) .

فإن قيل « ما المراد باستفهام زكريا - عليه السلام - مع علمه بقدرة الله - تعالى - على كل شيء ؟ »

فالجواب أن استفهامه إنما هو على سبيل الاستعلام والاستخبار ، لأنه

(١) تفسير أضواء البيان - ج ٤ ص ٢١٤

(٢) تفسير ابن جرير - ج ١٦ ص ٣٢ طبعة بولاق سنة ١٣٢٨ هـ

لم يكن يعلم أن الله - تعالى - سيرزقه بيجي عن طريق زوجته العاقر ، أو عن طريق الزواج بامرأة أخرى ، فاستفهم عن الحقيقة ليعرفها .

ويصح أن يكون المقصود بالاستفهام التعجب والسرور بهذا الأمر العجيب حيث رزقه الله الولد مع تقدم سنه وسن زوجته .

ويجوز أن يكون المقصود بالاستفهام الاستبعاد لما جرت به العادة من أن يأتي الغلام مع تقدم سنه وسن زوجته . وليس المقصود به استحالة ذلك على قدرة الله - تعالى - لأنه - سبحانه - لا يعجزه شيء .

ثم حكى - سبحانه - ما رد به على استفهام زكريا فقال : « قال كذلك قال ربك هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » .
وقوله : « كذلك ، خير لمبتدأ محذوف . أي : الأمر كذلك .

قال الألوسي : « وذلك إشارة إلى قول زكريا - عليه السلام - وجعله هو على هين ، مفعول وقال ، الثاني وجعله الأمر كذلك ، مع جملة « قال ربك ، الخ مفعول ، قال ، الأول ... » (١)

والمعنى : قال الله - تعالى - مجيبا على استفهام زكريا ، الأمر كما ذكرت يا زكريا من كون امرأتك عاقرا ، وأنت قد بلغت من الكبر عتيا ، وليكن ذلك لا يحول بيننا وبين تنفيذ إرادتنا في منحك هذا الغلام ، فإن قدرتنا لا يعجزها شيء ، ولا تخضع لما جرت به العادات .

وهذا الأمر وهو إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها هو على هين ، أي : يسير سهل .

ثم ذكر له - سبحانه - ما هو أعجب مما سأله فقال : « وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » .

أي : لا تعجب يا زكريا من أن يأتيك غلام وأنت وزوجك بتلك الحالة ،

فإني أنا الله الذى أوجدتك من العدم ، ومن أوجدك من العدم ، فهو قادر على أن يرزقك بهذا الغلام المذكور .

فآية الكريمة قد سافت بطريق منطقي برهاني ، ما يدل على كمال قدرة الله - تعالى - ، وما يزيد فى اطمئنان قلب زكريا - عليه السلام - .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما التمسه زكريا - عليه السلام - من خالقه فقال : « قال رب اجعل لى آية ... » .

أى : اجعل لى علامة استدل بها على وقوع ما بشرتنى به ، لأزداد سرورا واطمئنانا . ولأعرف الوقت الذى تحمل فيه امرأتى بهذا الغلام فأكثر من شكرك وذكرك .

فأجابه الله - تعالى - بقوله : « قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا » .

أى : قال - تعالى - لعبده زكريا : يا زكريا علامة وقوع ما بشرتك به ، أنك تجد نفسك عاجزا عن أن تكلم الناس بلسانك ، لمدة ثلاث ليال بأيامهن حال كونك سوى الخلق ، سليم الخواس ليس بك من خرس أو بكم ولا كنتك ممنوع من الكلام بأمرنا وقد رتنا على سبيل خرق العادة .

فقوله : « سويا » ، حال من فاعل « تكلم » وهو زكريا أى : حال كونك يا زكريا سوى الخلق ، سليم الجوارح ، لا علة تمنعك من ذلك سوى قدرتنا . ثم بين - سبحانه - ما كان من زكريا بعد ذلك فقال : « فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا » .

والمحراب : المصلى ، أو الغرفة التى كان يجلس فيها فى بيت المقدس ، أو هو المسجد ، فقد كانت مساجدهم تسمى المحاريب . لأنها الأماكن التى تحارب فيها الشياطين .

أى : فخرج زكريا - عليه السلام - على قومه من المكان الذى كان يصلى

فيه ، فأوحى إليهم ، أى : فأشار إليهم أو كتب لهم دون أن ينطق بلسانه
 « أن سبحوا ، الله - تعالى - وقدسوه ، بكرة ، أى : فى أوائل النهار ، وعشيا ،
 أى : فى أواخره .

وقد ذكر - سبحانه - فى آية أخرى ، ما يشير إلى أن هذا المحراب الذى
 خرج منه زكريا - عليه السلام - على قومه ، هو ذلك المكان الذى بشره الله
 - تعالى - فيه بيهي .

قال - تعالى - : « فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك
 بيهي ، مصداقا بكلمة من الله وسيدا وحضورا ونبيا من الصالحين ، (١) .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكمت لنا بأسلوبها البليغ جانباً من رحمة
 الله - تعالى - بعبده زكريا ، ومن الدعوات التى تضرع بها إلى خالقها
 - عز وجل - ، وأن الله - تعالى - قد أجاب له دعاؤه ، وبشره بيهي ، وعرفه
 بالعلامة التى بها يعرف وقوع ما بشره به ، زيادة فى اطمئنانه وسروره .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن يهي ، فبينت ما أمره الله
 - تعالى - به ، وما منحه من صفات فاضلة . فقال - تعالى - :

« يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا
 مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا
 عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ ، وَيَوْمَ يُبْعَثُ
 حَيًّا (١٥) » .

وقوله - سبحانه - : « يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ، مقول لقول محذوف ،
 والسر فى حذفه المسارعة إلى الإخبار بإنجاز الوعد الكريم .

والتقدير : وبعد أن ولد يهي ، ونما وترعرع قلنا له عن طريق وحيانا :
 يا يهي خذ الكتاب الذى هو التوراة بقوة ، أى : بجد واجتهاد ، وتفهم لمعناه

على الوجه الصحيح ، وتطبيق ما اشتمل عليه من أحكام وآداب ، فإن بركة العلم في العمل به .

والجار والمجرور ، بقوة ، حال من فاعل خذ وهو يحيى ، والباء للملابسة أى : خذه حالة كونك متلبا بحفظه وتنفيذه أحكامه بشدة وثبات .

وقوله : د وآتيناه الحكم صبيا ، أى : وأعطيناه بقدرتنا وفضلنا الحكم .
أى : فهم الكتاب والعمل بأحكامه ، وهو فى سن الصبا .

قيل : كان سنه ثلاث سنين ، وقال سبع سنين .

قال الألوسى : د أخرج أبو نعيم ، وابن مردويه ، والديلمى ، عن ابن عباس ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال فى ذلك : د أعطى الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين ، (١) .

وقال الجمل فى حاشيته : فإن قلت : كيف يصح حصول العقل والفطنة والنبوة حال الصبا ؟

قلت : لأن أصل النبوة مبني على خرق العادات . إذا ثبت هذا . فلا تمنع صيرورة الصبي نبيا . وقيل : أراد بالحكم فهم الكتاب فقرأ التوراة وهو صغير . . . (٢) .

والذى تظمن لإليه النفس وعليه جمهور المفسرين أن المراد بالحكم هنا : العلم النافع مع العمل به ، وذلك عن طريق حفظ التوراة وفهمها وتطبيق أحكامها .

قال ابن كثير : قوله : د وآتيناه الحكم صبيا ، أى : الفهم والعلم والجد والعزم ، والإقبال على الخير ، والإكباب عليه ، والاجتهاد فيه ، وهو صغير حدث .

قال عبد الله بن المبارك : قال معمر : قال الصبيان ليحيى بن زكريا :

(١) تفسير الألوسى ج ١٦ ص ٧٢

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ص ٥٤

أذهب بنا نلعب ، فقال : ما للعب خلقنا . قال : فلمذا أنزل الله : « وآتيناه الحكم صبيا » (١) .

وقوله - تعالى - : « وحنانا من لدنا وزكاة » وكان تقيا ، وهو طوف على الحكم .

أى : وأعطيناه الحكم صبيا ، وأعطيناه حنانا . . .

قال القرطبي ما ملخصه : الحنان : الشفقة والرحمة والمحبة ، وهو فعل من أفعال النفس . . .

وأصله : من حنان الناقة على ولدها . . . قال طرفة :

أبا منذر أفنيت فاستبق بمضنا حنانيك بدض الشراهن من بدض (٢)

والمعنى : منحنا ديجي ، الحكم صبيا ، ومنحناه من عندنا وحنانا رحمة عظيمة عليه ورحمة في قلبه جعلته يدهف على غيره ، وأعطيناه كذلك ذكاة ، أى : طهارة في النفس ، أبعدته عن ارتكاب ما نهى الله عنه ، وجعلته سباقا لفعل الخير ، وكان تقيا ، أى مطيعا لنا في كل ما تأمر به ، أو نهى عنه .

ثم أضاف - سبحانه - إلى تلك الصفات السكرمة ليحيى صفات أخرى فقال : « وبرأ بوالديه ، أى : وجعلناه كثير البر بوالديه ، والإحسان إليهما . « ولم يكن جبارا ، أى : مستكبرا متعاليا مغرورا ، عصيا ، أى : ولم يكن ذا معصية ومخالفة لأمر ربه .

ثم ختم - سبحانه - هذه الصفات ببيان العاقبة الحسنة التي ادخرها ليحيى - عليه السلام - فقال : « وسلام عليه يوم ولد ، أى : وتحيية وأمان له منا يوم ولادته ، ويوم يموت ، ويفارق هذه الدنيا ، ويوم يبعث حيا ، للحساب يوم القيامة .

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١١٣

(٢) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٨٧

وخص - سبحانه - هذه الاوقات الثلاثة بالذكر، لأنها أحوج إلى الرعاية من غيرها .

قال سفيان بن عيينة : أوحش ما يكرن المرء في ثلاثة مواطن : يوم يولد فيرى نفسه خارجا عما كان فيه . ويوم يموت فيرى قوما لم يكن عاينهم . ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم .

وبعد هذا الحديث عن جانب من قصة زكريا ويحيى - عليهما السلام - ، انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن قصة أخرى أعجب من قصة ميلاد يحيى ، ألا هي قصة مريم وميلادها لأنها - عليه السلام - فقال - تعالى - :

« واذكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) » .

قال ابن كثير : لما ذكر - تعالى - قصة زكريا - عليه السلام - وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولدا زكيا طاهرا مباركا ، عطفت بذلك قصة مريم ، في إيجادها ولدها عيسى - عليه السلام - منها من غير أب .

وهي مريم ابنة عمران - من سلالة داود - عليه السلام - وكانت من بيت طاهر في بني إسرائيل ... ونشأت نشأة عظيمة ، فكانت إحدى العابدات الناصحات ...

وكانت في كفالة زوج أختها زكريا - عليه السلام - ورأى لها من

السكرامات الهائلة ما بهره ...،^(١).

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - في الكتاب ، أى في هذه السورة الكريمة ، أو في القرآن الكريم ، خبر مريم وقصتها ، إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ، أى : وقد أن فتحت عنهم واعتزلتهم في مكان بلى الناحية الشرقية من بيت المقدس ، أو من بيتها الذى كانت تسكنه .

وفى التعبير بقوله - تعالى - : إذ انتبذت من أهلها ، إشارة إلى شدة عزلتها عن أهلها إذ النبذ معناه : الطرح والرمى ، فيكأنها 'لقت بنفسها فى هذا المكان لتتخلى للعبادة والطاعة ، والتقرب إلى الله - تعالى - بصالح الأعمال .

قال القرطبي : وواختلف الناس لم انتبذت ، فقال السدى : انتبذت لتطهر من حيض أو نفاس . وقال غيره : لتعبد الله ، وهذا حسن . وذلك أن مريم كانت وقفا على سداثة المعبود وخدمته والعبادة فيه ، فتفتحت من الناس لذلك ، ودخلت فى المسجد إلى جانب المحراب فى شرقه لتخلو للعبادة ..

فقوله : مكاناً شرقياً ، أى : مكاناً من جانب الشرق . والشرق - يسكون الراء - المكان الذى تشرق فيه الشمس . والشرق - بفتح الراء - الشمس . وإنما خص المكان بالشرق ، لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق ، حيث تطلع الأنوار ...،^(٢)

وقوله : : فاتخذت من دونهم حجاباً ، تأكيد لانتبازها من أهلها ، واعتزالها إياهم .

أى : اذكر وقت أن اعتزلت أهلها ، فى مكان بلى شرق بيت المقدس ، فاتخذت بينها وبينهم حجاباً وساتراً لتتفرغ لعبادة ربها .

ثم بين - سبحانه - ما أكرمها به فى حال خلوتها فقال : : فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً .

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١١٤ .

(٢) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٩٠ .

أى : فأرسلنا إليها روحنا وهو جبريل - عليه السلام - ففتش به لها في صورة بشر سوى معتدل الهيئة ، كامل البنية ، كأحسن ما يكون الإنسان .

يقال : رجل سوى ، إذا كان تام الخاتمة عظيم الخلق ، لا يعيبه في شأن من شأنه إفراط أو تفريط .

والإضافة في قوله « روحنا » للشريف والتكريم . وسى جبريل - عليه السلام - روحا لمشابهة الروح الحقيقية في أن كلا منهما مادة الحياة للبشر . لجبريل من حيث ما يحمل من الرسالة الإلهية تحيا به القلوب ، والروح تحيا به الأجسام .

ولمّا تمثل لها جبريل - عليه السلام - في صورة بشر سوى . لتستأنس بكلامه ، وتلقى منه ما يلقى لإيها من كلماته ، ولو بدا لها في صورته التي خلقه الله - تعالى - عليها ، لنفرت منه ، ولم تستطع مكالمته .

وقوله : « بشرأ سويا » ، حال من ضمير الفاعل في قوله « فتمثل لها » .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما دار بين مريم وبين جبريل من حوار ونقاش فقال : « قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا » .

أى : قالت لجبريل - عليه السلام - الذى تمثل لها في صورة بشر سوى : إني أعوذ وألتجئ إلى الرحمن منك ، إن كنت ممن يتقى الله ويخشاه .

وخصت الرحمن بالذكر . لتثير مشاعر التقوى في نفسه ، إذ من شأن الإنسان التقى أن يبتغى وجده عند ذكر الرحمن ، وأن يرجع عن كل سوء يحظر بباله .

وجواب هذا الشرط محذوف ، أى : إن كنت تقيا ، فابتعد عني ، واتركنى في خلوتى لا تفرغ لعبادة الله - تعالى - .

وبهذا القول الذى حكاه القرآن عن مريم ، تكون قد جمعت بين الاعتصام

بربها . وبين تخويف من مخاطبه وترهيبه من عذاب الله . إن سولات له نفسه لإرادتها بسوء . كما أن قولها هذا ، يدل على أنها قد بلغت أسمى درجات العفة والطهر والبعد عن الريبة ، فهي تقول له هذا القول ، وهي تراه بشرا سوياً ، وفي مكان بمنزل عن الناس . . .

وهنا يجيبها جبريل - كما حكى القرآن عنه - بقوله : **دَقَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا** .

أى : قال لها جبريل ليدخل السكون والاطمئنان على قلبها : **إِنَّمَا أَنَا بَارِكُ مِمْ رَسُولُ رَبِّكِ الَّذِي اسْتَمَعْتُ بِهِ . وَالتَّجَاتُ إِلَيْهِ ، فَلَا تَخَافِي وَلَا تَجْزَعِي وَقَدْ أَرْسَلْنِي - مِمْجَانِهِ - إِلَيْكَ ، لِأَهَبَ لَكِ بِإِذْنِهِ وَقُدْرَتِهِ غُلَامًا زَكِيًّا ، أَيْ : وَلَدًا طَاهِرًا مِنْ الذَّنُوبِ وَالْمَعَاصِي ، كَثِيرَ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَاتِ .**

ونسب الهبة لنفسه ، ليكون سبباً فيها . **وَقَرَأَ نَافِعٌ وَأَبُو عَمْرٍو : دَلِيْبُ لَكِ ، بِالْيَاءِ الْمَفْتُوحَةِ بَعْدَ اللَّامِ أَيْ : لِيَهَبَ لَكِ رَبُّكِ غُلَامًا زَكِيًّا .**

وهنا تزداد حيرة مريم ، ويشهد عجبها فتقول : **دَأْنِي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ، وَلَمْ أَكْ بِغَيَا .**

أى : قالت على سبيل التعجب عما سمعته . كيف يكون لي غلام ، والحال أني لم يمسنى بشر من الرجال عن طريق الزواج الذي أحله الله - تعالى - . ولم أك في يوم من الأيام بغيا ، أى فاجرة تبغى الرجال . أو يبعونها للزنى بها . يقال : **بَغَتْ الْمَرْأَةُ تَبْغِي إِذَا فَجَّرَتْ وَتَجَاوَزَتْ حُدُودَ أَشْرَفِ وَالْعِفَافِ .**

قال صاحب الكشاف : **دَجَمَلُ الْمَرْءِ عِبَارَةٌ عَنِ النِّسْكَاحِ الْحَلَالِ ، لِأَنَّهُ كُنْيَاةٌ عَنْهُ . كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - دَمِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ ، وَالزَّوْنَا لَيْسَ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يُقَالُ فِيهِ : فَجَّرَ بِهَا وَخَبَثَ بِهَا وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، وَلَيْسَ بِقَمَرٍ أَنْ تَرَاعَى فِيهِ الْكُنْيَايَاتُ وَالْأَدَابُ . وَالتَّبْغِي : الْفَاجِرَةُ الَّتِي تَبْغِي الرِّجَالَ . . . (١) د**

وعلى هذا الرأي الذي ذهب إليه صاحب الكشاف ، يكون ما حكاه القرآن عن مريم من قولها : **دَأْنِي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ . . .** المقصود به النكاح الحلال .

ويرى آخرون أن المقصود به ما يشمل الحلال والحرام، أى: ولم يمسنى بشر كائناً من كان لا بشكاح ولا بزنى، ويكون قوله: «ولم أك بغياً» من باب التخصيص بعد التعميم، وبؤيد هذا الرأى قوله - تعالى - «قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسنى بشر»، قال كذلك الله يخلق ما يشاء. إذ اقضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون» (١).

وبؤيده أيضاً أن لفظ «بشر» نكرة فى سياق النفي فيعم كل بشر سواء أكان زوجاً أم غير زوج.

قال القرطبى: قوله: «ولم أك بغياً» أى: زانية. وذكرت هذا تأكيداً، لأن قولها «ولم يمسنى بشر» يشمل الحلال والحرام... (٢).

وقال الجمل فى حاشيته ماملاً خصه: «ولما تعجبت مما بشرها به جبريل لأنها عرفت بالعادة أن الولادة لا تكون إلا بعد الاتصال برجل... فليس فى قولها هذا دلالة على أنها لم تعلم أنه - تعالى - قادر على خلق الولد ابتداءً. وكيف قد عرفت أن أبا البشر قد خلقه الله - تعالى - من غير أب أو أم...» (٣).

وقوله - تعالى - «قال كذلك قال ربك هو على هين...» رد من جبريل عليها.

أى: قال الأمر كذلك أى: كما ذكرت من أن بشراً لم يمسه ومن أنك لم تكونى فى يوم من الأيام بغياً. أو الأمر كذلك من أنى أرسلوك لذهب لك غلاماً زكياً من غير أن يكون له أب.

وقوله «قال ربك هو على هين» بيان لمظهر من مظاهر قدرة الله - تعالى - التى لا يعجزها شئ، أى: قال ربك هو أى: خلق ولدك من غير أب «على هين» أى: سهل يسير لأن قدرتنا لا يعجزها شئ.

(١) سورة آل عمران الآية ٤٧.

(٢) تفسير القرطبى ج ١١ ص ٩١.

(٣) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٦.

وقوله - سبحانه - : « ولنجعل آية للناس ، تعليل لمعلل محذوف ، أى : ولنجعل وجود الغلام منك من غير أن يمسك بشر ، آية ، عظيمة ، وأمرنا عجايبا ، يدل دلالة واضحة على قدرتنا ، أمام الناس جميعا ، فإن قدرتنا لا يعجزها ذلك ، كما لا يعجزها أن توجد بشرا من غير أب وأم كما فعلنا مع آدم ، أو من غير أم كما فعلنا مع حواء ، أو من أب وأم كما فعلنا مع سائر البشر .

وقوله : « ورحمة منا ، معطوف على ما قبله ، أى : ولنجعل هذا الغلام الذى وهبناه لك من غير أب رحمة عظيمة منا لمن آمن به ، واتبع دعوته . وكان وجود هذا الغلام منك على هذه الكيفية « أمرا مقضيا ، أى : مقدرا فى الأزل مسطورا فى اللوح المحفوظ ، ولا بد من وقوعه بدون تغيير أو تبديل .

وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة ، قد حكمت لنا جانبنا من حالة مريم ومن الحوار الذى جرى بينها وبين جبريل - عليه السلام - الذى تمثل لها فى صورة بشر سوى .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن مشهد آخر من مشاهد تلك القصة العجيبة ، حكمت فيه حالتها عند حملها بعيسى ، وعندما جاءها الخاض . فقال - تعالى - :

« خَمَلَتْهُ قَانِبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مُنْسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَنْ لَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهَزَى إِلَيْكِ يَجْذَعُ النَّخْلَةِ نُسَاقُطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقرْئى هِينَا ، فَإِذَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦) » .

قال ابن كثير رحمه الله - يقول - تعالى - مخبرا عن مريم ، أنها لما قال لها جبريل عن الله - تعالى - ما قال : أنها استسلمت لقضائه - تعالى - ، فذكر غير واحد من علماء السلف ، أن الملك وهو جبريل - عليه السلام - عند ذلك نفخ في جيب درعها ، فزادت النفخة حتى ولجت في الفرج ، فحملت بالولد ياذن الله - تعالى - . . .

والمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر . قال عكرمة : ثمانية أشهر . . وعن ابن عباس أنه قال : لم يكن إلا أن حملت فوضعت . وهذا غريب ، وكأنه مأخوذ من ظاهر قوله - تعالى - : وحملته فانتبذت به مكاء قصيا فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة . فاللقاء وإن كانت للتعقيب لكن تعقيب كل شيء بحسبه . فالمشهور الظاهر - والله على كل شيء قدير - أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن . . . (١) .

والقاء في قوله - تعالى - : وحملته . . هي الفصيحة ؛ أي : وبعد أن قال جبريل لمريم : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا . . نفخ فيها حملته ، أي : عيسى ، فانتبذت به ، أي : فتنحلت به وهو في بطنها مكاءا قصيا ، أي : إلى مكان بعيد عن المكان الذي يسكنه أهلها .

يقال : قصي فلان عن فلان قص - وأقص - وا . إذا بعد عنه . ويقال : فلان بمكان قصي ، أي : بعيد .

وجهور العلماء على أن هذا المكان القصي ، كان بيت لحم بفلسطين . قال ابن عباس : أقصى الوادي ، وهو وادي بيت لحم ، فرارا من قومها أن يعيروها بولادتها من غير زوج ، (٢) .

ثم حكى - سبحانه - ما اعتراها من حزن عندما أحست بقرب الولادة فقال : فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ،

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١١٦

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٧

وقوله : « فاجاءها ، أى : فالجأها ، يقال : أجاأته إلى كذا ، بمعنى : ألاجأته واضطررته إليه . ويقال : جاء فلان ، وأجاءه غيره ، إذا حمّله على المجيء ، ومنه قول الشاعر :

وجار سار معتمدا علينا أجاأته الخفاة والرجاء

قال صاحب الكشف : « أجاأ : منقول من جاء ، إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء . ألا تراك تقول : جئت المسكان وأجاءني زيد ، كما تقول : بلغته وأبلغنيته ... » (١) .

والمخاض : وجع الولادة . يقال : مخضت المرأة - بكسر الخاء - تمخضت - بفتحها - إذا دنا وقت ولادتها مأخوذ من المخض ، وهو الحركة الشديدة . وسمى بذلك لشدة نحر الجنين في بطن الأم عند قرب خروجه . وجذع النخلة : ساقها الذى تقوم عليه .

أى : وبعد أن حملت مريم بعيسى ، وابتعدت به وهو محمول في بطنها عن قومها ، وحان وقت ولادتها ، ألاجأها المخاض إلى جذع النخلة لتتكى عليه عند الولادة ...

فاعتراها في تلك الساعة ما اعترأها من هم وحزن وقالت : « يا ليتنى مت قبل هذا . الخلل والمخاض الذى حل بى » وكانت نسياً منسياً ، أى : وكانت شيئاً منسياً متروكاً ، لا يهتم به أحد ، وكل شيء نسي وترك ولم يطلب فهو نسي .

قال : القرطبي : « والنسى في كلام العرب : الشيء الحقير الذى من شأنه أن ينسى ولا يتألم لفقدته ، كالوقد ، والخبيل للمسافر .. وقرئ : « نسياً ، بفتح النون وهما لغتان مثل : الوتر والوتر ... » (٢) .

(١) تفسير للكتاب ٣ ص ١١ .

(٢) تفسير القرطبي ١١ ص ٩٢ .

قال الالوسي ما ملخصه : وإنما قالت ذلك مع أنها كانت تعلم ما جرى بينهما وبين جبريل من الوعد الكريم استحياء من الناس ، وخوفاً من لا تمتهم ، أو حذراً من وقوع الناس في المعصية بسبب كلامهم في شأنها .

ونعم الموت لمنزل ذلك لا كراهية فيه - لأنه لا يتعلق بأمر ديني - نعم يكره أن يتمنى الممتر الموت لأمر دنيوي كمرض أو فقر .. ففي صحيح مسلم ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا يتمنين أحدكم الموت لضرر نزل به ، فإن كان لا بد متمنياً فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي » ،

ومن ظن أن تمنى الموت كان لشدة الوجع فقد أساء الظن (١) .

ثم ذكر - سبحانه - جانباً من إكرامه لمريم في تلك الساعات العصيبة من حياتها فقال : « فناداها من تحتها أن لا تحزني . قد جعل ربك تحتك سريباً . وهدي إليك بحزع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ، فاكلي واشربي وقرى عيناً . . . » .

والذي ناداها يرى بعضهم أنه جبريل - عليه السلام - . وقوله « من تحتها » فيه قراءة ثان سببيتان : إحداهما : بكسر الميم في لفظ « من » ، على أنه حرف جر ، وخفض ناء « تحتها » ، على أنه مجرور بحرف الجر والفاعل محذوف . أي : فناداها جبريل من مكان تحتها ، أي : أسفل منها ،

والثانية : بفتح الميم في لفظ « من » ، على أنه إسم وصول ، فاهل نادى وبفتح التاء في « تحتها » ، على الظرفية - أي : فناداها الذي هو تحتها ، وهو جبريل - عليه السلام - .

قال القرطبي : قوله - تعالى - « فناداها من تحتها » .

قال ابن عباس : المراد بمن تحتها جبريل ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به

قومها ... ففي هذا لها آية وأماراة أن هذا من الأمور الخالقة للعادة ، التي لله - تعالى - فيها مراد عظيم ،^(١) .

ويرى بعض المفسرين أن المنادى هو عيسى - عليه السلام - فيكون المعنى : فناداها لابنها عيسى الذي كان عندما وضعته موجودا تحتها .

وقد رجح الإمام ابن جرير هذا الرأي فقال : « وأولى الأقوال في ذلك عندنا قول من قال : الذي ناداها لابنها عيسى ، وذلك أنه من كناية - أي ضمير ذكره أقرب منه من ذكر جبريل ، فردّه على الذي هو أقرب إليه - من رده على الذي هو أبعد إليه ، ألا ترى أنه في سياق قوله - تعالى - : « فحملته فانتبذته به مكانا قصيا » ، ثم قيل : فناداها نسقا على ذلك ، ولعلنا أخرى وهي قوله : « فأشارت إليه » ، ولم تشر إليه - إن شاء الله - إلا وقد علمت أنه ناطق في حاله تلك ... »^(٢)

ويبدو لنا أن مذهب إليه ابن جرير من كون الذي نادى مريم هو لابنها عيسى ، أقرب إلى الصواب ، لأن هذا النداء منه لها في تلك الساعة ، فيه ما فيه من إدخال الطمأنينة والسكينة على قلبها .

أي : فناداها لابنها عيسى الذي كان أسفل منها عندما وضعته ، مطمئنا لبأها بعد أن قالت : يا ليتني مت قبل هذا الذي حدث لي ناداها بقوله « أن لا تحزني ، يا أماء » قد جعل ربك تحتك مرياً ، أي جدولا صغيراً من الماء ، لتأخذني منه ما أنت في حاجة إليه . وسمى النهر الصغير من الماء مرياً ، لأن الماء يسرى فيه .

وقيل : المراد بالسرى : عيسى - عليه السلام - مأخوذ من السرو بمعنى الرفعة والشرف .

(١) تفسير القرطبي - ١١ ص ٩٢

(٢) تفسير ابن جرير - ١٦ ص ٥٢

يقال : سرو الرجل يسرو - كشرف بشرف - فهو سرى ، إذا علا قدره وعظم أمره . ومنه قول الشاعر :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهاهم سادوا

أى : قد جعل ربك تحتك يا مريم إنسانا رفيع القدر ، وهو إبنك عيسى والجملة السكرية تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهى بقوله : « أن لا نحزنى » قال بعض العلماء ما ملخصه : وأظهر القولين عندى أن السرى فى الآية النهر الصغير لأمرين :

أحدهما : القرينة من القرآن ، لأن قوله بعد ذلك « فكلنى واشربى » قرينة على أن ذلك المأكول والمشروب هو ما تقدم الامتنان به فى قوله : « قد جعل ربك تحتك سرىا » .

الثانى : ما جاء عن ابن عمر من أنه سمع النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إن السرى الذى قال الله لمريم : « قد جعل ربك تحتها سرىا » نهر أخرجه الله لها لتشرب منه . . . »

فهذا الحديث - وإن كانت طرقة لا يحلو شئ منها من ضعف - أقرب إلى الصواب من دعوى أن السرى عيسى بغير دليل يجب الرجوع إليه ، (١) .

وقوله - سبحانه - : « وهزى إليك بجذع النخلة » . « مطوف على ما قاله عيسى لأمه مريم . والباء فى قوله « بجذع » مزيدة للتوكيد ، لأن فعل الهزى يتعدى بنفسه .

أى : وحركى نحوك أو جهة اليمين أو الشمال جذع النخلة ، تساقط عليك « رطباً » وهو ما فضج واستوى من التمر « جنياً » أى : صالحاً للأخذ والاجتماع « فكلنى » من ذلك الرطب « واشربى » من ذلك السرى ، « وقرى عينا » أى : طمئني نفساً بوجودى تحتك ، وأطردى عنك الأحزان .

(١) تفسير أضواء البيان للشيخ الشقيطى - رحمه الله - - ص ٢٤٨

يقال : قرت عين فلان ، إذا رأت ما كانت متشوقة إلى رؤيته ، مأخوذ من القرار بمعنى الاستقرار والسكون ، لأن العين إذا رأت ما تحبّه سكنت إليه ، ولم تنظر إلى غيره .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية السكينة ، أن مباشرة الأسباب في طلب الرزق أمر واجب وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله ، لأن المزمع يتعاطى الأسباب امتثالاً لأمر ربه مع علمه وبقيته أنه لا يقع في ملكه سبحانه - إلا لا ما يشاؤه ويريده .

وهنا قد أمر الله - تعالى - مريم - على لسان مولودها - بأن تهز النخلة ليتساقط لها الرطب ، مع قدرته - سبحانه - على إزوال الرطب إليها من غير هز أو تحريك ، ورحم الله القائل :

ألم تر أن الله قال لمريم وهزي إليك الجذع يساقط الرطب ولو شاء أن تجنيه من غير هزه جنته ، ولكن كل شيء له سبب

كما أخذوا منها أن خير ما تأكله المرأة بعد ولادتها الرطب ، قالوا : لأنه لو كان شيء أحسن للنساء من الرطب لأطعمه الله - تعالى - لمريم .

وقوله - سبحانه - : «فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا ، حكاية منه - تعالى - لبقيّة كلام عيسى لأمه .

ولفظ «إما» مركب من «إن» الشرطية ، و«ما» المزيدة لتوكيد الشرط . «ترين» هل الشرط ، وجوابه «فقولي» ، وبين هذا الجواب وشرطه كلام محذوف يرشد إليه السياق .

والمعنى : أن عيسى - عليه السلام - قال لأمه : لا تخزني يا أماه بسبب وجودي بدون أب ، وقرى عينا ، وطبى نفسا لذلك ؛ «فإما ترين من البشر أحدا كائنا من كان فسالك عن أمري وشأني فقولي له «إني نذرت للرحمن

صوما ، أى: صممتا عن الكلام ، فلن أكلم اليوم لإنسيا ، لا فى شأن هذا المولود ولا فى شأن غيره ، وإنما سأترك الكلام لأبنى ليشرح لكم حقيقة أمره .

قالوا : «لما منعت من الكلام لأميرين : أحدهما : أن يكون عيسى هو المتكلم عنها ليكون أقوى لحجتها فى إزالة التهمة عنها ، وفى هذا دلالة على تفويض الكلام إلى الأفضل .

والثانى : دكرامة مجادلة السفهاء ، وفيه أن السكوت عن السفيه واجب ، ومن أذل الناس سفيه لم يجد مساقفا ، (١) .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حكمت لنا بأسلوبها البليغ الحكيم ما فعلته مريم عندما شعرت بالخل ، وماقالته عندما أحست بقرب الولادة ، وماقاله لها مولودها عيسى من كلام جميل طيب ، لإدخال الطمأنينة على قلبها . ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن مشهد آخر من مشاهد تلك القصة العجيبة ، مشهد مريم عندما جاءت بوليدها إلى قومها ، وماقالوه لها ، وماقاله وليدها لهم ...

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك فيقول :

« فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧)
يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨)
فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُسَكِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِى عَبْدُ اللَّهِ آتَانِى الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَمَا
كُنْتُ وَأَوْصَانِى بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِى
وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمِ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ
وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) » .

وقوله - سبحانه - : « فأتت به قومًا تحمله . . . » معطوف على كلام محذوف يفهم من سياق القصة .

والتقدير : وبعد أن استمعت مريم إلى ما قاله لها ابنها عيسى - عليه السلام - اطمانت نفسها ، وقرت عينها ، فأتت به أى بولودها عيسى إلى قومها . وهى تحمله معها من المكان القصى الذى اعتزلت فيه قومها .

قال الألوسى : « أى : جاءتهم مع ولدها حاملة لإياه ، على أن الباء المصاحبة . وجملة « تحمله » فى موضع الحال من ضمير مريم . . . وكان هذا الحى . على ما أخرج سعيد بن منصور ، وابن عساكر عن ابن عباس بعد أربعين يوما حين طهرت من نفاسها . . . »

وظاهر الآية والأخبار « أنها جاءتهم به من غير طلب منهم . . . » (١) . ثم حكى - سبحانه - ما قاله قومها عندما رأوها ومعها وليدها فقال : « قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا ، . »

أى : قالوا لها على سبيل الإنكار : يا مريم لقد جئت أى فعلت شيئا منكرا عجيبا فى بابها ، حيث أتيت بولد من غير زوج نعرفه لك .

والفرى : مأخوذ من فريت الجلد إذا قطعته ، أى : شيئا قاطعا وخارقا للعادة ، ومرادم : أنها أتت بولدها عن طريق غير شرعى ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتان عظيم ، . »

ويدل على أن مرادم هذا ، قولهم بعد ذلك : « يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء ، . »

أى : ما كان أبوك رجلا زانيا أو هروفا بالفحش ، وما كانت أمك بغيًا ، أى : تتعاطى الزنا . يقال : بنت المرأة ، إذا جرت وابتعدت عن طريق الطهر والعفاف .

وليس المراد بهارون : هارون بن عمران أخا موسى ، وإنما المراد به رجل من قومها معروف بالصلاح والتقوى ، فشبهت به ، أى : يا أخت هارون في الصلاح والتقوى .

أو المراد به أخ لها كان يسمى بهذا الاسم .

قال الآلوسى ما ملخصه : « وقوله : يا أخت هارون .. ، يستثنى التجديد التعبير ، وتأكيده التوبيخ . وليس المراد بهارون أخا موسى بن عمران - عليهما السلام - لما أخرج أحمد ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، والطبرانى ، وابن حبان ، وغيرهم عن المغيرة بن شعبه قال : بعثنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أهل نجران فقالوا : أرأيت ما نقرهون : « يا أخت هارون ، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا . قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم ، ... »

وعن قتادة قال : « هو رجل صالح في بني إسرائيل . والأخت على هذا بمعنى المشابهة ، وشبهوها به تهكما ، أو لما رأوا قبل من صلاحها ... » (١) وعلى أية حال فإن مرادهم بقولهم هذا ، هو اتهام مريم بما هي بريئة منه ، والتعجب من حالها ، حيث انحدرت من أصول صالحة طاهرة ، ومع ذلك لم تنهج نهجهم .

وهنا نجد مريم تبدأ في الدفاع عن نفسها ، عن طريق وليدها ، فأشارت إليه . .

أى : فأشارت إلى ابنها عيسى ، ولسان حالها يقول لهم : وجهوا كلامكم إليه فإنه سيخبركم بحقيقة الأمر .

ولسكنهم لم يقتنعوا بإشارتها بل قالوا لها : « كيف نكلم من كان في المهد صديا . »

والمهد : اسم للمضطجع الذى يهبأ للصبي فى رضاعه . وهو فى الأصل مصدر مهده يمهده إذا بسطه وسواه .

أى : كيف نسلكم طفلاً صغيراً ما زال فى مهده وفى حال رضاعه .
والفعل الماضى وهو « كان » ههنا . بمعنى الفعل المضارع المقترن بالحال . كما يدل عليه سياق القصة .

ولكن عيسى - عليه السلام - أنطقه الله - تعالى - بما يدل على صدق مرهم وطهارتها فقال : « قال لى عبد الله ... ، أى : قال عيسى فى رده على المنكرين على أمه لإتيانها به : لى عبد الله ، خلقنى بقدرته ، فأنا عبده وأنتم - أيضاً - عبيده ، وهذا الخالق العظيم « آتانى الكتاب ، أى : سبق فى قضائه لإيتائى الكتاب أى : الإنجيل أو التوراة ، أو مجموعهما .

وعبر فى هذه الجملة وفيما بعدها بالفعل الماضى عما سيقع فى المستقبل ، تنزيلاً لتحقيق الوقوع منزلة الوقوع الفعلى .

وهذا التعبير لى نظائر كثيرة فى القرآن الكريم ، منها قوله - تعالى - :
« أتى أمر الله فلا تستهجلوه » .

وقوله - سبحانه - « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله . ثم نفخ فيه أخرى . فإذا هم قيام ينظرون » .

وقوله : « وجعلنى نبياً ، أى : أأدعو الناس إلى عبادته وحدده وجعلنى ، أيضاً بجانب نبوتى « مباركا ، أى : كثير الخير والبركة « أينما كنت ، أى : حينما حللت جعانى مباركا ، فأينما شرطية وجوابها محذوف لدلالة ما قبله عليه .

« وأوصانى بالصلاة والزكاة ، أى : بالمحافظة على أدائهما ما دمت حياً ، فى هذه الدنيا ؛

وقوله : « وبرأ بوالدتى » ، أى : وجعلنى كذلك مطيعاً والدتى ، وبارأها ،

ويعلمنا إليها ، ولم يجعلني ، سبحانه - فضلا منه وكرما ، جبارا شقيا ، أي :
ولم يجعلني مغرورا متكبرا مرتكبيا للمعاصي والموبقات .

و السلام ، والأمان منه - تعالى - . على يوم ولدت ويوم أموت ، مفارقا
هذه الدنيا ، ويوم أبعث حيا ، للحساب والجزاء يوم القيامة .

فأنت ترى أن عيسى - عليه السلام - قد وصف نفسه بمجموعة من الصفات
الفاضلة ، افترضها بصفة العبودية لله رب العالمين ، لإرشاد الناس إلى تلك الحقيقة
التي لاحق سواها ، ولتحذير أعدائه من وصفه بأنه هو الله ، أو هو ابن الله ،
أو هو مشارك له في العبادة . . .

واختتمها برجاء الأمان له من الله - تعالى - في كل أطوار حياته .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ببيان وجه الحق فيها ، وأندركم الذين وصفوا
عيسى وأمه بما بريئان منه بسوء المصير . فقال - تعالى - :

« ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤)
مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ ، إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ
كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ
مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا ، لَكِنِ
الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٨) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ
الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ
عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠) » .

واسم الإشارة ذلك ، في قوله : « ذلك عيسى ابن مريم » ، إشارة إلى
ما ذكره الله - تعالى - قبل ذلك لعيسى من صفات حميدة ، ومن أخبار صادقة
وهو مبتدأ ، وعيسى خبره ، وابن مريم صفته .

ولفظ: د قول، فيه قراءتان سبعيتان: إحداهما قراءة الجمهور بضم اللام،
والثانية قراءة ابن عاصم وعاصم، بفتحهما.

وعلى القراءة بالرفع يكون د قول الحق، خبر مبتدأ محذوف، فيكون
المعنى: ذلك الذى أخبرك عنه بشأن عيسى وأمه هو الحق - عز وجل -
وهو قول لا يحوم حوله باطل، ولا يخالفه ريب أو شك. فلفظ: الحق،
يصح أن يراد به الله - سبحانه - لأنه من أسمائه، ويصح أن يراد به ما هو
ضد الباطل، وهو الصدق والثبوت.

وعلى قراءة النصب يكون لفظ د قول، مصدراً مؤكداً لمضمون الجملة.
أى: ذلك الذى قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - من شأن عيسى ابن
مريم، هو القول الثابت الصادق، الذى أقول فيه قول الحق.

والإضافة من باب إضافة الموصوف إلى صفته أى: القول الحق. كقوله
- تعالى - د وعد الصدق، أى: الوعد الصادق.

وقوله: د الذى فيه يمترون، بيان لموقف الكافرين من هذا القول الحق
الذى ذكره الله - تعالى - عن عيسى وأمه. ود الذى، هو صفة للقول، أول للحق،
ود يمترون، يشكون من المرية بمعنى الشك والجدل....

أى: ذلك الذى ذكرناه لك من خبر عيسى هو القول الحق، الذى شك
فى صدقه الكافرون، وتنازع فيه الضالون، فلا تلتفت إلى شكهم وكفرهم
بل ذرم فى طغيانهم يعمهون.

ثم نزه - سبحانه - ذاته عن أن يكون له ولد فقال: د ما كان لله أن يتخذ
من ولد سبحانه... أى: ما يصح وما يستقيم وما يتصور فى حقه - تعالى -
أن يتخذ ولداً، لأنه منزّه عن ذلك، لأن الولد إنما يتخذه الفانون للامتداد،
ويتخذه الضعفاء للنصرة، والله - تعالى - هو الباقي بقاء أبدياً، وهو القوى
القادر الذى لا يعجزه شيء.

و ، من ، في قوله ، من ولد ، لتأكيد هذا النفي وتعميمه .

وفي معنى هذه الآية جاءت آيات كثيرة منها قوله - تعالى - في هذه السورة :
 « وقالوا انخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً لداً . تكاد السموات يتفطرون
 منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي
 للرحمن أن يتخذ ولداً . »

ثم بين - سبحانه - ما يدل على غناه عن الولد والوالد والصاحب والشريك
 فقال : « إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، أى : لا يتصور في حقه
 - سبحانه - إتخاذ الولد ، لأنه إذا أراد قضاء أمر ، فإنما يقول له كن فيكون
 في الحال ، بدون تأخير أو تردد . »

وقوله - تعالى - « وإن الله ربى وربكم فاعبدوه . . . » قرأه ابن عامر
 والكوفيون بكسر همزة « إن » على الاستثنائية . أى : وإن عيسى - عليه
 السلام - قد قال لقومه - أيضاً - « وإن الله - تعالى - هو ربى وهو ربكم فأخلصوا له
 العبادة والطاعة ، وهذا الذى أمرتكم به هو الصراط المستقيم الذى لا يضل
 سالكه . »

وقرأ الباقون بفتح همزة « أن » ، بتقدير حذف حرف الجر أى : وقال
 عيسى لقومه : « ولأن الله ربى وربكم فاعبدوه . . . » كما في قوله - تعالى - :
 « وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً ، أى : ولأن المساجد لله . . . »

ثم بين - سبحانه - موقف أهل الكتاب من عيسى - عليه السلام - فقال :
 « فاختلاف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من شديد يوم عظيم ، .
 والأحزاب جمع حزب . والمراد بهم فرق اليهود والنصارى الذين اختلفوا
 في شأنه - عليه السلام - . فمنهم من أنهم أمه بما هى بريئة منه ، وهم اليهود كما في
 قوله : « وكفرهم وقولهم على مريم هتانا عظيماً ، . »

ومنهم من قال « وابن الله ، أو هو الله ، أو إله مع الله ، أو هو ثالث

ثلاثة ... إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة التي حكاها القرآن عن الضالين وهم النصارى .

ولفظ « ويل » مصدر لا فعل له من لفظه ، وهو كلمة عذاب ووعيد .

و « مشهد » يصح أن يكون مصدراً ميمياً بمعنى الشهود والحضور .

والمعنى : هكذا قال عيسى - عليه السلام - لقومه : أعبدوا الله ربى وربكم ، ولكن الفرق الضالة من اليهود والنصارى اختلفوا فيما بينهم في شأنه اختلافاً كبيراً ، وضلوا ضلالاً بعيداً ، حيث وصفوه بما هو برىء منه ، فويل ل هؤلاء الكافرين من شهود ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة ، حيث سيلقون عذاباً شديداً من الله بسبب ما نطقوا به من زور وبهتان .

وعبر عنهم بالموصول في قوله « للذين كفروا » ، إيذاناً بكفرهم جميعاً ، وإشعاراً بعلّة الحكم .

قال أبو حيان : « ومعنى : « من بينهم » ، أن الاختلاف لم يخرج عنهم ، بل كانوا هم المختلفين دون غيرهم ، (١) .

وجاء التعبير في قوله « من مشهد يوم عظيم » بالتشكير ، للتمويل من شأن هذا المشهد ، ومن شأن هذا اليوم وهو يوم القيامة ، الذى يشهده الثقلان وغيرهما من مخلوقات الله - تعالى - .

وقوله - سبحانه - : « أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا . . . » ، فكهم بهم ، وتوعد لهم بالعذاب الشديد ، فهو تأكيد لما قبله .

و « أسمع بهم وأبصر » صيغتا تعجب ، لفظهما لفظاً الأمر ، ومعناها التعجب ، أى : حمل المخاطب على التعجب ، وفاعلها الضمير المجرور بالباء ، وهى زائدة

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان ج ٦ ص ١٩١

فيهما لزوما والمعنى : ما أسمع هؤلاء الكافرين وما أبصرهم في ذلك اليوم ، لما تخلع قلوبهم . ويسود وجوههم . مع أنهم كانوا في الدنيا صما وعميانا عن الحق الذي جاءهم به رسلهم .

فالمراد باليوم في قوله : : لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين ، هو ما كانوا فيه في الدنيا من ضلال وغفلة عن الحق .

أى : أن هؤلاء القوم ما أعجب حالهم : لأنهم لا يسمعون ولا يبصرون في الدنيا حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة . وهم أسمع ما يكون السمع وأبصر ما يكون البصر ، عندما يكون السمع والبصر وسيلة للخزي والعذاب في الآخرة .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - بأن يخوف المشركين من أهوال يوم القيامة ، فقال : : وأنذركم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون . .

والإنذار : الإعلام بالخوف منه على وجه التهيب والتحذير ، وأشد ما تخوف به يوم القيامة .

والحسرة : أشد الندم على الأمر الذي فات وانقضى ولا يمكن تداركه .

أى : وأنذر أيها الرسول الكريم - المشركين ، وخوفهم من أهوال يوم القيامة ، يوم يتحسر الظالمون على تفريطهم في طاعة الله ، ولكن هذا التحسر لن ينفعهم ، لأن حكم الله قد نفذ فيهم . وقضى الأمر بنجاة المؤمنين ، وبعذاب الفاسقين ، وذهب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار .

وقوله : : وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ، حال من الضمير المنصوب في : : أنذركم . .

أى : أنذركم لأنهم في حالة يحتاجون فيها إلى الإنذار وهي الغفلة وعدم الإيمان .

هذا ، وقد جاء في الحديث الصحيح ما يدل على أن المراد بقوله - تعالى -
 « إذ قضى الأمر » .

أى : ذبح الموت . فقد روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال
 رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادى
 مناد : يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون ؛ فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون
 نعم . هذا الموت وكلهم قد رأوه . ثم ينادى يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون
 فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون نعم . هذا الموت وكلهم قد رأوه . فيذبح .
 ثم يقول : يا أهل الجنة خلود بلا موت ؛ ويا أهل النار خلود بلا موت . ثم قرأ
 - صلى الله عليه وسلم - « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم في غفلة
 وهم لا يؤمنون » (١) .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، وشمول ملكه فقال : « إنا
 نحن نرت الأرض ومن عليها .. » أى : إنا نحن وحدنا الذين نميت جميع
 الخلائق الساكنين بالأرض ، فلا يبقى لأحد غيرنا من سلطان عليهم أو عليها ،
 وهؤلاء الخلائق جميعا « إلينا » ، وحدنا « يرجعون » ، يوم القيامة ، فنحاسهم على
 أعمالهم .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : « وإنا لنحن فحي ونميت ونحن
 الوارثون » .

وإلى هنا تكون السورة السكرية قد حدثتنا عن جانب من قصة ذكرى
 ويحيى ، ومن قصة مريم وعيسى ، حديثا يهدى إلى الرشده ، ويريد المؤمنين إيمانا
 على إيمانهم ، ويقذف بحقه على باطل المبطلين فيدمغه فإذا هو زاتق .

ثم أوردت السورة السكرية القصة الثالثة وهى قصة إبراهيم - عليه السلام -
 ومادار بينه وبين أبيه من حوار . قال - تعالى - :

« واذكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَيُّهَا
يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُفْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ
إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣)
يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ
إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)
قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ، لَنْ لَمْ تَنْتَهِ لِأَرْجُمَنَّكَ ،
وَاهْجُرْنِي مِلِّيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي
حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَنْ
لَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ
مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) » .

قال الإمام الرازي ماملخصه : : اعلم أن الغرض من هذه السورة ، بيان
التوحيد والنبوة والحشر ، والمنكرون للتوحيد فريقان : فريق أثبت معبودا
غير الله حيا عاقلا وهم النصاري ومن على شاكلةهم ، وفريق أثبت معبودا غير
الجناد ليس بحي ولا عاقل ، وهم عبدة الأوثان . والفريقان وإن اشتركا في
الضلال إلا أن ضلال الفريق الثاني أعظم . ولما بين - سبحانه - ضلال
الفريق الأول - وهم النصاري - ، أتبعه بذكر الفريق الثاني : وهم عبدة
الأوثان قوم لإبراهيم - عليه السلام - (١) .

ولإبراهيم - عليه السلام - هو من أولى العزم من الرسل ، وهو الذي

جعل الله في ذريته النبوة والكتاب ، وهو الذي وصفه الله - تعالى - بجملة من الصفات السكرية ، منها قوله - تعالى - : « إن إبراهيم لحليم أواه منيب » (١) ..

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - للناس في هذا القرآن قصة أبيهم إبراهيم - عليه السلام - ، لكي يعتبروا ويتعظوا ويقتدوا بهذا النبي الكريم في قوة إيمانه ، وصفاء يقينه ، وجميل أخلاقه ...

وقوله : « إنه كان صديقا نبيا » ، إسئناف مسوق لتعليل موجب الأمر في قوله : « واذكر » .

والصديق : صيغة مبالغة من الصدق . أى : إنه كان ملازما للصدق في كل أقواله وأفعاله وأحواله ، كما كان نبيا من أولى العزم ، الذين فضّلهم الله على غيرهم من الرسل الكرام .

ثم بين - سبحانه - مظاهر صدقه وإخلاصه لدعوة الحق فقال : « إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا » .

والظرف « إذ » بدل اشتمال من « إبراهيم » ، وجملة « إنه كان صديقا نبيا » معترضة بين البذل والمبذل منه لتعظيم شأنه - عليه السلام - .

والتاء في قوله « يا أبت » عرض عن ياء المتكلم ، إذ الأصل يا أبى ، وناداه بهذا الوصف دون أن يذكر اسمه : زيادة في احترامه واستئالة قلبه للحق .

أى : واذكر خبر إبراهيم وقت أن قال لأبيه آزر مستعظفا لإياه : يا أبت لماذا تعبد شيئا لا يسمع من يناديه ، ولا يبصر من يقف أمامه ، ولا يغنى عنك شيئا من الأغناء ، لأنه لا يملك لنفسه - فضلا عن غيره - نفعا ولا ضرا .

ثم دعاه إلى اتباع الحق بالطف أسلوب فقال : « يا أبت إنى قد جاءنى من

العلم ، النافع الذى علمنى الله - تعالى - إياه ، ألم يأنك ، أنت ، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء ، ، فاتبعنى ، فيما أدعوك لإيمه ، أهدك صراطا سويا ، أى : أهدك إلى الطريق المستقيم الذى لا عوج فيه ولا اضطراب .

ثم نهاه عن عبادة الشيطان ، لأنها جهل وانحطاط فى التفكير فقال :
 يا أبت لا تعبد الشيطان ، فإن عبادتك لهذه الأصنام هى عبادة وخدمة للشيطان الذى هو عدو الإنسان .

ثم علل له هذا النهى بقوله : « إن الشيطان كان للرحمن عصيا ، أى : إن الشيطان الذى أغراك بعبادة هذه الأصنام كان للرحمن عصيا ، أى : كثير العصيان ، لا يهتدى الناس إلى طاعة الله ، وإنما سيهدهم إلى مخالفته ومضيقته وموجبات غضبه .

ثم ختم هذا النداء بما يدل على حبه له ، وشغفته عليه فقال : يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ، .
 أى : يا أبت إني أشفق عليك من أن ينزل بك عذاب من الرحمن بسبب إصرارك على عبادة غيره ، وبذلك تصبح قرينا للشيطان فى العذاب بالنار ، لأنك انقذت له ، وخالفت طريق الحق .

بهذا الأسلوب الحكيم الهادى الرقيق خاطب إبراهيم أباه ، وهو يدعو إلى عبادته - تعالى - وحده ،

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال ما ملخصه : وانظر كيف رتب إبراهيم الكلام مع أبيه فى أحسن اتساق ، وساقه أرشق مساق ، مع استعمال المجاملة واللفظ والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن .

وذلك أنه طلب منه - أولا - العلة فى خطئه . طالب منبه على نماديه ، موقظ لإفراطه وتناهيه . . . حيث عبد ما ليس به حس ولا شعور .

ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقا به متلطفا ، فلم يصف أباه بالجهل المفرط ،

ولا نفسه بالعلم الفائق . ولكنه قال : إن معي طائفة من العلم وشيئا منه ليس معك ثم بثبته ، ونهى عما كان عليه ، بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل . . . ثم ربح بتخويله سوء العاقبة ، وما يحزره ما هو فيه من الوبال .

ولم يخل ذلك من حسن الأدب ، حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له ، وأن العذاب لاحق به ، ولكنه قال : . . . إني أخاف أن يمسك

ومصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله : . . . يا أبت . . . توسلا واستعطافا . . . ، (١) .

ولكن هذه النصيحة الحكيمة الغالية من إبراهيم لأبيه . لم تصادف أذنا واعية ، ولم تحظ من أبيه بالقبول ، بل قوبلت بالاستنكار والتهديد فقد قال الأب الكافر لابنه المؤمن : . . . أرأغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجنك وأهجرني مليا . . .

والاستفهام فى قوله ، أرأغب ، للإنكار والتهديد والرغبة عن الشيء . تركه عمدا زهدا فيه لعدم الحاجة إليه .

ولفظ ، أرأغب ، مبتدأ ، . . . وأنت ، فاعل سد مسد الخبر ، . . . مليا ، أى : زمنا طويلا . مأخوذ من الملاوة ، وهى الفقرة الطويلة من الزمان ويقال لليل والنهار : الملوان .

والمعنى : قال والد إبراهيم له على سبيل التهديد والوعيد ، أتارك أنت يا إبراهيم عبادة آلهتى ، وكاره لتقرب الناس إليها ، ومنفرهم منها ، لئن لم تنته عن هذا المسلك ، لأرجنك ، بالحجارة وبالكلام القبيح . . . وأهجرني مليا ، أن تغرب عن وجهي زمنا طويلا لأحب أن أراك فيه .

(١) راجع تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٩ .

وهكذا قابل الأب الكافر أدب ابنه المؤمن ، بالفاظظة والغلظة والتهديد والعناد والجهالة ... شأن القلب الذي أفسده الكفر .

ولكن إبراهيم - عليه السلام - لم يقابل فظاظه أبيه وتهديده بالغضب والضيق ، بل قابل ذلك بسعة الصدر . وجعل المنطق ، حيث قال له : سلام عليك سأستغفر لك ربى لأنه كان بى حفيا ، .

أى : لك مفى - يا أبت - السلام الذى لا يخالطه جدال وأذى ، والوداع الذى أقابل فيه إساءتك إلى بالإحسان إليك . وفضلا عن ذلك فإنى سأستغفر لك ربى لأنه كان بى حفيا ، أى : بارأ بى ، كثير الإحسان إلى .

يقال : فلان حفى بفلان حفاوة ، إذا بالغ فى إكرامه ، واهتم بشأنه ..

وقد وفى إبراهيم بوعده ، حيث استمر على استغفاره لأبيه . إلى أن تبين له أنه عدو لله - تعالى - فتبرأ منه كما قال - تعالى - : وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، إن إبراهيم لأواه حليم ، (١) .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك أن إبراهيم - عليه السلام - عندما رأى تصميم أبيه وقومه على الكفر والضلال ، قرر اعتزالهم والابتعاد عنهم . فقال - تعالى - : وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا ، .

أى : وقال إبراهيم - أيضاً - لأبيه ، لئنى بجانب استغفارى لك ، ودعوتى لك بالهداية ، فإنى سأعتزلك وأعتزل قومك ، وأعتزل عبادة أصنامكم التى تعبدونها من دون الله وأرتحل عنكم جميعاً إلى أرض الله الواسعة ، وأخص ربى وخالفى بالعبادة والطاعة والدعاء ، فقد عودنى - سبحانه - أن لا يخيب دعائى وتصرى إلىه .

وفي تصدير كلامه بلفظ: «عسى» دليل على تواضعه، وعلى أدبه مع خالقه - تعالى - .

ثم بين - سبحانه - ما ترتب على اعتزال إبراهيم للشرك والمشر كين فقال: «قلنا اعزلهما وما يعبدون من دون الله، وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا . وهبنا لهم من رحمتنا، وجعلنا لهم لسان صدق عليا .»

أى : نحن اعتزل إبراهيم - عليه السلام - أباه وقومه وآلهتهم الباطلة . لم نصليه، وإنما أكرمناه وتفضلنا عليه بأن وهبنا له إسحاق ويعقوب ليأنس بهما بعد أن فارق أباه وقومه من أجل إعلاء كلمتنا، وكلا جعلنا نبيا . أى : وكل واحد منهما جعلناه نبيا، وهبنا لهم، أى : لإبراهيم وإسحاق ويعقوب من رحمتنا، بأن جعلناهم أنبياء، ومنحناهم الكثير من فضلنا وإحساننا ورزقنا .

« وجعلنا لهم لسان صدق عليا . بأن صيرنا الناس يثنون عليهم ويمدحونهم ويذكرونهم بالذكر الجليل، لخصالهم الحميدة، وأخلاقهم الكريمة . وهكذا نرى أن اعتزال الشرك والمشر كين، والفسق والفاسقين، يودى إلى السعادة الدينية والدنيوية، وما أصدق قوله - تعالى - : « قلنا اعزلهما وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا .»

ثم مدح الله - تعالى - موسى - عليه السلام - وهو واحد من أولى العزم من الرسل، وينتهى نسبه إلى إبراهيم - عليه السلام - فقال - تعالى - :

« واذكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) .»

ولفظ: «مخلصا» فيه قرأتان سبعيتان، إحداهما بفتح اللام - بصيغة

اسم المفعول - أى : أخلصه الله - تعالى - لذاته ، واصطفاه ، كما قال - تعالى -
 « قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ... » (١) .
 والثانية بكسر اللام - بصيغة اسم الفاعل - أى : كان مخلصا لنا في عبادته
 وطاعته .

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - للناس خبر أخيك موسى - عليه
 السلام - إنه كان من الذين أخلصناهم واصطفيناهم لحمل رسالتنا ، وكان من
 الذين أخلصوا لنا وحدنا العبادة والطاعة ، وكان - أيضا - « رسولا » من
 جهتنا لتبليغ ما أمرناه بتبليغه ، وكان كذلك « نبيا » رفيع القدر ، على المكانة
 والمنزلة ، فقد جمع الله - تعالى - له بين هاتين الصفتين الساميتين . صفة الرسالة
 وصفة النبوة .

وقوله - تعالى - : « وناديناه ، من جانب الطور الايمن ، وقربناه نجيا ،
 بيان لفضائل أخرى منحها الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - .
 والطور : جبل بين مصر وقرى مدين . الايمن : أى الذى يلى يمين
 موسى .

قال الألوسي : « والايمن : صفة لجانب لقوله - تعالى - في آية أخرى :
 « جانب الطور الايمن » بالنصب . أى : ناديناه من ناحيته اليمنى ، من اليمين
 المقابل لليسار . والمراد به يمين موسى ، أى : الناحية التى تلى يمينه » إذ الجبل
 نفسه لا ميمنة له ولا يسرة .

ويجوز أن يكون الايمن من اليمين وهو البركة ، وهو صفة لجانب - أيضا -
 أى : من جانب الميمون المبارك ...

والمراد من ندائه من ذلك الجانب : ظهور كلامه - تعالى - من تلك الجهة ،
 والظاهر أنه - عليه السلام - إنما سمع اللفظ ... » (٢) .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٤٤ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١ ص ١٠٣ .

وقوله : « وقربناه نجيا ، أى : وقربناه تقريبا تشريف وتكريم حالة
مناجاته لنا ، حيث أسمعه كلامنا ، واصطفيناه لحل رسالتنا إلى الناس .

فقوله : « نجيا » من المناجاة وهى المسارة بالكلام ، وهو حال من مفعول
« قربناه » ، أى : وقربنا موسى منا حال كونه مناجيا لنا .

وقوله - تعالى - : « ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا ، بيان لمظهر
آخر من مظاهر فضل الله - تعالى - على عبده موسى .

أى : ووهبنا لموسى من أجـل رحمتنا له . وعطفنا عليه ، أخاه هارون
ليكون عوناً له فى أداء رسالته كما قال - تعالى - « حكاية عنه : « واجعل لى وزيراً
من أهلى . هارون أخى أشد به أزرى . وأشر كى فى أمرى . . . » .

وقوله : « نبيا ، حال من هارون ، أى : حال كونه نبيا من أنبياء الله
- عز وجل - .

هذا ، وما ذكره الله - تعالى - هنا بجحلا عن ندائه لموسى من جانب
الطور الأيمن ، قد جاء مفصلا فى مواطن أخرى منها قوله - تعالى - : « فلما
قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله
أمكثوا إني آنست نارا لعل آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تهتدون .
فلما أتاهم نودي من شاطئ الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ، أن
يا موسى إني أنا الله رب العالمين . . . » (١) .

ثم ساق - سبحانه - جانباً من فضائل إسماعيل - عليه السلام - وهو الفرع
الثانى من ذرية إبراهيم فقال - تعالى - :

« واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادقا الوعد وكان
رسولا نبيا (٥٤) وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه
مرضيا (٥٥) » .

أى : واذكر فى هذا الكتاب لقومك - أيها الرسول الكريم - خير جدك
إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - لىكى يتأسوا به فى صفاته الجليلة ، لأنه
كان صادق الوعد ، يكفى للدلالة على صدق وعده ، وشدة وفائه ، أنه وعد
أباه بصبره على ذبحه فلم يخاف وعده . بل قال - كما حكى القرآن عنه - : « يا أبت
افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » .

ووصف بصدق الوعد وإن كان غيره من النبيين كذلك . تشرىفاً وتكريماً
له ، ولأن هذا الوصف من الأوصاف التى اكتملت شهرتها فيه .

وقد مدح الله - تعالى - الأوفياء بهمودهم فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى -
« والموفون بهمهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء ، وحين البأس ،
أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » .

وروى الإمام الطبرانى عن ابن مسعود قال : لا يمد أحدكم أخاه ثم لا ينجزاه ،
فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « العدة دين » .

وقال القرطبي : والعرب تمتدح بالوفاء ، وتذم بالخلف والعذر ، وكذلك
سائر الأمم ، ولقد أحسن القائل :

ممن ما يقل حر لصاحب حاجة نعم ، يقضها ، والحر للوعد ضامن
وقوله - تعالى - : « وكان رسولا نبيا ، أى : وكان من رسلنا الذين
أرسلناهم لتبليغ شريعتنا ، ومن أنبيائنا الذين رفعنا منزلتهم وأعطينا قدرهم » .
قالوا : وكانت رسالته بشرى آتية إلى قبيلة جرهم من عرب اليمن ، الذين
نزلوا على أمه هاجر بوادى مكة حين خلفها إبراهيم هى وابنها بذلك الوادى ،
فسكنوا هناك حتى كبر إسماعيل وزوجوه منهم ، وأرسله الله - تعالى -
إليهم (١) .

ثم وصفه الله - تعالى - بصفة كريمة فائقة فقال : « وكان يأمر أهله بالصلاة
والزكاة » .

أى : وكان بجانب حرصه على أداء هاتين الفريضتين ، يأمر أهله وأقرب الناس إليه بالحرص على أدائهما ، لكي يكون هو وأهله قدوة لغيرهم في العمل الصالح ، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يفعل ذلك الذي أثنى الله به على نبيه إسماعيل استجابة لقوله تعالى : « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ... » ، قال الإمام ابن كثير : وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « رحم الله - رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته ، فإن أبت نهض في وجهها الماء رحم الله امرأة قامت من الليل وأيقظت زوجها فإن أبي نضحت في وجهه الماء ، »

وعن أبي سعيد عن النبي - صلى الله عليه وسلم قال : « إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين ، كتبنا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، »

ثم ختم - سبحانه - هذه الصفات الجميلة التي مدح بها نبيه إسماعيل فقال : « وكان عند ربه مرضيا ، »

أى : وكان إسماعيل عند ربه مرضى الخصال ، لاستقامته في أقواله وأفعاله ، وللصدق في وعده ، ولأمره أهله بالصلاة والزكاة ، ولا شك أن من جمع هذه المناقب كان ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

ثم ختم الله هذا الحديث عن بعض الأنبياء ، بذكر جانب من قصة إدريس - عليه السلام - فقال :

« واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا (٥٦) ورفعناه مكانا عليا (٥٧) . »

قال الألوسي مالمخصه : « وإدريس هو نبي قبل نوح وبينهما ألف سنة وهو أخنوخ ابن يرد بن شيث بن آدم . وهو أول من نظر في النجوم والحساب ، وأول رسول بعد آدم » (١)

أى : واذكر - أيضا - فى الكتاب خبر إدريس - عليه السلام - ، لأنه كان ملازما للصدق ، وكان ممن أكرمناهم بالتوبة .

وقوله : ، ورفعناه مكانا عليا ، قالوا : هو شرف النبوة والزافى عند الله - تعالى - . أو المراد برفعه إلى المسكان العلى : إسمائه فى الجنة ، إذ لا شرف أعلى من ذلك .

روى أن النابتة الجمعدى لما أنشد قوله :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وإنا نرجوا فوق ذلك مظهرا

قال له الرسول - صلى الله عليه وسلم - : إلى أين المظهر يا أبا ليلى ؟ قال : إلى الجنة . قال : أجل إن شاء الله - تعالى - .

وإلى هنا تكوّن السورة الكريمة قد حدثنا عن طرف من قصص زكريا ويحيى وعيسى وإبراهيم وإسماعيل وإدريس - عليهم الصلاة والسلام - ، وقد وصفهم بما هم أملة من صفات كريمة ، ليقامى الناس بهم فى ذلك .

ثم نسوق السورة الكريمة بعد ذلك ، وازنة بين هؤلاء الأخيار ، وبين من جاءوا بعدهم من أقوامهم الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وتفتح السورة باب التوبة ليدخله بصدق وإخلاص المخطئون ، حتى يكفر الله - تعالى - عنهم ما فرط منهم . قال - تعالى - :

«أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ، إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا بُكِيًّا (٥٨) فَخَلَفَ مِنْ بَEدَمِ خَلَفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) جَنَّاتٍ عَذْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ

إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا (٦١) لَا يَسْمُؤُونَ فِيهَا لِقَاءَ إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣) .

وإسم الإشارة في قوله : أولئك الذين أنعم الله عليهم يعود إلى الأنبياء المذكورين في هذه السورة . وهم عشرة أولهم في الذكر زكريا وآخرهم لإدريس .

قال القرطبي : قوله - تعالى - : أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ، يريد لإدريس وحده ، ومن حملنا مع نوح ، يريد إبراهيم وحده ، ومن ذرية إبراهيم ، يريد لإسماعيل وإسحاق ، ومن ذرية د ، من ذرية د لإسرائيل ، يريد موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى . فكان لإدريس ونوح شرف القرب من آدم ، ولإبراهيم شرف القرب من نوح . ولإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، شرف القرب من إبراهيم (١) .

وقوله : ومن هدينا وإجتبينا ، معطوف على قوله : من ذرية آدم ، ومن للتبويض .

أي : ومن جملة من أنعم الله عليهم ، أولئك الذين هديناهم إلى طريق الحق وإجتبيناهم واختارناهم لحل رسالتنا ووحينا .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد جمع هؤلاء المنعم عليهم جملة من المازايا منها : أعمالهم الصالحة ، ومناقبتهم الحميدة التي سبق الحديث عنها ، ومنها : كونهم من نسل هؤلاء المصطفين الأخيار ، ومنها أنهم من هداية الله - تعالى - واصطفاهم لحل رسالته .

وقد بين - سبحانه - في سورة النساء من أنعم عليهم بصورة أكثر شمولاً فقال : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » .

وقوله - تعالى - : « إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجداً وبكياً » بيان لرفعة مشاعرهم ، وشدة تأثرهم عند سماع آيات الله - تعالى - .

فالجملة الكريمة لاستئناف مسوق لبيان عظم خشيتهم من الله - تعالى - أو هي خبر لاسم الإشارة « أولئك » ، « وسجدوا وبكياً » جمع ساجد وباك .

أى : أولئك الذين أنعم الله - تعالى - عليهم ، من صفاتهم أنهم إذا تتلى عليهم آيات الرحمن ، المتضمنة لتعجيده وتنظيمه وحججه . . . خرّوا على جباههم ساجدين وباكين ، وسقطوا خاضعين خاشعين خروفاً ورجاء ، وتعظيماً وتحميداً لله رب العالمين .

وجمع - سبحانه - بين السجود والبكاء بالنسبة لهم ، الإشعار بأنهم مع تعظيمهم الشديد لمقام ربهم ، فهم أصحاب قلوب رقيقة ، وعواطف جياشة بالخوف من الله - تعالى - .

وفي معنى هذه الجملة الكريمة وردت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : « قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا تتلى عليهم يحزنون للأذقان سجداً » ، ويقولون - يحزن ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً : ويخرون للأذقان بيبكون ويزبدن خشوعاً ، (١) .

وقوله - سبحانه - : « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » ، يقولون ربنا آمننا فاكتبنا مع الشاهدين ، (٢) .

فهذه الآيات الكريمة تدل على أن من صفات المؤمنين الصادقين ، أنهم يتأثرون

(١) سورة الإسراء الآيات من ١٠٧ - ١٠٩ .

(٢) - سورة المائدة الآية ٨٣ .

تأثراً عظيماً عند سماعهم لكلام الله - تعالى - ، تأثراً يجعلهم يبكون ويسجدون
وتتشعر جلودهم ، وتوجل قلوبهم ، وتلين نفوسهم .

قال ابن كثير - رحمه الله - : د قوله - تعالى - : د إذا تتلى عليهم آيات
الرحمن خرّوا سجداً وبكياً ، أى : إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه
ودلائله وبراهينه سجدوا إليه خضوعاً واستكانة وشكراً على ما هم فيه من
نعم ... فلماذا أجمع العلماء على شرعية السجود هنا اقتداء بهم ، واتباعاً لمنواظهم
وقرأ عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - هذه الآية فسجد وقال : هذا السجود
فأين البكاء ، (١) .

ثم بين - سبحانه - ما حدث من الذين جاءوا بعد هؤلاء المنعم عليهم فقال :
فخلف من بعدهم خلف ، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف
يلقون عذاباً .

ولفظ د الخلف ، يسكون اللام - الأولاد ، والواحد والجمع فيه سواء ،
وأكثر ما يطلق على الأشرار والصالحين ، ومنه المثل السائر : د سكت ألفاً
ونطق خلفاً ، وقول الشاعر :

ذهب الذين يعاش في أكثافهم وقيت في خلف كجلد الأجر

والمراد بهذا اللفظ في الآية : اليهود والنصارى وغيرهم من المشركين
الذين جاءوا بعد أنبيائهم ، ولكنهم خالفوا شريعتهم ، وأهلوا ما أمرهم به
وما نهوهم عنه .

أما لفظ د الخلف ، بفتح اللام - فيطلق على البدل ولداً كان أو غير ولد
وأكثر استعماله في المدح ، ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم - : د يحمل هذا
العلم من كل خلف عدوله

والمعنى : تخلف من بعد أولئك الأخيار الذين أنعم الله عليهم ، خلف سوء وشر ، ومن الأداه على سؤتهم وفجورهم أنهم « أضاعوا الصلاة ، بأن تركوها ، أو لم يؤدروها على وجهها المشروع » واتبعوا الشهوات ، التي جعلتهم ينفكون في المعاصي ، ويسارعون في إقتراف المنكرات ..

وقوله « فسوف يلحقون غيا » بيان لسوء عاقبتهم ، أى : فسوف يلحق هؤلاء المضيعون للصلاة ، المتبعون للشهوات ، خسرانا وشررا في دنياهم وآخرتهم ، بسبب ضلالهم وتنكيبهم الصراط المستقيم .

فالمراد بالغى : الخسران والضلال . يقال : غوى فلان يغوى إذ ضل . والإسم الغواية .

وقيل المراد بالغى هنا : واد في جهنم تستعيز من حره أوديتها . وقيل : هو نهر في أسفل جهنم يسيل فيه صديد أهلها .

ثم فتح - سبحانه - للتائبين باب الرحمة فقال : « إلا من تاب وآمن وعمل صالحا »

أى : هذا العقاب الشديد للمضيعين للصلاة ، وللمتبعين للشهوات ، لكن من تاب منهم توبة نصوحا ، وآمن بالله - تعالى - حق الإيمان ، وعمل في دنياه الأعمال الصالحة .

« فأولئك ، المنعوتون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح » يدخلون الجنة ، بفضل - تعالى - ورحمته « ولا يظلمون شيئا ، أى : ولا ينقصون من أجور أعمالهم شيئا .

وقوله « جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب . » بدل من الجنة في قوله « فأولئك يدخلون الجنة »

أى : هؤلاء التائبون المؤمنون العاملون للصلوات . يدخلهم الله - تعالى - جنات عدن ، أى : الجنات الدائمة التي وعدهم الرحمن بدخولها ، وكان هذا الوعد في الدنيا قبل أن يشاهدوها أو يروها .

فقوله : « بالغيب ، حال من المفعول وهو ، عباده ، أى : وعدم بها حالة كونهم غيبين عنها ، لا يرونها ، وإنما آمنوا بوجودها بمجرد إخباره - سبحانه - لهم بذلك .

وقد أكد - سبحانه - هذا الوعد لهم فى الدنيا بقوله : « لأنه كان وعده مأتيا ، أى : لأنه - تعالى - كان وما زال ما وعده عباده وهو الجنة ، مأتيا ، أى : يأتيه ويصل إليه من وعده الله - تعالى - به ، لأنه - سبحانه - لا يخلف وعده .

فقوله : « مأتيا ، اسم مفعول من أتاه الشئ - بمعنى جاءه ، وقيل : هو اسم مفعول بمعنى فاعل ، أى : إن وعده - سبحانه - لعباده كان آتيا لا ريب فيه .

ثم وصف - سبحانه - الجنات وأهلها بما يحل العقلاء على العمل الصالح الذى يوصلهم إليها بفضله - تعالى - وكرمه فقال : « لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما ... »

واللغو هو فضول الكلام ، وما لا قيمة له منه ، ويدخل فيه الكلام الباطل .

وقوله « إلا سلاما ، فيه أنه استثناء منقطع . لأن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه .

أى : لا يسمعون فيها كلاما لغوا ، لكنهم يسمعون فيها سلاما . أى : تسليما من الملائكة عليهم ، كما قال - تعالى - : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم ... »

أو يسمعون فيها تسليما ونحية من بعضهم على بعض ، كما قال - تعالى - : « تحيتهم فيها سلام » .

قالى الألوسى : قوله « إلا سلاما ، إستثناء منقطع ، والسلام إما بمعناه المعروف .

أى : لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم ، أو تسليم بعضهم على بعض ، أو بمعنى السلام السالم من العيب والنقص ، أى : لكن يسمعون كلاما سالما من العيب والنقص .

وجوز أن يكون استثناء متصلا ، وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم ، كما في قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بين فلول من قراع السكتائب

وهو يفيد نفى سماع اللغو بالطريق البرهاني الأقوى . والاتصال على هذا على طريق الفرض والتقدير ، ولولا ذلك لم يقع وقوعه من الحسن والمبالغة (١) .

وقوله - تعالى - : : ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ، بيان لدوام رزقهم فيها بدون انقطاع ، إذ ليس في الجنة نهار ولا ليل ، ولا بكرة ولا عشي . . .

قال القرطبي ما ملخصه قوله : : ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ، أي : لهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب بكرة وعشيا ، أي : في قدر هذين الوقتين ، إذ لا بكرة ثم - أي هناك - ولا عشيا . . . وقيل : أي : رزقهم فيها غير منقطع . . .

وخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من حديث أبان عن الحسن وأبي قلابة قالا : قال رجل يا رسول الله ، هل في الجنة من ليل ؟ قل - صلى الله عليه وسلم - : : وما هي بك على هذا ، ؟ قال : سمعت الله - تعالى - يذكر في الكتاب : : ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ، فقلت : الليل بين البكرة والعشي . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : : ليس هناك ليل وإنما هو ضوء ونور ، يرد الغدو على الرواح ، والرواح على الغدو ، وتأثيرهم طرف الهدايا من الله لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلون فيها في الدنيا ، وتسلم عليهم الملائكة . . .

ثم قال الإمام القرطبي : وهذا في غاية البيان لمعنى الآية . . . (٢) .

ثم أضاف - سبحانه - إلى تعظيمه لشأن الجنة تعظيها آخر فقال : ذلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا . . .

(١) تفسير الألوسي ج ١٦ ص ١١١

(٢) تفسير القرطبي ج ١١ ص ١٢٦

فاسم الإشارة ذلك ، يعود إلى ما تقدم من قوله : « فأولئك يدخلون الجنة .. » وقوله « جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب ... »

أى : تلك هي الجنة العظيمة الشأن ، العالية القدر ، التي نجعلها ميراثا للمؤمنين الصادقين المتقين من عبادنا ، كما قال - تعالى - : « أولئك يرثون الفردوس هم فيها خالدون ، وكما قال - سبحانه - : « وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون » .

قال صاحب الكشاف : « قوله « نورث ، ... أى : نبقى عليه الجنة كما نبقى على الوارث مال المورث ، ولأن الانقياء يلقون ربهم يوم القيامة ، قد انقضت أعمالهم وثمرتها باقية وهي الجنة ، فإذا أدخلهم - سبحانه - الجنة ، فقد أوردتهم من تقوأم كما يورث الوارث المال من المتوفى ... » (١)

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، وشمول علمه ، فقال - تعالى - :
« وما تَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ، وما كان ربك نسياً (٦٤) ربُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وما بينهما قابضٌ واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً (٦٥) » .

والتنزل : النزول على مهل ، فإنه مطاوع نزل - بالتحديد - ، يقال : نزله فتنزل ، إذا حدث النزول على مهل وتدرج . وقد يطلق التنزل بمعنى النزول مطلقا ، إلا أن المناسب هنا هو المعنى الأول .

والآية الكريمة حكاية لما قاله جبريل للنبي - صلى الله عليه وسلم - ، فقد ذكر كثير من المفسرين أن الوحي احتبس عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لفترة من الوقت بعد أن سأله المشركون أسئلة تتعلق بأصحاب الكهف ، وبذي القرنين وبالروح ، حتى قال المشركون : إن رب محمد - صلى الله عليه وسلم -

قد قلاه - أى : أبغضه وكرهه - فلما نزل جبريل على النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد فترة من غياب - قيل خمسة عشر يوماً وقيل أكثر قال له : يا جبريل احتبست عني حتى ساء ظني واشتقت إليك فقال له جبريل : إني كنت أشوق ولكفى عبداً أمور ، إذا بعثت جئت ، وإذا حبست احتبست ، وأنزل الله - تعالى - هذه الآية وسورة الضحى (١) .

وقال الألوسي : دولا يابى ما تقدم في سبب النزول ما أخرجه أحمد ، والبخارى ، والترمذى ، والنسائي ، وجماعة ، في سببه عن ابن عباس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لجبريل : ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ فنزلت : وما ننزل إلا بأمر ربك ... لجواز أن يكون - صلى الله عليه وسلم - قال ذلك في محاورته السابقة - أيضاً - ، واقتصر في كل رواية على شيء مما وقع في المحاورة ... (٢) .

والمعنى : قال جبريل للرسول - صلى الله عليه وسلم - عندما سأله عن سبب احتباسه عنه لفترة من الوقت : يا محمد إني ما أنزل عليك وقتاً بعد وقت ، إلا بأمر ربك وإرادته ، فأنا عبده الذي لا يعصى له أمراً ...

وله - سبحانه - ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ، أى : له وحده جميع الجهات والأماكن ، وجميع الأزمان الحاضرة والماضية والمستقبلة ، وما بين ذلك ، فلا نقدر أن ننقل من جهة إلى جهة ، أو من وقت إلى وقت إلا بأمر ربك ومشيئته .

فالجملة السكرية مسوقة لبيان ملكية الله - تعالى - لكل شيء ، وقدرته على كل شيء ، وعلمه بكل شيء .

(١) راجع تفسير ابن جرير ج ١٦ ص ٨٧ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٦ ص ١١٤ .

وقوله - تعالى - : « وما كان ربك نسيا ، مؤكدا لما قبله من إثبات قدرة الله - تعالى - وعلمه .

أى : وما كان ربك - أيها الرسول الكريم - ناسيا أو تاركا ، أو مهملنا لشأنك ، وإمكانه - سبحانه - محيط بأحوالك وبأحوال جميع المخلوقات . ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين . .

قال ابن كثير : « قال ابن أبي حاتم : حدثنا يزيد بن محمد . . . عن أبي الدرداء يرفعه قال : « ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرمه فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئا ، ثم تلا هذه الآية : « وما كان ربك نسيا » (١) .

ثم قال - تعالى - : « رب السموات والأرض وما بينهما ، أى : هو رب السموات والأرض ورب ما بينهما ، وهو خالقهما وخالق كل شيء ، ومالكهما ومالك كل شيء .

ومادام الأمر كذلك : « فاعبدوه واصطبر لعبادته ، أى : فأخلص له العبادة ووطن نفسك على أداء هذه العبادة بصبر وجلد وقوة احتمال ، بإر المداومة على طاعة الله تحتاج إلى عزيمة صادقة ، ومجاهدة للنفس الامارة بالسوء .

والاستفهام في قوله : « هل تعلم له سميا ، الإنكار والنفي . والسمى بمعنى المسامى والمضاهى والنظير والشبيه .

أى : هل تعلم له نظيرا أو شبيها يستحق معه المشاركة في العبادة أو الطاعة ؟ كلا إنك لا تعلم ذلك ، لأنه - سبحانه - هو وحده المستحق للعبادة والطاعة ، إذ هو الخالق لكل شيء ، والقادر على كل شيء ، وما سواه إنما هو مخلوق له ،

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٣١ .

وساجد له طوعاً أو كرها ، ولا شبهة في صفة من صفاته ، فهو - سبحانه -
 « ليس كمثل شيء وهو السميع البصير » .

ثم سافت السورة السكريمة بعد ذلك موقف المشركين من عقيدة البعث .
 فحكمت أقوالهم الباطلة ، وردت عليهم بما بكتهم وبينت أن يوم القيامة آت
 لا ريب فيه ، وأن النجاة في هذا اليوم للمتقين ، والعذاب والحسرة للكافرين .
 قال - تعالى - :

« ويقول الإنسان أئذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا
 يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبُّكَ
 لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزَعَنَّ
 مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أَيْهَمُ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ حَتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَهْلَمُ بِالَّذِينَ
 هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا
 مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) » .

ذكر كثير من المفسرين أن قوله - تعالى - : « ويقول الإنسان ... »
 نزل في أشخاص معينين .

فهم من يرى أن هذه الآية نزلت في « أبي بن خاف » ، فإنه أخذ عظمًا
 باليا . فجعل يفتته بيده . ويذريه في الريح ويقول : زعم محمد - صلى الله
 عليه وسلم - أننا نبعث بعد أن نموت ونصير مثل هذا العظم البالي ومنهم
 من يرى أنها نزلت في الوليد بن المغيرة ، أو في العاصي بن وائل ، أو في
 أبي جهل .

وعلى كل واحد من هذه الأقوال تكون « آل » في الإنسان العهد ،
 والمراد به أحد هؤلاء الأشخاص ، ويكون لفظ الإنسان من قبيل «عام
 الذي أراد به الخصوص » .

ومن الأساليب العربية المروفة ، إسناد الفعل إلى المجموع ، مع أرفاعه

بعضهم لا جميعهم كما يقال : بنو فلان قتلوا فلانا مع أن القاتل واحد منهم ،
ومن هذا القبيل قول الفرزدق :

فدين بنو عبس وقد ضربوا به نبا يدي ورقاء عن رأس خالد
فقد أسند الضرب إلى بني عبس ، مع أنه صرح بأن الضارب هو ورقاء
الذي كان السيف بيده .

وقيل : المراد بالإنسان هنا جماعة معينون وهم الكفرة المنكرون للبعث
أو المراد : جنس الكافر المنكر للبعث .

و إذا ، في قوله : « أنذا مات » منصوب بفعل مضمر دل عليه جزاء
الشرط .

والمعنى ويقول هذا الإنسان الجاهل الجحود ، المنكر للبعث والنشور ،
أعوذ للحياة مرة أخرى بعد موتى ، وبعد أن أكون كالعظام النخرة .

والاستفهام للإنكار والنفي . وغير - سبحانه - بالمضارع ، يقول ،
لاستحضار تلك الصورة الغريبة . وتلك الأقوال المنكرة التي صدرت عن هذا
الكافر ، أو لإفادة أن هذا القول موجود ومستمر عند كثير من
الكافرين .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - حكاية عن هؤلاء الجاحدين : « أنذا متنا
وكنا ترابا ذلك رجع بعيد » (١) .

وقوله - عز وجل - : « يقولون أننا لمردودون في الحفرة » . أنذا كنا عظاما
نخرة قالوا تلك إذا كرة خاسرة » (٢) .

وقد رد الله - تعالى - عليهم بما يبطل قولهم ، ويخرس ألسنتهم فقال :
« أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » .

(١) سورة ق الآية ٣ .

(٢) سورة النازعات الآيات ١٠ - ١٢ .

والاستفهام للتوبيخ والتقريع ، والواو للعطف على مقدر .

والمعنى : أيقول هذا الإنسان ذلك القول الباطل ، ولا يتذكر أننا أوجدناه بقدرتنا من العدم ولم يكن شيئاً مذكوراً ، ومن المعروف عند العقلاء ، أن إعادة الإنسان إلى الحياة بعد وجوده ، أيسر من إيجاد من العدم .

فالآية الكريمة ترد على كل جاحد للبعث بدليل منطقي برهاني ، يهدى القلوب إلى الحق ، ويقنع العقول بأن البعث حق وصدق .

وفي معنى هذه الآية الكريمة جاءت آيات أخرى كثيرة منها قوله - تعالى :
« وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . . . » (١) .

وقوله - سبحانه - : « ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ، » (٢) ،

قال الإمام ابن كثير : وفي الحديث الصحيح - الذي يرويه النبي - صلى الله عليه وسلم - عن ربه : « يقول الله - تعالى - كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني ، » وآذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني . أما تكذيبه لي فقوله : لن يعيدني كما بداني . وليس أول الخلق أهون علي من آخره .

وأما آذاه لإيأى فقوله : إن لي ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، .

ثم عقب - سبحانه - على هذا التوبيخ والتقريع لهذا الإنسان الجاحد ، بقسم منه - سبحانه - على وقوع البعث والنشور ، فقال : « فوربك لنحشرنهم والشياطين ، ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً ، .

والحشر : الجمع . يقال : حشر القائد جنده ، إذا جمعهم .

(١) - سورة يس الآيتان ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) - سورة الواقعة الآية ٦٢ .

والمراد بالشياطين : أولئك الأشرار الذين كانوا في الدنيا يوسوسون لهم بإنكار البعث .

أى : أقسم لك بذاتى - أيها الرسول الكريم - إن هؤلاء المنكرين للبعث لنجهمهم جميعا يوم القيامة للحساب والجزاء ، ولنجمعهم معهم الشياطين الذين كانوا يضلونهم في الدنيا .

قالوا : وفائدة القسم أمران : أحدهما : أن العادة جارية بتأكيدهم بالخبر باليمين ، والثانى : أن أقسام الله - تعالى - باسمه ، مضافا إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - رفعا منه لقائه ، كما رفع من شأن السموات والأرض في قوله - تعالى - : « فرب السما والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » (١) .

وقوله : ، ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ، تصوير حسى بليغ اسوء مصيرهم ، وذلك حالهم .

و « جثيا » جمع جاث وهو الجالس على ركبتيه . يقال : جثا فلان يجثر ويجثى جثوا وجثيا فهو جاث ، إذا جلس على ركبتيه ، أو قام على أطراف أصابعه . والعادة عند العرب أنهم إذا كانوا في موقف شديد ، وأمر ضئك ، جثوا على ركبهم .

أى : فوربك لنحضرنهم يوم القيامة للحساب ومعهم شياطينهم ، ثم لنحضرنهم جميعا حول جهنم . حالة كونهم باركين على الركب . عجزا منهم عن القيام ، بسبب ما يصيبهم من هول يوم القيامة وشدة .

قال - تعالى - : « وترى كل أمة جاثية ، كل أمة تدعى إلى كتابها ، اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ، إنا كنا نستنتج ما كنتم تعملون » (٢) .

(١) حاشية الجول على الجلالين ج ٣ ص ٧٢ .

(٢) سورة الجاثية الآيتان ٢٨ ، ٢٩ .

ثم يخص - سبحانه - بالذكر المصير المفزع المتكبرين من هؤلاء الكافرين فيقول : ثم لنزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا .

والنزع : العزل والإخراج . يقال : نزع السلطان عامله ، إذا عزله وأخرجه من عمله . والشيعه في الأصل : الجماعة من الناس يتعاونون فيما بينهم على أمر من الأمور . يقال : تشايح القوم ، إذا تعاونوا فيما بينهم .

و د عتيا ، أى : خروجا عن الطاعة والاستجابة للأمر . يقال : عتافلان يمتو عتوا - من باب قعد - فوعات ، إذا استكبر وجاوز حدوده في العصيان والعافيان .

والمعنى : ثم نستخرجن من كل طائفة تشايحت وتعاهدت على الكفر بالبحث ، والجحود للحق ، الذين هم أشد خروجا عن طاعتنا وامتثال أمرنا ، فنبدأ بتمذيبهم أولا ، لأنهم أشد من غيرهم في العتو والعناد والجحود والضلال .

قال لجل ماملخصه : وأظهر الأتارب في قوله : أيهم أشد ، أن دأى موصولة بمعنى الذى ، وأن حركتها حركة بناء - أى مبنية على الضم - ، وأشد خبر مبتدأ مضمرة ، والجملة صلة لأى ، وأيهم وصلتها في محل نصب مفعولا به لنزعن . وعتيا تمييز محول عن المبتدأ المحذوف الذى هو أشد . أى : جراته على الرحمن أشد من جراته غيره ، (١) .

وقوله - تعالى - : ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا ، بيان لشمول صلاه - تعالى - بأحوال هؤلاء الجاحدين ، وبأحوال غيرهم .

و د صليا ، مصدر صلي النار - كرضى - يصلها صليا - بكسر الصاد وضها - إذا ذاق حرها ، واكتوى بها .

أى : ثم لنحن أعلم من كل أحد سوانا ، بالذين هم أحق بجهنم ، وباصطلاح نارها ، وبالأكتواء بجرها وسعيرها ، لأننا لا نحصى عيشتهم من أحوال خلقنا

وسنجازى المتقين بما يستحقون من خير وثواب ، وسنجازى الجاحدين بما يستحقون من إهانة وعذاب .

ثم بين - سبحانه - أن الجميع سيرد جهنم . فقال : « وإن منكم إلا واردةا كان على ربك حتما مقضيا » .

وللعلماء أقوال متعددة في المراد بقوله - تعالى - « وإن منكم إلا واردةا » . فمنهم من يرى أن المراد بورودها : دخولها لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم يدخلونها ، إلا أن النار تكون بردا وسلاما على المؤمنين عند دخولهم إياها ، وتكون طيبا وسعيرا على غيرهم .

ومنهم من يرى أن المراد بورودها : رؤيتها والقرب منها والإشراف عليها دون دخولها ، كما في قوله - تعالى - « ولما ورد ماء مدين ، أبى : أشرف عليه وقارب » .

ومنهم من يرى أن المراد بورودها ، خصوص الكافرين ، أبى : أنهم وخدمهم الذين يردون عليها ويدخلونها . أما المؤمنون فلا يردون عليها ولا يدخلونها . ويبدو لنا أن المراد بالورود هنا : الدخول ، أبى : دخول النار بالنسبة للناس جميعا إلا أنها تكون بردا وسلاما على المؤمنين ، وهناك أدلة على ذلك منها .

أن هناك آيات قرآنية جاء فيها الورود ، بمعنى الدخول ، ومن هذه الآيات قوله - تعالى - : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه فاتبعوا أمر فرعون . وما أمر فرعون برشيده . يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود^(١) » . ومعنى فأوردهم : فأدخلهم .

يضاف إلى ذلك أن قوله - تعالى - بعد هذه الآية : ثم ننجى الذين اتقوا وتذر الظالمين فيها جثيا ، قرينة قوية على أن المراد بقوله « وإن منكم إلا

واردها . . . أى : داخلها سواء أكان مؤمناً أم كافراً ، إلا أنه - سبحانه -
بفضله وكرمه ينجى الذين اتقوا من حرها ، ويترك الظالمين يسططون بسعيرها .
كذلك مما يشهد بأن ورود بمعنى الدخول ، ما أخرجه الإمام أحمد -
وعبد بن حميد ، والترمذى ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم . . . عن
أبي سمية قال : اختلفنا فى الورد فقال بعضهم لا يدخلها مؤمن ، وقال آخرون
يدخلونها جميعاً ، ثم ينجى الله الذين اتقوا .

قال : فلقبت جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - فذكرت له ذلك فقال
- وأهوى بإصبعيه على أذنيه - صمنا إن لم أكن سمعت رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - يقول : لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمنين برداً
وسلاماً ، كما كانت على إبراهيم ؛ حتى أن النار ضجيجاً من بردهم . ثم ينجى
الله الذين اتقوا ، ويترك الظالمين فيها جثياً ، (١) .

ولا يمنع من كون الورد بمعنى الدخول قوله - تعالى - : إن الذين سبقت
لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . لا يسمعون حسيصها . . . لأن دخول
المؤمنين فيها لا يجعلهم يشعرون بحرّها أو حسيصها ، وإنما هى تكون برداً
وسلاماً عليهم ، كما جاء فى الحديث الشريف .

قال الإمام القرطبي بعد أن توسع فى ذكر هذه الأقوال : وظاهر الورد
الدخول . . . إلا أنها تكون برداً وسلاماً على المؤمنين ، وينجون منها سالمين .
قال خالد بن معدان : إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا : ألم يقل ربنا : إنا نرد النار؟
فقال لهم : لقد رددتموها فألفيتموها رماداً .

قلت : وهذا القول يجمع شتات الأقوال ، فإن من ردها ولم تؤذ بهلمها
وحرها ، فقد أبعد عنها ونجى منها ، نجانا الله - تعالى - منها بفضله وكرمه ،
وجعلنا من ردها فدخلها سالماً ، وخرج منها غانماً .

فإن قيل : فهل يدخل الأنبياء النار ؟ قلنا : لا نطلق هذا ، ولكن نقول :

إن الخلق جميعاً يردونها - كما دل عليه حديث جابر - فالعصاة يدخلونها
بجرائمهم ، والأولياء والسعداء لشفاعتهم ، فبين الدخولين بون ... (١) .
والمعنى : وما منكم - أيها الناس - أحد إلا وهو داخل النار ، سواء أكان
مسلياً أم كافراً ، إلا أنها تكون برداً وسلاماً على المؤمنين . وهذا الدخول
فيها كان على ربك أسراً واجباً ومحتوماً ، بمقتضى حكمته الإلهية ، لا بإيجاب
أحد عليه .

« ثم فنجي الذين اتقوا ، أي : ثم بعد دخول الناس جميعاً النار ، ننجي
الذين اتقوا ، فنخرجهم منها دبراً بذوقوا حرها ، ونذر الظالمين فيها جثياً ،
أي : وترك الظالمين في النار مخلدين فيها - جانين على ربهم ، عاجزين عن
الحركة . من شدة ما يصيبهم من هولها وسعيرها .
وبذلك زى الآيات الكريمة قد حكمت لنا أقوال الجاحدين في شأن
البعث والحساب ، وردت عليهم ردائهم ، كما أثبتت بأن البعث حق ،
وأن الحساب حق ، وأن الظالمين سيدخلون النار ، وأن المؤمنين سينجيهم
الله - تعالى - بفضلهم منها .

ثم تسوق السورة بعد ذلك موقف الكافرين عند سماعهم لآيات الله - تعالى -
كما تسوق ما قالوه المؤمنون على سبيل التفاخر عليهم ، ومارد به القرآن على
هؤلاء المترفين المتعاليين ، قال - تعالى - :

« وَإِذَا تَنَالَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ، أَيِ
الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ
أَحْسَنُ أَثْنَاءً وَرِثِيًّا (٧٤) قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ
مَدَدًا ، حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ ، إِنَّمَا الْعَذَابُ وَإِنَّمَا السَّاعَةُ ، فَسَيَعْلَمُونَ
مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (٧٥) وَيزيدُ الله الذين اهْتَدَوْا
هُدًى ، والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦) » .

فقرله - سبحانه - : « وإذا أتى عليهم آياتنا بينات . . . حكاية لما
قاله الكافرون المؤمنون على سبيل التباهي والتفاخر .
أى : وإذا أتى على هؤلاء المشركين المنكرين للبعث آياتنا البينات
الواضحات ، الدالة على صحة وقوع البعث والحساب يوم القيامة ، قال الذين
كفروا ، على سبيل العناد والتعالى ، للذين آمنوا ، بالله وملائكته وكتبه ورسله
واليوم الآخر ، قالوا لهم انظروا ، أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً . .
والمقام - بفتح الميم - : مكان القيام - والمراد به مساكنهم ومنازلهم التى
يسكنونها ويزلون بها .

والندى والنادى والمندى : مجلس القوم ومكان تجمعهم .
يقال : ندرت القوم أندوم ندوا ، إذا جمعتهم فى مجلس الانتداء . ومنه :
دار الندوة للمكان الذى كانت تجتمع فيه فريش للشعور فى أمورها .
أى : وإذا أتى على هؤلاء الكافرين آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقرئنا وعلى
أن البعث حق ، قالوا للمؤمنين على سبيل الإحتقار لهم : نحن وأنتم أينما خير
من الآخر مكاناً ، وأحسن مجلساً ومجتمعاً . فهم يتفاخرون على المؤمنين
بمساكنهم انفارعة ، ومجاالسهم التى يجتمع فيها أغنيائهم ووجهائهم .
قال الجبل فى حاشيته : . أى قالوا للمؤمنين : انظروا إلى منازلنا فتروها
أحسن من منازلكم وانظروا إلى مجلسنا عند التحدث ومجلسكم ، فترونا نجاس
ويصدر المجلس ، وأنتم تجلسون فى داره الخفير . فإذا كنا بهذه المثابة وأنتم بتلك
فمنع عن عند الله خير منكم ، ولو كنتم على حق لا كرمكم الله بهذه الأمور كما
أكرمنا بها ، (١) .

وما حكاة الله - تعالى - عن هؤلاء الكافرين فى هذه الآية ، قد جاء
ما يشبهه فى آيات أخرى ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « وقالوا نحن أكثر
أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين » ، (٢)

(١) حاشية الجبل على الجلالين ج ٢ ص ٧٤

(٢) سورة سبأ الآية ٣٥

وقد رداً لله - تعالى - على هؤلاء الجاهلين المغرورين بقوله : دكم أهلكتنا قبلهم من قرن هم أحسن أناثا ورثيا .

ودكم ، هنا خبرية ، ومعناها الإخبار عن العدد الكثير وهي في محل نصب على المفعول به بجملة د أهلكتنا ، ود من قرن ، تمييز لها . والقرن : اسم لأهل كل أمة تتقدم في الوجود على غيرها ، مأخوذ عن قرن الدابة لتقدمه فيها .

ود الأنثا ، المتاع للبيت . وقيل : هو الجديد من الفرائش ، وقد يطلق على المال بصفة عامة .

ود رثيا ، أى : منظراً وهيئته ومرءاً في العين مأخوذ من الرؤية التي تراها العين .

والمعنى : قل أيها الرسول الكريم - هؤلاء الكافرين المتباهين بساكنهم وبجاسمهم : لا تفتخروا ولا يفرحكم ما أنتم فيه من نعم ، فإنما هو نوع من الاستدراج ، فإن الله - تعالى - قد أهلك كثيراً من الأمم السابقة عليهم ، كانوا أحسن منكم متاعاً وزينة ، وكانوا أجمل منكم منظراً وهيئته . فلم ينفعهم أناتهم ورباشهم ومظهرهم الحسن ، عندما أراد الله - تعالى - إهلاكهم بسبب كفرهم وجحودهم .

فالآية السكرية تهديد للكافرين المعاصرين للنبي - صلى الله عليه وسلم - ورد على أقوالهم الباطلة ، وعنجهيتهم الذميمة . إذ لو كانت المظاهر والامتعة والهيئات الحسية تنفع أصحابها ، لنفعت أولئك المماسكين من الأمم السابقة .

وشبهه بهذه الآية في الرد على هؤلاء الكافرين قوله - تعالى - : وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى . إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك هم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون ، (١) .

وقوله - سبحانه - : « فذرني وهن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين ، (١) . »

ثم أمر الله تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يضيف إلى تمديد المصائب السابقة تمديد آخر فقال : « قل من كان في الضلالة فليمدده الرحمن مدا . . . »

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين المتفافرين بما كنهم ومظاهرم . . . قل لهم : من كان منعصما في الضلالة والشقاوة والغفلة . . . فقد اقتضت حكمة الله - تعالى - أن يمد له في العطاء كأن يطيل عمره ، ويوسع رزقه ، على سبيل الاستدراج والإمهال . . .

فصفة الطلب وهي قوله - تعالى - : « فليمدد » على هذا التفسير ، المراد بها : الإخبار عن سنة من سنن الله - تعالى - في خلقه ، وهي أن سننهُ - سبحانه - قد اقتضت أن يعمل الضالين ، وأن يزيد من العطاء الدنيوي ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

قال - تعالى - : « فلبسنا نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ، (٢) . »

وقال - سبحانه - : « ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ، (٣) . »

وقد صدر الألوسى تفسيره الآية بهذا التفسير فقال ما ملخصه : وقوله

(١) سورة القلم الآيتان ٤٤ ، ٤٥

(٢) سورة الأنعام الآيتان ٤٤ ، ٤٥

(٣) سورة آل عمران الآية ١٧٨

« قل من كان في الضلالة . . . أمر منه - تعالى - لرسوله صلى الله عليه وسلم - بأن يجيب على هؤلاء المتفاهرين بما لهم من الحظوظ الدنيوية . . .

وقوله : « فليمدد له الرحمن مداً ، أى : بمد - سبحانه - له ويمهله بطول العمر ، وإعطاء المال ، والتمكين من التصرفات ، فالطلب في معنى الخبر واختير للإيدان بأن ذلك مما ينبغي أن يفعل بموجب الحكمة لقطع المعاذير فيه - يكون حاصل المعنى : من كان في الضلالة فلا عذر له فقد أمهله الرحمن ومد له مداً وجوز أن يكون ذلك للاستدراج .

وحاصل المعنى : من كان في الضلالة فعادة الله أن يمد له ويستدرجه^(١) . ومن المفسرين من يرى أن صيغة "طلب" وهى « فليمدد » على بابها ، ويكون المقصود بالآية الدماء على الضال من الفريقين بالازدياد من الضلالة .

وعليه يكون المعنى : قل - أيها الرسول الكريم هؤلاء المتفاهرين ، من كان منا أو منكم على الضلالة ، فليزده الله من ذلك ، وكان الآية الكريمة تأمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بمباهلة المشركين كما أمره الله - تعالى - في آية أخرى بمباهلة اليهود في قوله : « قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء الله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . . »^(٢) .

وكما أمر الله بمباهلة النصارى في قوله - سبحانه - : « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ثم نبهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين »^(٣) .

ومن المفسرين الذين ساروا على هذا التفسير الإمامان ابن جرير وابن كثير ، فقد قال ابن كثير : يقول - تعالى - « قل ، يا محمد هؤلاء المشركين

(١) تفسير الألوسى ١٦ ص ١٢٦ .

(٢) سورة الجمعة الآية ٦٠ .

(٣) سورة آل عمران الآية ٦١ .

بربهم ، المدعين أنهم على الحق وأنكم على الباطل ، من كان في الضلالة ، أى منا ومنكم ، فليمدد له الرحمن مداً ، أى : فأمله الرحمن فيما هو فيه حتى يلقى ربه وينقضى أجله . . . قال مجاهد فى قوله ، فليمدد له الرحمن مداً ، فليدعه الله فى طغيانه هكذا ، قرر ذلك أبو جعفر بن جرير ، وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على الهدى فيما هم فيه كما ذكر - تعالى - مباهلة اليهود والنصارى . . . (١) .

ومع وجاهة لتفسير بن لمعنى ، فليمدد له . . . ، إلا أننا نميل إلى الرأى الأول وهو أن صيغة الطالب يراد بها الإخبار عن سنة الله - تعالى - فى الضالين ، لأنه هو المتبادر من معنى الآية الكريمة ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك ، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى . . . ، ويزيد هذا الرأى .

وقوله - سبحانه - : : حتى إذا رآوا ما يوعدون . . . ، متعلق بما قبله .
أى : فليمدد له الرحمن مداً على سبيل الاستدراج والإمهال ، حتى إذا رأى هؤلاء الكافرون ما توعدهم الله - تعالى - به ، علوا وأيقنوا أن الأمر بخلاف ما كانوا يظنون وما كانوا يقولون . لأنهم سينزل الله - تعالى - بهم ، إما العذاب ، الذى يؤى على أيدي المزمنين ، وإما الساعة ، أى : وإما عذاب الآخرة وهو أشد وأبقى .

وحينئذ يعلمون ويوقنون ، من هو ، من الفريقين ، شر مكاناً ، أى : أسوأ منزلاً ومسكناً ، وأضعف جنداً ، أى : وأضعف أعواناً وأنصاراً .

وهذه الجملة الكريمة رد على قول المشركين قبل ذلك : : أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندباً ، .

وقوله - تعالى - : : ويزيد الله الذين اهتدوا هدى . . . ، كلام مستأنف مسوق لبيان سنة الله - تعالى - التى لا تتخلف فى المهتدين ، بعد بيان سنته فى الضالين .

أى : ويزيد الله - تعالى - المهتدين إلى طريق الحق هداية على هدايتهم ، بأن يشبتهم عليه ، كما قال - سبحانه - : « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » . وكما قال - عز وجل - : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ... »

وقوله - تعالى - : « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مرداءً » أى : والأعمال الباقيات الصالحات كالصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها من أعمال البر ، خير عند ربك ثواباً وجزاء مما تمتع به الكفار فى دنياهم من شهوات وخير مرداء ، أى : مرجعاً وعاقبة .

وقال صاحب الكشف : « فإن قلت : كيف قيل : خير عند ربك ثواباً ، كان لمفاخراتهم ثواباً ، حتى يجعل ثواب الصالحات خيراً منه ؟ »

قلت : كأنه قيل : ثوابهم النار على طريقة قوله : تحية بينهم ضرب وجيع . ثم بنى عليه خير ثواباً ، وفيه ضرب من التهمك الذى هو أغبط للمتهددين أن يقال له : عقابك النار ... ، (١) .

والخلاصة أنه لا ثواب لهؤلاء الكافرين سوى النار ، أما المؤمنون فتوابهم جنات تجري من تحتها الأنهار .

وقال بعض العلماء : « ويظهر لى فى الآية جواب آخر أقرب من هذا ، وهو أن الكافر يحازى بعمله الصالح فى الدنيا ، فإذا برأ إليه ، ونفس عن المكروب ... فإن الله يشبهه فى الدنيا ... فتوابه هذا الراجع إليه من عمله فى الدنيا ، هو الذى فضل الله عليه ثواب المؤمنين ، وهذا واضح لا إشكال فيه » (٢) .

(١) تفسير الكشف ج ٣ ص ٣٨ .

(٢) تفسير أضواء البيان للشيخ الشنقيطى ج ٤ ص ٣٦٤ .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد حكمت جانباً من تباهى الكافرين
بدنيام ، وردت عليهم بما يخرس السنتهم .

ثم سافت السورة الكريمة بعد ذلك لونا آخر من ألوان تبجحهم ، وأقوالهم
الباطلة ، وردت عليها بأسلوب منطقي حكيم فقال - تعالى - :-

« أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالاً وَّوَلَدًا (٧٧) أَطْلَعَ
الْغَيْبَ أَمْ اِتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَعُدُّهُ لَهُ
مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنُزِّلُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) » .

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات منها ما أخرجه
البخاري ومسلم عن خباب بن الارت قال : جئت العاص بن وائل السهمي
أتقاضاه حقاً لي عنده ، فقال لي : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد - صلى الله
عليه وسلم - فقلت له : لا ، والله لا أكفر بمحمد - صلى الله عليه وسلم -
حياً ولا ميتاً ولا إذا بعث . فقال العاص : فإذا بعثت جئتني ولي هناك مال
وولد فأعطيك حقه ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآيات .

وفي رواية أن رجلاً من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - أتوه
يتقاضون ديناً لهم عليه فقال : أستمزعمن أن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً
ومن كل الثمرات ؟ قالوا : نعم . قال : موعدكم الآخرة والله لأوتين مالا
وولداً... (١)

والاستفهام في قوله - سبحانه - « أَفَرَأَيْتَ » ، للتعجب من شأن هذا
الكافر الجاهل والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام ، والتقدير : أنظرت
أيها العاقل فرأيت هذا الجاحد الجاهل الذي كفر بآياتنا الدالة على وحدانيتنا ،

أو على أن للبعث حق ، وعلى أن ما جاء به رسولنا - صلى الله عليه وسلم - حق وصدق ...

ولم يكتف بهذا الكفر ، بل قال بكل تبجح ، وإصرار على الباطل ، واستهزاء بالدين الحق : والله ، لاوتين ، في الآخرة مالا وولدا ، كما هو حالى فى الدنيا .

فأنت ترى أن هذا الكافر لم يكتف بكفره ، بل أضاف إليه القول الباطل المصحوب بالقسم الكاذب . وبالنهك بالدين الحق .

وقرأ حمزة والسكسائي : لاوتين مالا وولدا ، - بضم الواو الثانية وسكون اللام - ، وقرأ الباقر بفتحهما . قالوا : والقراءتان بمعنى واحد كالعرب والعرب . ويرى بعضهم الولد بالفتح للمفرد ، والولد - بضم الواو وسكون اللام - للجمع .

وقد رد الله - تعالى - على هذا المتبجح المغرور دأ حكيما ملزما فقال : أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا . كلا ...

والاستفهام للإنكار والنفي ، والأصل : أطلع خذفت همزة الوصل للتخفيف .

والمعنى : إن قول هذا الجاهل إما أن يكون مستقندا إلى إطلاعه على الغيب وعلمه بأن الله سيؤتيه فى الآخرة مالا وولدا ، وإما أن يكون مستقندا إلى عهد أعطاه الله - تعالى - له بذلك .

وبما لاشك فيه أن كلا الأمرين لم يتحققا بالنسبة له ، فهو لم يطلع على الغيب ، ولم يتخذ عند الله عهدا ، فثبت كذبه وافتراؤه ، ولذا كذبه الله - تعالى - بقوله : كلا ، وهو قول يفيد الزجر والردع والنفي .

أى : كلا لم يطلع على الغيب ، ولم يتخذ عند الرحمن عهدا . بل قال ذلك افتراء على الله .

وقوله - سبحانه - سنكتب ما يقول ونعد له من العذاب مدا . ونرثه ما يقول وبأئينا فردا . بيان للمصير السيئ الذي سيصير إليه هذا الشقي وأمثاله .
وعد ، من المدد أكثر ما يستعمل في المكروه .

أى : سنسجل على هذا الكافر ما قاله ، ونحاسبه عليه حسابا عسيرا ، ونزيده عذابا فوق العذاب المعد له ، بأن نضاعفه له ؛ ونطيله عليه ، ونرثه ما يقول ،
أى : ما يقول إنه . وتناه يوم القيامة من المال والولد ؛ بأن نسلبه منه ، ونجعله يخرج من هذه الدنيا خالى الوفاض منها ، وليس معه فى قبره سوى كفه
وبأئينا فردا ، أى : وبأئينا يوم القيامة بعد مبعثه منفردا بدون مال أو ولد أو خدم أو غير ذلك مما كان يتفاخر به فى الدنيا هو . وأشباهه من
المغرورين الجاحدين .

قال صاحب الكشف : « فإن قلت كيف قيل : سنكتب بسين التسويف وهو كما قاله كتبه من غير تأخير . قال - تعالى - : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » ؟

قلت : فيه وجهان : أحدهما : سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله على طريقة قول الشاعر :

إذا ما انتسبنا لم تلدنى لثيمة ولم تجدى من أن تقرى بها بدا
أى : تبين وعلم بالانتساب أنى لم تلدنى لثيمة .

والثانى : أن المتوعد يقول للجاني : سوف أنتقم منك ، يعنى أنه لا يخل بالانتصار وإن تطاول به الزمان واستأخر ، فجردها هنا لمعنى الوعيد (١) .

ثم تسوق السورة الكريمة بعد ذلك ألوانا أخرى من ردائل المشركين ، فتحكى اعتزازهم بأوثانهم ، وثبتت عداوة هذه الأوثان لهم يوم القيامة ،

وتبشر المؤمنين برضا الله - تعالى - عنهم. وتذذر الكافرين بالسوق إلى جهنم .
قال - تعالى - :

« واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عبيداً (٨١) كلاً سيكفرون
بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً (٨٢) ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على
الكافرين تؤزّم أزا (٨٣) فلا تعجل عليهم إنما نعدّ لهم عدداً (٨٤) يوم
نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً (٨٥) ونسوق المجرمين إلى جهنم
ورداً (٨٦) لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً (٨٧) » .

والضمير في قوله : « واتخذوا ، يعود إلى أولئك الكافرين الذين ذكر
القرآن فيما سبق بعض رذائلهم ودعواهم الكاذبة ، ولما تفتت بعد :
أي : واتخذ هؤلاء الجاهلون آلهة باطلة يعبدونها من دون الله - تعالى - ،
لتكون لهم تلك الآلهة دُعَا دُأى : لينالوا بها العزة والشفاعة والنصرة
والنجاة من عذاب يوم القيامة .

فقد حكى القرآن أنهم كانوا إذا سئلوا عن سبب عبادتهم لهذه الأصنام
التي لا تنفع ولا تضر قالوا : « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، وقالوا :
« هؤلاء شفعاؤنا عند الله ... »

وقد رد الله - تعالى - عليهم بما ردّهم عن هذا الظن لو كانوا يمتثلون فقال :
« سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً » .

و كلا ، لمعذ جيء لجرم وردّهم عن هذا الاختاد الفاسد الباطل .
أي : ليس الأمر كما توهم هؤلاء الجاهلون من أن أصنامهم ستكون لهم
غرا ، بل الحق أن هذه المعبودات الباطلة ستكون عدوة لهم وقرينتهم في النار .
وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من

لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعااتهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين (١).

وقوله - سبحانه - : إن تدعهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة تكفرون بشركم ، ولا ينبئك مثل خبير ، (٢).

وأفرد - سبحانه - عزاً وضداً ، مع أن المراد بهما الجمع . لأنهما مصدران ثم بين - عز وجل - أن هؤلاء الكافرين قد استحوذت عليهم الشياطين فزادتهم كفراً على كفرهم ، فقال - تعالى - : ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً . فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً .

والاستفهام للتقرير والتأكيد . تؤزهم ، تحركهم تحريكاً قوياً ، وتهزمهم هذا شديداً ، وتعرضهم على إرتكاب المعاصي والموبقات حتى يقعوا فيها . يقال : أن فلان الشيء يثره ويؤزه - بكسر الهمزة وضم الاز ، حر كة بشدة ، وأز فلان فلاناً إذا أغراه وهدجه وحشه على فعل شيء معين . وأصله من أوت القدر تؤز أزيراً ، إذا اشتد غليان الماء فيها .

والمعنى : لقد علمت أنت وأنبا عك أيها الرسول الكريم ، أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين ، وسلطانهم عليهم ، وقبضناهم لهم . لكي يحضوهم على إرتكاب السيئات ، ويحركهم تحريكاً شديداً نحو الموبقات حتى يفتروها وينغمسوا فيها . . .

وما دام الأمر كذلك ، فذرهم في طغيانهم يعمهون ، ولا تتعجل وقوع العذاب بهم . فإن الله - تعالى - قد حدد - بمقتضى حكمته - وقتاً معيناً لنزول العذاب بهم . وقوله : إنما نعد لهم عداً ، تعليل للموجب النهي ببيان أن وقت هلاكهم قد اقترب ، إذ كل محدود له نهاية ينتهي عندها .

قال القرطبي ماملاً خصه : قوله : إنما نعد لهم عداً ، يعني الأيام والليالي

والشهور والسنين إلى انتهاء أجل العذاب .. وقال الضحاك : تعد أنفاسهم .
وقال قطرب : تعد أعماطهم عدا .

روى أن المأمون قرأ هذه السورة فمر بهذه الآية وعنده جماعة من الفقهاء
فاشار برأسه إلى ابن السباك أن يعظه ، فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ، ولم
يكن لها مدد ، فما أسرع ما تنفذ وقيل في هذا المعنى :

حياتك أنفاس تعد فكلما مضى نفس منك انتقصت به جزءا
يحييك ما يحييك في كل ليلة ويحدوك حاد ما يريد به الهزأ . (١)

وكان ابن عباس - رضى الله عنهما - إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : آخر
العدد : خروج نفسك . آخر العدد : فراق أهلك . آخر العدد : دخول قبرك .

ثم بين - سبحانه - عاقبة المتقين ، وعاقبة المجرمين يوم القيامة فقال :
« يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا . ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا . »
لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ، ويوم ، ظرف منصوب
بقوله لا يملكون ... ، أى : لا يملكون الشفاعة يوم نحشر المتقين ...
ويجوز أن يكون منصوبا بفعل محذوف تقديره : أذكر أو أحذر .

وقوله : « وفدا ، جمع وافد . يقال : وفد فلان على فلان يفد وفدا
ووفودا ، إذ أقدم عليه وفعله من باب وعد .

ويطلق الوفد على الجمع من الرجال الذين يفدون على غيرهم لأمر من الأمور
الهامة ، وهم راكبون على دوابهم . وهذا الإطلاق هو المراد باللفظ هنا .

والمعنى : وأذكر - أبها العاقل - يوم القيامة ، يوم نحشر المتقين إلى الجنة
الرحمن ، ودار كرامته راكبين على مراكب تنشرح لها النفوس وتسرح
لها القلوب .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: «يخبر الله - تعالى - عن أوليائه المتقين ، الذين خافوه في الدار الدنيا ، واتبعوا رسله وصدقوه ، أنه يحشرهم يوم القيامة وفداً إليه . والوفد هم القادمون ركباناً ومنه الوفود ، وركوبهم على نجائب من زر من مراكب الدار الآخرة ، وهم قادمون على خير موفود إليه ، إلى دار كرامته ورضوانه . . .»

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج . . . عن ابن مرزوق قال : يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رأها ، وطيبها ريحاً ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أما تعرفني ؟ فيقول : لا ، إلا أن الله - تعالى - طيب ريحك وحسن وجهك . فيقول : أنا عملك الصالح . . . فاركني ، فذلك قوله : يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً (١) .

وقوله - تعالى - : «ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ، بيان لسوء عاقبة المجرمين بعد بيان ما أعدده الله للمتقين من نعم .

و«ورداً ، أى : عطاشاً . وأصل الورد الأنان إلى الماء بقصد الارتواء منه بعد العطش الشديد .

أى : ونسوق المجرمين الذين ارتكبوا الجرائم في دنياهم ، ونسرقهم سوقاً إلى جهنم كما تساق البهائم . حالة كونهم عطاشاً ، يبحثون عن الماء فلا يجدونه .

والضمير في قوله - تعالى - : «لا يملكون الشفاعة . . .» يرى بعضهم أنه يعود إلى المجرمين في قوله : «نسوق المجرمين . . .» .

أى : نسوق المجرمين إلى جهنم عطاشاً ، حالة كونهم لا يملكون الشفاعة لغيرهم . ولا يستحقون أن يشفع لهم غيرهم ، لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً وهم المؤمنون الصادقون فإنهم يملكونها بتمليك الله - تعالى - لهم إياها

وإذنه لهم فيها ، كما قال - تعالى - : « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ... »
وكما قال - سبحانه - : « وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا
من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » .

وعلى هذا التفسير يكون الاستثناء منقطعاً .

قال القرطبي : « قوله - تعالى - « لا يملكون الشفاعة » أى : هؤلاء الكفار
لا يملكون الشفاعة لأحد ، إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ، وهم المسلمون
فيملكونها . فهو استثناء الشيء من غير جنسه . أى : لكن من اتخذ عند
الرحمن عهداً يشفع ، فمن في موضع نصب على هذا ... ويرى آخرون أن
الضمير في قوله : « لا يملكون ... » يعود إلى فريق المتقين والمجرمين .

أى : لا يملك أحد من الفريقين يوم القيامة الشفاعة لأحد ، ولا يملك
غيرهم الشفاعة هم ، « إلا من اتخذ » منهم « عند الرحمن عهداً » ، وهم المؤمنون
فإنهم يملكونها بإذن الله هم .

والمراد بالعهد الأمر والإذن . يقال عهد الأمير إلى فلان بكذا إذا
أمره به ، أو أذن له في فعله .

وعلى هذا يكون الاستثناء متصلاً ، ويكون لفظ « من » بدل من الواو
في « يملكون » .

قال الألوسى ماباحه : « قوله « لا يملكون الشفاعة » ضمير الجمع يعم
المتقين والمجرمين ، أى : العباد مطلقاً ... وقوله « إلا من اتخذ عند الرحمن
عهداً » استثناء متصل ... والمعنى : لا يملك العباد أن يشفعوا لغيرهم ، إلا من
اتصف منهم بما يستأهل منه أن يسمع ، وهو المراد بالعهد ... » (١) .

ويدلنا أن هذا القول أولى ، اشموله وعمومه إذ الكلام السابق في
الفريقين جميعاً ، فريق المتقين وفريق المجرمين .

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ١٥٣ .

(٢) تفسير الألوسى ج ١٦ ص ١٣٧ .

ثم يستطرد السياق القسري ، إلى حكاية أقوال أخرى ، من أقوال الكافرين الباطلة ، وهي زعمهم أن الله - تعالى - ولد ، فقال - سبحانه - :

« وقالوا اتخذ الرحمن ولداً (٨٨) لقد جئتم شيئاً إداً (٨٩) تكادُ السمواتُ ينفطرنَ منه وتنشقُ الأرضُ وتخِرُ الجبالُ هداً (٩٠) أنْ دعوا للرحمنِ ولداً (٩١) وما تنبئُ للرحمنِ أنْ يتخذَ ولداً (٩٢) إنْ كلُّ منْ في السمواتِ والأرضِ إلا آتِيَ الرحمنِ عبداً (٩٣) لقد أحصاهمُ وعدمُ هداً (٩٤) وكلهم آتية يومَ القيامةِ فرداً (٩٥) » .

والضمير في قوله - تعالى - : : وقالوا ، يشمل كل من نفوه بهذا القول الباطل سواء أكان من اليهود أم من النصارى أم من المشركين .

وقوله : : لقد جئتم شيئاً إداً ، توحيح وتفريع من الله - تعالى - لهم على هذا القول المنكر .

أي : لقد جئتم بقولكم هذا أيها الضالون شيئاً فظيلاً عجبياً منكراً تقشعر لهولة الإبدان .

والإد والإدة - بكسر الهمزة - الأمر الفظيع - والداهية الكبيرة يقال : فلان أدته الداهية فهي تده وتوده ، إذا نزلت به وحطمت كيانه .

وقوله - سبحانه - : : تكاد السموات ينفطرن منه . . . ، في موضع الصفة لقوله ، إداً ، .

أي : لقد جئتم بقولكم هذا أمراً منكراً فظيلاً ، تكاد السموات ينفطرن منه ، أي : ينشققن من هولته ، من التفطير بمعنى التشقيق ، يقال : فلان فطر هذا الشيء يفطره - بكسر الطاء وضمها - إذا شقه . وقرأ حمزة وابن عسر : ينفطرن ، من الإنفطار وهو الانفشاق - أيضاً . .

« وتنشق الأرض ، أي : وتصدع الأرض من عظمته ، وتنخسف بهؤلاء

القائلين ذلك القول الفاسد ، ونحز الجبال هداً ، (١) أى : ونسقط الجبال مهدودة - أيضاً - من فظاعة هذا القول . يقال هذا الجدار يهدد - نعم الهاء - هداً : إذا هدمه .

وقوله : د أن دعوا للرحمن ولدا ، بمنزلة التعليل لما قبله مع تقدير لام التعليل المحذوفة .

أى : تكاد السموات يتفطرن والأرض تشقق ، والجبال تنهد ، لأن هؤلاء الضالين قد زعموا أن الله - تعالى - ولدا ، والحال أنه ما يصح وما يليق أن يتخذ الرحمن ولداً ، لأنه - سبحانه - غنى عن العالمين .

قال صاحب الكشف ما ملخصه : د فإن قلت ما معنى هذا التأثر من أجل هذه الكلمة ؟

قلت : فيه وجهان : أحدهما : أن الله سبحانه - يقول : كدت أفعل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضباً منى على من تفوه بها ... لولا أنى لا أعجل بالعقوبة ...

والثانى : أن يكون استعظاماً للكلمة ، ونهواً من فظاعتها وتصويراً لآثرها فى الدين ، وهدمها لأركانها وقواعده ، وأن مثال ذلك الأثر فى المحسوسات : أن يصيب هذه الأجرام العظيمة التى هى قوام العالم ما تنفطر منه وتنشق ونحز ... ، (٢) .

وقال الإمام القرطبي : نفى عن نفسه - سبحانه - تعالى - الولد ، لأن الولد يقتضى الجنسية والحدوث ... ولا يليق به ذلك ، ولا يوصف به ، ولا يجوز فى حقه ...

وروى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) تفسير الكشف ج ٣ ص ٤٤ .

(٢) تفسير الكشف ج ٣ ص ٤٤ .

يقول الله - تبارك وتعالى - كذبت ابنة آدم ولم يكن له ذلك . وشت منى ولم يكن له ذلك . فأما تكذيبه لإبى فقله : ان يعيدنى كما بدأتى ، وليس أول الخلق بأهون على من لعادته . وأما شتمه لإبى فقله : اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، (١) .

ثم بين - سبحانه - أن جميع المخلوقات خاضعة لقدرته وإرادته وعلمه فقال : د إن كل من فى السموات ولأرض إلا آت الرحمن عبداً

و د إن ، نافية بمعنى ما ، أى : ما من أحد من أهل السموات والأرض إلا وهو يأتى يوم القيامة مقرأ له - سبحانه - بالعبودية ، خاضعاً لقدرته ، معترفاً بطاعته . مقرأ بأنه عبد من مخلوقاته ، ومن كان كذلك فكيف يكون له ولد ؟

وصدق الله إذ يقول : د بديع السموات والأرض ، أنى يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شىء ، وهو بكل شىء عليم ، (٢) .

ثم أكد - سبحانه - أنه هو المالك لكل شىء ، والعليم بكل شىء . فقال : د لقد أحصاهم . . .

أى : حصرهم وأحاط بهم ، بحيث لا يخرج أحد من مخلوقاته عن علمه وطاعته ووعدهم عداء ، أى : وعد أشخاصهم وذاتهم وحركاتهم وسكناتهم ... بحيث لا يهربون من قبضته ، ولا يخفى عليه أحد منهم .

وكلهم آتاه يوم القيامة فرداً ، أى : وكل واحد يأتيه - سبحانه - يوم القيامة منفرداً ، بدون أهل أو مال أو جاه ... أو غير ذلك مما كانوا يتفاخرون به فى الدنيا .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ١١ ص ١٥٩ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٠١ .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ردت أبلغ رد وأحكم ، على أولئك الضالين الذين زعموا أن الله ولداً .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان ما أعد له عباده المؤمنين ، وبيان بعض الخصائص التي جماعها لمكتابه الكريم ... فقال - تعالى - :

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ الرَّحْمَنُ وِدًا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسِرْنَ هَدًى بِلسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَدَا (٩٧) وَكَم أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هَلْ تَحْسُبُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) » .

أى : إن الذين آمنوا بالله - تعالى - حق الإيمان ، وعملوا الأعمال الصالحة ، سيجعل لهم الرحمن ، في دنياهم وفي آخرتهم ، وداً ، أى : سيجل لهم محبة ومودة في القلوب ، لإيمانهم وعملهم الصالح ، يقال : ود فلان فلانا ، إذا أحبه وأخلص له المودة .

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن الله تعالى - إذا أحب عبد جبريل فقال : يا جبريل إني أحب فلانا فأحبه . قال : فيحبه جبريل . ثم ينادى في أهل السماء : إن الله يحب فلانا فأحبوه . قال : فيحبه أهل السماء . ثم يوضع له القبول في الأرض ، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال : يا جبريل إني أبغض فلانا فأبغضه . قال : فيبغضه جبريل ثم ينادى في أهل السماء : إن الله يبغض فلانا فأبغضوه .

قال : فيبغضه أهل السماء ، ثم توضع له البغضاء في الأرض ، (١) .

ثم بين - سبحانه - الحكمة التي من أجلها جعل القرآن مبسراً في حفظه وفهمه فقال : « فَإِنَّمَا يَسِرْنَ هَدًى بِلسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ، وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَدَا ، » .

أى : أننا أنزلنا هذا القرآن على قلبك - أيها الرسول الكريم - وجعلناه
 بلسانك العربى المبين ، وسهلنا حفظه وفهمه على الناس ، لتبشر به المتقين ،
 الذين امتثلوا أمرنا واجتنبوا نهينا ، وتنذر به قوماً لداً ، أى : ذوى لدد
 وشدة فى الخصومة بالباطل ، وهم مشركو قریش . فقله : لداً ، جمع الد ومنه
 قوله - تعالى - : ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على
 ما فى قلبه وهو الد الخصام ، (١) أى أشد الناس خصومة وجدلاً .

وشبهه بهذه الآية الكريمة قوله - تعالى - : ولقد يسرنا القرآن للذكر
 فهل من مدكر ، (٢) .

وقوله - سبحانه - : فإنما يسرناه بلسانك لعلمهم بذكرى ، (٣) .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية التى تخبر عن سنة من سنته
 فى الظالمين فقال : . وكم أهلكتنا قبلك من قرن هل نخص منهم من أحد أو نسمع
 لهم ركزاً ، .

أى : وكثير من القرى الظالمة التى سبقتك - أيها الرسول الكريم - قد
 أهلكتها وأبدناها وجعلناها خاوية على عروشها .

والاستفهام فى قوله : هل نخص منهم من أحد ، للنفي : أى : ما نخص
 منهم أحداً ولا ترى منها دياراً . يقال : أحس الرجل الشئ إحساساً . إذا
 علمه وشعر به .

وقوله : أو نسمع لهم ركزاً ، معطوف على ما قبله ، والركز : الصوت
 الخفى الخافت . ومنه قولهم ركز فلان رعه ، إذا غيب طرفه وأخفاه فى
 الأرض . ومنه الركاز الدال المدفون فى الأرض .

(٢) سورة القمر آية ١٧ .

(١) سورة البقرة آية ٢٠٤ .

(٣) سورة المدخان آية ٥٨ .

والمعنى : أهـلـكـنـا كـثـيـرـاً مـن القـرى اظـالـمـة المـاضـيـة ، فأصـبـحـت لا تـرى مـنـهـم أحـدا عـلى الإطـلاق ، ولا تـسـمـع لـهـم صـوـنا حـتى ولو كان خـافـتـا ضـعـيـفـا وإنـما مـ فى سـكـون عـمـيق ، وصـمـت رـهـيب ، بـعد أن كانوا فـوق هـذه الأـرض يـدبـون ويـتـحـركـون .

وهـذه سـنـتـنا الـتى لا تـتـخـلف فى الظـالـمـين . « نـمـتـهـم قـايـلا ثم نضـطـرهم إلى عـذاب غـليـظ ، نـعوـذ بـالله - تعالى - مـن ذلـك .

وبـعد : فـهـذا تـفـسـير لـسـورة مـريـم ، نـسـأل الله - تعالى - أن يـجـعـله خـالصـا لـوجـهه ، ونـافـعا لـعبـاده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر ، ظهر الاثنين ١٧ من شوال سنة ١٤٠٤ هـ الموافق

١٦/٧/١٩٨٤ م .

د / محمد سيد طنطاوى

مفتى جمهورية مصر العربية

فهرس إجمالى لتفسير « سورة مريم »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة	٥
١	كريمس ذكر رحمة ربك ...	١١
٧	ياذكر يا إنا نبشرك بفلام ...	١٧
١٢	يابحى خذ الكتاب بقوة ...	٢١
١٦	واذكر فى الكتاب مريم ...	٢٤
٢٢	فلمنه فانبذت به مكانا ...	٢٩
٢٧	فأنت به قومها تحمله ...	٣٦
٣٤	ذلك عيسى ابن مريم قوله الحق . . .	٤٠
٤١	واذكر فى الكتاب إبراهيم ...	٤٦
٥١	واذكر فى الكتاب موسى ...	٥١
٥٤	واذكر فى الكتاب إسماعيل ...	٥٣
٥٦	واذكر فى الكتاب إدريس ...	٥٥
٥٨	أولئك الذين أنعم الله عليهم ...	٥٦
٦٤	وما ننزل إلا بأمر ربك ...	٦٣
٦٦	ويقول الإنسان أئذا ماتت ...	٦٦
٧٣	وإذا تنلى عليهم آياتنا بينات ...	٧٣
٧٧	أفرايت الذى كهر بآياتنا ...	٨٠
٨١	واخذوا من دون الله آلهة ...	٨٣
٨٨	وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ...	٨٨
٩٦	إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ...	٩١

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة طه

دكتور
محمد شفيق طنطاوي
مفتي جمهورية مصر

الجزء السادس عشر

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾
• صدق الله العظيم •

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، ومن
والاه .

أما بعد : فهذا تفسير لسورة طه ، يأتي في أعقاب تفاسير أخرى ،
لسور أخرى ...

أسأل الله - تعالى - أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ، وثافيا لعياده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

القاهرة - مدينة نصر

٢٢ من شوال سنة ١٤٠٤ هـ - ٢٢ / ٧ / ١٩٨٤ م

المؤلف

د / محمد سيد طنطاوى

تعريف بسورة طه

١ - سورة طه ، من السور المسكية . وكان ترتيبها في النزول بعد سورة مريم .

قال الألوسي : وتسمى - أيضا - بسورة الكليم . . . وآياتها - كما قال الداني مائة وأربعون آية عند الشاميين ومائة وخمس وثلاثون عند الكوفيين ، ومائة وأربع وثلاثون عند الحجازيين . . . (١) .

وقال القرطبي : «سورة طه - عليه السلام - مكية في قول الجميع، نزلت قبل إسلام عمر - رضي الله عنه ، فقد قيل له : إن خنتك وأختك قد صبوا - أي : دخلا في الإسلام - فأتاهما وعندهما رجل من المهاجرين . . . وكانوا يقرءون طه ، . . . » (٢) .

٢ - وقد افتتحت السورة السكريمة بخطاب النبي - صلى الله عليه وسلم - وبيان وظيفته ، وبيان سمو منزلة القرآن الكريم ، الذي أنزل عليه ربه الذي له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما ونحو الثرى .

قال - تعالى - : «طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلا من خلق الأرض والسموات العلا . الرحمن على العرش استوى . . . »

ثم فصلت السورة السكريمة الحديث عن قصة موسى - عليه السلام - فبدأت بثناء الله - تعالى - له ، وباختياره لحل رسالته ، ثم تحدثت عن تكليفه - سبحانه - لموسى ، بالذهاب إلى فرعون . . .

(١) تفسير الألوسي ج ١٦ ص ١٤٧ .

(٢) تفسير القرطبي ج ١١ ص ١٦٣ .

قال - تعالى - : د اذهب إلى فرعون إنه طغى قال رب اشرح لى صدرى .
وبسر لى أمرى . واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى . واجعل لى وزيراً من
أهل . هارون أخى . اشدد به أزرى . وأثرك فى أمرى

٤ - ثم حكّت السورة مادار بين موسى وبين فرعون من مناقشات
ومجادلات ، وكذلك مادار بين موسى وبين السحرة الذين جمعهم فرعون للمنازلة
موسى - عليه السلام - وكيف أن السحرة انتهى أمرهم بالإيمان ، وبقولهم
لفرعونق : د لن نؤترك على ما جاءنا من البينات والذى فطرننا فاقض ما أنت
قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آثمنا ربنا ليغفر لنا خطايانا .
وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى

٥ - ثم بينت السورة الكريمة ما فعله بنو إسرائيل فى غيبة موسى عنهم ،
وكيف أن السامرى قد أضلهم بأن جعلهم يعبدون عجلاً له خوار . . . وكيف
أن موسى رجع إليهم غضبان أسفا . . . خطم العجل وأحرقه وألقاه فى اليم
وهو يقول : د إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علماً . .

٦ - وبعد أن فصلت السورة الكريمة الحديث عن قصة موسى - عليه السلام -
عقبت على ذلك ببيان وظيفة القرآن الكريم ، وبيان جانب من أهوال يوم
القيامة ، وسوء عاقبة الكافرين ، وحسن عاقبة المؤمنين ..

قال - تعالى - : د وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلماً .
ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً

٧ - ثم ساقّت السورة فى أواخرها جانباً من قصة آدم ، قد كرت سجود
الملائكة له ، ونسيانه لأمر ربه ، وقبول الله - تعالى - لتوبة آدم بعد أن
وسوس له الشيطان بما وسوس

قال - تعالى - : د ولقد عهدنا لى آدم من قبل فدى ولم نجد له عزماً .
وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى . فقلنا يا آدم إن هذا
عدوك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى

٨ - ثم ختمت السورة الكريمة بأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بالصبر
وبالإكثار من ذكر الله - تعالى - وبعدم التطلع إلى زهرة الحياة الدنيا ،
وبأمر أهله بالصلاة ، وبالرد على مزاعم المشركين ، وبتهديدهم بسوء العاقبة
إذا ما استمروا على ضلالهم ...

قال - تعالى - : : قل كل متربص فتربصوا ، فستعلمون من أصحاب
الهرط السوى ومن اهتدى .

٩ - هذا عرض لإجمالى لأهم المقاصد التى اشتملت عليها سورة طه . ومن
هذا العرض نرى : أن القصة قد أخذت جانباً كبيراً منها ، وكذلك الحديث
عن القرآن الكريم وعن يوم القيامة ، وعن أحوال الناس فيه ... قد تكرر
فيها بأسلوب يهدى للقى هى أقوم ...

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

التفسير

قال الله - تعالى - : « طه (١) ما أنزلنا عليك القرآن لنشقى (٢) إلا تذكرة لمن يخشى (٣) تنزيلاً يمين خلق الأرض والسموات العلأ (٤) الرحمن على العرش استوى (٥) له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى (٦) وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى (٧) الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى (٨) » .

افتتحت السورة الكريمة بلفظ « طه » ، وهذا اللفظ أظهر الأقوال فيه أنه من الحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم . وقد بينا بشئ من التفصيل عند تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ... آراء العلماء فى المقصود بهذه الحروف . وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المنطمة قد وردت فى افتتاح بعض سور القرآن الكريم ، على سبيل الإيقاظ والتذكير والتعجب لمن عارضوا فى كون القرآن من عند الله - تعالى - ، أو فى كونه معجزة للنبي - صلى الله عليه وسلم - دالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه ...

وقيل : إن هذا اللفظ بمعنى يارجل فى لغة بعض قبائل العرب ...

وقيل : لأنه اسم للرسول - صلى الله عليه وسلم - أو للسورة ... إلى غير ذلك من الأقوال التى رأينا أن نضرب عنها صفحاً لضيقها (١) .

وقوله - سبحانه - وما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . . .

استئناف مسوق لتسليية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من المشركين : والشفاء يأتي في اللغة بمعنى التعب والعناء ، ومنه المثل القائل : أشقى من راتض مهر ، أى : أعجب . ومنه قول أبي الطيب المتنبي :

ذو العقل يستقى في النعيم بعقله وأخو الجمالة في الشقاوة ينعم

أى : ما أنزلنا عليك القرآن - أيها الرسول الكريم - لكي تتعب وتجهد نفسك هما وغداً بسبب إعراض المشركين عن دعوتك ، كما قال - تعالى - :
فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً .

ولأنما أنزلناه إليك لتسعد بنزوله ، وتبلغ آياته ، ثم بعد ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، فأنت عليك البلاغ ونحن علينا الحساب .

ومنهم من يرى أن المقصود بالآية النهى عن المغالاة في العبادة ، فقد أُرِ عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قام الليل حتى تورمت قدماه ، فيكون المعنى : ما أنزلنا عليك القرآن لكي تنهك نفسك بالعبادة ، وتذيبها ألوان المشقة والتعب ، فإن الله - تعالى - يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، وما جعل عليكم في الدين من حرج .

ومنهم من يرى أن الآية مسوقة للرد على المشركين ، الذين قالوا : ما أنزل هذا القرآن على محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا ليشقى ، فيسكون المراد بالشفاء ما هو ضد السعادة .

قال القرطبي ما ملخصه : وأصل الشفاء في اللغة العناء والتعب ، أى : ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب ، بسبب فرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم . . .
أى : ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر . . .

وروى أن أبا جهل والنضر بن الحارث قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم -
إنك لشقي لأنك تركت دين آبائك ، فأريد الرد على ذلك بأن دين الإسلام ،
وهذا القرآن هو السلم إلى نيل كل فوز ، والسبب في درك كل سعادة ، وما فيه
الكفرة هو الشقاوة بعينها .

وروى أنه - عليه الصلاة والسلام - صلى بالليل حتى أسفدت قدماءه -
أى : نورمت - فقال له جبريل : أبوق على نفسك فإن لها عليك حقاً ، أى :
ما أنزل عليك القرآن لتنتهك نفسك في العبادة ، وتذيقها المشقة الفادحة ،
وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة . . . ، (١) .

ويبدو لنا أن الآية الكريمة وإن كانت تنسج هذه المعاني الثلاثة ، إلا
أن المعنى الأول أظهرها ، وأقربها إلى سياق الآيات الكريمة ، فإن قوله
- تعالى - بعد ذلك : « إلا تذكرة لمن يخشى » ، يبين للحكمة التى من أجلها أنزل
الله - تعالى - هذا القرآن .

أى : ما أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن لتتعب من فرط تأسفك على كفر
المكافرين ، وإنما أنزلناه من أجل أن يكون « تذكرة » أى مرهظة نلين لها
قلوب من يخشى عقابنا ، ويخاف عذابنا ، ويرجو ثوابنا .

وما دام الأمر كذلك فامض في طريقك ، وبلغ رسالة ربك ، ثم بعد ذلك
لا تتعب نفسك بسبب كفر المكافرين ، فإنك لا تهدي من أحببت واسكن الله
يهدي من يشاء .

وخص - سبحانه - التذكرة بمن يخشى دون غيره ، لأن الخائف من عذاب
الله - تعالى - هو وحده الذى ينتفع بهدايات القرآن الكريم وآدابه وتوجيهاته
وأحكامه ووعدته ووعيده . . . كما قال - تعالى - : « فذكر بالقرآن من يخاف
وعيده ، وكما قال - سبحانه - : « إنما أنت منذر من يخشاها ، أى : الساعة .

ثم بين - سبحانه - مصدر القرآن الذي أنزله - تعالى - للمساعدة لا للشقاء فقال : « تنزيلا من خلق الأرض والسموات العلى » .

وقوله « تنزيلا » منصوب بفعل مضمر دل عليه قوله ما أنزلناه . . .
أى : نزل هذا القرآن تنزيلا من خلق الأرض التى تعيشون عليها ، ومن خلق السموات العلى ، أى : المرتفعة . جمع العاليا - ككبرى وكبر ، وصغرى وصغر .
ثم مدح - سبحانه - ذاته بقوله : « الرحمن على العرش استوى » ، أى :
الرحمن - عز وجل - استوى على عرش ملكه استواء يليق بذاته بلا كيف
أو تشبيه ، أو تمثيل .

قال الإمام مالك : الاستواء غير مجمول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وقد ذكر لفظ العرش فى إحدى وعشرين آية من آيات القرآن الكريم .
قال بعض العلماء : أما الاستواء على العرش فذهب سلف الأمة - ومنهم
الأئمة الأربعة - إلى أنه صفة الله - تعالى - لا كيف ولا احصار ولا تشبيه
ولا تمثيل ، لاستحالة انضافه - تعالى - بصفات المحدثين ، ولوجوب تنزيهه
- تعالى - عما لا يليق به : « ليس كمثله شئ » وهو السميع البصير ، وأنه يجب
الإيمان بها كما وردت ، وتفويض العلم بحقيقتها إليه - تعالى . . . (١) .

ثم أكد - سبحانه - شمول ملكه وقدرته فقال : « له ما فى السموات
وما فى الأرض » ، من كائنات وموجودات ملكا وتصرفا وإحياء وإماتة ، وله
« ما بينهما » من مخلوقات لا يعلمها إلا هو وله « ما تحت الثرى » : هو القرب
الندى . يقال : ثريت الأرض - كرضيت - إذا نديت ولانت بعد أن كانت
جذباء يابسة .

والمقصود : وله - سبحانه - بجانب ما فى السموات وما فى الأرض
وما بينهما ، ما رواه الثرى وهو نخوم الأرض وطبقاتها إلى نهايتها .

(١) تفسير صلوة البيان ١٠ ص ٢٩٤ فضيلة الشيخ حسين محمد مخلوف .

وخص - سبحانه - ما تحت الثرى بالذكر ، مع أنه داخل في قوله وما في الأرض . : لزبادة التقرير ، ولتأكيد شمول ملكيته - سبحانه - لكل شيء .
وقوله - سبحانه - : : وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، بيان لشمول علمه بكل شيء ، بعد بيان شمول قدرته .

والجهر بالقول : رفع الصوت به . والسر : ما حدث به الإنسان غيره بصورة خفية . وأخفى أفعل تفضيل وتنكيره للدبالغة في الخفاء .

والمعنى : وإن تجهر - أيها الرسول - بالقول في دعائك أو في مخاطبتك لربك ، فربك - عز وجل - غنى عن ذلك ، فإنه يعلم ما يحدث به الإنسان غيره سرا ، ويعلم أيضا ما هو أخفى من ذلك وهو ما يحدث به الإنسان نفسه دون أن يطلع عليه أحد من الخلق .

قال - تعالى - : : وأسرأ قولكم أو أجهروا به إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ، (١) .

وقال - سبحانه - : : ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، (٢) .

ومنه من يرى أن لفظه : أخفى ، فعل ماض . فيكون المعنى : وإن تجهر بالقول في ذكر أو دعاء فلا تجهد نفسك بذلك فإنه - تعالى - يعلم السر الذي يكون بين اثنين ، ويعلم ما أخفاه - سبحانه - عن عباده من غيوب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما سيفعله الإنسان من أعمال في المستقبل ، قبل أن يعلم هذا الإنسان أنه سيفعلها .

قال الجبل : : وقوله : وأخفى ، جوزوا فيه وجهين : أحدهما : أنه أفعل تفضيل . أي : وأخفى من السر . والثاني : أنه فعل ماض . أي : وأخفى الله عن عباده غيبه ، كقوله : ولا يحيطون به علما ، (٣) .

(١) سورة الملك الآية ١٣ ، ١٤ (٢) سورة ق الآية ١٦

(٣) حاشية الجبل على الجلايين ح ٣ ص ٨٢

ثم أننى - سبحانه - على ذاته بما هو أهل له فقال : « الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ، . »

أى : هو الله - تعالى - وحده الذى يجب أن يخلص الخلق له العبادة والطاعة ولا أحد غيره يستحق ذلك ، وهو صاحب الأسماء ، الحسنى ، أى : الفضلى والعظمى ، لدلالاتها على معانى التقديس والتعظيم والنهاية فى السمو والكمال .

وفى الحديث الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - : « إن لله تسعة وتسعين اسما ، من أحصاها دخل الجنة ، . »

قال - تعالى - « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائهم سيجزون ما كانوا يعملون » (١) .

وقال - سبحانه - : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى . . » (٢) .

ثم ساقّت السورة الكريمة بشئ من التفصيل جانباً من قصة موسى . إلى تعتبر أكثر قصص الأنبياء وروداً فى القرآن الكريم ، حيث جاء الحديث عنها فى سور : البقرة ، والمائدة ، والأعراف ، ويونس ، والإسراء ، والمكف ، والشعراء ، والقصص .

وقد بدأت السورة حديثها عن قصة موسى ببيان اختيار الله - تعالى - له لمل رسالته ، وتبليغ دعوته . قال - تعالى - :

« وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٠ .

(٢) سورة الإسراء الآية ١١٠ .

بالوادي المقدس طوى (١٢) وأنا اخترتك فاستمع لما يُوحى (١٢)
 إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٣)
 إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْمَى (١٥)
 فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦) .

قال ابن كثير - رحمه الله - : من هاهنا شرع - تبارك وتعالى - في ذكر قصة موسى ، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه ، وذلك بعد ما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم وسار بأهله ؛ قبل : قاصداً بلاد مصر بعد ما طالت الغيبة عنها أكثر من عشرين ، ومعه زوجته فاضل الطريق ، وكانت ليلة شاتية ، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال ، في برد وشتاء ، وسحاب وظلال وضباب ، وجمل يقدم بزند معه ليوردي ناراً ، كما جرت العادة به ، فجمل لا يقدم شيئاً ، ولا يخرج منه شرر ولا شيء ، فبينما هو كذلك ، إذ آنس من جانب الطور ناراً .

أى : ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه ، فقال لأهله يبشرم : « لى آنست ناراً على آتيةكم منها بقبس ، أى شهاب من نار ... » (١) .

والاستفهام في قوله « سبحانه » - وهل أنك ... ، لتقرير الخبر وتثبيته ، وهذا أبلغ عن مجيئه بصورة الخبر المجرد . لأن في الاستفهام التقريرى تطلع واشتباك لمعرفة الخبر .

والجملۃ الكريمة مستأنفة لتأكيد ما سبق الحديث عنه من واحدانية الله - تعالى - ولنسبية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من قومه ، ببيان جانب من جهاد أخيه موسى - عليه السلام - .

والمعنى : لقد أناك - أيها الرسول الكريم - خبر أخيك موسى ، وقت أن رأى ناراً وهو عائد ليلاً من مدين إلى مصر ، فقال لأهله ، أي : لأمراته ومن معها ، أمكثوا ، أي : أقيموا في مكانكم ولا تهرحروا حتى أعود إليكم ...

وجملة : إني آنست ناراً ، تعليل للأمر بالمسكوث ، وآنست من الإيناس بمعنى الإبصار الواضح الجلي ، أي : إني أبصرت إبصاراً بيناً لا شبهة فيه ناراً هلى مقربة منى ، فامكثوا فى أماكنكم د لعلى آتيكم منها بقبس .

والقبس : الشعلة التى تؤخذ من النار فى طرف عود أو نحوه . ووزنه فعل - بفتح العين بمعنى مفعوله . أي : لعلى آتيكم من هذه النار بشعلة مقتبسة منها ، وماخوذة عنها .

وقوله : أو أجد على النار هدى ، معطوف على ما قبله .

أي : أمكثوا فى مكانكم حتى أذهب إلى النار التى شاهدتها ، لعلى آتيكم منها بشعلة ، أو أجد عندها هادياً يهذبني إلى الطريق الذى أسلكه لكي أصل إلى المسكان الذى أريده .

فقوله : هدى ، مصدر بمعنى اسم الفاعل أي : هادياً .

وقد دلت آية أخرى على أن موسى قد ذهب إلى النار ليأتى منها بما يدفى . أهله من البرد .

وهذه الآية هى قوله - تعالى - : فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً . قال لأهله أمكثوا إني آنست ناراً ، لعلى آتيكم منها بخير أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ، (١) .

ثم بين - سبحانه - ما حدث لموسى بعد أن اقترب من النار فقال : د ألهما

أنا هو - نودى يا موسى . إني أنا ربك فأخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى

أى : فلما أتى موسى - عليه السلام - إلى النار ، واقترب منها
 « نودى » من قبل الله - عز وجل - « يا موسى إني أنا ربك ، الذى خلقتك فسواك فعذلك . . . » فأخلع نعليك ، تعظيماً لأمرنا ، وتادباً فى حضرتنا .

وقوله « إني أنا ربك بالوادى المقدس طوى » ، تعليل للأمر بخلع النعل ، أى :
 أزل نعليك من رجلك . لأنك الآن موجود بالوادى « المقدس » أى : المطهر المبارك ، المسمى طوى : فهو عطف بيان من الوادى .

« وأنا اخترتك » ، أى : اصطفتك من بين أفراد قومك لحمل رسالتى ،
 وتبليغ دعوتى « فاستمع لما يوحى » إليك منى ، ونفذ ما أمرك به .

« إني أنا الله لا إله إلا أنا » مستحق للعبادة والطاعة والخضوع « فاعبدنى »
 عبادة خالصة لوجهى .

« وأقم الصلاة » التى هى من أشرف العبادات ، وأفضل الطاعات « لذكرى »
 أى : وأدم إقامة الصلاة بخشوع وإخلاص ، ليشتد تذكرك لى . واتصالك
 بى ، وذلك لأن الصلاة مشتملة على الكثير من الأذكار التى فيها الثناء على
 ذاتى وصفاتى .

أو المعنى : وأقم الصلاة لذاتى خاصة ، بحيث تكون خاصة لوجهى ،
 ولا رياء فيها لأحد .

قال الآلوسى ما ملخصه : « قوله : « لذكرى » الظاهر أنه متعلق بأقم ، أى :
 أقم الصلاة لذكرى فيها لاشتغالها على الأذكار . . . » وقيل : المراد « أقم الصلاة
 لذكرى » خاصة لا ترانى بها ولا تشوبها بذكر غيرى . . . أو لى ذكرى
 بالثناء وأنبئك بها . أو لذكرى إياك فى الكتب السماوية وأمرى بها . أو
 لأوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة ، فاللام وقتية بمعنى عند مثلها فى قوله
 - تعالى - « باليتنى قدمت لحياتى » .

ومن الناس من حمل الذكر على ذكر الصلاة بعد نسيانها . والمراد : أقم الصلاة عند تذكرها ...

ففي الحديث الصحيح : من نام عن صلاة أو نسيها ، فكفارها أن يصليها إذا ذكرها ، لا كفارة لها إلا ذلك ... (١) .

وخص - سبحانه - الصلاة بالذكر مع أنها داخلة في العبادة المأمور بها في قوله : فاعبدني ، على سبيل التشريف والتكريم ، إذ الصلاة أكمل وسيلة توصل الإنسان إلى مداومة ذكر الله - تعالى - وخشيته ، لاشتغالها على ألوان متعددة من صور العبادة والطاعة ، إذ فيها قراءة القرآن الكريم ، وفيها الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وفيها تسبيح الله وتمجيده .

ثم بين - سبحانه - أن الساعة آتية لا ريب فيها فقال : : إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدك عنها من لا يؤمن بها واتهم هواه فتردى .

أى : إن الساعة التي هي وقت البعث والحساب والثواب والعقاب ، آتية أى : كائنة وخاصلة لا شك فيها ،

وقوله : أكاد أخفيها ، أى : أقرب أن أخفي وقتها ولا أظهره لا إجمالا ولا تفصيلا ، ولولا أن في إطلاع أصفينائي على بعض علاماتها فائدة ، لمبا تحت عنها .

قالوا : والحكمة في إخفاء الساعة وإخفاء وقت الموت . أن الله - تعالى - وعد بعدم قبول التوبة عند قربها ، فلو عرف وقت الموت لاشتغل الإنسان بالمعصية إلى قرب ذلك الوقت ثم يتوب ، فيخلص من عقاب المعصية فتعريف الموت كالإغراء بفعل المعصية ، وهو لا يجوز ، (٢) .

قال الألوسي ما ملخصه : وقوله : أكاد أخفيها ، أقرب أن أخفي الساعة

(١) تفسير الألوسي ج ١٦ ص ١٧١ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٨٥ .

ولا أظهرها ، بأن أقول إنها آتية ... أو أريد إخفاء وقتها المأمين وعدم إظهاره ... فكاد بمعنى أراد ، وإلى هذا ذهب الأخفش وغيره ... وروى عن ابن عباس أن المعنى : أكاد أخفيها من نفسي ، فكيف أظهركم عليها ... وهذا محمول على ما جرت به عادة العرب من أن أحدم إذا أراد المبالغة في كتمان الشيء قال : كدت أخفيه عن نفسي .

وقال أبو علي : المعنى أكاد أظهرها بأن أوقعها ، وهذا بناء على أن أخفيها من ألفاظ السلب بمعنى أزيل خفاءها . (٥) .

ويبدو لنا أن الإخفاء هنا على حقيقة ، وأن المقصود من الآية السريعة إخفاء وقت مجيء الساعة عن الناس . حتى يكونوا على استعداد لجيئها عن طريق العمل الصالح الذي ينفعهم يوم القيامة .

الحكمة الله - تعالى - اقتضت إخفاء وقت الساعة ، وعدم إطلاع أحد عليها إلا بالمقدار الذي يأذن الله - تعالى - به لرسوله .

قال الإمام ابن جرير مامليخصه : «والذي هو أولى بتأويل الآية من القول : قول من قال معناه : أكاد أخفيها من نفسي ... لأن المعروف من معنى الإخفاء في كلام العرب : الستر . يقال : قد أخفيت الشيء إذا سترته ... وإنما اخترنا هذا القول على غيره لموافقه أقوال أهل العلم من الصحابة والتابعين ...» (٦) .

وقوله : «لتجرى كل نفس بما تسعى» متعلق بآتية ، وجلة ، أكاد أخفيها معترضة بينهما .

أي : إن الساعة آتية لا ريب فيها ، لكي تجزى كل نفس على حسب سعيها وعملها في الدنيا .

(١) تفسير الألوسي ج ١٦ ص ١٧٢ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١٦ ص ١١٤ .

قال - تعالى - : « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكورا » (١) .

وقال - سبحانه - : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

ثم حذر - سبحانه - من عدم الاستعداد للساعة . ومن الشك في إتيانها فقال : « فلا يصدك عنها ، أى : فلا يصرفك عن الإيمان بها ، وعن العمل الصالح الذى ينفعك عند مجيئها » من لا يؤمن بها ، من الكافرين والفاسقين « واتبع هواه » فى إنكارها وفى تكذيب ما يكون فيها من ثواب أو عقاب « فتردى ، أى : فتهلك ، إن أنت أطعت هذا الذى لا يؤمن بها . يقال : ردى فلان - كرضى - إذا هلك وأراده غيره إذا أهلكه .

فألاية الكريمة تحذير شديد من اتباع المنكرين لقيام الساعة ، والمعرضين عن الاستعداد لها ، بعد أن أكد - سبحانه - فى آيات كثيرة أن الساعة آتية لا ريب فيها .

قال - تعالى - : « ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور » (٢) .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد أثبتت وحشية الله - تعالى - كما فى قوله : « إننى أنا الله لا إله إلا أنا » كما أثبتت وجوب التوجه إليه وحده بالعبادة كما فى قوله - سبحانه - « فاعبدنى وأقم الصلاة لذكري » . كما أثبتت أن يوم القيامة لا شك فى إتيانه فى الوقت الذى يريده الله - تعالى - . كما قال - عز وجل - : « إن الساعة آتية .. » .

(١) سورة الإسراء الآية ١٩ .

(٢) سورة الحج الآيتان ٦ ، ٧ .

ثم بين - سبحانه - بعض التوجيهات والأوامر التي وجهها - عز وجل -
إلى نبيه موسى - عليه السلام - كما حكى ما اتسمه موسى من خالقه - تعالى -
فقال :

« وما تلكَ بيمينِكَ يا موسى (١٧) قالَ هي عصاى أتوكأُ عليها ،
وأهشُّ بها على غنمى ولِىَ فيها مآربٌ أُخرى (١٨) قالَ أَلْقِهَا يا موسى (١٩)
فألقاها فإذا هى حيةٌ تسمى (٢٠) قالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا
الأولى (٢١) واضمُّم يدَكَ إلى جناحِكَ تخرجُ بيضاءَ مِن غيرِ سوءِ
آيةٍ أُخرى (٢٢) لنريكَ من آياتنا الكُبرى (٢٣) اذهبْ إلى فرعونَ
إنَّهُ طغى (٢٤) قالَ ربِّ اشرحْ لى صدرى (٢٥) ويسرْ لى أمرى (٢٦)
واحلُلْ عِقْدَةً مِن لسانى (٢٧) يفقهوا قولى (٢٨) واجمِلْ لى وزيراً
من أهلى (٢٩) هارونَ أخى (٣٠) اشدِّدْ به أزرى (٣١) وأشركهُ فى
أمرى (٣٢) كى نسبَّحَكَ كثيراً (٣٣) ونذكركَ كثيراً (٣٤) إنكَ
كنتَ نبأً بصيراً (٣٥) » .

والاستفهام فى قوله - تعالى - « وما لكَ بيمينِكَ يا موسى ، للتقرير ، لأن
الله - تعالى - عالمٌ بما فى يمين موسى ، فالمرصود من هذا القول اعتراف موسى
وإقراره بأن ما فى يده إنما هى عصاه ، فيزداد بعد ذلك يقينه بقدرة الله - تعالى -
عندما يرى العصا التى بيده يه قد انقلبَت حيةً تسمى .

قال صاحب الكشف : « إنما سأله - سبحانه - ليريه عظم ما يترعه
- عز وجل - فى الخشبة اليابسة من قلبها حيةً مضناضة - أى تحرك أمانها فى فمها - ،
وليقرر فى نفسه المباعدة البعيدة بين المقلوب عنه ، والمقلوب لإياه ، ويذهبه على
قدرته الباهرة . ونظيره أن يريك الزراد زهرة من حديد - أى قطعة من
حديد - ويقول لك : ما هى ؟ فتقول : زهرة حديد . ثم يريك بعد أيام لبوساً

مسردا فيقول لك : هي تلك الزهرة صيرتها إلى مارتى من عجيب الصنعة ، وأنيق السرد ... ، (١) .

والآية السكرية : شروع في بيان ما كلف الله - تعالى - به عبده موسى - عليه السلام - من الأمور المتعاقبة بالخطا ، إثر حكاية ما أمر - سبحانه - به موسى من إخلاص العبادة له ، والإيمان بالساعة وما فيها من حساب وثواب وعقاب .

والمعنى : وأى شيء بيدك اليمنى يا موسى ؟ فأجاب موسى بقوله - كما حكى القرآن عنه : قال هو عصاى . أى : الشيء الذى ييمبنى هو عصاى . ونسبها إلى نفسه لزيادة التحقق والتثبت من أنها خاصة به وكائنه بيده اليمنى .

ثم بين وظيفتها فقال : د أو كأ عليها ، أى : اعتمد لتساعدنى فى حال السير وأهش بها على غنمى ، أى : وأضرب بها الشجر اليابس ليسقط ، ورقه فترعاه أغنامى . يقال هش فلان الشجرة بالعصا - من باب رد - فهو يشهها هشا ، إذا ضربها بعصا أو بما يشبهها ليسقط ورقها ،

دولى فيها مآرب أخرى ، والمآرب : جمع ماربة - بتثنية الراء - بمعنى حاجة . تقول : لا أرب لى فى هذا الشيء ، أى : لا حاجة لى فيه .

أى : دولى فى هذه العصا حاجات أخرى ، وهما نافع غير التى ذكرتها .

وقد كان يكفي موسى - عليه السلام - فى الجواب أن يقول : هو عصاى ، ولكنه أضاف إلى ذلك أو كأ عليها وأهش بها على غنمى ... لأن المقام يستدعى البسط والإطالة فى الكلام ، إذ هو مقام حديث العبد مع خالقه ، والحبيب مع حبيبه .

وأجل فى قوله : دولى فيها مآرب أخرى ، إما حياء من الله - تعالى - لطول الكلام فى الجواب ، وإما رجاء أن يسأل عن هذه المآرب الجملة ، فيجيب عنها بالتفصيل تلذذا فى الخطاب .

قال القرطبي : « وفي هذه الآية دليل على جواب السؤال بأكثر مما سئل ، لأنه لما قال : « وما تلك بيمينك يا موسى » ذكر معاني أربعة وهي : إضافة العصا إليه ، وكان حقه أن يقول عصا ، والتوكؤ ، والحش ، والمآرب المطلقة . فذكر موسى من منافع عصاه معظمها . »

وفي الحديث : سئل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن ماء البحر فقال : « هو الطهور ماؤه الحلو ميثقه » وسأله امرأة عن الصغير حين رفعته إليه فقالت : ألهذا حج ؟ قال : « نعم ولك أجر » (١) .

وقال الإمام ابن كثير عند تفسيره لقوله « ولي فيها مآرب أخرى » : « وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أبهمت ، فقيل : كانت تعني له بالليل ، وتحرس له الغنم إذا نام ، ويغرسها فتصير شجرة تظله ، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة . »

والظاهر أنها لم تكن كذلك ، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى صيرورتها ثعبانا ، ولما فر منها هاربا ، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية .. (٢) .

وقوله - سبحانه - : « قال ألقها يا موسى » جملة مستأنفة جواب عن سؤال مقدر ، كأنه قيل : فإذا قال الله - تعالى - لموسى بعد ذلك ؟

فكان الجواب : قال - سبحانه - لموسى : اطرَحْ يا موسى هذه العصا التي بيمينك لتري ما يكون بعد ذلك .

ثم امتثل موسى أمر ربه ، فألقاها على الأرض ، ونظر إليها فإذا هي قد تحولت بقدرة الله - تعالى - إلى حية - أي ثعبان عظيم - « ونسعى » أي : تنمشي على الأرض بسرعة وخفة حركتها ووصفها - سبحانه - هنا بأنها

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ١٨٦ وقد تعرض لنا نافع العصا فيرجع إليها من شاء .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٧٣ .

حية تسمى ، ووصفها في سورة الشعراء بأنها : ثعبان مبين ، (١) ووصفها في سورة النمل بأنها : تهتز كأنها جان ، (٢) .

ولا تنافي بين هذه الأوصاف ، لأن الحية اسم جنس يطلق على الصغير والكبير ، والذكر والأنثى ، والثعبان : هو العظيم منها ، والجان : هو الحية الصغيرة الجسم ، السريعة الحركة .

وقد صرححت بعض الآيات أن موسى - عليه السلام - عندما رأى عصاه قد تحولت إلى ذلك ، ولى مدبراً ولم يعقب . قال - تعالى - : : وأن ألقى عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب . . . ،

ولسكن الله - تعالى - ثبت فؤاده ، وطمان نفسه وقاله : : خذها ولا تخف ، أى : هذه الحية التى تحولت عصاك إليها خذها ولا تخف منها ، كما هو الشأن فى انطبائع البشرية ، فإننا : سنعيدها سيرتها الأولى ، أى : سنعيد هذه الحية إلى هيئتها الأولى التى كانت عليها قبل أن تصير حية تسمى ، وهى أن نعيدها بقدرتنا التى لا يعجزها شئ . إلى عصا كما كانت من قبل .

فالجملة الكريمة مسوقة لتعليل وجوب الامتثال للأمر وعدم الخوف ، أى : خذها ولا تخف منها ، فإن هذه الحية سترجعها عصا كما كانت من قبل ، وقوله - تعالى - : : سيرتها ، فعلة من السير ، وهى الحالة والهيئة التى يكون عليها الإنسان ، وهو منصوب بنزع الخافض . أى : سنعيدها إلى هيئتها وحالتها الأولى .

قالوا : ومن الحكم التى من أجلها حول الله - تعالى - العصا إلى حية تسمى : توطئ قلب موسى - عليه السلام - على ذلك ، حتى لا يضطرب إذا ما تحولت إلى ثعبان عظيم عندما يلقونها أمام فرعون وقومه .

فقد جرت عادة الإنسان أن يقل اضطرابه من الشيء العجيب الغريب بعد رؤيته له لأول مرة .

ثم وجه - سبحانه - أمراً آخر إلى عبده موسى فقال : واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى . .

والضم : الجمع . يقال ضم فلان أصابعه إذا جمعها . والجناح : يطلق على العضد وعلى الجنب ، وعلى الإبط . . وأصله جناح الطائر . وسمى بذلك لأنه يحنجه ، أى : يميله عند الطيران ، ثم توسع فيه فأطلق على العضد وغيره . والمراد باليد هنا : كرف يده ليمنى .

والسوء : الردىء والقبيح من كل شيء ، وكفى به هنا عن البرص لشدة قبحه . والمعنى : واضمم - يا موسى - يدك اليمنى إلى عضد يدك اليسرى بأن تجعلها تحته عند الإبط . ثم أخرجها فإنها تخرج بيضاء من غير سوء ، أى : تخرج منيرة مشرقة واضحة البياض ، دون أن يعلق بها أى سوء من برص أو مرض أو غيرها ، وإنما يكون بياضها بياضاً مشرقاً بقدرة الله - تعالى - وإرادته .

قال الحسن البصرى : أخرجها - والله - كأنها مصباح ، فعلم موسى أنه قد اتقى ربه - تعالى - .

وقوله : تخرج بيضاء ... ، جواب الأمر وهو قوله : واضمم يدك . . وقوله : من غير سوء ، احتراص لدفع توهم أن يكون بياضها بسبب مرض أو أذى ، وهو متعاق بتخرج .

وقوله وآية أخرى ، أى : معجزة أخرى غير معجزة العصا التى سبق أن منحتها لك .

كما قال - تعالى - : واضمم إليك جناحك من الرهب فذاتك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوماً فاسقين (١) .

وقوله : « انك من آياتنا الكبرى ، تعليل المحذوف : أى : فعلنا ما فعلنا من إعطائك معجزة الدها ومعجزة اليد ، انك بهاتين المعجزتين بهض معجزاتنا الكبرى ، الدالة على عظيم قدرتنا ، وانفردنا بالربوبية والالوهية .

ثم صرح - سبحانه - بالمقصود من إعطاء موسى هاتين المعجزتين العظيمةتين فقال : « اذهب إلى فرعون إنه طغى ، أى : اذهب يا موسى ومعك هاتان المعجزتان ، فادعه إلى عبادتي وحدى ، ومرو فليحسن إلى بنى إسرائيل ولا يعذبهم ، وإنه عن التجبر والظلم ، فإنه قد طغى وبغى وتجاوز حدود الحق والعدل ، وزعم للناس أنه ربهم الأعلى .

وهنا لمس موسى - عليه السلام - العون من خالقه ، لى ينسقى له أداء ما كلفه به فقال : « رب اشرح لى صدرى ، أى : أسألك يا إلهى أن توسع صدرى بنور الإيمان والنبوة ، وأن تجعله يتقبل تكليفك بسرور وارتياح . وييسر لى أمرى ، أى : وسهل لى ما أمرتني به ، فإنك إن لم تخففنى بهذا التيسير ، فلا طاقة لى بحمل أعباء هذه الرسالة .

قال صاحب الكشف : لما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغى - لعنه الله - عرف أنه كلف أمرا عظيما ، وخطبا يصعب يحتاج معه إلى احتمال مالا يحتمله إلا ذو جأش راجل ، وصدر فسيح ، فاستوهب ربه أن يشرح صدره ، ويفسح قلبه ، ويجعله حليما حمولا يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد ، التى يذوب معها صبر الصابر . . . وأن يسهل عليه فى الجملة أمره الذى هو خلافة الله فى أرضه ، وما يصحبها من مزاولة معالظ الشئون ، ومقاساة جلال الخطوب . . . (١) .

وقوله « واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولى ، دعاء ثالث تضرع به إلى خالقه - تعالى - أى : وأسألك يا رب أن تحل عقدة من لساني حتى يفهم الناس قولى لهم ، وحديثي معهم ، فهم يأتونى منه المقصود . فنلتهيهض ، أى : وأسال عقدة كائنة من عقده

وقد روى أنه كانت بلسانه حبسة ، والأرجح أن هذا هو الذى عناه ، ويؤيده قوله - تعالى - فى آية أخرى : « وأخى هارون هو أنصاح فى أسافا فأرسله معى ردها يصدقنى ، لئنى أخاف أن يكذبون » (١) .

قال ابن كثير : « ذلك لما كان أصابه من اللثغ ، حين عرض عليه - فرعون - النمرة والجرمة ، فأخذ الجرمة فوضعها على لسانه . . . وما سأل أن يزول ذلك بالكلبة ، بل حيث يزول المعى ، ويحصل لهم فيهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة ولو سأل الجميع لزال ، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بقدر الحاجة ، ولهذا بقيت بقية . »

قال الحسن البصرى : « سأل موسى ربه أن يحل عقدة واحدة من لسانه ، ولو سأل أكثر من ذلك لأعطى » (٢) .

وقوله - سبحانه - « واجعل لى وزيراً من أهلى . هارون أخى . أشد به أؤرى . وأشرك فى أمرى ، دعا . آخر تضرع به إلى ربه فى أمر خارجى عنه ، بعد أن دعاه فى أمر يتعلق بصدوره ولسانه . . . »

وقوله : « وزيراً ، من الموازنة وهى المعاونة . يقال : وازرت فلاناً موازنة ، إذا أعنته على أمره . أو من الوزر - بفتح الواو والزاي - وهو الملجأ الذى يعتصم به الإنسان لينجو من الهلاك . »

أى : وأسألك - يا إلهى - أن تجعل لى وزيراً ، أى : معيلاً وظهيراً من أهلى فى إبلاغ رسالتك ، وهذا الوزير والمعين هو أخى هارون ، الذى أسألك أن تقوى به ظهري ، وأن تجعله شريكاً لى فى تبليغ رسالتك ، حتى تؤدبها على الوجه الأكمل وكان موسى - عليه السلام - قد علم من نفسه حدة الطبع ، وسرعة الانفعال ، فالتجأ إلى ربه لئكى يعينه بأخيه هارون ، ليقويه وينشاور معه فى الأمر الجليل الذى هو . قدم عليه ، وهو تبليغ رسالة الله إلى فرعون الذى طغى وبغى وقال لقومه أنا ربكم الأعلى .

(١) سورة القصص الآية ٢٣

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٠٦

قال ابن عباس : نبي هارون ساعته حين نبي موسى .

وقوله : دكى نسبك كثيراً . وذكرك كثيراً . إنك كنت بنا بصيراً ،
تعليل للدعوات الصالحات التي تضرع بها موسى إلى ربه - تعالى - .

أى : أجب - يا لاهى - دعائى بأن تشرح صدرى . . . وتشد بأخى هارون
وزرى ، كي نسبك تسبيحاً كثيراً ، وذكرك ذكراً كثيراً ، إنك سبحانه
كنت ومازلت بنا بصيراً ، لا يخفى عليك شيء من أمرنا أو من أمر خلقك ،
فأنت المطلع على حالنا وعلى ضعفنا ، وأنت العالم بحاجتنا إليك وإلى عونك
ورعايتك .

بهذه الدعوات الخاشعات انهل موسى إلى ربه ، وأحال الالتئال في بسط
حاجته ، وكشف ضعفه . . . فإذا كانت النتيجة ؟

لقد كانت النتيجة أن أجاب الله له دعاءه ، وحقق له مطالبه ، وذكره
ببعض مننه عليه فقال - تعالى - :

« قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً
أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ
فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ، فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوُّهُ وَأَلْقَيْتُ
عَلَيْكَ حَبَّةَ مَنَى وَلَتُنمِئَنَّ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ
أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ ، فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ،
وَقَتْلْتَ نَفْسًا فَجِئْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ، فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ
مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠) وَاصْطَلَمْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) » .

وقوله - سبحانه - : « قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ، حكاية لما رد الله
- تعالى - به على نبيه موسى - عليه السلام - بعد أن تضرع إليه بتلك
الدعوات النافعات .

والسؤال هنا بمعنى المستول ، كالأكل بمعنى المأكول .

قال الألوسي : والإيتاء : عبارة عن تعلق إرادته - تعالى - بوقوع تلك المطالب وحصولها له - عليه السلام - البتة ، وتقديره - تعالى - لإيأاه حتما ، فكلها حاصلة له - عليه السلام - وإن كان وقوع بعضها بالفعل مرقباً بعد ، كتيسير الأمر ، وشد الأزر (١) .

أى : قل الله - تعالى - لموسى بعد أن ابتهل لإيئه - سبحانه - بما ابتهل : لقد أجبنا دعائك يا موسى ، وأعطيناك ما سألتنا لإيأه ، فطب نفساً وقر عيناً . وقوله - تعالى - : وقد مننا عليك مرة أخرى ، تذكير منه - سبحانه - لموسى ، بخلاف من النعم التي أنعم بها عليه ، حتى يزداد ثباتاً وثقة بوعده الله - تعالى - ولذا صدرت الجملة بالقسم .

أى : وبمرزق وجلالى لقد مننا عليك . وأحسننا إليك مرة أخرى ، قيل ذلك ، ومنحكناك من رعايتنا قبل أن تلتبس منا أن نشرح لك صدرك ، وأن نيسر لك أمرك ...

ثم فصل - سبحانه - هذه المنن التي أمتن بها على عبده موسى ، فذكر ثمانية منها : أما أول هذه المنن فتتمثل في قوله - تعالى - : « إذ أوحينا إلى أمك ما يوحي » . و « إذ ، ظرف لقوله ، مننا ، والإيحاء : الإعلام في خفاء . وإيحاء الله - تعالى - إلى أم موسى كان عن طريق الإلهام أو المنام أو غيرهما .

قال صاحب الكشاف : « الوحي إلى أم موسى : إما أن يكون على لسان نبي في وقتها ، كقوله - تعالى - : « إذ أوحيت إلى الخواريين ، أو يبعث إليها ملاكاً على وجه النبوة وكما بعث إلى مريم . أو يرهبها ذلك في المنام فتقننه عليه أو يلهمها كقوله - تعالى - : « وأوحى ربك إلى النحل ، .

أى : أوحينا إليها أمرا لاسبيل إلى التوصل إليه ، ولا إلى العلم به ، إلا بالوحي .. (١) .

والمعنى : ولقد مننا عليك يا موسى مرة أخرى . وقت أن أوحينا إلى أمك بما أوحينا من أمر عظيم الشأن ، يتعلق بنجاتك من بطش فرعون .
فالتعبير بالموصول في قوله ما يوحى للتعظيم والتهويل ، كما في قوله - تعالى -
« فأوحى إلى عبده ما أوحى » .

ثم وضح - سبحانه - ما أوحاه إلى أم موسى فقال : « أن اقذفيه في التابوت فاقذفه في اليم ، فليلقه اليم بالساحل ، يأخذه عدو لى وعدوله ... » .
و « أن » في قوله « أن اقذفه » مفسرة ، لأن الإيحاء فيه معنى القول دون حروفه .

والمراد بالقذف هنا : الوضع ، والمراد به في قوله « فاقذفه في اليم » الإلقاء في البحر وهو نيل مصر .

والتابوت : الصندوق الذى يوضع فيه الشيء .

والمعنى : لقد كان من رعايتنا لك يا موسى أن أوحينا إلى أمك عندما خافت عليك القتل : أن ضعى لبنتك في التابوت ، ثم بعد ذلك اقذفى بالتابوت في البحر ، وبأمرنا وقدرتنا يلقى اليم بالتابوت على شاطئ البحر وساحله ، وفي هذه الحالة يأخذه عدو لى وعدوله ، وهو فرعون الذى طغى وقال لقومه أنا ربكم الأعلى .

والضمائر كلها تعود إلى موسى - عليه السلام - وقيل إن الضمير في قوله « فاقذفه في اليم » .

وفي قوله « فليلقه » يعود إلى التابوت ، والاول أرحح ، لأن تفريق الضمائر هنا لاداعي له ، بل الذى يقتضيه بلاغة القرآن الكريم . عودة الضمائر إلى موسى - عليه السلام - .

قال بعض العلماء : وصيغة الأمر في قوله « فليلقه اليم بالساحل » فيها وجهان معروفان عند العلماء :

أحدهما : أن صيغة الأمر معناها الخبر . قال أبو حيان في البحر : « وقوله « فليلقه » أمر معناه الخبر ، وجاء بصيغة الأمر مبالغة ، إذا الأمر أقطع الأفعال وأوجبها .

الثاني : أن صيغة الأمر في قوله « فليلقه » أريد بها الأمر الكوني القدرى كقوله : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » ، فالبحر لا بد أن يلقيه بالساحل ، لأن الله - تعالى - أمره بذلك كونا وقدرًا . . . (١) .

وقوله « يأخذه » مجزوم في جواب الطلب وهو قوله « فليلقه » . . . ، إلا أنه على الوجه الأول يكون الطلب باعتبار لفظه وصيغته .

وقوله - سبحانه - « وألقيت عليك محبة مني » بيان للمنة الثانية .

قال الألوسي : « وكلمة « من » متعلقة بحذوف وقع صفة لمحذوف مؤكدة لما في تنكيرها من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية . أي : وألقيت عليك محبة عظيمة كائنة مني ؟ لامن غيري - قد زرعتها في القلوب ، فكل من رآك أحبك . . . (٢) .

ولقد كان من آثار هذه المحبة : عطف امرأة فرعون عليه ، وطلبها منه عدم قتله ، وطلبها منه كذلك أن يتخذها ولدا .

وكان من آثار هذه المحبة أن يعيش موسى في صغره معززا مكرما في بيت فرعون ، مع أنه في المستقبل سيكون عدوا له .

وهكذا رعاية الله - تعالى - ومحبيه لموسى جعلته يعيش بين قوى الشر والطغيان آمناً مطمئناً .

(١) أضواء البيان ج ٥ ص ٤٠٦ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٦ ص ١٨٩ .

قال ابن عباس : أحب الله - تعالى - موسى ، وحبيه إلى خلقه .

وقوله - تعالى - : « ولتصنع على عيني بيان للمنة الثالثة .

أى : أوحيت إلى أمك بما أوحيت من أجل مصلحتك ومنفعتك وألقيت عليك محبة منى ، ليحبك الناس ، ولتصنع على عيني ، أى : ولتربي وأنت محاط بالحنو والشفقة تحت رعايتي وعنايتي وعيني ، كما يراعى الإنسان بعينه من يحبه ويهتم بأمره .

وهذا ما حدث لموسى فعلا ، فند عاش في طفولته تحت عين فرعون . وهو عدو لله - تعالى - ومع ذلك لم تستطع عين فرعون أن تمتد بسوء إلى موسى ، لأن عين الله - تعالى - كانت ترعاه وتحميه من بطش فرعون وشيعته .

فالجنة الكريمة فيها من الرفق بموسى - عليه السلام - ومن الرعاية له ، ما يعجز القلم عن وصفه .

وكيف يستطيع القلم وصف حال إنسان قال الله في شأنه : « ولتصنع على عيني » .

قال صاحب الكشف : دأى : ولتربي ويحسن إليك وأنا مراعيك ورافيك كما يراعى الرجل الشئ بعينه إذا اعتنى به ، وتقول للصانع : اصنع هذا على عيني لنى أنظر إليك لتلا تخالف به عن مرادى وبغيتى .

وقوله : « ولتصنع » معطوف على علة مضمرة مثل : ليتعطف عليك ... أو حذف معله أى : « ولتصنع على عيني فعلت ذلك » (١) .

ثم بين - سبحانه - المنحة الرابعة على موسى فقال : « إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله » ، فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن

(١) تفسير الكشف ج ٣ ص ٦٣ .

وكان ذلك بعد أن التفت آل فرعون موسى من فوق الشاطئ ، وبعد أن امتنع عن الرضاعة من أى امرأة سوى أمه .

أى : وكان من مظاهر إلقاء محبتى عليك ، ورعايتى لك ، أن أختك بعد أن أمرتها أمك بمعرفة خيرك ، سارت فى طرقات مصر فأبصرتك فى بيت فرعون وأنت تمتنع عن الرضاعة من أى امرأة ، فقالت أختك لفرعون وامراته : هل أدلكم على من يكفله .

أى : ألا تريدون أن أرشدكم إلى امرأة يقبل هذا الطفل الرضاعة منها ، وتحفظه وترعاه .

والقاء فى قوله ، فرجعناك إلى أمك كى تفر عينها ولا تحزن ، هى النصيحة أى : التى تفصح عن كلام مقدر .

والمعنى : بعد أن قالت أختك لفرعون وامراته : هل أدلكم على من يكفله ، أجابوها بقولهم : دلينا عليها ، فجاءت بأمك فرجعنا إليك كى تسر برجوعك ، ويمتلى قلبها فرحاً بإلقائها بعد أن ألقنك فى اليم ، ولا تحزن بسبب فراقك عنها .

ثم حكى - سبحانه - المنة الخامسة فقال : وقتلت نفساً فنجيناك من الغم ، وكان ذلك عند ما استنصر به رجل من قومه على رجل من أعدائه .

أى : وقتلت نفساً هى نفس القبطى ، عند ما استعان بك عليه الإسرائيل فنجيناك من الغم الذى نزل بك بسبب هذا القتل .

قال الألوسى : وقد حصل له هذا الغم من وجهين : خوف عقاب الله - تعالى - حيث لم يقع القتل بأمره - سبحانه - وخوف القصاص ، وقد نجاه الله من ذلك بالمغفرة حين قال : رب لى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له ، وبالمهاجرة إلى مدين ...

والغم فى الأصل : ستر الشئ ، ومنه الغمام لستره ضوء الشمس . ويقال :

لما يغم القلب بسبب خوف أوفوات مقصود . . . ، (١) .

وقوله - عز وجل - : « وفتناك فتونا ، بيان للمنة السادسة التي امتن الله - تعالى - بها على موسى - عليه السلام - .

والفتن : جمع فتن كالظنون جمع ظن . والفتن : الاختبار والابتلاء ، تقول : فتن الذهب بالنار ، أى : أدخلته فيها لتعلم جودته من ردهاته .

والهامي : واختبرناك وابتليناك - يا موسى - بألوان من الفتن والمحن .

ونظم - سبحانه - هذا الفتن والاختبار في سلك المنن ، باعتبار أن الله - تعالى - ابتلاه بالفتن ثم نجاه منها ، ونجاه من ضرورها .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية حديثاً طويلاً سماه بحديث الفتن ، ذكر فيه قصة مولد موسى ، وإلقائه في اليم ، وتربيته في بيت فرعون ، وقتله للقبلى ، وهروبه إلى مدين ، وعودته منها إلى مصر . وتكليف الله - تعالى - له بالذهاب إلى فرعون ، ودعوته إلى عبادة الله وحده . . الخ (٢) .

وقوله - تعالى - : « فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى ، أى : فلبثت عشر سنين في قرية أهل مدين ، تعمل كأجير عند الرجل الصالح . ثم جئت بعد ذلك إلى المكان الذي ناديتك فيه ، على قدر ، أى على وفق الوقت الذي قدرناه لحديثك ، وحددناه لتكليمك واستنفاذك ، دون أن تتقدم أو تتأخر ، لأن كل شيء عندنا محدد ومقدر بوقت لا يتخلف عنه .

قال - تعالى - : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » ، وقال - سبحانه - : « وكل شيء عنده بمقدار » ، وقال - عز وجل - : « وكان أمر الله قدراً مقدوراً » .

ثم حكى - سبحانه - المنة الثامنة . فقال : « واصطنعتك لنفسى » ، أى :

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ١٩٢ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٧٩ وما بعدها .

وجعلتك محل صنيعي وإحساني ، حيث اخترتك واسطفتك لحل رسالتى
وتبليغها إلى فرعون وقومه ، وإلى قومك بنى إسرائيل .

فآية التكريم تكريم لموسى - عليه السلام - حيث اختاره الله
- تعالى - واجتباها من بين خلقه لحل رسالته إلى فرعون وبنى إسرائيل .

هذه ثمانى من ساقها - تعالى - هنا بحجة ، وقد ساقها - سبحانه - فى سورة
القصص بصورة أكثر تفصيلا ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « وأوحينا إلى
أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فالقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى ،
إننا رادوه إليك وجاءه من المرسلين . فالتقطه آل فرعون ليكون لهم
عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالت امرأة
فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم
لا يشعرون ... » (١) .

وبعد أن ذكر - سبحانه - بعض المنن التى امتن بها على نبيه موسى
- عليه السلام - أتبع ذلك بذكر بعض التوجيهات التى أمره بفعلها ، حيث
كلمه بقبليخ الدعوة إلى فرعون ، فقال - تعالى - :

« إِذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى
فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّنْمُذِّكِرْهُ أَوْ يَنْخَشِ (٤٤)
قَالَ رَبُّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا
إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأَنبَأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ
مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَمْذِجْهُمْ ، قَدْ جَعَلْنَاكَ بآيَةِ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامَ عَلَى
مَنْ أَرَادَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أَوْحَى إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ
كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨) » .

ونوله - سبحانه - ، ولا تنيا ، فعل مضارع مصدره الونى - بفتح الواو وسكون النون - بمعنى ، الضعف والفتور والتراخي فى الأمر .

يقال : ونى فلان في الأمر يني ونياً - كوعده بعد وعده - إذا ضعف وتراخى في فعله .

وقوله : « أخوك » ، فاعل لفعل محذوف . أى : واينذهب بك أخوك .
والمراد بالآيات : المعجزات الدالة على صدق موسى - عليه السلام - ،
وعلى رأسها عصاه التى ألغىها فإذا هى حية تسعى ، وبده التى ضمها إلى جناحه
فخرجت بمضاء من غير سوء .

والمعنى : إذ ذهب يا موسى أنت وأخوك إلى - حيث آركم متساحلين بأباني ومعجزاتي ، ولا تضعفوا أو تترأخيا في ذكرى وتسيحى وتقديمى بما يليق بذيانى وصفائى من العبادات والقربات ، فإن ذكركم لى هو عتدكم وسلا - كما وسندكم فى كل أمر تقدمان عليه .

فألاية الكريمة تدعو موسى وهارون ، كما تدعو كل مسلم في كل زمان
ومكان إلى المداومة على ذكر الله - تعالى - في كل موطن ، بقوة لا تضعف ، بها
وبعزيمة صادقة لا فتور فيها ولا كلال .

وقد مدح - سبحانه - المداومين على تسبيحه ونحميده وتفديسه في كل أحوالهم فقال : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لآولي الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، » (١) .

قال صاحب الكشف : قوله ، ولا تنبأ في ذكرى ، الونى : الفتور والتقصير . . أى : لا تنسبى ولا أزال منكما على ذكر حيث تقابلتما ، وإحدا ذكرى جناحا تصيران به مستمدين بذلك العون والتأييد منى ، معتقدين أن أمراً من الأمور ان يتمشى لأحد إلا بذكرى . ويجوز أن يريد بالذكر : تبليغ

الرسالة ، فإن الذكر يقع على سائر العبادات . وتبليغ الرسالة من أجلها وأعظمها فكان جديراً بأن يطلق عليه اسم الذكر . . . (١)

وقال ابن كثير : « والمراد بقوله « ولا تنيا في ذكرى » : أنهما لا يفتران في ذكر الله ، بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون ، ليكون ذكر الله عرفاً لها عليه ، وقوة لها . وسلطاناً كاسرأله ، كما جاء في الحديث « إن عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو مناجز قرنه » (٢) .

ثم أرشدهما - سبحانه - إلى الوجهة التى يتوجهان إليها فقال : « اذهبا إلى فرعون إنه طغى . . »

أى : اذهبا إلى فرعون لتبلغاه دعوتى ، واتمرا بهعبادتى ، فإنه قد طغى وتجاوز حدوده ، وأفسد فى الأرض ، وقال لقومه : « أنا ربكم الأعلى » وقال لهم - أيضاً - ما علمت لكم من إله غيرى .

قال الجمل : وقرله : « اذهبا إلى فرعون » جمعها فى صيغة أمر الحاضر - مع أن هارون لم يكن حاضراً محل المناجاة بل كان فى ذلك الوقت بمصر - للتغليب فغلب الحاضر على غيره ، وكذا الحال فى صيغة النهى . أى : قوله « ولا تنيا » روى أنه - تعالى - أوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتاقى موسى - عليه السلام - . وقيل : سمع بإقباله فتلقاه . . . (٣)

وقوله - تعالى - : « فقولاً له قولاً ليئلاً لعله يتذكر أو يخشى » إرشاد منه - سبحانه - إلى الطريقة التى ينبغى لها أن يسلكها فى مخاطبة فرعون -

أى اذهبا إليه ، وادعوا إلى ترك ما هو فيه من كفر وظنيان ، وخاطباها بالقول اللين ، وبالكلام الرقيق ، فإن الكلام السهل اللطيف من شأنه أن

(١) تفسير السكشاف ج ٣ ص ٦٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٨٧ .

(٣) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٩٣ .

بكسر حدة الغضب ، وأن يوقظ القلب للتذكر ، كأن يحمله على الخشية من سوء عاقبة الكفر والظن .

وهذا القول اللين الذي أمرهما الله - تعالى - به هنا قد جاء ما يفسره في آيات أخرى ، وهي قوله - تعالى - : « اذهب إلى فرعون إنه طغى » . فقل هل لك إلى أن تزكى ، وأهديك إلى ربك فتخشى

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على اللفظ أساليب المخاطبة وأرقها وألينها وأحكمها .

قال ابن كثير : « قوله : فقلوا له قولاً ليناً ... » ، هذه الآية فيها عبرة عظيمة ، وهي أن فرعون كان في غاية العتو والاستكبار ، وموسى كان صفوة الله من خلقه إذ ذك ، ومع هذا أمر أن لا تخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين كما قال يزيد الرقاشي عند قراءته لهذه الآية : يا من يتعجب إلى من يعاديه ، فكيف بمن يتولاه ويناديه ؟

والحاصل أن دعوتها له تكون بكلام رقيق لين قريب سهل ، ليسكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجح ، كما قال - تعالى - : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن ... » (١) .

والترجي في قوله - تعالى - : « لعله يتذكر أو يخشى » ، على بابيه إلا أنه يعود إلى موسى وهارون .

أي : لإذهاباً إليه ، وأليناً له القول ، وباشراً الأمر معه مباشرة من يرجو وبطمع في نجاح سعيه ، وحسن نتيجة قوله .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : « والترجي لهما . أي : لإذهاباً على رجائكما وطمعكما وباشراً الأمر مباشرة من يرجو أن يشر عمله فهو يجتهد بطوقه ، ويخشى - أي - يستعد ويتأهب - بأفعى وسهمه وجدوى لإرسالها إليه مع العلم أنه لن يؤمن ، لإزمام الحجة ، وقنع المأذرة » . كما قال

- تعالى - : **دولو انا اهلكتناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لو ارسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى**، (١) .
ويرى بعضهم ان الترجى هنا للتعليل . أى : فقولا له قولنا لئلا اجل ان يتذكر او يخشى .

قال الآلوسى : **وقال الفراء ، د لعل ، هنا بمعنى كى التعليلية** . . . وعن الوافدى : **ان جميع ما فى القرآن من د لعل ، فإنها للتعليل ، إلا قوله - تعالى - دوتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، فإنها للتشبيه - أى : كأنكم تخلدون**، (٢) .
ثم حكى - سبحانه - ما قاله موسى وهارون عند أمرهما - جل جلاله - بذلك فقال : **قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى** ، .

أى : قال موسى وهارون به - بعد أن أمرهما ربهما بالذهاب إلى فرعون لتبليغه دعوة الحق : **يا ربنا إننا نخاف د أن يفرط علينا ، أى يعاجلنا بالعقوبة قبل أن تنتهى من الحديث معه فى الأمر** .

يقال : **فرط فلان يفرط إذا عاجله بالعقوبة وأذاه بدون أهل ، و منه قوطم : فرس فارط ، أى سابق لغيره من الخيل** .

د أو أن يطغى ، أى يزداد طغيانه ، فيقول فى حقلك يا ربنا مالا نريد أن نسمعه ، ويقول فى حقنا مانحن براء منه ، ويفعل معنا ما يؤذينا .

وقد جمع - سبحانه - بين القولين اللذين حكاهما عنهما ، **لأن الطغيان أشمل من الإفراط ، إذ الجملة الأولى تدل على الإسراع بالأذى لأول وهلة ، أما الثانية فتشمل الإسراع بالأذى ، وتشمل غيره من ألوان الاعتداء سواء أكان فى الحال أم فى الاستقبال** .

وهنا يجيبهما الخالق - جل وعلا - بما يثبت فؤادهما ، **وبزيل خوفهما وقال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى** ، .

أى : قال الله - تعالى - لهما لا تخافا من بطش فرعون ، إننى معكما بقوتى وقدرتى ورعايتى ، وإننى أسمع كلامكما وكلامه ، وأرى فعلكما وفعله . لا يخفى على شئ من حالكما وحاله ، فاطمئنا أنى معكما بحفظى ونصرى وتأيدى ، وأن هذا الطاغية ناصيته بيدي ، ولا يستطيع أن يتحرك أو يتنفس إلا بإذنى ...

ثم رسم لهما - سبحانه - طريق الدعوة فقال : « فأتياه فقولا إنا رسولا ربك . . . »

أى : فأتيا فرعون ، وأدخلا عليه داره أو مكان سلطانه ، وقولا له بلا خوف أو وجل « إنا رسولا ربك ، الذى خلقك فسواك فعدلك .

وكان البدء بهذه الجملة ، لتوضيح أساس رسالتكما ، وإحقاق الحق من أول الأمر ، ولإشعاره منذ اللحظة الأولى بأنها قد أرسلهما ربه وربهما ورب العالمين . لدعوته إلى الدين الحق ، وإلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، وإلى التخلي عن الكفر والظلم . وأنهما لم يأتياه بدافع شخصى منهما ، وإنما أتياه بتكليف من ربه ورب العالمين .

أما الجملة الثانية التى أمرها الله - تعالى - أن يقولوها لفرعون ، فقد حكاها - سبحانه - بقوله : « فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم ، أى : فأطلق سراح بنى إسرائيل ، ودعهم يعيشون أحرارا فى دولتك ، ولا تعذبهم باستعبادهم وقهرهم ، وقتل أبائهم ، واستحياء نسائهم ... »

قال - تعالى - : « وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يذبجون آبائكم ، ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » (١) .

- قال الألوسى : والمراد بالإرسال : إطلاقهم من الأسر ، وإخراجهم من تحت يده العادية ، لا تكليفهم أن يذهبوا معهم إلى الشام ، كما يبنى عنه قوله - سبحانه - « ولا تعذبهم ، أى : بإبقائهم على ما كانوا عليه من العذاب ، فإنهم كانوا تحت سيطرة القبط ، يستخدمونهم فى الأشغال الشاقة كالحفر والبناء .. » (١).

وقوله - تعالى - « قد جئناك بآية من ربك ، جملة ثالثة تدل على صدقهما فى رسالتهما ، .

والمراد بالآية هنا : جنسها ، فتشمل العصا واليد وغيرهما عن المعجزات التى أعطاها الله - تعالى - لنبيه موسى - عليه السلام - .

أى : قد جئناك بمعجزة من ربك تثبت صدقنا ، ونؤيد مدعانا ، وتشهد بأما قد أرسلنا الله - تعالى - إليك لهدايتك ودعوتك أنت وقومك إلى الدخول فى الدين الحق .

فالجملة الكريمة تقرير لما تضمنته الكلام السابق من كونهما رسولين من رب العالمين ، وتعليل لوجوب إطلاق بنى إسرائيل ، وكف الأذى عنهم . أما الجملة الرابعة التى أمرها الله - تعالى - بأن يقولوها لفرعون فى قوله - سبحانه - : « والسلام على من اتبع الهدى ، .

أى : وقولا له - أيضاً - السلامة من العذاب فى الدارين لمن اتبع الهدى بأن آمن بالله - تعالى - وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .. .

فالسلم ، صدر بمعنى السلامة ، وعلى بمعنى اللام . ويفهم من الآية الكريمة أن من لم يتبع الهدى ، لسلامة له ، ولا أمان عليه .

وفى هذه الجملة من القرعيب فى الدخول فى الدين الحق ما فيها ، ولذا استعملها النبي - صلى الله عليه وسلم - فى كثير من كتبه ، ومن ذلك قوله - صلى الله عليه

وسلم - في رسالته إلى هرقل ملك الروم : بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى .
ثم حكى - سبحانه - الجملة الخامسة التي أمر موسى وهارون أن يخاطبا بها فرعون فقال : « إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى » .
أي : وقولاه « إنا قد أوحى إلينا » من عند ربنا وخالقنا « أن العذاب » في الدنيا والآخرة « على من كذب ، بآياته وحججه - سبحانه - » وتولى ، عنها . وأعرض عن الاستجابة لها .

وبذلك نرى في هذه الآيات السكرية أسمى ألوان الدعوة إلى الحق وأحكمها ، فهي قد بدأت بالأساس الذي تقوم عليه كل رسالة سماوية ، « إنا رسول ربك » ، وثبت ببيان أهم ما أرسل موسى وهارون من أجله « فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم » ، وثالث بإقامة الأدلة على صدقهما « قد جئناك بآية من ربك » ، ورابع بالترغيب والاستمالة « والسلام على من اتبع الهدى » ، ثم ختمت بالتحذير من المخالفة « إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى » .

وبعد أن غرس - سبحانه - الطمأنينة في قلب موسى وهارون وزهدهما بأحكام الوسائل وأنجمها في الدعوة إلى الحق . . أتبع ذلك بحكاية جانب من الحوار الذي دار بينهما وبين فرعون بعد أن اتفقوا جميعا وجها لوجه فقال - تعالى - :
« قَالَ فَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ، وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً »

أخرى (٥٥) ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى (٥٦) قال أجيئنا لنخرجنا من أرضنا بسحرِكَ يا موسى (٥٧) فلما تبينكَ بسحرٍ مثله فاجمل بيننا وبينكَ موعداً لا تخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى (٥٨) قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشَرَ الناسُ صحتى (٥٩) فتولى فرعون فجمع كيدَهُ ثم أتى (٦٠) .

فقوله - تعالى - : قال فن ربك يا موسى ، حكاية لما قاله فرعون لموسى وهارون ، بعد أن ذهبا إليه ليلغاه دعوة الحق كما أمرهما ربهما - سبحانه - . ولم تذكر السورة المكريمة كيف وصلا إليه . . . لأن القرآن لا يهتم بجزئيات الأحداث التي لا تتوقف عليها العبر والعظات ، وإنما يهتم بذكر الجوهر واللباب من الأحداث .

والمعنى : قال فرعون لموسى وهارون بعد أن دخلا عليه . وأبلغناه ما أمرهما ربهما بتبليغه . من ربك يا موسى الذي أرسلكما إلى ؟ وكأنه - لطيفاً به وبخوره - لا يريد أن يعترف بأن رب موسى وهارون هو ربه وخالقه . كما قال له قبل ذلك : إنا رسول ربك .

وخص موسى بالنداء مع أنه وجه الخطاب إليهما لظنه أن موسى - عليه السلام - هو الأصل في حمل رسالة الحق إليه ، وأن هارون هو وزيره ومعاونيه ، وأنه خبيثه ومكره . تجنب مخاطبة هارون لعله أنه أفصح لساناً من موسى - عليهما السلام - .

قال صاحب الكشف : مخاطب - فرعون - الاثنين ، ووجه النداء إلى أحدهما وهو موسى ، لأنه الأصل في النبوة ، وهارون وزيره وتابعه ، ويحتمل أن يحمله خبيثه ودعارته - أى فسقه - على استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه ، لما عرف من فصاحة هارون ، والرتبة في لسان موسى ، وبدل عليه قوله : أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ، (١) .

ولا شك أن ما حكاه الله - تعالى - عن فرعون من قوله ، « من ربك يا موسى ، يدل على نهاية الغرور والفجور والجحرد ، وشبيه بذلك قوله - سبحانه - حكاية عنه : « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري .. » ، وقوله - تعالى - : « فخرقنا دى فقال أنا ربكم الأعلى ، » .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك أن موسى قد رد على فرعون ردا يخرسه ويكسبه فقال : « قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، » .

وقوله « خلقه » مصدر بمعنى اسم المفعول ، وهو المفعول الثانى لقوله « أعطى » ، والمفعول الأول قوله : « كل شيء » .

والعلماء فى تفسير هذه الآية الكريمة لإنجاهات يؤيد بعضها بعضها ، منها ما يراه بعضهم من أن معنى الآية الكريمة :

١ - قال موسى فى رده على فرعون : يا فرعون ربنا وربك هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى أعطى كل مخلوق من مخلوقاته ، وكل شيء من الأشياء ، الصورة التى تلائمه ، والهيئة التى تتحقق معها منفعة وصاحته ، ثم هداه إلى وظيفته التى خلقه من أجلها ، وأمدّه بالوسائل والمساكنات التى تحقق هذه الوظيفة .

ونم فى قوله « ثم هدى » ، للتراخى فى الرتبة ، إذ اهتداه المخلوق إلى وظيفته مرتبة تلو كثيرا عن خلقه دون أن يفقه شيئا .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشف بقوله : « أعطى كل شيء صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به ، كما أعطى العين الهيئة التى تطابق الإبصار والأذن الشكل الذى يوافق السمع وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان ، كل واحد منها مطابق لما علق به من منفعة غير غاب عنه . »

« ثم هدى » أى : عرفه كيف يرتقى بما أعطى ، وكيف يتوصل إليه وثق

در هذا الجواب ، وما أخصره وما أبينه ، لمن ألقى الذهن ، ونظر بعين الإنصاف
وكان طالبا للحق ، (١) .

٢ - ومنهم من يرى أن المعنى : قال موسى لفرعون : ربنا الذى أعطى
كل شئ . نظير خلقه فى "صورة والهيئة" ، كالذكور من بنى آدم ، أعطاهم نظير
خلقهم من الإناث أزواجا ، وكذلك كور من البهائم أعطاهم نظير خلقها فى صورتها
وهبتها من الإناث أزواجا . . . ثم هدى الجميع أسائر منافعهم من المطاعم
والمشارب ووسائل التناسل .

وقد صدر الإمام ابن جرير تفسيره الآية بهذا المعنى فقال ما دللنا عليه :
« ر قوله : « قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه » ، يعنى نظير خلقه فى الصورة
والهيئة . . . ثم هدام للمعنى الذى منه النسل والنماء كيف يأتيه ، وأسائر منافعه
من المطاعم والمشارب وغير ذلك ، (٢) .

٣ - ويرى بعضهم أن : المعنى أعطى كل شئ صلاحه ثم هداه إلى
ما يصلحه .

٤ - ومنهم من يرى أن قوله « خلقه » هو المفعول الأول لأعطى ، وأن
قوله « كل شئ » ، هو المفعول الثانى فيسكون المعنى : قال موسى لفرعون : ربنا
الذى أعطى الخلائق كل شئ يحتاجون إليه . ثم هدام إلى طريق استعماله
والانتفاع به .

ويبدو لنا أن الآية السكرية تنسج لهذه المعانى جميعها ، لأنه - سبحانه -
هو الذى أعطى خلقه كل شئ يحتاجون إليه فى معاشهم ، ثم هدام إلى طرق
الانتفاع بما أعطاهم كما أعطى كل نوع من أنواع خلقه الصورة التى تناسبه ،
والشكل الذى يتناسب مع جنسه ، صنع الله الذى أنقذ كل شئ . . .

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٦٧ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ٦ ص ١٣١ .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله فرعون لموسى فقال : « فما بال القرون الأولى ، .

والبال فى الأصل : الفسكر . تقول : خطر ببالى كذا ، أى : بفكرى وعقلى ، ثم أطلق على الحال التى يهتم بشأنها . وهذا الإطلاق هو المراد هنا .
أى : قال فرعون بعد أن رد عليه موسى هذا الرد الحكيم : يا موسى فما حال القرون الأولى . كقوم نوح وعاد وثمود . . . الذين كذبوا أنبياءهم ، وعبدوا غير الله - تعالى - الذى تدعونى لعبادته ؟

وسؤاله هذا يدل على خبثه ومكره ، لأنه لما سمع من موسى الجواب المفهم له على سؤاله السابق بمن ربكما يا موسى ، أراد أن يصرف الحديث إلى منحنى آخر يتعلق بأمور لا صلة لها برسالة موسى وإياه وهى دعوته لعبادة الله - تعالى - وحده ، وإطلاق سراح بنى إسرائيل من الأسر .

ولذا رد عليه موسى - عليه السلام - بما يخرس لسانه ، ويبطل كيده ، فقال - كما حكى القرآن عنه - « علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربي ولا ينسى » .

أى : علم حال هذه القرون الأولى محفوظ عند ربى وحده فى كتاب هو اللوح المحفوظ : وهو - سبحانه - لا يخفى عليه شئ من حالهم ، وسيجازيهم بما يستحقون من ثواب أو عقاب .

وقوله ، لا يضل ربي ولا ينسى ، مؤكدا لما قبله . أى : لا يخطئ ربي فى علمه ، ولا ينسى شيئا مما علمه لأنه مبرز عن ذلك . فالاضلال هنا بمعنى الخطأ وقلة الإدراك .

وجمع - سبحانه - بين نفي الضلال والنسيان ، لإفادة تنزيهه عن أن يغيب - شئ من أحوال هذا الكون عن علمه الشامل لكل شئ ، ولبيان أن علمه باق بقاء أبديا لا نسيان معه ، ولا زوال له .

ثم بين له آثار علم الله - تعالى - وقدرته فقال : « الذي جعل لكم الأرض مهادا . . . »

أى : هو - سبحانه - الذي جعل لكم الأرض ممهدة كالفرش ، ليقسفى لكم الانتفاع بخيراتها وقرأ الأكثرون من السبعة : « مهادا ، أى : فراشا . والمهاد فى الأصل ما يمد للصبي لينام عليه . »

« وسلك لكم فيها سبلا ، والسلك : الإدخال . أى : وجعل لكم فى داخلها طرقا تنتقلون فيها من مكان إلى مكان ، ومن بلدة إلى أخرى ، لافضاء مصالحكم . »

« وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، والأزواج : الأصناف . »

أى : وأنزل - سبحانه - بقدرته من السماء ماء نافعا كثيرا . فأخرجنا بسبب هذا الماء من الأرض أصنافا شتى - أى متفرقة - من النبات ، هذه الأصناف مختلفة المنافع والألوان والطعوم والروائح ، مما يدل على كمال قدرتنا ، ونفاذ إرادتنا .

وفى قوله « فأخرجنا » النبات من الغيبة إلى التلكم بصيغة التعظيم ، التنبيه على عظم شأن هذا الإخراج ، وأثره الكبير فى حياة الناس .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على أربع من قد امتن الله بها على عباده ، وهى تمهيد الأرض ، وجعل الطرق فيها ، وإنزال المطر من السماء ، وإخراج النبات المتنوع من الأرض .

وهذه المنن وإن كانت ظاهرة وواضحة فى جميع فجاج الأرض ، إلا أنها أظهر ما تكون وأوضح ما تكون فى أرض مصر التى كان يعيش فيها فرعون ، حيث تبدو الأرض فيها منبسطة ممهدة على جانبى النيل الممتد امتدادا كبيرا .

وكان الأجدر بفرعون - لو كان يعقل - أن يخلص العبادة لواهب هذه المنن ، ومسدى هذه النعم ، وهو الله رب العالمين .

والأمر في قوله - سبحانه - « كلوا وارعوا أنعامكم ، للإباحة .

أي : هذه الأرض وما اشتملت عليه من طرق ومن نبات شتى هي لمنفعتكم ومصلحتكم ، فكلوا - أيها الناس - من هذه الثمار المتنوعة التي انشقت عنها الأرض ، وارعوا أنعامكم من إبل وبقر وغنم في المكان الصالح للرعى من هذه الأرض ، واشكروا الله - تعالى - على هذه النعم لكي يزيدكم منها .

واسم الإشارة في قوله ، إن في ذلك لآيات لأولى النهى ، يعود إلى المذكور من تلك النعم السابقة .

و « النهى » جمع نهية - بضم النون وإسكان الهاء - وهي العقل . سمي بذلك لأنه ينهى صاحبه عما لا يليق . تقول العرب : نهو الرجل - ككفرم - إذا كملت نهيته . أي عقله .

والمعنى : إن في ذلك الذي ذكرناه لكم من نعمة تمديد الأرض ، وجعل الطرق فيها . وإنزال المطر عليها ، وإخراج النبات منها ... إن في كل ذلك لآيات وعظات وهى ، لأصحاب العقول السليمة ، والأفكار القويمة .

ثم بين - سبحانه - أن هذه الأرض منها خلق الإنسان ، وإليها يعود ، ومنها يبعث للحساب يوم القيامة ، فقال - تعالى - : « منها خلقناكم ، ومنها نعبدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى . »

والضمير في « منها وفيها » يعود إلى الأرض المذكورة قبل ذلك في قوله - تعالى - : « الذي جعل لكم الأرض مهداً ... » والتارة : بمعنى المرة .

أى : من هذه الارض خلقنا أباكم آدم ، وأنتم تبع له ، وفرع عنه ، كما قال - تعالى - : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » .

وقوله : « وفيها نعبدكم ، أى : فى الارض نعبدكم عند موتكم ، حيث تكون محل دفنكم واستقرار أجسادكم .

وقوله : « ومنها نخرجكم تارة أخرى ، أى : ومن الارض نخرجكم مرة أخرى أحياء يوم القيامة ، للحساب والجزاء .

قال - تعالى - : « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون يوم يخرجون من الأحداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون » (١) .

وقال - سبحانه - : « ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا يا ويلتنا من بعثنا من مرقدنا ، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون » (٢) . قال ابن كثير : « وهذه الآية كقوله - تعالى - : « قال فيها نحيون ، وفيها نموتون ، ومنها تخرجون » (٣) .

وفى الحديث الذى فى السنن أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حضر جنازة فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها فى القبر ثم قال « ومنها خلقناكم ، ثم أخذ أخرى وقال : « وفيها نعبدكم ، ثم أخرى وقال : « ومنها نخرجكم تارة أخرى » (٤) .

وقوله - تعالى - : « ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ، بيان للموقف

(١) سورة المارج الآيتان ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) سورة يس الآيتان ٥٩ ، ٥٢ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٥ .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٩٢ .

الجودى الذى وقفه فرعون من الحجج والمعجزات التى طرحها أمام موسى عليه السلام . -

وأربناه : من الرؤية البصرية المتعدية إلى مفعول واحد . فلما دخلت عليها الطمرة تمتد إلى اثنين أولهما الهاء والثانى آياتنا .

والإضافة فى آياتنا ، قائمة مقام التعريف العمدى . أى : آياتنا المهددة لموسى ، والتى على رأسها اليد والعصا . .

والمعنى : ولقد أربنا فرعون بعينيه آياتنا كلها الدالة على وحدانيتنا وقد رتبنا مصدق نبينا موسى ، فكانت نتيجة ذلك أن كذب بها ، وأبى أن يستجيب للحق . . .

كما قال - تعالى - : « وقالوا مهما نأتنا به من آية لتسحرنا بها فأنحن لك مؤمنين » (١) .

وكما قال - سبحانه - : « فلما جاءهم بآياتنا إذ هم منها يضحكون » (٢) . والآية السكرية تؤكدهم جود فرعون وطغيانه بجملة من المؤكدات ، وهى تلام للقسم ، وقد ، والرؤية البصرية ، ولفظ كل الدال على الشمول والإحاطة . والفاء فى قوله ، فكذب ، للتحقيب ، أى : فكذب بدون تريت أو نعمل . والمفعول محذوف . أى : فكذب الآيات أو فكذب موسى بدون تردد أو تأخير .

والتعبير بقوله ، فكذب وأبى ، لزيادة ذمه وتحقير شأنه . لأنه لم يكتف بآية تكذيب بل أضاف إلى ذلك الامتناع عن قبول الآيات ، والجحود لها ، والاعتلى على من جاء بها كما ينبى عنه قوله - تعالى - بعد ذلك . « قال أجتئنا

(١) سورة الأعراف الآية ١٣٢

(٢) سورة الزخرف الآية ٤٧ .

لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ، أى : قال فرعون لموسى على - ميل التهديد والوعيد : يا موسى أجتئنا من المكان الذى هربت إليه ، وملك دقة الآيات التى رأيناها ، لكى نخرجنا من أرضنا التى عشنا فيها وهى أرض مصر بسبب ما أظهرته أمامنا من سحر وخفة يد .

وسمى اللعين ماجاء به موسى - عليه السلام - من معجزات سحرا ، ليزيل من أذهان قومه أثر هذه المعجزات الباهرة

وقال : « لتخرجنا من أرضنا ، ليحمل أتباعه على الوقوف في وجهه ، موسى - يبراز أن موسى جاء ليحتل أرضهم ، ويجوز أموالهم ، ويجعل السلطان لغيرهم - . وقد تكرّر هذا المعنى في آيات كثيرة منه قوله - تعالى - : « قال الملأ حوله إن هذا لساحر عليم - يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فإذا تأمرون ، (١) .

وقوله - سبحانه - : « قالوا أجتئنا لثلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ، وتكون لنا الكبرياء في الأرض ، وما نحن لكما بمؤمنين ، (٢) .

ثم أضاف فرعون إلى تهديده لموسى تهديدا آخر فقال : « فلنأتينك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى ، .

وقوله : « فلنأتينك . . ، جواب لقسم محذوف . أى : والله لنأتينك بسحر مثله . .

قال الجمل : « وقوله : « موعداء يجوز أن يكون زمانا ، ويرجحه قوله : « قال موعدكم يوم الزينة ، .

والمعنى : عين لنا وقت اجتماع ؛ ولذلك أجابهم بقوله : « موعدكم يوم :

(١) - سورة الشراء الآيتان ٣٤ ، ٣٥

(٢) - سورة يونس الآية ٧٨

الزينة . . ويجوز أن يكون مكانا ، والمعنى : بين لنا مكانا معلوما نعرفه نحن وأنت فتأتيه ، وهذا يؤيده قوله : « مكانا سوى » .

ويجوز أن يكون مصدرا ، ويؤيده هذا قوله : « لا نخلفه نحن ولا أنت » لأن المواعدة توصف بالخلف وعدمه ... ، (١) .

وقوله : « لا نخلفه » من الاخلاف بمعنى عدم إنجاز الوعد .

وقوله : « سوى » ، قرأه ابن عامر وعاصم وحمة بضم السين ، وقرأه هباقون بالكسر ومعنى القراءتين واحد .

وأصله من الاستواء . يقال : مكان سوى وسواء . أى : عدل ووسط ، بحيث يستوى طرفاه بالنسبة للفرعيين .

أى : قال فرعون لموسى مهديا ومتوعدا : « أجبثنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك باموسى ، والله لنا تينك بسحر مثل سحرك » ، فاجعل بيننا وبينك موعدا للمباراة والمنازلة ، لا نخلف نحن ولا أنت هذا الموعد ، وأن يكون مكان منازلتنا لك فى مكان يتوسط المدينة ، بحيث يستطيع سكانها أن يحضروا إليه .

والمقابل فى الآية الكريمة يرى أن فرعون قد قال ما قال لموسى وهو كأنه قد جمع أطراف النصر بين يديه .

ويمهد لذلك : تصديره كلامه بالقسم « فلنأتينك » . . وتركه لموسى اختيار الموعد الذى يناسبه « فاجعل بيننا وبينك موعدا » واشترطه عدم الخلف فى الوعد « لا نخلفه نحن ولا أنت » ، واقترحه أن يكون مكان المباراة فى وسط المدينة ، حتى يراها جميع الناس « مكانا سوى » .

ولقد حكى القرآن أن موسى - عليه السلام - قد قيل نحدى فرعون ، ورد عليه بقوله : « قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى » .

والمراد بيوم الزينة : يوم كانوا يتزينون فيه ، ويجتمعون فيه ، لأنه يوم عيد لهم .

قيل : إنه كان يوم عاشوراء ، وقيل : يوم النيروز ...

أى : قال موسى لفرعون : موعد المنازلة بينى وبينكم هو يوم زينةكم وعيدكم ، وفى هذا اليوم أطلب منكم أن يجمع الناس جميعا فى وقت الضحى عند ارتفاع الشمس ، لىكى يشهدوا ما سيكون بينى وبين سحرتك يا فرعون .

وبذلك نرى أن موسى - عليه السلام - قد قابل تهديد فرعون له ، بتهديد أشد وأعظم ، فقد طلب منه ان يكون موعد المباراة يوم العيد ، كما طالب منه - أيضا - أن يجمع الناس فى وقت الضحى لىكى يشاهدوا تلك المباراة .

قال صاحب الكشف : ولما واعد موسى ذلك اليوم ، لىكون طوع كلمة الله ، وظهور دينه ، وكبت الكافر ، وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد وفى المجمع الخاص لنقوى رغبة من رغب فى اتباع الحق ، وبكل حد المبتلين وأشياءهم ، ويكثر الحديث بذلك فى كل بدو وحضر ، ويشيع فى جميع أهل الوبر والمدن ، (١) .

ثم حكى القرآن ما كان من فرعون بعد أن حدد موسى - عليه السلام - موعد المباراة فقال : وفتولى فرعون جثمه ثم أتى . .

أى : وبعد أن استمع فرعون إلى موسى ، انصرف من المجلس ، وولى مدبرا وجثمه كيده . .

أى : فجمع كبار سحرة من أطراف مملكته . ثم أتى بهم فى الموعد المحدد ، ليتحدى موسى - عليه السلام - .

وإلى هنا نرى الآيات الكريمة قد حكى لنا بأسلوبها البليغ جانباً من

المحاورات التي دارت بين موسى وفرعون، وأرينا كيف واجه موسى طغيان فرعون وغروره، برباطة جأش، وقوة إرادة، ومضاء عزيمة...

ثم انتقلت السورة بعد ذلك إلى الحديث عما دار بين موسى والسحرة من محاورات، انتهت بإيمانهم وإعترافهم بالحق الذي جاء به موسى من عند ربه، قال - تعالى - :

« قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا التَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنَّ هَٰذَا نِسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى (٦٣) فَأَجْعِلُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اثْبُتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (٦٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنْتَ تَلْقَىٰ وَإِنَّمَا أَنْ نَكُونُ أَوَّلَ مَنَ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلَىٰ أَتَقُولُوا، فَإِذَا حَبَلُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يَخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ نَسَعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) وَآلِقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠) » .

فقوله - تعالى - : « قَالَ لَهُمْ مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ... » حكاية لما وجهه موسى - عليه السلام - من نصيح وإلذار . قيل : كان عددهم اثنين وسبعين . وقيل أكثر من ذلك .

قال الجبل : قوله (فيسحقكم) قرأ الأخوان وحفص عن عاصم فيسحقكم - بضم الياء وكسر الحاء - . وقرأ الباقون بفتحهما . فقرأه الأخوين من أسحت الرباعي ، وهي لغة مجد وتميم . وقرأه الباقين من سحت الثلاثي - وبابه قطع - وهي لغة الحجازيين .

وأصل هذه المادة . الدلالة على الاستقصاء ، والنفاد . ومنه سحت المساق الشعر ، أى : استقصاء فلم يترك منه شيئاً ، وبستمع في الإهلاك والإذهاب . ونصبه بإضمار أن في جواب النهي ، (١) .

أى : قال موسى عليه السلام - للسحرة الذين اتقى بهم وجها لوجه بعد أن حشد فرعون أمامه ، قال لهم : الويل والهلاك لكم ، لانفثوا على الله - تعالى - كذباً ، بأن تنفثوا في وجهي ، ونزعوا أن معجزاتي هي نوع من السحر ، فإنكم لو فعلتم ذلك أهلككم الله - تعالى - وأبادكم بعذاب عظيم من عنده

وجملة : وقد خاب من افترى ، معترضة لتقرير وتأكيد ما قبلها .

أى : وقد خاب وخسر كل من قال على الله - تعالى - قولاً باطلاً لا حقيقة له ، وفرعون أول المبطلين المفترين الخاسرين ، فاحذروا أن تسيروا في ركابه ، أو أن تطيعوا نه أمراً .

ويبدو أن هذه النصيحة الصادقة المخلصة كان لها أثرها العايب في نفوس بعض السحرة ، بدليل إقواله - تعالى - بعد ذلك : فتنزعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ، والنجوى : المسارة في الحديث .

أى : وبعد أن سمع السحرة من موسى نصيحته لهم . ونهديدهم بالاستئصال والهلاك إذا ما اتعمروا في ضلالهم ، اختلفوا فيما بينهم ، وأسروا النجوى ، أى : وبالغوا في إخفاء ما يتسارون به عن موسى وأخيه - عليهما السلام - .

فمنهم من قال - كما روى عن قتادة - : إن كان ما جاءنا به موسى سحرا فسنطلبه ، وإن كان من عند الله فسيكون له أمر .

ومنهم من قال بعد أن سمع كلام موسى : ما هذا بقول ساحر .

ومنهم من أخذ في حض زملاته المترددين على منازل موسى - عليه السلام - ، لأنه جاء - هو وأخوه - لتغيير عقائد الناس ولاكتساب الجاه والسلطان ، ولسلب المنافع التي تأتي - أي للسحرة - عن طريق السحر . . .

ويبدو أن هذا الفريق الأخير هو الذي استطاع أن ينتصر على غيره من السحرة في النهاية ، بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك : **دَقَالُوا** إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجعوا كيدهن ثم اتتوا صفوا وقد أفلح اليوم من استعمل . .

فها تان الآيتان تشيران إلى خوف السحرة من موسى وهارونه وإلى أنهم بذلوا أقصى جهدهم في تجميع صفوفهم ، وفي تشجيع بعضهم لبعض ، حتى لا يستلب موسى - عليه السلام - منهم جاههم وسلطانهم ومنافعهم . . .

أي : قال السحرة بعضهم لبعض بطريق التناجي والإسرار ، ما استقر عليه رأيهم ، من أن موسى وهارون ساحران يريدان ، عن طريق سحرهما ، أن يخرجا ، السحرة من أرضهم مصر ، ليستولياهما وأنباعهما عليهما .

ويريدان كذلك أن يذهبا بطريقتكم المثلى . أي بمذهبكم ودينكم الذي هو أمثل المذاهب وأفضلها ، وبمسلحكم الذي أنتم فيه ، وبميشكم الذي تنعمون به . فالمثل : مؤنث أمثل بمعنى أشرف وأفضل . وإنما أتت باعتبار التعبير بالطريقة هذا . وهناك قراءات في قوله - تعالى - : **دَقَالُوا** إن هذان لساحران ذكرها الإمام القرطبي .

فقال ما ملخصه : **دَقَالُوا** - تعالى - : **دَقَالُوا** إن هذان لساحران ، قرأ أبو عمرو : **دَقَالُوا** إن هذين لساحران ، ورويت - هذه القراءة - عن عثمان وعائشة وغيرهما من الصحابة

وقرأ الزهرى والخليل بن أحمد وعاصم في رواية حفص عنه : إن هذان ،
بتخفيف ، إن ، د لساحران ، وهذه القراءة سلمت من مخالفة المصحف
ومن فساد الإعراب ، ويكون معناها : ما هذان إلا ساحران .

وقرأ المدنيون والكوفيون : : إن هذان بتشديد ذين ، لساحران ، فوافقوا
المصحف وخالفوا الإعراب .

فهذه ثلاث قراءات قد رواها الجماعة من الأئمة . . .

والعلماء في قراءة أهل المدينة والكوفة ستة أقوال : الأول أنها لغة
بنى الحارث بن كعب ورييد وخثعم . . . يجعلون رفع المثنى ونصبه وخذذه
الآلف . . . وهذا القول من أحسن ما حملت عليه الآية . . . (١) .

والفاء في قوله - تعالى - : فاجمعوا كيديكم . . . ، نصيحة ، أى : إذا كان
الأمر كذلك من أن موسى وهارون قد حضرا ليخرجاكم من أرضكم
بسحرهما . . . فاجمعوا كيديكم ، أى : فاحكموا سحرهم واعزموا عليه
ولا تجعلوه متفرقا .

يقال : أجمع فلان رأيه وأزمعه ، إذا عزم عليه وأحكمه واستعد لتنفيذه
وقوله : ثم انتوا صفا ، أى : ثم انتوا جميعا مصنفين ، حتى يكون أمركم
أكثر هيبة في النفوس ، وأعظم وقعا على القلوب ، وأدعى إلى القرباط والثبات
وقوله : وقد أفلح اليوم من استعلى ، تذييل يؤكد لما قبله .

أى : وقد أفلح وفاز بالمطلوب في يوم النزال من طلب العدو ، وسمى من
أجله ، واستطاع أن يتغلب على خصمه ، لأننا إذا تغلبنا على موسى كانت لنا
أدوات العظمى ، وإذا تغلب علينا خسرتنا خسارة ليس هناك ما هو أشد منها .
وحانت ساعة المبارزة والمنازلة ، فتقدم "سحرة" نحو موسى - عليه السلام -
وقالوا له - كما حكى القرآن عنهم - : يا موسى إما أن تأتي وإما نكون أول
من ألقى .

وتضطرب وتمدد ، بحيث يخيل للناظر أنها تسمى باختياراتها ، وإنما كانت حيلة ، وكانوا جما غفيرا ، وجما كبيرا - أى السحرة - ، فألقى كل منهم حصا وجلا ، حتى صار الوادى ملآن حبات ، يركب بعضهم - بعضا . . . (١) .

ويبدو أن فعل السحرة هذا ، قد أثر فى موسى - عليه السلام - بدليل قوله - تعالى - : « فأرجس فى نفسه خيفة موسى . . . » .

والإيجاس : الإخفا . والإضمار . والخيفة : الخوف . أى : فأخنى موسى - عليه السلام - فى نفسه شيئا من الخوف ، حين رأى حبال السحرة وعصيم كأنها حبات تسمى على بطونها ، وخوفه هذا حدث له بمقتضى الطبيعة البشرية عندما رأى هذا الأمر الهائل من السحر ، وبمقتضى أن يؤثر هذا السحر فى نفوس الناس فيصرفهم عما سيفعله .

وهنا ثبته الله - تعالى - وقواه ، وأوحى إليه - سبحانه - بقوله : « قلنا لا تخف لك أنت الأعلى » .

أى : قلنا له عندما أرجس فى نفسه خيفة من فعل السحرة : لا تخف يا موسى عما فعلوه ، لك أنت الأعلى عليهم بالغلبة والظفر . أنت الأعلى لأن معك الحق ومعهم الباطل .

وقد أكد الله - تعالى - هذه الإشارة لموسى بجملة من المؤكدات أحدها : إن المؤكدة ، وثانيها : تكرير وثالثها : التعبير بالمو المفيد للاستعلاء عليهم . وقوله - سبحانه - : « وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا . . . » ، زيادة فى تشجيعه وتثبيته .

وتلقف من اللف بمعنى الأخذ للشيء بسرعة وخفة . يقال : تلقف فلان يلقفه لقفا ولقفا ، إذا تناوله بسرعة وحذق باليد أو بالقم .

وفى هذه الكلمة ثلاث قراءات سبعية ، أحدها : « تلقف » بتاء مفتوحة

مخففة ، بعدهم لام مفتوحة ، ثم قاف مشددة وفاء ساكنة ، وأصل الفعل تنانف ،
لخذفت لإحداهما تخفيفا ، وهو مجزوم في جواب الأمر وهو ألق ، .

وثانيها : د تلفف ، كالقراءة السابقة مع ضم الفاء ، على أن الفعل خبر
لمبتدأ محذوف . أى : وألقى ما فى يمينك ففى تلفف ماصنعوا .

وثالثها : د تلفف ، بفتح التاء وسكون اللام وفتح القاف المخففة وجزم
الفعل كالقراءة الأولى .

والمراد بما فى يمينه عصاه ، كما جاء ذلك صريحا فى آيات أخرى منها قوله
- تعالى - : د فالتقى موسى عصاه فإذا هى تلفف ما يافكون ، .

وعبر عنها بقوله د ما فى يمينك ، على سبيل التحويل من شأنها ، أولتذكير
بما شاهده منها بعد أن قال الله - تعالى - له قهل ذلك د ومانلك بيمينك
ياموسى . . . قال ألقها ياموسى ، فألقاها فإذا هى حية تسمى

والمدنى : وألقى ياموسى ما فى يمينك تبتلع كل ماصنعه السحرة من تمويه
وتزوير وتخيل ، جعل الناس يتوهمون أن حبالهم وعصيم تسمى .

قال ابن كثير : وذلك أنها صارت تغينا هائلا - أى حية عظيمة - ذاعيون
وقوائم وعنق ورأس وأضراس ، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصى حتى لم تبق
منها شيئا إلا تلففته وابتلعته ، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانا جهارا
نهارا . . . فقامت المهجزة ، واتضح البرهان ، وبطل ما كانوا يعملون ، (١) .

وقوله : د إنما صنعوا كيد ساحر ، تعليل لقومه د تلفف ماصنعوا ، ود ما ،
موصولة وهى اسم إن ، ود كيد ، خيرها ، والعائد محذوف .

والتقدير : وألقى ياموسى عصاك تلفف ماصنعه ، فإن الذى صنعه لإثما
كيد من جنس كيد السحرة وصنعهم وتمويههم . . .

« ولا يفلح الساحر ، أى ولا يفوز هذا الجنس من الناس ، حيث أتى ،
أى : حيث كان ، فحيث ظرف مكان أريد به التعميم .

أى : أن الساحر لا يفلح ولا يفوز أينما كان ، وحيثما ، أقبل وأبى انجبه ،
لأنه يصنع للناس التخيل والنوبه والزوير والتزييف للحقائق .

قال صاحب الكشف : « فإن قلت : لم وحد ساحر ولم يجمع ؟ قلت لأن
القصد فى هذا الكلام إلى معنى الجنسية ، لا إلى معنى العدد . فلو جمع لخلل أن
المقصود هو العدد ، (١) .

ثم كانت بعد ذلك المفاجأة الكبرى فقد آمن السحرة حين رأوا ما رأوا بهد
أن ألقى موسى ما فى يمينه ، قال - تعالى - : « فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا
برب هارون وموسى » .

قال الألوسى : « الفاء فى قوله « فألقى » فصيحة معربة من جمل غنية
عن التصريح .

أى : فزال الخوف ، وألقى موسى ما فى يمينه ، وصارت حية ، وتلقفت
جبالهم وعصيهم ، وعلم السحرة أن ذلك معجزة ، فخرروا سجدا لله على وجوههم
قائلين آمنا برب موسى . . . (٢) .

والحق أن التعبير بقوله - تعالى - « فألقى السحرة سجدا . . . » يدل على قوة
البرهان الذى عاينوه ، حتى لكانهم أمسكهم لإنسان وألقاهم ساجدين بالقوة
لعظم المعجزة التى عاينوها ، وأطلق - سبحانه - عليهم اسم السحرة فى حال
سجودهم له - تعالى - ولما آمنهم به ، نظرا إلى حالهم الماضى .

وهكذا النفوس النقية عندما يتبين لها الحق ، لا تليث أن تفىء لإيساه ،
وتستجيب لأهله قال الكرخى : « خروا ساجدين لله لأنهم كانوا فى أعلى

(١) تفسير الكشف ج ٣ ص ٢٩٦ .

(٢) تفسير الألوسى ج ١٦ ص ٢٣٠ .

طبقات السحر ، فلما رأوا ما فعله موسى خارجا عن صناعتهم ، عرفوا أنه ليس من السحر البتة (١)

وقال صاحب الكشف : ما أعجب أمرهم ، قد ألغوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود . ثم ألغوا رموسهم بعد ساعة للشكر والسجود . فما أعظم الفرق بين الإلقاءين ، (٢) .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما توعد فرعون به السحرة ، وموقفهم من الوعيد فقال - تعالى - :

« قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ، إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ . فَلَأَقْطَمَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ ، وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لِنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ بِحَجْرٍ مَّا فِئَ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦) » .

أى : قال فرعون للسحرة بعد أن شاهدتم وقد خروا لله - تعالى - ساجدين : « آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ، أَى : هل آمَنْتُمْ لموسى وصدقتموه فى دعونه وانقذتم له ، قبل أن أعطيكم الإذن بذلك . فالاستفهام للتقريع والتمديد .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٠١ .

(٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ٧٥ .

• إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ، أى : إن موسى الذى انقذتم له لحو
كبيركم وشيخكم الذى علمكم فنون السحر ، فأنتم تواطأ منه . • آمنت به لأنكم
من أتباعه .

وغرضه من هذا القول صرف الناس عن التأسى بهم ، وعن الإيمان
بالحق الذى آمن به الهمزة والظهور أمام قومه بظهور الثبات والتمسك بعد
أن استبد به وبهم الخوف والهلع . من هول ما رأوه .

ثم أضاف إلى قوله هذا تهديداً أشد فقال : • فلا فطن أيديكم وأرجلكم
من خلاف ، ولا صلبكم فى جذوع النخل ، •

أى : فواقه لأفطن أيديكم اليمنى - مثلاً - مع أرجلكم اليسرى ،
ولا صلبكم على جذوع النخل . لتكُونوا عبرة لغيركم من تسول له نفسه أن
يفعل فعلكم .

فالمراد من قوله • من خلاف ، أى : من الجهة المخالفة أو من الجانب بأن
يقطع اليد اليمنى ومعها الرجل اليسرى ، لأن ذلك أشد على الإنسان من قطعهما
من جهة واحدة إذ قطعهما من جهة واحدة يبقى عنده شئ كإحدى أصابع ،
بخلاف قطعهما من جهتين مختلفتين فإنه لإفساد للجانبين .

واختار أن يصلبهم فى جذوع النخل ، لأن هذه الجذوع أخشن من غيرها
والصلب عليها أشق من الصليب على غيرها ، وأظهر المرأتى لعلوها عن سواها .
فهو لطيفاً به وفجوره اختار أقسى ألوان العذاب ، لعقاب هؤلاء المومنين .

قال الجمل : • قوله • ولا صلبكم فى جذوع النخل ، يحتمل أن يكون
حقيقة . وفى التفسير أنه نقر جذوع النخل حتى جوفها ووضعهم فيها فساتوا
جوعاً وعطشاً .

ويحتمل أن يكون مجازاً وله وجهان : أحدهما : أنه وضع حرفاً مكان

آخر . والأصل على جذوع النخل . والثاني : أنه شبه تمسكهم بتمسك من حواء الجذع واشتمل عليه .

وقال السكرخي د في ، بمعنى على مجازاً ، من حيث إنه شبه تمسك المصلوب بالجذع ، يتمكن المظروف في الظرف وهذا هو المشهور (١) .

وقوله : د ولتعلمن أينما أشد عذاباً وأبقي ، تهديد فوق تهديد ، ووعيد لإز ووعيد .

أي : وواقه لتعلمن أيها السحرة أينما أشد تعذيباً لكم ، وأبقى في إزال الهلاك بكم ، أنا أم موسى وربه .

وكأيه بهذا التهديد يريد أن يهون من كل عذاب سوى عذابه لهم ، ومن كل عقاب غير عقابه لإياهم .

وهذا التهديد الذي حكاه الله - تعالى - هنا ، قد جاء ما يشبهه في آيات أخرى منها قوله - تعالى - : قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ؛ لأنه لم يكرمه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ، لا تقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لا صليبنكم أجتمعين ، (٢) .

: ثم حكى - سبحانه - أن السحرة بعد أن استقر الإيمان في قلوبهم ، قد قابلوا تهديد فرعون لهم بالاستخفاف وعدم الاكتراث . فقال : وقالوا لن نؤثر على ما جاءنا من البينات ، والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض

أي : قال السحرة في ردم على تهديد فرعون لهم : لن نختارك يا فرعون ولن نرضى بأن نكون من حزبك ؛ ولن نقدم سلامتنا من عذابك . . . على ما ظهر لنا من المعجزات التي جاءنا بها موسى ، والقي على رأسها عصا التي ألغتها فإذا هي تتبلع حباننا وعصينا .

(١) حاشية الجبل طي الجلالين ج ٣ ص ١٠١ .

(٢) سورة الأعراف الآيتان ١٢٣ ، ١٢٤ .

وجملة ، والذي فطرنا ، الواو فيها للعطف على ما ، في قوله ، ما جاءنا .

أى : لن نختار لك يا فرعون على الذى جاءنا من البينات على يد موسى ،
ولا على الذى فطرنا أى : خلقنا واوجدنا فى هذه الحياة .

ويصح أن تكون هذه الواو للقسم ، والموصول مقدم به ، وجواب
القسم محذوف دل عليه ما قبله ، والمعنى : وحق الذى فطرنا لن نؤثرك يا فرعون
على ما جاءنا من البينات .

وقوله : فاقض ما أنت قاض ، تصريح منهم بأن تهديده لم لا وزن له
عندهم ، ورد منهم على قوله : لا قطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف .

أى : لن نقدم طاعتك على طاعة خالقنا بعد أن ظهر لنا الحق ، فافعل ما أنت
ما فعله ، وفقد ما تريد تنفيذه فى جوارحنا ، فبى وحدها التى تملكها ، أما
قلوبنا فقد استقر الإيمان فيها : ولا تملك شيئا من صرفها عما آمنت به .

قال بعض العلماء : واعلم أن العلماء اختلفوا : هل فعل بهم فرعون
ما نوهدهم به ، أو لم يفعله بهم ؟

فقال قوم : قتلهم وصلبهم ، وقوم أنكروا ذلك وأظهرهم عندى : أنه
لم يقتلهم ، وأن الله عصمهم منه لأجل إيمانهم بالاسم بالله - تعالى - ، لأن الله
قال لموسى وهارون : «أتما ومن اتبعكما الغالبون» (٥) .

وقوله : إنما نقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آتينا ربنا ليغفر لنا خطايانا .
تعليل لعدم ميالنا لهم بتهديده لم .

أى : افعل يا فرعون ما أنت فاعله بأجسامنا ، فإن فعلك هذا إنما يتعلق
بحيائنا فى هذه الحياة الدنيا ، وهى سريرة الزوال ، وعذابها أهون من عذاب
الآخرة .

« إنا آمننا بربنا ، وغالقتنا ومالك أمرنا » ليفقر لنا خطايانا ، السالفة ،
التي اقترفناها بسبب الكفر والإشراك به - سبحانه - .

وليفقر لنا دما أكرهتنا عليه عن السحر ، لكي نعارض به موسى - عليه السلام -
بمعارضة من هو على الباطل لمن هو على الحق ، وقد كنا لا نملك أن نصيبك .
وخصوا السحر بالذكر مع دخوله في خطايام ، للإشارة بشدة نفورهم
منه ، وبكثرة كراهيتهم له بعد أن هدام الله إلى الإيمان .

وقوله : « والله خير وأبقى » ، تذييل قصدوا به الرد على قول فرعون لهم :
« واتعلمن أيضا أشد عذابا وأبقى » .

أى : والله - تعالى - خير ثوابا منك يا فرعون ، وأبقى جزاء وعطاء ،
فإن ثوابه - سبحانه - لا نقص معه ، وعطاءه أبقى من كل عطاء .

وقوله - عز وجل - : « إنه من يأت ربه مجرما . . » ، يصح أن يكون
كلاماً مستأنفاً ساقه الله - تعالى - لبيان سوء عاقبة المجرمين ، وحسن عاقبة
المؤمنين .

ويصح أن يكون من بقية كلام السحرة في رددهم على فرعون .
والمعنى : « إنه » ، أى الحال والشأن ، من يأت ربه ، يوم القيامة في حال
كونه مجرماً .

أى : مرتكباً للجريمة الكفر والشرك بالله - تعالى - « فإن له » ، أى : لهذا
المجرم « جهنم » ، يهذب فيها عذابا شديدا من مظاهره أنه « لا يموت فيها ،
فليس يريح » ، لا يحيى ، حياة فيها راحة .

كما قال - تعالى - « والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ،
ولا يخفف عنهم من عذابها ، كذلك نجزي كل كفور » .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين فقال : « ومن يأته مؤمناً به إيماناً
حقاً ، وقد عمل ، الأعمال ، الصالحات ، بجانب إيمانه . فأولئك ،
الموصوفون بتلك الصفات ، لهم ، بسبب إيمانهم وعملهم الصالح « الدرجات
تصل ، أى : المنازل الرفيعة ، والمساكنة السامية » .

وقوله : « جنات عدن تجري من تحتها الأنهار ، يدل من الدرجات العلى .
 أى : لهم جنات باقية دائمة تجري من تحت أشجارها ونمارها الأنهار ،
 « خالدين فيها ، خلودا أبديا .

« وذلك ، العطاء الجزيل الباقى ، جزاء من تركى ، أى من تطهر وتجرد
 من دنس الكفر والمعاصى .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد صورت لنا بأسلوبها البليغ المؤثر ،
 تلك المحاورات الطويلة التى دارت بين موسى وفرعون والسحرة
 انتهت بانتصار الحق وإندحار الباطل .

ثم ساق - سبحانه - جانباً من النعم التى أنعم بها على بنى إسرائيل ، وحذرهم
 من جحودها ، فقال - تعالى - :

« ولقد أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُم مَّصَرًا
 مِّنَ الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ
 فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (٧٩)
 يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ
 الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ (٨٠) كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
 وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ، وَمَن يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ
 هَوَىٰ (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ (٨٢) » .

قال الألوسى ما ملخصه : « وقوله - سبحانه - : « ولقد أَوْحَيْنَا إِلَىٰ
 مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي حكاية لإجمالية لما انتهى إليه فرعون وقومه ،
 وقد طوى - سبحانه - ذكر ماجرى عليهم بعد أن تغلب موسى على
 السحرة وبعد أن مكث موسى يبلغهم معه » (١) .

وصدرت الآية الكريمة باللام الموحدة للقسم وقد، تأكيداً لهذا الإيحاء،
وتقريباً له .

أى : واقعاً لقد أوحينا إلى عبدنا موسى - عليه السلام - وقالنا له :
سر بعبادى من بنى إسرائيل فى أول الليل متجها بهم من مصر إلى البحر الأحمر
فإذا ما وصلت إليه ، فأضرب لهم طريقاً فى البحر يابساً ، .

أى : فاجعل لهم طريقاً فى البحر يابساً ، فالضرب هنا بمعنى الجعل كما فى
عولهم : ضرب له فى ماله سهماً ، إذا جعل له سهماً .

والمراد بالطريق جنسه . فإن الطرق التى حدثت بعد أن ضرب موسى
بمصر البحر ، كانت اثنتى عشر طريقاً بعدد أسباط بنى إسرائيل .

وعبر - سبحانه - عن بنى إسرائيل الذين خرجوا مع موسى بعنوان
العبودية لله - تعالى - للإشعار بمطلقه - عز وجل - عليهم ورحمته بهم -
وللتنبية على طغيان فرعون حيث استعبد واستذل عباداً للخلاق - سبحانه - ،
وجعلهم عبيداً له .

قال الجمل : وقوله ، يابساً صفة لقوله ، طريقاً ، وصف به لما يؤول إليه ،
لأنه لم يكن يابساً بعد ، وإنما مرت عليه الصبا لجفافته . وقيل : هو فى الأصل
مصدر وصف به للمبالغة . أو على حذف مضاف ، أو من يابس كخادم وصف
به الواحد بمبالغة ، (١)

وقوله - سبحانه - : لا تخاف دركا ولا تخشى ، تذييل قصد به تثبيت
فؤاد موسى - عليه السلام - وإدخال الطمأنينة على قلبه .

والدرك اسم مصدر بمعنى الإدراك . والجملة فى محل نصب على الحال من
فاعل ، أضرب ، .

أى : أضرب لهم طريقاً فى البحر يابساً ، حالة كونك غير خائف من أن

يدركك فرعون وجنوده من الخلف ؛ وغير وجل من أن يفرقكم البحر من أمامكم .

فآية الكرسي قد إشتملت على كل ما من شأنه أن يفرس الأمان والاطمئنان في قلب موسى ومن معه .

ثم بين - سبحانه - موقف فرعون بعد أن علم بأن موسى قد خرج بقون من مصر فقال - تعالى - : « فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم » .
 أي : وبعد أن علم فرعون بخروج موسى وبني إسرائيل من مصر ، جمع جنوده وأسرع في طلب موسى ومن معه ، فكانت نتيجة ذلك ، أن أغرق الله - تعالى - فرعون وجنوده في البحر . وأهلكهم عن آخرهم .

والتعبير بالاسم المبهم الذي هو الموصول في قوله : « فغشيهم من اليم ما غشيهم » يدل على تعظيم ما غشيهم وتهويله ، أي : بعلام وغمرهم من ما البحر مالا يعلم كنهه إلا الله - تعالى - بحيث صاروا جميعا في طيات أمواجه .
 ونظيره قوله - تعالى - : « إذ يغشى السدرة ما يغشى » وقوله : « فأوحى إلى عبده ما أوحى » .

قال - صاحب الكشف : « قوله - تعالى - « ما غشيهم » من باب الاختصار ومن جوامع السكام التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة . أي : غشيهم مالا يعلم كنهه إلا الله - تعالى - . » وقرئ « فغشاهم من اليم ما غشاهم » والتفعية : التغطية ... (١) .

وقوله - سبحانه - « وأضل فرعون قومه وما هدى » بيان لحال فرعون قبل أن يهلكه الله - تعالى - بالفرق .

أي : وأضل فرعون في حياته قومه عن طريق الحق ، وما هداهم إليه وإنما هداهم إلى طريق الفنى والباطل ، فكانت عاقبتهم جميعا الاستئصال والدمار .

وما اشتملت عليه الآيتان من إجمال بالنسبة لتلك الأحداث : قد جاء مفصلاً في آيات أخرى ومن ذلك قوله - تعالى - في سورة الشعراء : «وَأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون . فأرسل فرعون في المدائن حاشرين إن هؤلاء لشردمة قليلون . وإنهم لنا لغاظون . ولأنا لنجيع حاذرون . فأخرجناهم من جنات وعيون . وكثوز ومقام كريم . كذلك وأورثناها بني إسرائيل . فاتبعوهم مشرفين . فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون . قال كلا إن معي ربي سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق ، فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين .»

ثم ذكر - سبحانه - بني إسرائيل بنعمه عليهم فقال : «يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ، فرعون وجنوده ، بأن أغرقناهم أمام أعينكم وأنتم تنظرون إليهم ، بعد أن كانوا يسومونكم سوء العذاب .»

«وواعدناكم جانب الطور اليمين ، أي : وواعدنا نبيكم موسى في هذا المكان لإعطائه التوراة هدايتكم وإصلاح شأنكم ، وهذا الوعد هو المشار إليه بقوله - تعالى - :

«وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة.» قال صاحب الكشاف : ذكرهم النعمة في نجسهم وهلاك عدوهم ، وفيما واعد موسى من المناجاة بجانب الطور ، وكتب التوراة في الألواح . وإنما عدى المواعدة إليهم لأنها لا يستتم واتصلت بهم حيث كانت لنبيهم ونقيابهم ، وإليهم رجعت منافعها التي قام بها دينهم وشرعهم ، وفيما أفاض عليهم من سائر نعمه وأرزاقه ... (١)

وقال الفرطى ما ملخصه : «وقوله : «جانب ، نصب على المفعول الثاني لقوله واعدنا ...»

ود الایمن ، نصب لانه نعمت للجانب ، إذ ایس للجبل یمین ولاشمال . .
وتقدير الآیة : وواعدناکم لانیان جانب الطور ثم حذف المضاف : أى : أمرنا
موسى أن یأمرکم بالخروج معه لیکلمه بحضورکم فسمعوا الکلام . وقیل : وعد
موسى بعد إغراق فرعون أن یأتی جانب الطور الایمن فیؤتیه التوراة ، فالوعد
کان لموسى ، ولکن خوطبوا به لأن الوعد کان لأجلهم . . . (١)

وقوله : ونزلنا علیکم المن والسلوی ، نعمة ثالثة من نعمه - سبحانه - علیهم .
والمن : مادة حلوة لزجة تشبه العسل كانت تسقط علی الشجر من طلوع
الفجر إلى طلوع الشمس .

والسلوی : طائر لذیذ الطعم ، يشبه الطائر الذی یمى السمانی ، كانوا
یأخذونه ویبذلونه بأکله .

وقیل : هما کنایة عما أنعم الله به علیهم . وهما شیء واحد ، سمی أحدهما
دنا ، لامتنان الله - تعالى - علیهم ، وسمى الثاني سلوی لتسلیتهم به .

أى : ونزلنا علیکم بفضلنا ورحمتنا وأنتم فی التیه تلك المنافع والخیرات
القی تأخذونها من غیر کد أو تعب .

والأمر فی قوله - سبحانه - : دكوا من طیبات مارزقناکم ، للإباحة ،
والجمله مقول لقول محذوف . أى : وقلنا لهم کلوا من طیبات مارزقناکم من
المن والسلوی ، ومن غیرهما من اللذائذ الی أجلها الله لکم .

وقوله - تعالى - : دولا تطغوا فیه فیجعل علیکم غضبی ومن یحطل غضبی فقد
هوى ، تحذیر لهم من تجاوز الحدود الی شرعها الله - تعالى - لهم ، إذ الطغیان
مجاوزه الحد فی کل شیء .

والضمیر فی قوله د فیه ، يعود إلى الموصول الذی هو د ما ، فی قوله :

« مارزقناكم ، ويحل - بكسر الحاء - بمعنى يجب . يقال : حل أمر الله على فلان يحل حللا بمعنى وجب .

وقرأ السكسائي وفيحل ، بضم الحاء بمعنى ينزل . يقال : حل فلان بالمكان يحل - بالضم - حلولا ، إذا نزل به .

والمعنى : كلوا يا بني إسرائيل من الطيبات التي رزقكم الله إياها واشكروه عليها ، ولا تتجاوزوا فيما رزقناكم الحدود التي شرعناها لكم ، فإنكم إذا فعلتم ذلك حق عليكم غضبي ، ونزل بكم عقابي ، ومن حق عليه غضبي ونزل به عقابي « فقد هوى ، أى : هلك وصار إلى الهاوية أى : إلى النار .

وأصله السقوط من مكان مرتفع كجبل ونحوه . يقال : هوى فلان - بفتح الواو - هوى - بكسرهما - إذا سقط إلى أسفل ، ثم استعمل في الهلاك للزومه له .

ثم فتح - سبحانه - باب الأمل لعباده فقال : ولإني لغفار ، أى : لكثير المغفرة ، لمن تاب ، من الشرك والمعاصي ، وآمن ، بكل ما يجب الإيمان به وعمل صالحا ، أى : وعمل عملا مستقيما برضى الله - تعالى - « ثم اهتدى ، أى : ثم واظب على ذلك ، وداوم على استقامته وصلاحه إلى أن لقي الله - تعالى - .

وثم في قوله « ثم اهتدى ، للتراخي النسبي ، إذ أن هناك فرقا كبيرا بين من يتوب إلى الله - تعالى - ويقدم العمل الصالح ، ويستمر على ذلك إلى أن يلقي الله - تعالى - وبين من لا يداوم على ذلك .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن فتنة قوم موسى - عليه السلام - بعد أن ذهب لمناجاة ربه ، وكيف انقادوا لحديعة السامري لهم .. فقال - تعالى - :

« وما أمجلك عن قومك يا موسى (٨٣) قال ثم أولاء على أثرى

وَجِئْتُ إِلَيْكَ رَبِّ ارْتَضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ
وَأَصْلَحْنَا السَّامِرِيَّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ، قَالَ
يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ
يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا
مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَسَكِنَا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ
أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارِقُ قَالَُوا هَذَا
إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسَى (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا
وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرَأٌ وَلَا نَفْعًا (٨٩) .

وهذه الآيات الكريمة تحكي قصة ملخصها : أن موسى عليه السلام بعد
أن أهلك الله تعالى فرعون وجنوده ، سار بدفئ إسرائيل متجها ناحية جبل
الطور ، ثم تركهم مستخلفا عليهم أخاه هارون ، وذهب لمناجاة ربه وبعده
سبعون من رجائهم ، ثم عجل من بينهم شوقا للقاء ربه ، فأخبره - سبحانه -
بما أحدث قومه في غيبته عنهم . وجملة « وما أعجلك عن قومك يا موسى »
مقول لقول محذوف .

والمعنى : وقلنا لموسى : أي شوق جمالك تتعجل المحي . إلى هذا المكان ،
قبل قومك وتخلفهم وراءك ، مع أنه ينبغي لرئيس القوم أن يتأخر عنهم
في حالة السفر ، ليكون نظره محيطا بهم وناظرا فيهم ؟

فاجاب موسى معتذرا لربه - تعالى - بقوله : « هم أولاء على أثرى ، أي :
على مقربة مني ، وسيلحقون بي بعد زمن قليل » وعجلت إليك رب لترضى ،
أي : وقد حملني على أن أحضر قبلهم ، شوقى إلى مكائلك - يا إلهى - وطعمى
في زيادة رضاك عني .

فوسى - عليه السلام - قد علل تقدمه على قومه في الحضور بهاتين :
الاولى : أنهم كانوا على مقربة منه . والثانية : حرصه على رضى ربه عنه .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : ما أعجلك ، سؤال عن سبب العجلة ،
فكان الذى ينطبق عليه من الجواب أن يقال . صلب زيادة رضاك أو الشوق
إلى كلامك .. وقوله : دم أولاء على أثرى ، كما ترى غير منطبق عليه ؟

قلت : قد تضمن ما واجهه رب العزة شيعتين : أحدهما : إنكار العجلة
في نفسها ، والثانى : السؤال عن سببها الحامل عليها ، فكان أهم الأمرين إلى
موسى يسطر العذر ، وتحميد العلة في نفس ما أنكر عليه ، فاعتل بأنه لم يوجد
مضى إلا تقدم يسير ، مؤله لا يعتد به في العادة ، ولا يحتفل به ، وليس بينى وبين
من سبقته إلا مسافة قريبة ، يتقدم بمثلها الوفد رئيسهم ومقدمتهم . ثم عقبه
بجواب السؤال عن السبب فقال : وعجلت إليك ربى لترضى ، (١) .

وقوله - تعالى - : د قال فلما قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامرى ،
إخبار منه - سبحانه - بما فعله قومه بعد مفارقتهم لهم .

وكلمة د فتننا ، من الفتن ومعناه لغته : وضع الذهب في النار ليتبين أهو
خالص أم زائف .

والفتنة تطلق في القرآن بإطلاقات متعددة منها : الدخول في النار كما
في قوله - تعالى - : د يومهم على النار يفتنون) . ومنها الحجة كما في قوله
- تعالى - : د ثم لم تكن فتنهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ، .
ومنها : الاختبار والامتحان ، كما في قوله - تعالى - إنما أموالكم وأولادكم
فتنة ، ومنها : الإضلال والإشراك كما في قوله - تعالى - : د وقالوهم حتى لا تكون
فتنة ، وقوله - سبحانه - : د ومن يرد الله فتنته فلن يملك له من الله
شيئاً ، ، ، ، .

ويبدو أن المراد بالفتنة هذا المعنى الأخير وهو الإضلال والشرك، لأن فتنتهم كانت بسبب عبادتهم للعجل في غيبة موسى - عليه السلام - .
ويدل على هذا قوله - تعالى - : « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسداً له خوار »

والسامري : اسم للشخص الذي كان سبباً في ضلال بني إسرائيل . قيل : كان من زعماء بني إسرائيل وينسب إلى قبيلة تعرف بالسامرة . وقيل : إنه كان من قوم يعبدون البقر ، وقيل غير ذلك من أقوال مظنونة غير محققة .
أى : قال الله - تعالى - لموسى : « فإنه قد أضلانا قومك من بعد مفارقتك لهم ، وكان السبب في ضلالهم السامري ، حيث دعاهم إلى عبادة العجل فانقادوا له وأطاعوه .

وقوله - تعالى - : « فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا » ، بيان لما كان منه - عليه السلام - بعد أن عم بضلال قومه .

وكان رجوع موسى إليهم بعد أن ناجى ربه ، وتلقى منه التوراة .

قال الألوسي ما ملخصه : « فرجع موسى إلى قومه ، عذرجوعه للمهمود أى : بعد ما استوفى الأربعين ذى القعدة وعشر ذى الحجة ، وأخذ التوراة لاعتقيب الإخبار المذكور ، فسببية ما قبل الفاء لما بعدها إنما هي باعتبار قيد الرجوع المستفاد من قوله « غضبان أسفا » ، لا باعتبار نفسه ، وإن كانت داخلة عليه حقيقة ، فإن كون الرجوع بعد تمام الأربعين أمر مقرر مشهور لا يذهب الوم إلى كونه عند الإخبار (١) .

والمعنى : فرجع موسى إلى قومه - بعد مناجاته لربه وبعد تلقيه التوراة حالة كونه غضبان أسفا ، أى : غضبان شديد الغضب .

فالمراد بالأسف شدة الغضب ، وقيل المراد به الحزن والجزع .

ثم بين - سبحانه - ما قاله موسى لقومه بعد رجوعه إليهم فقال : « قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ... »

أى : قال لهم على سبيل الزجر والتوبيخ يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً لا سبيل لكم إلى إنكاره ، ومن هــذا الوعد الحسن : إنزال التوراة لهدايتكم وسعادتكم وإهلاك عدوكم أمام أعينكم ... فلماذا أعرضتم عن عبادته وطاعته مع أنكم تعيشون في خير ورزقه ... ؟

ثم زاد في تأنيبهم وفي الإنكار عليهم فقال : « أفضال عليكم العهد أم أردتم أى يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى ،

فلاستفهام في قوله « أفضال ... » ، للنفي والإنكار و « أم » بمعنى بل

والمعنى : أفضال عليكم الزمان الذى فارقتكم فيه ؟ لا لأنه لم يطل حتى تنسوا ما أمرتكم به ، بل لأنكم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ، فأخلفتم موعدى الذى وعدتموني إياه وهو أن تثبتوا على إخلاص العبادة لله - تعالى - .

ومعنى إرادتهم حلول الغضب عليهم ، أنهم فعلوا ما يستوجب ذلك وهو طاعتهم للسامرى فى عبادتهم للعجل .

قال ابن جرير : « كان لإخلافهم موعدة : عكوفهم على عبادة العجل ، وتركهم السير على أثر موسى للموعد الذى كان الله وعدهم ، وقولهم لهارون إذ نهاهم عن عبادة العجل ودعاهم إلى السير معه فى أثر موسى : « لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى » (١) .

ثم حكى - سبحانه - معاذيرهم الواهية التى تدل على بلادة عقولهم ، وإلتباس أفكارهم ، وتفاهة شخصيتهم فقال - تعالى - : « قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ... »

وقوله (بملكننا) قرأه نافع عن عاصم - بفتح الميم وسكون اللام - أى : بأمرنا . وقرأه حمزة والسكسائي (بملكننا) بكسر الميم وسكون اللام - أى : بطاقتنا : وقرأه الباقون - بضم الميم وسكون اللام - أى : بسطاننا ، وهو مصدر مضاف لفاعله ومفعوله محذوف ، أى : بملكننا أمرنا .

أى : قال بنو إسرائيل لنبيهم موسى على سبيل الاعتذار الذى هو اقبح من ذنب ما أخلفنا موعدهك فعبدنا العجل بأمرنا وطاقتنا وإختيارنا ، فقد كن الحال أكبر من أن يدخل تحت سلطاننا ، ولو خلعنا بيقتنا وبين أنفسنا ولم يسول لنا السامرى ما سول لبقينا على العهد الذى عاهدناك عليه ، وهو أن نعبد الله - تعالى - وحده .

وقوله : ولكننا حملنا أوزارنا من زينة القوم فقدفناها فكذلك ألقى السامرى ، حكاية لبقية ما قالوه من أعدار قبيحة

ولم يظ : ، حملنا ، قرأه ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم - بضم الحاء وتشديد الميم - على أنه فعل وفائب فاعل ، وقرأه الباقون - بفتح الحاء والميم - على أنه فعل وفاعل .

قال الألوسى ما ملخصه : والمراد بالقوم : القبط ، وبالأوزار : الأحمال وتسمى بها بالآثام ، وقصدوا بذلك ما استعاروه من القبط من الخلى فى عيد لهم قبيل الخروج من مصر ، وقيل : لاستعاروه باسم العرس . وقيل : هى ما ألقاه البحر على الساحل مما كان على الذن غرقوا وهم فرعون وجنوده فأخذ بنو إسرائيل ذلك على أنه غنيمة مع أنها لم تكن حلالا لهم (١) .

أى : قال بنو إسرائيل لموسى : ما أخلفنا عهدك بأمرنا ولكننا حملنا أثقالنا وأحمالنا من زينة القبط التى أخذناها منهم بدون حق فقدفناها فى النار بتوجيه من السامرى ، فكذلك ، أى : فكما ألقينا ما معنا ، ألقى السامرى ، ما معه من تلك الزينة .

قال ابن كثير: وهو حاصل ما اعتذر به هؤلاء الجملية أنهم تورعوا عن زينة القبط . فألقوها عنهم ، فعبدوا العجل ، فتورعوا عن الحقيقير ، وفعلوا الأمر الكبير (١) .

ثم بين - سبحانه - ما صنعه لهم السامري من تلك الخلق فقال: فدأ خرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى ، .
والخوار : الصوت المسموع .

أي : فكانت نتيجة ما قذفوه من الخلق في النار ، أن أخرج السامري لهم من ذلك ، عجلا جسدا له خوار ، أي صوت كه صوت البقر .

قيل : إن الله - تعالى - خلق الحياة في ذلك العجل على سبيل الاختبار والإمتحان لهم .

وقيل : لم يمكن به حياة ، وإنما كان - سامري صنعه لهم بدفة ، وجعل فيه منافذ إذا دخلت فيها الريح أخرجت منه صوتا كه صوت خوار البقر .

فقال بنو إسرائيل عند ما رأوا العجل الذي صنعه لهم السامري : هذا إلهكم وإله موسى فاعبدوه . لأن موسى نسي إلهه هنا ، وذهب ليبحث عنه في مكان آخر . فالضمير في قوله : فنسى ، يعود لموسى .

وقولهم هذا يدل على بلادتهم وسوء أدبهم مع نبيهم ، فهم لم يكتفوا بعبادة العجل ، بل زعموا أن نبيهم الداعي لهم إلى توحيد الله ، قد كان يعبد العجل وأنه قد نسي مكانه فذهب ليبحث عنه .

وقيل : أن الذي حدث منه الفديان هو السامري ، وأن النسيان بمعنى الترك ، أي : فترك السامري ما كان عليه من الإيمان الظاهري ، ونفذ الدين الذي بعث الله - تعالى - به موسى ، وحض الناس على عبادة العجل الذي صنعه لهم .

والقول الاول أرجح ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة . ولأنه هو المأثور عن السلف .

قال ابن جرير: وأولى الأقوال بالصواب عندنا أن يكون «فألقى» خبراً من الله - تعالى - عن السامري . وأنه وصف موسى بأنه نسي ربه . وأن ربه الذي ذهب يريد به هو العجل الذي أخرجه السامري ، لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه ، ولأنه عقيب ذكر موسى ، وهو أن يكون خبراً عن السامري عنه بذلك أشبه من غيره ، (١) .

وقوله - تعالى - « أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً ، ففرغ لهم على جملهم وغياثهم وسوء أدبهم » .

والفاء للعطف على مقدر يقتضيه لفظ «أى» ؛ أبلغ عى البصيرة عند هؤلاء السفهاء . أنهم لم يفتنوا إلى أن هذا العجل الذي اتخذوه إلهاً ، لا يستطيع أن يجيبهم إذا سألوه أو خاطبوه ؛ ولا يرد عليهم قولا يقولونه له ، ولا يملك لهم شيئاً لا من الضر ولا من النفع .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسداً له خوار لم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ، اتخذوه وكانوا ظالمين » ، (٢) .

ثم بين - سبحانه - موقف هارون - عليه السلام - من هؤلاء الجاهلين الذين عبدوا العجل ، فقال - تعالى - :

« ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ مَا كَفَيْنَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) » .

(١) تفسير ابن جرير ج ١٦ ص ١٤٨ .

(٢) - سورة الاعراف الآية ١٤٨ .

وجملة : د ولقد قال لهم هارون من قبل ... ، فسمية ، وكدة لما قبلها .

أى : والله لقد نصح هارون - عليه السلام - عبدة العجل من قومه ، قبل رجوع موسى إليهم ، فقال لهم مستعظفا : د يا قوم إنما فتنتم به ، أى : يا قوم إن ضلالكم وكفركم إنما هو بسبب عبادتكم العجل ، فاضمير فى د به ، يعود إلى العجل .

د وإن ربكم الرحمن ، هو وحده المستحق للعبادة والطاعة .

و جمع - سبحانه - بين لفظى الرب والرحمن ، لجذبهم نحو الحق ، واستئثارهم نحوه ، وللتنبية على أنهم متى تابوا قبل الله توبتهم ، لأنه - سبحانه - هو الرحمن الرحيم .

والفاء فى قوله : د فاتبعونى وأطيعوا أمرى ، اترتيب ما بعدها على ما قبلها .
أى : وما دام الأمر كذلك فاتبعونى وأطيعوا أمرى ، فى الثبات على الحق ، وفى نيل عبادة العجل ، وفى المحافظة على ما عاهدكم عليه موسى - عليه السلام -

ولكن هذه النصيحة الحكيمة من هارون لم تجد أذنا صاغية . بل قابلوا نصيحته لهم بالاستخفاف والتصميم على مالم فيه من ضلال ، إذ قالوا فى الرد عليه : د إن نبرح عليه عاكفين ، أى : سنستمر على عبادة العجل ، وسنواظب على هذه العبادة مواظبة تامة د حتى يرجع إلينا موسى ، نرى ماذا سيكون منه .

فهم لجهالاتهم وانطوائس بصائرهم ، وسوء أديهم ، يرون أن هارون - عليه السلام - ليس أهلا للنصيحة والطاعة ، مع أنه قد خاطبهم بأحكم أسلوب ، وألطف منطق .

قال الرازى : د واعلم أن هارون - عليه السلام - سلك فى هذا الوعظ أحسن الوجوه لئلا يجرم عن الباطل - أولا - بقوله : د يا قوم إنما فتنتم به ، ثم دعاهم إلى معرفة الله - ثانياً - بقوله : د وإن ربكم الرحمن ، ثم دعاهم - ثالثاً - إلى معرفة

النبوة بقوله : « فأتبعوني ، ثم دعاهم - رابعاً - إلى الشرائع بقوله : « وأطيعوا أمرى . »

وهذا هو الترتيب الجيد . لأنه لا بد قبل كل شيء من إمامة الأذى عن الطريق وهو إزالة الشبهات ، ثم معرفه الله - تعالى - هي الأصل ، ثم النبوة بها ثم الشريعة : فثبت أن هذا الترتيب على أحسن الوجوه ، وإنهم لجهلهم ومغادهم قابلوا هذا الترتيب الحسن في الاستدلال ، بالتقليد والجمود فقالوا : « لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ، (١) . »

ثم بين - سبحانه - ما قاله موسى لأخيه هارون بعد أن رأى ما عليه قومه من ضلال ، فقال - تعالى - :

« قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتُ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِخِيَّتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) . »

أى : قال موسى لأخيه هارون على سبيل اللوم والمعاتبة : يا هارون أرى شئاً . منعك من مقاوتهم وقت أن رأيتهم ضلوا بسبب عبادتهم للعجل ودلاهم في قوله : « أن لا تتبعهم ، مزيدة للتأكيد والاستفهام في قوله : « أف عصيت أمرى ، للإسكار . »

أى : ما الذى منعك من أن تتبعني في الغضب عليهم لدين الله حين رأيتهم عاكفين على عبادة العجل ، أف عصيت أمرى فيما قدمت إليك من قولى : « اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ، وفيما أمرتك به من العصابة فى الدين ، لأن وجودك فيهم وقد عبدوا غير الله - تعالى - يعتبر تهاونا معهم فيما لا يصح التهاون فيه . »

وكان موسى - عليه السلام - كان يريد من أخيه هارون - عليه السلام - موقفا ينسجم بالحزم والشدة مع هؤلاء الجاهلين ، حتى ولو أدى الأمر لمقاتلتهم ...

وهنا يرد هارون على أخيه موسى ردا يبدو فيه الرفق والاستعطاف فيقول : « يا بنؤم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي » .

أى : قال هارون لموسى عاولا أن يهدى من غضبه ، باستعجاجة عاطفة الرحم في قلبه : يا بن أوى لا تمسك بلحيتي ولا برأسي على سبيل التأنيب لى . فإنى لست عاصيا لأمرك ، ولا معرضا عن اتباعك .

قال الألوسى ما ملخصه : دخص الأم بالإضافة استعطافا وترقيقا لقلبه ، لا لما قيل من أنه كان أخاه لأمه ، فإن الجمهور على أنهما كافا شقيقين .

وقوله : « لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي » ، روى أنه أخذ شعر رأسه يمينه ، ولحيته بشماله ، وكان موسى - عليه السلام - حديدا متصلبا غضوبا لله - تعالى - ، وغلب على ظنه أن هارون قد قصر معهم . . . (١) .

وقوله : « لى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترفق قولى » استثناف لتعليل مرجب النهى ، بتحقيق أنه غير عاص لأمره ، وغير معرض عن اتباعه .

أى : يا بن أوى لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ، فإنى ما حملنى على البقاء معهم وعلى ترك مقاتلتهم بعد أن عبدوا العجل ، إلا خوفا من أن تقول لى - لمقاتلتهم أو فارقتهم بمن معى من المؤمنين - : لىك بعملك هذا قد جعلت بنى إسرائيل فرقتين متنازعتين ، ولم ترفق قولى ، أى : ولم تتبجح ونطع قولى لك : « أخطئ فى قولى وأصلح رلى تتبع سبيل المفسدين ، ولذلك لم أقدم على مقاتلتهم بمن معى من المؤمنين ، ولم أقدم كذلك على معارقتهم ، بل بقيت معهم فصحا واعظا . حتى تعود أنت إليهم فتندارك الأمر بنفسك ، وتعالجه برأيك .

قال بعض العلماء ماملخصه : « وهذه الآية الكريمة . . . تدل على لزوم إعفاء اللحية وعدم حلقها ، لأنه لو كان هارون حالقاً لحيته لما أخذ بها موسى - إذ من المشهور أن اللحية تطلق على الشعر الغابت في العضو المخصوص وهو الذقن - وبذلك يتبين لك أن إعفاء اللحية سمى الرسل الكرام الذين أمرنا الله - تعالى - بالافتداء . ٣٣ »

فقد قال - تعالى - بعد أن ذكر عدداً من الأنبياء منهم هارون : « أولئك الذين هدى الله فبهم دام اقتده . . . » (١) .

والعجيب من الذين مسخت ضمايرهم . . . حتى صاروا ينفرون من صفات الذكورية ، وشرف الرجولة ، إلى خمثة الأئوثة . . . » (٢) .

هذا : وبعد أن انتهى موسى من سماع إعذار أخيه هارون ، اتجه بغضبه إلى السامري - رأس الفتنة ومدبرها - فأخذ في زجره وتوبيخه ، وقد حكى سبحانه - ذلك في قوله - تعالى - :

« قَالَ فَأَخَاطَبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ، وَكَذَلِكَ سَوَّاتُ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ، وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا أَنْ تُخَلَّفَهُ ، وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨) » .

أى : قال موسى - عليه السلام - للسامري : « ما خطبك ، أى : ما شأنك ،

(١) سورة الانعام الآية ٩٠ .

(٢) راجع تفسير أضواء البيان ج ٤ ص ٥٠٧ .

وما الأمر العظيم الذى جعلك تفعل ما فعلت ؟ مصدر خطب يخطب - كيقعد يقعد - ومنه قولهم : هذا خطب يسير أو جليل ، وجمعه خطوب . وخصه بعضهم بما له خطر من الأمور ، وأصله : الأمر العظيم الذى يكثر فيه التخاطب والتشاور ، ويخطب الخطيب الناس من أجله .

وقد رد السامرى على موسى بقوله : « بصرت بما لم يصبروا به ، أى : علمت ما لم يعلمه القوم ، وفطنت لما لم يفطنوا له ، ورأيت ما لم يروه .

قال الزجاج : يقال : بصر بالشئ يبصر - ككبرم وفرح - إذا علمه ، وأبصره إذا نظر إليه .

وقيل : هما بمعنى واحد .

« فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها ، روى أن السامرى رأى جبريل عليه السلام - حين جاء إلى موسى ليذهب به إلى الميقات لأخذ التوراة من الله - عز وجل - ولم ير جبريل أحد غير السامرى من قوم موسى ، ورأى القرس كلما وضعت حافرهما على شئ اخضرت ، فعلم أن للتراب الذى تضع عليه القرس حافرهما شأنا ، فأخذ منه حفنة وألقاها فى الحلى المذاب فصار عجلا جسدا له خوار .

والمعنى : قال السامرى لموسى : علمت ما لم يعلمه غيبرى « فأخذت حفنة من تراب أثر حافر فرس الرسول وهو جبريل - عليه السلام - فألقيت هذه الحفنة فى الحلى المذاب فصار عجلا جسدا له خوار ، .

« وكذلك سولت لى نفسى ، أى : ومثل هذا الفعل سوائه لى نفسى ، أى : زينته وحسنته لى نفسى ، لأجعل بنى إسرائيل يتركون عبادة إلهك يا موسى ، ويعبدون العجل الذى صنعتته لهم .

وعلى هذا التفسير الذى سار عليه كثير من المفسرين ، يكون المراد بالرسول :

جبريل - عليه السلام - ، ويكون المراد بأثره : التراب الذي أخذه من موضع حافر فرسه .

هذا ، وقد نقل الفخر الرازي عن أبي مسلم الأصفهاني رأيا آخر في تفسير الآية فقال ما ملخصه : ليس في القرآن ما يدل على ما ذكره المفسرون ، فهنا وجه آخر ، وهو أن يكون المراد بالرسول : موسى - عليه السلام - وبأثره : سنته ورسمه الذي أمر به ، فقد يقول الرجل : فلان يقص أثر فلان ويقتص أثره إذا كان يمثل رسمه ، والتقدير : أن موسى لما أقبل على السامري بالتوبيخ وبسؤاله عن الأمر الذي دعاه إلى ضلال القوم بعبادة العجل ، رد عليه بقوله : « بصرت بما لم يبصروا به ، أي : عرفت أن الذي أتمم عليه ليس بحق ، وقد كنت قبضت قبضة من أترك أيها الرسول ، أي : أخذت شيئا من علمك ودينك فنبذته ، أي : طرحته ... » (١)

وعلى هذا التفسير الذي ذهب إليه أبو مسلم يكون المراد بالرسول : موسى - عليه السلام - ويكون المراد بأثره : دينه وسنته وعلمه .

ويكون المعنى الإجمالي للآية : أن السامري قال لموسى - عليه السلام - : كنت قد أخذت جانباً من دينك وعلمك ، ثم تبين لي أنك على ضلال فنبذت ما أخذته عنك وسولت لي نفسي أن أصنع للناس عجلاً لكي يعبدوه ، لأن عبادته أراها هي الحق .

وقد رجح الإمام الرازي في تفسيره ما ذهب إليه أبو مسلم فقال : واعلم أن هذا القول الذي قاله أبو مسلم ليس فيه إلا مخالفة للمفسرين ، ولا يمكنه أقرب إلى التحقيق لوجوه :

١ - أن جبريل ليس مشهوراً باسم الرسول ، ولم يجر له فيما تقدم ذكر حتى نجعل لام التعريف إشارة إليه .

٢ - أنه لابد فيه من الإضرار ، وهو قبضة من أثر حافر فرس الرسول ، والإضرار خلاف الأصل .

٣ - أنه لا بد من التعسف في بيان أن السامري كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل ومعرفة ؟ ثم كيف عرف أن اقرب حافر فرسه هذا الأثر ؟ والذي ذكره من أن جبريل هو الذي رباه بعيد ... (١) .

وقد رد الإمام الآلوسي على الإمام الفخر الرازي - رحمهما الله - فقال ما ملخصه :

١ - عهد في القرآن الكريم إطلاق الرسول على جبريل ، كما في قوله - تعالى - ، إنه لقول رسول كريم ، وعدم جريان ذكره فيما تقدم لا يمنع أن يكون معهوداً ، ويجوز أن يكون إطلاق الرسول عليه كان شائناً في بني إسرائيل .

٢ - تقدير المضاف في الكلام أكثر من أن يحصى ، وقد عهد ذلك في كتاب الله غير مرة .

٣ - رؤية السامري دون غيره لجبريل ، كان ابتلاء من الله - تعالى - ليقض الله أمراً كان مفعولاً ومعرفة تأثير ذلك الأثر دون غيره كانت بسبب ما ألقى في روعه من أنه لا يلقيه على شيء فيقول له كن كذا إلا كان - كما في خبر ابن عباس - أو كانت لما شاهد من خروج النبات بالوط - كما في بعض الآثار ... (٢) .

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه أبو مسلم ، أقرب إلى ما يفيد ظاهر القرآن الكريم ، إذا ما استبعدنا تلك الروايات التي ذكرها المفسرون في شأن السامري وفي شأن رؤيته لجبريل .

ولا نرى حرجاً في استبعادها ، لأنها غارية عن السند الصحيح إلى النبي

(١) راجع تفسير الفخر الرازي ج ٦ ص ٧١ .

(٢) راجع تفسير الآلوسي ج ٦ ص ٢٠٤ .

- صلى الله عليه وسلم - أو إلى أصحابه ، ويغلب على ظننا أنها من الإسرائيليات التي نرد العلم فيها إلى الله - تعالى - .

وقوله - سبحانه - : « قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس ... »
حكاية لما قاله موسى - عليه السلام - للسامري .

والمساس : مصدر مس - بالتشديد - كقتال من قاتل ، وهو منى بلا إلى لنفى الجنس .

والمعنى : قال موسى للسامري : مادمت قد فعلت ذلك فاذهب ، فإن لك في مدة حياتك ، أن تعاقب بالنبذ من الناس ، وأن تقول لهم إذا ما اقترب أحد منك : لا مساس ، أى : لا أمس أحدا ولا يمسنى أحد ، ولا أغالط أحدا ولا يغالطنى أحد .

قال صاحب الكشف : « عوقب في الدنيا بعقوبة لاشئ أطم منها وأوحش وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعاً كلياً ، وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته ، وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضاً . وإذا اتفق أن مس أحداً أو امرأة ، حمم المساس والممسوس - أى : أصيبا بمرض الحمى - فتحامى الناس وتحاموه ، وكان يصيح : لا مساس . وعاد في الناس أوحش من القاتل اللاجئ إلى الحرم ، ومن الوحش النافر في البرية ... » (١) .

وقال الألوسي ما ملخصه : « والسر في عقوبته على جنائته بما ذكر . أنه ضد ما قصده من إظهار ذلك ليجتمع عليه الناس ويعزروه ، فكان ما فعله سبباً لبعدهم عنه وتحقيره . وقيل : عوقب بذلك ليكون الجزاء من جنس العمل ، حيث نبذ فنبذ ، فإن ذلك التحامى عنه أشبه شئ بالنبذ ... » (٢) .

(١) تفسير الكشف ج ٣ ص ٨٥ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٦ ص ٢٥٦ .

قالوا : وهذه الآية السكريمة أصل في نفى أهل البدع والمعاصي وهجرانهم وعدم مخالطتهم .

ثم بين - سبحانه - عقوبة السامري في الآخرة ، بعد بيان عقوبته في الدنيا فقال : « وإن لك موعداً لن تخلفه » .

وقوله : « تخلفه » قرأها الجمهور بضم التاء وفتح اللام . أى : وإن لك موعداً في الآخرة لن يخلفك الله - تعالى - إياه . بل سيمنجزه لك ، فيعاقبك يومئذ العقاب الأليم الذى تستحقه بسبب ضلالك وإضلالك ، كما عاقبك في الدنيا بعقوبة الطرد والنفور من الناس .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ولن تخلفه ، بضم التاء وكسر اللام أى : وإن لك موعداً في الآخرة لن تستطيع التخلف عنه ، أو المهرب منه ، بل ستأتيه وأنت صاغر ...

ثم بين - سبحانه - ما فعله موسى - عليه السلام - بالعجل الذى صنعه السامري لإضلال الناس . فقال : « وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً ، . . . »
أى : وقال موسى - أيضاً - للسامري : وانظر إلى معبودك العجل الذى أقت على عبادته أنت وأتباعك في غيبتى عنكم .

« لنحرقنه » بالنار أمام أعينكم . والجملة جواب لقسم محذوف ، أى : والله لنحرقنه « ثم لننسفنه في اليم نسفاً » أى : ثم لنذرينه في البحر تذرية ، بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر .

يقال : نسف الطعام بنسفه نسفاً . إذا فرقه وذراه بحيث لا يبقى منه شيء .

وقد نفذ موسى - عليه السلام - ذلك . حتى يظهر للأغبياء الجاهلين الذين عبدوا العجل ، أنه لا يستحق ذلك . وإنما يستحق الذبح والتذرية ، وأن عبادتهم له إنما هي دليل واضح على انطماس بصائرهم ، وشدة جهلهم .
وقوله - تعالى - : « إنما إلهك الله » لا إله إلا هو ومع كل شيء علماً ،

استئناف مسوق لإحقاق الحق وإبطال الباطل . أى : إنما المستحق للعبادة
والتعظيم هو الله - تعالى - وحده ، الذى وسع علمه كل شئ . . ولا تخفى عليه
خافية فى الأرض ولا فى السماء .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد قصت علينا بأسلوب بليغ حكيم ،
جوانب من رعاية الله - تعالى - لنبية موسى - عليه السلام - ورحمته به ، كما
قصت علينا تلك المحاورات التى تمت بين موسى وفرعون ، وبين موسى
والسحرة كما حدثنا عن جانب من النعم التى أنعم الله - تعالى - بها على بنى
إسرائيل ، وكيف أنهم قابلوها بالجحود والكفور وبايداء نبيهم موسى
- عليه السلام - .

ثم أشار - سبحانه - بعد ذلك إلى العبرة من قصص الأولين ، وإلى التنويه
بشأن القرآن الكريم ، وإلى أن يوم القيامة آت لا ريب فيه ، فقال - تعالى - :

« كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا
ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ
فِيهِ - وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ
الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَفَتُونَ بِهِمْ أَنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣)
نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا
يَوْمًا (١٠٤) » .

والمكاف فى قوله - تعالى - ، كذلك ، فى محل نصب نعمت لمصدر محذوف .
أى : نقص عليك - أيها الرسول الكريم - من أنباء ما قد سبق من أحوال
الأمم الماضية ، قصصا مثل ما قصصناه عليك عن موسى وهارون . وما دار
بينهما وبين فرعون وبين بنى إسرائيل .

و « من » فى قوله « من أنباء ما قد سبق » ، للتبويض ، ويشهد لذلك أن
القرآن قد صرح فى كثير من آياته ، أن الله - تعالى - لم يقص على الرسول

- صلى الله عليه وسلم - جميع أحوال الأمم السابقة، ومن ذلك قوله - تعالى -
«ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك»

ومن فوائد ما قصه الله - عليه من أنباء السابقة : زيادة علمه - صلى الله عليه وسلم ، وتكثير معجزاته ، وتثبيت فؤاده . وتسلية عما أصابه من سفهاء قومه ، وتذكير المؤمنين بأحوال تلك الأمم السابقة ليعتبروا ويتعضوا

وقوله - سبحانه - : «وقد آتيناك من لدنا ذكرا ، تنويه وتعظيم لشأن القرآن الكريم .

أى : وقد أعطيناك ومنحناك من عندنا وحدنا ذكرا ، عظيما . وهو القرآن الكريم ، كما قال - تعالى - ، وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون .
قال الفخر الرازى : «وفى تسمية القرآن بالذكر وجوه :

أحدها : أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم .
وثانيها : أنه يذكر أنواع آلاء الله ونعمائه على الناس ، ففيه التذكير والوعظ .

وثالثها : أنه فيه الذكر والشرف لك ولقومك ، كما قال - سبحانه - «ولأنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون» (١) .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من يعرض عن هداية هذا القرآن فقال :
«من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا . خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا» .

والوزر في الأصل يطلق على الحمل الثقيل ، وعلى الإثم والذنب ، والمراد به هنا العقوبة الثقيلة الالزمة المترتبة على تلك الانقالات والآثام .
قال صاحب الكشف : والمراد بالوزر : العقوبة الثقيلة البامظة ، سيماها

(١) سورة النساء الآية ١٦٤

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٦ ص ٧١

وزرا تشبيها في ثقلها على المعاقب ، وصعوبة احتياهما ، بالخل الذي يفتح الحامل . وينقض ظهره ، أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم ، (١) .

وقد أخبرنا القرآن في كثير من آياته ، أن الكافرين يأتون يوم القيامة وهم يحملون أوزارهم ، أى : أنقال ذنوبهم على ظهورهم ، ومن ذلك قوله - تعالى - « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرون » ، (٢) .

أى : من أعرض عن هذا الذكر وهو القرآن الكريم ، فإنه بسبب هذا الإعراض والترك ، يحمل يوم القيامة على ظهره آثاما كثيرة ، تؤدي به إلى العقوبة المهيبة من الله - تعالى - .

وقوله : « خالدين » ، أى : في العذاب المترتب على هذا الوزر .

« وساء لهم يوم القيامة حملا » ، أى : وبئس ما حملوا على أنفسهم من الإثم بسبب إعراضهم عن هداية القرآن الكريم .

قال الآلوسى : « قوله : « وساء لهم يوم القيامة حملا » إنشاء للذم ، على أن « ساء » فعل ذم بمعنى بئس ... وفاعله على هذا هنا مستتر يعود على « حملا » الواقع تمييزا ... والمخصوص بالذم محذوف ، والتقدير . ساء حملهم حملا وزرهم ، (٣) .

ثم بين - سبحانه - أحوال المجرمين عند الحشر فقال : « يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا » .

أى : اذكر - أيها العاقل - يوم ينفخ لاسرافيل في الصور النفخة الثانية ،

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٨٦ .

(٢) سورة النحل الآية ٢٥ .

(٣) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٥٩ .

ونحشر المجرمين يومئذ ونجمعهم للحساب حالة كونهم زرق العيون من شدة الهول ، أو حالة كونهم « زرقا ، أى : عميا ، لأن العين إذا ذهب ضوءها أزرق ناظرها . أو « زرقا ، معنا : عطاشا ، لأن العطش الشديد يغير سواد العين فيجعله كالأزرق .

قال - تعالى - : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله . ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » (١) .

وقوله - سبحانه - : « يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا » استئناف لبيان ما يقوله بعضهم لبعض على سبيل الهمس وخفض الصوت .

أى : إن هؤلاء المجرمين يتهامسون فيما بينهم في هذا اليوم المصيب ، قائلين ما لبثتم في قبوركم إلا عشرا من الأيام أو الأيام .

ومقصد من هذا القول : - استقصاء المدة ، وسرعة انقضائها ، والندم على ما كانوا يزعمونه من أنه لا بعث ولا حساب ، بعد أن تبين لهم أن البعث حق ، وأن الحساب حق ، وأن الأمر على عكس ما كانوا يتوهمون .

وقوله - تعالى - : « نحن أعلم بما يقولون . . . » بيان لشمول علمه - سبحانه - .

أى : نحن وحدنا أعلم بما يقولونه فيما بينهم ، لا يخفى علينا شئ مما يتخافتون به في شأن مدة لبثهم في قبورهم أو في الدنيا ،

وإذ يقول أمثلهم طريقة ، أى : أعد لهم رأيا ، وأرجحهم عقلا « إن لبثتم إلا يوما ، واحقيل الندا . » وراد باليوم : مطلق الوقت ، وننكيره للتقليل والتحقير . أى : ما لبثتم في قبوركم إلا زمنا قليلا .

ونسبة هذا القول إلى أمثلهم لا لكونه أقرب إلى الصدق ، بل لكونه أدل على شدة الهول .

قال - تعالى - : « كَانَهُمْ يَوْمَ يَوْمِهَا - أَيُّ السَّاعَةِ - لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عِبَشَةً أَوْ ضِجَارًا ، » .

ثم بين - سبحانه - أحوال الناس يوم القيامة فقال - تعالى - :

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢) » .

والسائلون عن أحوال الجبال يوم القيامة كفار مكة ، روى أنهم قالوا للرسول - صلى الله عليه وسلم - على سبيل الاستزاء : يا محمد إنك تدعى أن هذه الدنيا تنفي ، وأنتا تبعث بعد الموت ، فأين تكون هذه الجبال ، فنزل قوله - تعالى - : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ، » .

وقيل : السائلون هم المؤمنون على سبيل طلب المعرفة والفهم .

وقوله : « يَنْسِفُهَا » من النسف بمعنى القلع . يقال : نسفت الريح التراب نسفاً - من باب ضرب - إذا اقتاعته وفرقه .

أى ويسلك أيم : أا - الرسول الكريم - بعض الناس عن أحوال الجبال يوم القيامة ، فقل لهم : ينسفها ربى نسفاً ، بأر يقلعها من أصولها ، ثم يجعلها كالرمل المتناثر ، أو كالصوف المنفوش الذى تفرقه الرياح .

والقاء في قوله : د فقل ، للمسارة إلى إزالة ما في ذهن السائل من قوم
أن الجبال قد تبقى يوم القيامة .

والضمير في قوله د فينزلها قاعا صافها ، يعود إلى الجبال باعتبار أجزائها
السفلى الباقية بعد النسف ، ويصح أن يعود إلى الأرض المدلول عليها بقريئة
الحال . لأنها هي الباقية بعد قلع الجبال . والفاء : هو المتكشف من الأرض
دون أن يكون عليه نبات أو بناء .

والصفصف : الأرض المستوية الملساء حتى لسكان أجزائها صف واحد
من كل جهة .

أي . فيتركها بعد النسف أرضا منكشفة متساوية ملساء ، لا نبات فيها ولا بناء .
د لا ترى فيها عرجا ولا أمثا ، أي : لا ترى في الأرض بعد اقتلاع الجبال
منها ، مكانا منخفضا ، كما لا ترى فيها د أمثا ، أي : مكانا مرتفعا ، بل تراها كلها
مستوية ملساء كالصف الواحد .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : قد فـ قوا بين العوج والعوج ، فقالوا :
العوج بالكسر في المعاني ، والعوج بالفتح في الأعيان ، والأرض عين ،
فكيف صح فيها المكسور العين ؟

قلت : اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء
والملاسة ، ونفى الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون ، وذلك أنك لو عمدت إلى
قطعة أرض فسويتها ، وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصر ، واتفقت
على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط ، ثم استطلعت رأي المهندس فيها ، وأمرته أن
يعرض استواءها على المقاييس الهندسية . لعثر فيها على عوج في غير موضع ،
لا يدرك ذلك بحاسة البصر ولكن بالقياس الهندسي ، فنفي الله ذلك العوج
الذي دق ولطف عن الإدراك ، اللهم إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقدير
والهندسة ، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق

بالمعاني ، فقيل فيه ، عوج بالكسر . والامت : الفتوة اليسير ، يقال : مدحبله حتى ما فيه أمت . .

ثم بين - سبحانه - أحوال الناس يوم القيامة فقال : د يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له

والمراد بالداعي : الملك الذي يدعوهم إلى المثل للحساب

قيل يناديه بقله : أيتها العظام البالية ، والجلود المتخرقة ، واللحم المنفردة . . . قومي إلى ربك للحساب والجزاء ، فيسمعون الصوت ويتبعون . من يناديهم للحساب والجزاء ، دون أن يحيدوا عن هذا المنادي . وأن يكوا مخالفة أو عصيانه ، بل الجميع يسمع دعه ويستجيب لأمره .

كما قال - تعالى - د فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر . خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منفشر . مهطئين إلى لداع يقول الكافرون هذا يوم عسر . .

وقوله : د وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا ، أي : وخفتت وسكنت الأصوات كلها هيبة وخوفا من الرحمن - عز وجل - فلا تسمع - أي : المخاطب - في هذا اليوم الهائل الشديد ، د إلا همسا ، أي : إلا صوتا خفيا خافتا . يقال : همس الكلام يهمسه همسا ، إذا أخفاه . ويقال للأسد الهموس ، لخفاء وطنه .

د يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن . ورضى له قولا ، أي : في هذا اليوم الذي تخشع فيه الأصوات لا تنفع الشفاعة أحدا كائنا من كان ، إلا شفاعة من أذن له الرحمن في ذلك د ورضى له قولا ، أي : ورضى سبحانه - قول الشافع فيمن يشفع له .

قال الإمام ابن كثير : وهذه الآية كقوله - تعالى - : ومن ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ، وكقوله : د وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا

إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، وكقوله : ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى . . .

وفي الصحيحين من غير وجه : عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : آتى تحت العرش ، وأخبر الله ساجدا ، ويفتح على محمد لا أحصياها الآن ، ثم يقول - سبحانه - : يا محمد ، ارفع رأسك . وقل يسمع قولك ، واشفع تشفع . قال - صلى الله عليه وسلم - : فيحدث لى حدا ، فأدخلهم الجنة ، ثم أعود . فذكر أربع مرات - صلوات الله عليه وعلى سائر الأنبياء - .

وفي الحديث : يقول - تعالى - : أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان ، فيخرجون خلقا كثيرا . ثم يقول - سبحانه - : أخرجوا من النار من كان في قلبه نصف مثقال من إيمان . أخرجوا من النار من كان في قلبه ما وزن ذرة ، من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان . . . (١) .

وقوله - تعالى - : يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما ، بيان لشمول علمه - سبحانه - لكل شيء .

أي : الله - تعالى - وحده هو الذى يعلم جميع أحوال خلقه - وإنه ما كان منها يتعلق بما بين أيديهم من أمور الآخرة وأحوال الموقف . أم ما كان منها يتعلق بما خلفهم من أمور الدنيا أمام فإهم لا يحيط علمهم لا بذاته - تعالى - ولا بصفاته ، ولا بمعلوماته .

فالضمير فى قوله : ما بين أيديهم وما خلفهم ، يعود على المتبعين للداعى ، وهم الخلق جميعا .

وقيل : يعود للشافعين ، وقيل للملائكة ، والأول لعمومه .

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣١١

وقوله - سبحانه - : « وعنت الوجوه للحى القيوم ... » مؤكداً ومقرراً لما قبله من خشوع الأصوات يوم القيامة للرحمن ، ومن عدم الشفاعة لأحد إلا بإذنه - عز وجل - .

والفعل « عنت » بمعنى ذلت يقال : عنت فلان يعنوه عنوا - من باب سما - إذا ذل لغيره وخضع وخشع ، ومنه قيل للأسير : عانر لذه وخضوع لمن أسره .

أى : وذلت وجوه الناس وخضعت في هذا اليوم لله - تعالى - وحده . الحى ، أى : الباقي الذى له الحياة الدائمة التى لا فناء معها ، القيوم ، أى : الدائم القيام بتدبير أمر خلقه وإحيائهم وإماتتهم ورزقهم ... وسائر شئونهم . وهذا اللفظ مبالغة في القيام . وأصله قيوم بوزن فيقول ، من قام بالامر إذا حفظه ودبره .

وخضعت الوجوه بالذكر ، لأنها أشرف الأعضاء ، وآثار الذل أكثر ما تكون ظهوراً عليها .

وظاهر القرآن يفيد أن المراد بالوجوه جميعها ، سواء أكانت للمؤمنين أم لغيرهم ، فالسكل يوم القيامة خاضع لله - تعالى - ومستسلم لقضائه ، فالآلف واللام للاستغراق .

قال ابن كثير : وقوله - تعالى - : « وعنت الوجوه للحى القيوم » ، قال ابن عباس وغير واحد - من السلف - : خضعت وذلك واستسلمت الخلائق لحاقها وجبارها الحى الذى لا يموت ... (١) .

ويرى بعضهم أن المراد بالوجوه التى ذلت وخضعت في هذا اليوم ، وجوه الكفار والفاسقين ، وإلى هذا المعنى اتجه صاحب الكشف فقال : المراد بالوجوه وجوه العصاة ، وأنهم إذا عاينوا - يوم القيامة - الحبيبة والشقوة وسوء

الحساب ، صارت وجوههم عاتية ، أى : ذليلة خاشعة ، مثل وجوه العناة وهم الأسارى ، ونحوه قوله - تعالى - : « فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا » (١) .

ويبدو لنا أن للقول الأول أقرب إلى الصواب . لأن جميع الوجوه يوم القيامة تكون خاضعة لحكم الله - تعالى - ومستسلمة لقضائه .

وقوله : « وقد خاب من حمل ظلما ، جملة حالية ، أى : ذات جميع الوجود لله - تعالى - يوم القيامة ، والحال أنه قد خاب وخسر من حمل في دنياه ظلما ، أى : شركا بالله - تعالى - أو فسوقا عن أمره - سبحانه - ولم يقدم العمل الصالح الذى ينفعه في ذلك اليوم العسير .

ثم بشر - سبحانه - المؤمنين بما يشرح صدورهم فقال : « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا مضما » .

أى : ومن يعمل في دنياه الأعمال الصالحات ، وهو مع ذلك مؤمن بكل ما يجب الإيمان به ، فإنه في هذه الحالة لا يخاف ظلما ، ينزل به ، ولا يخاف مضما ، لشيء من حقوقه أو ثوابه .

يقال : مضم فلان حق غيره ، إذا انتقصه حقه ولم يوفه إياه .

قالوا : والفرق بين الظلم والمضم : أن الظلم قد يكون بمنع الحق كله ، أما المضم فهو منع لبعض الحق . فكل مضم ظلم ، وليس كل ظلم مضما .

فالآية الكريمة قد بشرت المؤمنين ، بأن الله - تعالى - يفضلهم وكرمه سيوفهم أجورهم يوم القيامة ، بدون أدنى ظلم أو نقص من ثوابهم ، فالتنكير في قوله « ظلما ومضما » ، للتقليل .

ثم نوه - سبحانه - بشأن القرآن الكريم الذى أنزله على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم ، وبير بعض الحكم من إنزاله ، وطلب من نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يسأله المزيد من العلم فقال - تعالى - :

« وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ، وَلَا تَعْجَلْ
بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) » .

وقوله - سبحانه - « وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ ... » معطوف على قوله : « كَذَلِكَ »
نقص عليك من أنباء ما قد سبق ... ، والكاف للتشبيه ، واسم الإشارة يعود
على أنزال ما سبق من آيات .

أى : ومثل ما أنزلنا الآيات السابقة المشتملة على الآداب والأحكام
والقصص ، أنزلنا عليك يا محمد القرآن كله ، فأنزل منه متأخراً يشبه في هدايته
وإعجازه ما نزل منه متقدماً .

وقد اقتضت حكمتنا أن نجعله « قرآنًا عربيًا ، أى : بلغة العرب ، لسي
يفهموه ويقوموا على ما فيه من هدايات وإرشادات وإعجاز للبشر .

وقوله : « وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ » معطوف على « أَنْزَلْنَاهُ ، أى : أنزلناه
قرآنًا عربيًا وكررنا ونوعنا فيه ألوانا من الوعيد على سبيل التخويف والتهديد .

« لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ، أى : لعل الناس يتقون بسبب ذلك الوقوع في الكفر
والفسوق والمصيان ، ويحذرون الانام والسيئات ، ويصونون أنفسهم عن
الموبقات فعمول » يتقون ، محذوف .

وقوله - سبحانه - « أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا » بيان لحكمة أخرى من الحكم
التي من أجلها أنزل الله القرآن الكريم .

أى : أنزلناه بهذه الصفة ، وجعلناه مشتملاً على ضروب من الوعيد ، لعل
قومك - أيها الرسول الكريم - يتقون الكفر والمعاصي ، أو لعل القرآن
يحدث في نفوسهم « ذكراً » .

أى : اتعظا واعتباراً بصرفهم عن التردى فيما ترددت فيه الآام السابقة
آاثام وموبقات أدت إلى هلاكها .

وقال - سبحانه - : أنزلناه ، بالإختيار مع أن القرار لم يسبق له ذكر
فى الآيات السابقة ، للإيذان بشأانه ، وعلو قدره ، وكونه مركزاً فى
المعقول ، حاضراً فى الأذهان والقلوب .

ثم أثنى - سبحانه - على ذاته بما يستحقه من صفات كريمة فقال :
« فتعالى الله الملك الحق ، » .

أى : فجل وعظم شأن الله - سبحانه - عن إلحاد الملحدين ، وإشراك
المشركين ، فإنه هو وحده ، الملك ، المتصرف فى شئون خلقه ، وهو وحده
الإله ، الحق ، وكل ما سواه فهو باطل .

ثم أرشد الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - إلى كيفية تلقى القرآن
من جبريل - عليه السلام - فقال : « ولا تمجل بالقرآن من قبل أن يلقى
إليك وحيه . » .

أى : ولا تمجل بقراءة القرآن من قبل أن ينتهى جبريل من إبلاغه
إليك ، قالوا : وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - كلما قرأ عليه جبريل آية
قرأها معه ، وذلك لشدة حرصه على حفظ القرآن ، ولشدة شوقه إلى سماعه ،
فأرشده الله - تعالى - فى هذه الآية إلى كيفية تلقى القرآن عن جبريل . ونهاه
عن التعجل فى القراءة .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن
علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه . » .

ثم أمر - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - : أن يسأله المزيد من
العلم فقال : « وقل رب زدنى علماً ، » .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - مخاطباً ربك ومتوسلاً إليه ، يارب
زدنى من علمك النافع .

قال الألوسي: «واستدلوا بالآية على فضل العلم حيث أمر - صلى الله عليه وسلم - بطلب الزيادة منه وذكر بعضهم أنه - صلى الله عليه وسلم - ما أمر بطلب الزيادة من شيء سوى العلم. وكان - صلى الله عليه وسلم - يقول: اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علما، وكان يقول: اللهم زدني إيمانا وفقها وبقينا وعلماء» (١).

ثم ساق - سبحانه - جانبا من قصة آدم - عليه السلام - فذكر لنا كيف أنه نسي عهد ربه له، فأكل من الشجرة التي نهاه الله - تعالى - عن الأكل منها، ومع ذلك فقد قبل - سبحانه - توبته، وغسل حوبته... قال - تعالى -:

«وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْئَلُ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) نِمِ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، فَلَا يَأْتِيَنَّكُم مِّنْهُ هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَظِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣)».

واللام في قوله - تعالى -: «وَلَقَدْ عَهِدْنَا...» هي الموحاة للقسم، والمعهود محذوف، وهو النهى عن الأكل من شجرة معينة، كما وضحه في آيات أخرى منها قوله - تعالى -: «وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ».

أى : واقه لقد عهدنا إلى آدم - عليه السلام - وأوصيناه ألا يقرب تلك
الشجرة د من قبل ، أن يخالف أمرنا فيقربها ويأكل منها ، أو قبل أن تحريك
بذلك - أيها الرسول الكريم -

والفاء في قوله ، فنسى ، للتعقيب ، والمفعول محذوف . أى : فنسى العهد
الذى أخذناه عليه بعدم الأكل منها .

والنسيان هنا يرى بعضهم بمعنى أنه الترك ، وقد ورد النسيان بمعنى الترك
في كثير من آيات القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله - تعالى - د وقيل اليوم
فنساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ، أى : نتركم كما تركتم لقاء يومكم هذا وهو
يوم القيامة .

وعليه يكون المعنى : ولقد عهدنا إلى آدم من قبل بعدم الأكل من الشجرة
فترك الوفاء بعدنا ، وخالف ما أمرنا به .

وعلى هذا التفسير فلا إشكال في وصف الله - تعالى - له بقوله : د وعصى
آدم ربه فغوى ، لأن آدم بمخالفته لما نهاه الله - تعالى - عنه - وهو الأكل من
الشجرة - صار عاصيا لأمر ربه .

ومن العلماء من يرى أن النسيان هنا على حقيقته ، أى : أنه ضد التذكارة
د فيكون المعنى : ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ما عهدناه عليه ، وغاب
عن ذهنه ما نهيناه عنه ، وهو الأكل من الشجرة .

فإن قيل : إن التامى معذور . فكيف قال الله - تعالى - في حقه : د وعصى
آدم ربه فغوى ؟

فالجواب : أن آدم - عليه السلام - لم يكن معذورا بالنسيان ، لأن المنذر
بسبب الخطأ والنسيان والإكراه . من خصائص هذه الآفة الإسلامية ، دليل
قوله - صلى الله عليه وسلم - : د إن الله تجاوز لى عن أمتى الخطأ والنسيان
وما استمكروا عليه .

قال القرطبي ما ملخصه : « قوله - تعالى - : « ونقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ... والنسيان معنيان : أحدهما : الترك ، أي ترك الأمر والعهد ، وهذا قول مجاهد وأكثر المفسرين ، ومنه : نسوا الله فنسيهم » . وثانيها : قال ابن عباس : « نسي » هنا من السهو والنسيان ، وإنما أخذ الإنسان من أنه عهد إليه فنسى ... وعلى هذا القول يحتمل أن يكون آدم في ذلك الوقت مؤاخذا بالنسيان ، وإن كان النسيان عنا اليوم مرفوعا .

والمراد قسلبية النبي - صلى الله عليه وسلم - أي : أن طاعة بني آدم للشيطان أمر قديم أي : إن نقض هؤلاء ، المشركون - العهد ، فإن آدم - أيضا - عهدنا إليه فنسى .. (١) .

وقوله : « ولم نجد له عزما » مقرر لما قبله من غفلة آدم عن الوفاء بالعهد . قال الجمل : « وقوله : « نجد » يحتمل أنه من الوجدان بمعنى العلم : فينصب مفعولين ، وهما : له وعزما . » . ويحتمل أنه من الوجود الذي هو ضد العدم فينصب مفعولا وهو : له وعزما ، والجار والمجرور متعلق بنجد ، (٢) .

والعزم : توطئ النفس على الفعل ، والتصميم عليه ، والمعنى في التنفيذ للشيء ..

أي : نسي آدم عهدنا ، ولم نجد له ثبات قدم في الأمور ، يجعله يصور على عدم الأكل من الشجرة . بل لانت عريكته ، وفقرت همته بسبب خديعة الشيطان له .

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك بشيء من التفصيل ، الأسباب التي أدت إلى نسيان آدم وضعف عزيمته فقال : « وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى » .

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٢٥١ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١١٣ .

أى : واذكر - أيها المخاطب وقت أن قلنا للملائكة اسجدوا لآدم سجود
تسكريم لا سجود عبادة ، فامتلأوا أمراً ، إلا إبليس فإنه أبى السجود لآدم
تسكيرا وغرورا وحسدا على التسكريم .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله لآدم بعد إباء إبليس عن السجود له فقال :
« يا آدم إن هذا ، أى : إبليس ، عدوك ولزوجك ، بسبب حسده لكما وحده
عليكما ، فلا يخرجكما من الجنة فتشقى ، أى : فاحذرا أن تطعماه ، فإن
طاعتهما له ستؤدى بكما إلى الخروج من الجنة ، فيقربك على ذلك شقاؤك ،
أى : تعبك فى الحصول على مطالب حياتك .

وأسند - سبحانه - إلى إبليس الإخراج لهما من الجنة ، لأنه هو المتسبب
فى ذلك ، عن طريق الوسوسة لهما ، وطاعتهما لهما فيها حرصهما عليه وهو الأكل
من الشجرة . وغير عن التعب فى طلب المعيشة بالشقاء ، لأنه بعد خروجه من
الجنة سيقوم بحراثة الأرض وفلاحتها وزرعها وربها ... ثم حصدا ...
ثم إعداد نتاجها للأكل ، وفى كل ذلك ما فيه من شقاء وكد وتعب .

وقال - سبحانه - « فتشقى » ولم يقل فتشقى كما قال « فلا يخرجكما » لأن
الكلام من أول القصة مع آدم وحده ، أو لأن شقاء الرجل يدخل فيه شقاء
أهله ، كما أن فى سعادته سعادتهم ، أو لأنه هو الذى يعود عليه التعب إذ هو
المكلف بأن يقدم لهما ما يحتاجه من مطالب الحياة . كالمسكن والملبس والمطعم
والمشرب .

قال القرطبي ما ملخصه : « قوله ، فتشقى » ، يعنى أنت وزوجك لأنهما فى
استواء العلة واحد ، ولم يقل فتشقى لأن المعنى معروف ، وآدم - عليه السلام -
هو المخاطب ، وهو المقصود وأيضا لما كان هو المكاد عليها والكاسب لهما
كان بالشقاء أخصر .

وفى ذلك تعليم لنا أن نفقة الزوجة على الزوج ، فمن يومئذ جرت نفقة
النساء على الأزواج ، فلما كانت نفقة حواء على آدم ، كانت كذلك نفقات

بناتها على بنى آدم بحق الزوجية . . . (١)

وقوله - تعالى - : إن لك أن لا نجوع فيها ولا نعري ، وأنت لا تظلم فيها ولا تضحي ، تعليل لما يوجبه النهى عن طاعة إبليس التى ستؤدى بهما إلى الإخراج من الجنة وإلى الشقاء فى الدنيا .

والجوع : ضد الشبع . وقوله : نعري ، من العرى الذى هو خلاف اللبس .

يقال : عرى فلان من ثيابه يعرى عرياً ، إذا تجرد منها .

وقوله : تضحي ، أى : لا يصيبك حر الشمس فى الضحى . يقال : ضحى فلان يضحي ضحوا - كسمي - إذا كان بارداً لحر الشمس فى الضحى .

أى : احذر يا آدم أن تطيع إبليس فيحل بك الشقاء ، وتخرج من الجنة التى لا يصيبك فيها شيء من الجوع ، ولا شيء من العرى أو الظما ، ولا شيء من حر الشمس فى الضحى . . . وإنما أنت فيها متمتع بكل مطالب الحيئات الهنيئة القاعمة الدائمة .

قال صاحب الكشف : والشبع والرى والكسوة والسكن - هذه الأربع - هى الأقطاب التى يدور عليها كفاف الإنسان . فذكره استجاءها له فى الجنة وأنه مكفى لا يحتاج إلى كفاية كاف ، ولا إلى كسب كاسب كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا .

وذكرها بلفظ النفي لنقائضها التى هى الجوع والعرى والظما والضحى ، ليطرق سمعه بأساى أصناف الشقوة التى حذر منها ، حتى يتحاشى السبب الموقع فيها كراهة لها (٢) .

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٢٥٣ .

(٢) تفسير للكشاف ج ٣ ص ٩٢ .

ثم بين - سبحانه - أن آدم - عليه السلام - مع هذه النصائح والتحذيرات لم يستطع أن يستمر على الاستجابة لنهى ربه إياه عن الأكل من الشجرة، بل تغلب عليه ضعفه فاستمع إلى مكر الشيطان، قال - تعالى - : « فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » .

والوسوسة : الخطرة الرديئة، وأصلها من الوسواس ، وهو صوت الخلى ، والهمس الخفى . والوسواس - بكسر الواو الأولى - مصدر ، وبفتحة الهمس وهو من أسماء الشيطان ، كما قال - تعالى - : « قل أعوذ برب الناس ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس » .

ويقال : وسوس فلان إلى فلان ، أى : أوصلها إليه ، ووسوس له ، أى : من أجله أى فأوصل الشيطان وسوسته إلى آدم ، وأنهاها إليه ، بأن قال له : يا آدم ، هل أدلك على الشجرة التى من أكل منها عاش مخلدا لا يدركه الموت ، وصار صاحب ملك لا يفنى ، ولا يصبح بالياً أبداً .

وناداه باسمه ، أى يكون أكثر إقبالا عليه ، وأمكن فى الاستماع إليه . وعرض عليه ما عرض فى صورة الاستفهام الذى بمعنى الحث والحض ، لئلا يشعر بأنه ناصح له وحريص على مصلحته ومنفعته .

ثم أكد كل هذا التحريض بالقسم كما فى قوله - تعالى - : « وقاسمهما إني لك لمن الناصحين » (١)

فكانت نتيجة مكره بآدم وخداعه له ، أن أطاعه فى الأكل من الشجرة كما قال - تعالى - « فأكلا منها ، أى : فأكل آدم وزوجه من الشجرة التى نهاه ربه عن الأكل منها .

دفدت لهما سوءاتهما ، أى : عوراتهما ، وسميت العورة سوءة ، لأن إفكشافها يتسوء صاحبها ويمزونه . ويجعل الناس تنفر منه .

«وظفنا يَخَصِفَانِ عليهما من ورق الجنة...» أى : وشرعا وأخذنا بلزقان على أجسادهما من ورق الجنة ليسترا هورائهما .

وكثير من المفسرين يقولون : إن ورق الجنة الذى أخذ آدم وحواء فى لوزة على أجسادهما هو ورق شجر التين لسكبه حجه .

وقد أخذ العلماء من ذلك وجوب ستر العورة ، لأن قوله - تعالى - «وظفنا يَخَصِفَانِ عليهما من ورق الجنة» يدل على قبح افكشافها ، وأنه يجب بذل أقصى الجهد فى سترها .

وقوله : «وعصى آدم ربه فغوى» أى : وخالف آدم أمر ربه فى اجتناب الأكل من الشجرة «فغوى» أى : فأخطأ طريق الصواب ، بسبب هدم طاعته ربه .

قالوا : «ولم يكن آدم فى عصيانه لربه كان متاولا ، لأنه اعتقد أن النهى عن شجرة معينة لا عن النوع كله ، وقالوا : وتسمية ذلك عصيانا لعلو منصبه . وقد قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين ،

كما قالوا : «لأن من الأسباب التى حملت آدم على الأكل من الشجرة ، أن إبليس أقسم له بالله إنه له ناصر ، فصدقه آدم - عليه السلام - لاعتقاده أنه لا يمكن لاحد أن يقسم بالله كاذبا ، والمؤمن غر كريم ، والفاجر خب اثيم ، كما جاء فى الحديث الشريف .

وقوله - سبحانه - : «ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى» وبيان لفضل الله - تعالى - على آدم ، حيث قبل توبته ، ورزقه المداومة عليها .

والاجتباء : الاصطفاء واختيار ، أى : ثم بعد أن أكل آدم من الشجرة ، وندم على ما فعل هو وزوجه «اجتباه ربه» أى : اصطفاه وقربه واختاره فتاب عليه ، أى : فقبل توبته وهدى ، أى : وهداه إلى الثبات عليها ، وإلى المداومة على طاعة الله - تعالى - ، فقد اعترف هو وزوجه بخطئهما ، كافى

قوله - تعالى - : « قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » (١) .

وقد أوحى الله - تعالى - إليه بكلمات كانت السبب في قبول توبته ، كما قال - سبحانه - : « فلتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم » (٢) .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ببيان ما آل إليه أمر آدم فقال - تعالى - : « وقال اهبطا منها جميعا » .

أى : انزلا من الجنة إلى الأرض مجتمعين ، فألف الاثنين هنا تعود إلى آدم وحواء .

أما الآيات الأخرى التي جاءت بضمير الجمع ، والتي منها قوله - تعالى - : « قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو » (٣) .

فالضمير فيها يعود إلى آدم وزوجته وذريتهما .

وقوله : « بعضكم لبعض عدو » ، أى : بعض ذريتكما لبعض عدو ، بسبب التخاصم والتنازع والتدافع على حطام هذه الدنيا .

« فإما يأتينكم منى هدى » ، يابى آدم عن طريق لإرسال الرسل وإنزال الكتب فليكن أن تتبعوا رسلى ، ونعملوا بما أشتت عليه كيتي .
« فمن اتبع هداى » ، بأن آمن برسلى وصدق بكيتي .

« فلا يضل ولا يشقى » ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، بسبب استمسكه بالعروة الوثقى إلى انقسام لها .

(١) سورة الأعراف الآية ٢٢ .

(٢) سورة البقرة الآية ٣٧ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٤ .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « قلنا اعبثوا منها جيمعا ، فإما يأتينكم منى هدى ، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١) .

وبعد أن بين - سبحانه - حسن عاقبة من اتبع هداى ، اتبع ذلك ببيان سوء عاقبة من أعرض عن ذكره وجماعته فقال - تعالى - :

« وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُنْمًى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أُنْمًى وَقَدِ كُنْتُ بِصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧) أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) » .

وقوله : « ضنكا ، أى : شديدة الضيق . وكل شئ ضاق فهو ضنك .

وهو مصدر يستوى فيه المذكر والمؤنث ، والواحد والجمع يقال : ضنك ككبرم - عيش فلان ضنكا وضاكا إذا ضاق .

والمعنى : من اتبع هداى الذى جاءت به رسل فلن يضل وإن يشق ، أما من أعرض عن ذكرى ، أى : عن هداى الذى جاءت به رسل ، واشتملت عليه كتبى « فإن له معيشة ضنكا ، .

أى : فإن لهذا المعرض معيشة ضيقة مليئة بالحلم والقلم والأحزان وسوء العاقبة ، حتى ولو ملك المال الوفير ، والحطام الكثير . . . فإن المعيشة الطيبة لا تكون إلا مع طاعة الله ، وإمتثال أمره ، واجتهاب نهجه . . .

قال - تعالى - : د من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ...

قال الإمام ابن كثير : د قوله د فإن له معيشة ضنكا ، أى : فى الدنيا فلا طمأنينة له ، ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضيق لضلاله ، وإن تنعم ظاهره . وابس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء ، فإن قلبه مالم يخلص إلى اليقين والهدى . فهو فى قلق وحيرة وشك ، فلا يزال فى ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة ...

وقال سفيان بن عيينة ، عن أبي حازم ، عن أبي سلمة ، عن أبي سعيد فى قوله د معيشة ضنكا ، قال : يضيق عليه قهره . حتى تختلف أضلاعه ، (١) .

والمراد بالعمى فى قوله - سبحانه - د ونحشره يوم القيامة أعمى ، : عمى البصر ، بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك : وقال رب لم حشرنى أعمى وقد كنت بصيرا .

وقوله - سبحانه - فى آية أخرى : د ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكيا وصبا ... (٢)

وقيل : المراد بالعمى هنا : أنه لاجئ له بدافع بها عن نفسه . وقبل : المراد به : العمى عن كل شىء سوى جهنم .

والذى يبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الحق ، لأنه هو الظاهر من الآية الكريمة . ولا قرينة تمنع من إرادة هذا الظاهر .

ويجمع بين هذه الآية وما يشبهها وبين الآيات الأخرى التى تدل على أن الكفار يبصرون ويسمعون ويتكلمون يوم القيامة ، واتى منها قوله - تعالى - : د اجمع بهم وابصر يوم يأتوننا ...

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢١٦ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٩٧ .

أقول : يجمع بين هذه الآية وما يشبهها . وبين الآيات الأخرى بوجود منها : أن عمامهم وصممهم يكون في أول حشرهم ، ثم يرد الله - تعالى - عليهم بعد ذلك أبصارهم وسمعهم ، فيرون النار ، ويسمعون ما يحزنهم . قال الجمل : وقوله : « أعمى » ، حال من الهاء في تحشره ، والمراد عمى البصر وذلك في المحشر ، فإذا دخل النار زال عنه عماه ليرى محله وحاله ، فهو أعمى في حال أخرى (١) .

ومنها : تنزيل سمعهم وبصرهم وكلامهم منزلة العدم لعدم انتفاعهم بذلك فقد قال - تعالى - في شأن المنافقين : « صم بكم عمى » ، بتنزيل سمعهم وكلامهم وإبصارهم منزلة العدم ، حيث إنهم لم ينتفعوا بهذه الحواس .

وقوله - سبحانه - : « قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا » استئناف سبق لبيان ما يقواه ذلك المعرض عن طاعة الله يوم القيامة .

أى قال ذلك الكافر الذى حشره الله - تعالى - يوم القيامة أعمى ، يارب لماذا حشرتني على هذه الحال مع أنى كنت فى الدنيا بصيرا ؟

وهنا يأتيه الجواب الذى يخرسه ، والذى حكاه الله - تعالى - فى قوله : « قال كذالك » ، أى : قال الله - تعالى - فى الرد عليه : الأمر كذاك ، فإنك « آتاك آياتنا ، الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، فأنسيتها ، أى : فتركتها وأعرضت عنها ، وكذلك اليوم تنسى ، أى : كما تركت آياتنا فى الدنيا وأعرضت عنها ، فتركك اليوم فى النار وفى العمى جزاء وفاقا .

ثم ساق - سبحانه - سنة من سنته التى لا تتخلف فقال : « وكذلك يعزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه وأعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

أى : ومثل ذلك الجزاء الأليم الذى أنزلناه بهؤلاء المعرضين عن ذكرنا يتجاوز كل من أسرف فى ارتكاب السيئات والموبقات ، وكل من لم يؤمن

بآيات ربه ، كذب بها وأعرض عنها ، ولعذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا ،
« وأبقى ، أى : وأكثر بقاء ، وأطول زماناً من عذاب الدنيا .

ثم وبخ - سبحانه - أولئك الذين لم ينتفعوا بآياته فقال : « أفلم يهد لهم كم
أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ... »

والهمزة للاستفهام الإنكارى التوبيخى ، والفاء للعطف على مقدر .
والمعنى : أبلغت الغفلة والجهالة هؤلاء المشركين ، أنهم لم يتبين لهم ، أننا
أهلكنا كثيراً من أهل القرون الماضية ، الذين كانوا يمشون آمنين لا هين فى
مساكنهم .

وكان إهلاكنا لهم بسبب إشارهم الكفر على الإيمان ، والغنى على الرشد ،
والعمى على الهدى .

فآية الكريمة تفرع وتويع لكفار مكة الذين لم يعتبروا بما أصاب أمثالهم
من الأمم السابقة ، كقوم نوح وعاد وثمود ...

قال الألوسى : « وقوله : « يمشون فى مساكنهم ، حال من القرون ، أو من
مفعول « أهلكنا » ، أى : أهلكناهم وهم فى حال أمن وتقلب فى ديارهم . واختار
بعضهم كونه حالاً من الضمير فى « لهم » ، مؤكداً الإنكار ، والعامل فيه « به » .
أى : أفلم يهد للمشركين حال كونهم ماشين فى مساكن من أهلكنا من القرون
السالفة من أصحاب الحجر ، وثمود ، وقوم لوط ، مشاهدين لآثار هلاكهم إذا
سافروا إلى بلاد الشام وغيرها ... » (١) .

وقوله - سبحانه - : « إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ، تذليل قصد به
تعليل الإنكار ، أى : إن فى ذلك الذى أخبرناهم به . وأطلعناهم عليه من إهلاك
المكذبين السابقين ، « لآيات ، عظيمة ، وغير كثيرة ، ودلائل واضحة لأصحاب
العقول السليمة ، التى تنهى أصحابها عن الضلالت والآثام .

والنهي : جمع به - بضم النون وإسكان الهاء - سمى العقل بها لنهيها عن القبائح .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على هؤلاء المشركين الذين أرسل الرسول - صلى الله عليه وسلم - لإنقاذهم من الكفر والضلالة فقال - تعالى :-
« ولولا كلمة سبقت من ربك ، لكان لزاما وأجل مسمى » .

والمراد بالكلمة السابقة - ما فضل الله - تعالى - به من تأخير عذاب الاستئصال عن هذه الأمة التي بعث فيها الرسول - صلى الله عليه وسلم - كما قال - تعالى :- « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » . . . أو لأن من نسلهم من يؤمن بالله حق الإيمان ، أو لحكم أخرى يملها - سبحانه - ولزاما : مصدر بمعنى اسم الفاعل ، وفعله لازم كقاتل .

وقوله : « وأجل مسمى » معطوف على « كلمة » .

والمعنى : ولولا الوعد السابق منا بتأخير العذاب عن هؤلاء المشركين إلى يوم القيامة ، ولولا الأجل المسمى المحدد في علمنا لانتفاء أعمارهم ، لما تأخر عذابهم أصلا . بل لكان العذاب لازما لهم في الدنيا ، ونازلا بهم كما نزل بالسابقين من أمثالهم في الكفر والضلال

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالمدامعة على الصبر ، وعلى الإكثار من ذكره - تعالى - ونهاه عن التطلع إلى زينة الحياة الدنيا . . فقال - تعالى - :

« فاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثَنَّهُمْ فِيهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) وَأْمُرْ أُمَّلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (١٣٢) » .

والقاء في قوله - تعالى - : « فاصبر على ما يقولون ... » ، فصيحة ، أى :
إذا كان الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - من أن تأخذ عذاب
أعدائك الإهمال وليس الإهمال ... فاصبر على ما يقولونه في شأنك من أنك
ساحر أو مجنون ... وسر في طريقك دون أن تلتفت إلى إبدائهم أو مكرم
واستهزائهم .

ثم أرشده - سبحانه - إلى ما يشرح صدره ، ويجلو همه فقال : « وسبح
بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آتاء الليل فسبح وأطراف
النهار أطالك ثرى » .

أى : وعلىك - أيها الرسول الكريم - أن تتكثر من تسبيح ربك وتحميده
وتزنيه . قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، وفي ساعات الليل وفي
أطراف النهار ، .

أى : في الوقت الذى يجمع الطرفين ، وهو وقت الزوال ، إذ هو نهاية النصف
الأول من النهار ، وبداية النصف الثانى منه ، إذ في هذا التسبيح والتحميد
والتزنيه - تعالى - والثناء عليه بما هو أهله ، جلا للصدر ، وتقريع
للكروب وأنس للنفوس ، واطمئنان للقلوب .

وبرى كثير من المفسرين ، أن المراد بالتسبيح هنا : إقامة الصلاة
والمداومة عليها .

قال ابن كثير : وقوله « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس » ، يعنى صلاة
الفجر « وقبل غروبها » ، يعنى صلاة العصر ، كما جاء في الصحيحين ، عن جرير
ابن عبد الله البجلي قال : كنا جلوسا عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنظر
إلى القمر ليلة البدر فقال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لانضاء و
في رؤيته - أى : لا يبالىكم ضيم ، بأن يراه بعضكم دون بعض - فإن استطعتم
أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ، ثم قرأ
هذه الآية . . .

وقوله . ومن آناه الليل فمسيح ، أى : من ساعاته فتجده به ، وحله بعضهم على المغرب والعشاء . وأطراف النهار ، فى مقابلة آناه الليل ، لملك نرضى ، كما قال - سبحانه - . ولسوف يعطيك ربك فترضى ، (١) .

وبعد هذا الأمر بالتسبيح ، جاء النهى عن الإعجاب بالدنيا وزينتها فقال تعالى - . ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه

أى : أكثر - أيها الرسول الكريم - من الانجاء إلى ربك ، ومن تسبيحه وتزيينه ومن المداومة على الصلاة ولا تطل نظر عينيك بقصد الرغبة والميل إلى ما متعنا به ، أزواجاً منهم . .

أى : إلى ما متعنا به أصنافاً من هؤلاء المشركين . بأن منحناهم الجاه والمال والولد .

وما جعلناه لهم فى هذه الدنيا بمثابة الزهرة التى سرعان ما تلع ثم تذبل وتزول .

قال الآلوسى مالمخصه : وقوله « أزواجاً منهم » أى : أصنافاً من الكفرة . وهو مفعول « متعنا » قدم عليه الجار والمجرور للاعتناء به وقيل الخطاب له - صلى الله عليه وسلم - والمراد أمته ، لأنه كان أبعد الناس عن إطالة النظر إليها ، وهو القائل : « الدنيا مملوثة ، مملون ما فيها ، إلا ما أريد به وجه الله تعالى - ، وكان - صلى الله عليه وسلم - شديد النهى عن الاغترار بها .

ويؤخذ من الآية أن النظر الغير الممدود معفو منه ، وكان المنهى عنه فى الحقيقة هو الإعجاب بذلك ، والرغبة فيه ، والميل إليه .

وقوله « زهرة الحياة الدنيا » أى : زينتها وبهجتها . وهو منصوب بمحذوف يدل عليه « متعنا » .

أى: جعلنا لهم زهرة، أو على أنه مفعول ثان، بتضمن متعناه فى أعطينا، فأزواجه مفعول أول. وزهرة هو المفعول الثانى (١).

وقوله، لنفتنهم فيه، بيان للحكمة من هذا التمتع والمطاء أى متعناه هؤلاء الكافرين بالأموال والأولاد... لنعامهم معاملة من يتلهم ويختبرهم بهذا المتاع، فإذا آمنوا وشكروا زدناهم من خيرنا، وإذا استمروا فى طغيانهم وجحدوم، وكفرهم، أخذناهم أخذ عزيز مقتدر.

فالجملة الكريمة تنفر العقلاء من التطلع إلى ما بين أيدي الكفار من متاع، لأن هذا المتاع سىء العاقبة، إذا لم يستعمل فى طاعة الله - تعالى - .

وقوله - سبحانه - : « ورزق ربك خير وأبقى »، تذييل قصد به القرعيب فيما عند الله - تعالى - من طيبات .

أى: وما رزقك الله إياه - أيها الرسول الكريم - فى هذه الدنيا من طيبات وما أدر لك فى الآخرة من حسنات، خير وأبقى مما تمتع به هؤلاء الكافرين من متاع زائل سيحاسبهم الله - تعالى - عليه يوم القيامة حسابا عسيرا، لأنهم لم يقابلوا أنعم الله عليهم بالشكر، بل قابلوا بالجحود والكفران .

والمشامل فى هذه الآية الكريمة يراها قد رسمت للمؤمن أفضل الطرق وأحكمها، لكى يحيا حياة فاضلة طيبة، حياة يعتز فيها صاحبها بالمعاني الشريفة الباقية، ويعرض عن المظاهر والزخارف الزائلة .

ثم كلف الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يأمر أهل بيته بالمداومة على إقامة الصلاة فقال: « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها »، والمراد بأهل بيته - صلى الله عليه وسلم - : أزواجه وبناته؛ وقيل: ما يشملهم ويشمل معهم جميع المؤمنين من بنى هاشم . وقيل المراد بهم: جميع أتباعه من أمته .

أى : وأمر - أيها الرسول الكريم - أهل بيتك بالمداومة على إقامة الصلاة
بمخشوع وإخلاص وإطمئنان ، واصطبر على تكاليفها وشاقها ، وعلى إقامتها
كاملة غير منقوصة ، وعلى تحقيق آثارها الطيبة في نفسك .

وقد ساق بعض المفسرين عند تفسيره لهذه الآية أحاديث منها ما أخرجه
البيهقي عن عبد الله بن سلام قال : كان للنبي - صلى الله عليه وسلم - إذا
نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة ، وتلا هذه الآية : « وأمر أهلك
بالصلاة ... » .

وأخرج مالك والبيهقي عن أسلم قال : كان عمر بن الخطاب يصل من الليل
ما شاء الله - تعالى - أن يصلي حتى إذا كان آخر الليل أيقظ أهله للصلاة ويقول
لهم : تصلوا الصلاة ويتلو هذه الآية ... ، (١) .

وقوله - سبحانه - « لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوي » ، تشجيع
وتحريض للمؤمنين على إقامة الصلاة ، ودفع لما يتوهمه البعض من أن المداومة
على إقامة الصلاة قد تشغل الإنسان عن السعي في طلب المعاش .

أى : مر - أيها الرسول الكريم - أهلك بالمداومة على الصلاة ، واصطبر
على تكاليفها ، فهذه الصلاة هي من أركان العبادات التي خلقك الله وخلق عباد
من أجلها ، ولا يصح أن يشغلك عنها أى شاغل من سعى في طلب الرزق أو
غيره ، فمنع لا نسألكم أن تزرعوا أنفسكم أو غيركم ، وإنما نحن نرزقكم
ونرزق الخلق جميعا قال - تعالى - : « وما من دابة في الأرض إلا على الله
رزقها ... » .

وقال - سبحانه - : « وكن من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم
وهو السميع العليم » .

وقوله « والعاقبة للمتقوى ، أى : والعاقبة الحميدة لأهل التقوى والخشية من الله - تعالى - الذين لا تليهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة ... »
 روى الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول الله - تعالى - : « يا بن آدم . تفرغ لعبادتي املأ صدرك عني ، وأسد فقرك ، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلا ، ولم أسد فقرك ، » .

وروى ابن ماجه عن زيد بن ثابت قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : من كانت الدنيا همه ، فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأت به من الدنيا إلا ما كتب له . ومن كانت الآخرة نيته ، جمع له أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة (١) .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بإيراد بعض الشبهات التي أثارها المشركون حول النبي - صلى الله عليه وسلم - ورد عليها بما يبطلها فقال - تعالى - :

« وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ، أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلُكُمْ نَاحُوا بِمِذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُخْزَى (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ، فَسَتَعْلَمُونَ مِنْ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (١٣٥) » .

ومرادهم بالآية في قوله - سبحانه - : « وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه ، معجزة حسية من المعجزات التي اقترحوها عليه - صلى الله عليه وسلم - كتهجير الأنهار حول مكة ، وكرقيه إلى السماء ، وكنزول الملائكة معه ... »
 أى : وقال الكافرون على سبيل التعنت والعناد للرسول - صلى الله عليه وسلم - هلا أتيك لنا يا محمد بآية من الآيات التي طلبناها منك ، أو بآية من

الآيات التي أتى بها الأنبياء من قبلك ، كالعصا بالنسبة لموسى ، والناقة بالنسبة لصالح .

فهم - كما يقول الألوسي - : « بلغوا من المكابرة والعناد إلى حيث لم يعدوا ما شاهدوا من المعجزات التي تفخر لها صمم الجبال ، من قبيل الآيات ، حتى اجترؤا على التفوه بهذه العظيمة الشنعا . »

وقوله - سبحانه - : « أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى ، رد على جهالاتهم وجمودهم . »

والمراد بالبينة القرآن الكريم الذي هو أم الآيات ، ورأس المعجزات . والمراد بالصحف الأولى : الكتب السماوية السابقة كالطوراة والإنجيل والزبور .

والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، والاستفهام لتقرير الإيمان وثبوته .

والمعنى : أجهلوا ولم يكفهم اشتغال القرآن الذي جئت به - أيها الرسول الكريم - على بيان ما في الصحف الأولى التي أنزلناها على الرسل السابقين ، ولم يكفهم ذلك في كونه معجزة حتى طلبوا غيرها ؟

قال صاحب الكشف : « اقترحوا على عاداتهم في التعمت آية على النبوة ، فقيل لهم : أولم تأتكم آية هي أم الآيات وأعظمها في باب الإعجاز ، يعني القرآن ، من جهة أن القرآن برهان ما في سائر الكتب المنزلة ، ودليل صحته لأنه معجزة ، وذلك ليست بمعجزات ، فهي مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها ، افتقار المحتج عليه إلى شهادة الحجة ... » (١) .

وقال ابن كثير : قوله : « أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى ، يعني : القرآن العظيم ، الذي أنزله الله - تعالى عليه - صلى الله عليه وسلم - ، وقد جاء

فيه أخبار الأوابين بما كان منهم في سالف الدهور ، بما يوافق عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها ، فإن القرآن مبين عليها ... وهذه الآية كقولہ - تعالى - : « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » .

وفي الصحيح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر . وإنما كان الذي أوتيته حيا أوحاه الله إلى . ولاني لأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » (١) .

ومنهم من يرى أن المراد بالبيئة : الكتب السماوية السابقة .

فيكون المعنى : أولم يكف هؤلاء الجاهلين أن الكتب السماوية السابقة كالطورا والإنجيل قد بشرت بك . وبينت نعوذك وصفاتك ، وهم معترفون بصدقها ، فكيف لا يقرون بنبوتك .

قال القرطبي : قوله : « أولم تأتهم بيعة ما في الصحف الأولى » ، يريد الطورا والإنجيل والكتب المتقدمة ، وذلك أعظم آية إذ أخبر بما فيها . وقيل : أولم تأتهم الآية الدالة على نبوته بما وجدوه في الكتب المتقدمة من البشارة .. (٢) .

وعلى كلا التفسيرين فالآية الكريمة شهادة من الله - تعالى - بصدق النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما بلغه عنه ، ورد مبطل لشبهات الكافرين ولأقوالهم الباطلة ، وإن كان تفسير البيئة هنا بالقرآن أظهر وأوضح .

وقوله - تعالى - : « ولو أنأهلسكنهم بعداب من قبله لقلوا ربنا لولا أرسات إلينا رسولا ففتنح آيانك من قبل أن نذل ونغزى » ، كلام مستأنف لتقرير ما قبله من أن القرآن الكريم هو معجزة المعجزات ، وآية الآيات . وأرفها جأرفها .

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٢٣

(٢) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٢٦٤

أى : ولو أنا أهلكنا هؤلاء الكافرين بعذاب الاستقصال ، من قبل بحىء
الرسول - صلى الله عليه وسلم - إليهم ومعه هذا القرآن الكريم معجزة له ،
لقالوا على سبيل الإعتذار يوم القيامة : باربنا ملا أرسلناك إلينا فى الدنيا - ولا
من عندك ومعه المعجزات التى تدل على صدقه ، فلكنا فى هذه الحالة اتبعنا
آياتك التى جاءنا بها وصدقناه وآمنا به ، من قبل أن يحصل لنا الذل والخوان
والخزى والافتضاح فى الآخرة .

والمقصود من الآية الكريمة قطع أعتذارهم ، أى : لو أنا أهلكناهم قبل
ذلك ، انقالوا ما قالوا ، وليكننا لم نهلكهم بل أرسلنا إليهم رسولنا ، فبلغهم
ما أرسلنا به ، فانه قطع عذرهم ، وبطلت حججهم .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : دولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت
أيديهم ، فيقولوا ربنا لولا أرسلناك إلينا رسولا ، فنتبع آياتك ونكون من
المؤمنين ، (١) .

ثم ختم - سبحانه السورة الكريمة بهذه الآية التى أمر فيها رسوله - صلى
الله عليه وسلم - أن يهدم بسوء العاقبة ، إذا ما استمروا فى طغيانهم يعمهون -
فقال - تعالى - : دقل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط
السوى ومن اهتدى ،

أى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الكافرين : كل واحد منا ومنكم
متربص بالآخر ، ومنظر لما يؤول إليه أمر صاحبه .

وما دام الأمر كذلك ، فتربصوا ، وانتظروا ما يؤول إليه حالنا وحالكم
دستعملون ، بعد من قريب .

دمن ، هم دأصحاب الصراط السوى ، أى : الطريق الواضح المستقيم
الذى لا اعوجاج فيه ودمن ، هم الذين تجنبوا الضلالة ، واهتدوا إلى ما يسعدهم
فى دينهم وفى دنياهم وفى آخرتهم .

وقريب من هذه الآية في المعنى قوله - تعالى - : « سيعلمون غدا من الكذاب الأشر » (١).

وقوله - سبحانه - : « وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا » (٢).

• • •

وبعد فهذه سورة طه ، وهذا تفسير تحاملي لها ، وكما أنها قد افترحت بنفي لإرادة الشقاء للنبي - صلى الله عليه وسلم - ، فقد اختتمت بهذه البشارة له - صلى الله عليه وسلم - ولأتباعه ، وبهذه التهديد لأعدائهم ...

نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا وبهجة صدورنا ، وشفيعنا يوم الدين « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

د / محمد سيد طنطاوي

مفتي جمهورية مصر العربية

فهرس إجمالى لتفسير « سورة طه »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة	
١	طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ...	١٠١
٩	وهل أتاك حديث موسى ...	١٠٦
١٧	وما نذك بك بيمينك يا موسى ...	١١١
٢٦	قال قد أوتيت سؤالك يا موسى ...	١١٨
٤٢	اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تليها في ذكرى ...	١٢٥
٤٩	قال فن ربك يا موسى ...	١٣٢
٦١	قال لهم موسى ويلكم لا تتفروا على الله كذبا ...	١٣٩
٧١	قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ...	١٥١
٧٧	ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى ...	١٥٩
٨٣	وما أعجلك عن قومك يا موسى ...	١٦٤
٩٠	واند قال لهم هارون من قبل . .	١٦٩
٩٢	قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ...	١٧٦
٩٥	قال فما خطبك يا سامرى ...	١٧٨
٩٩	كذلك نقضى عليك من أبناء ما قد سبق ...	١٨٠
١٠٥	ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا ...	١٨٦
١١٣	وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا ...	١٩٠
١١٥	ولقد عهدنا إلى آدم من قبل ...	١٩٦
١٢٤	ومن أعرض عن ذكرى فإن له ممشى ضنكا ...	١٩٨
١٣٠	فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك ...	٢٠٦
١٣٣	وقالوا لولا يأتينا بآية من ربك ...	٢١٠
		٢١٥

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة الأنبياء

دكتور
محمد شفيق طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

الجزء السابع عشر

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

حقوق الطبع محفوظة للدؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا تفسير تحليلي لسورة (الأنبياء) وأسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده وشفيعا لنا يوم نلقاه . (يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم) .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المؤلف

د / محمد سيد طنطاوى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

، صدق الله العظيم .

تمهيد بين يدي السورة

١ - سورة الأنبياء ، من السور المكية . وعدد آياتها اثنتا عشرة ومائة عند الكوفيين .

وعند غيرهم إحدى عشرة آية ومائة . وكانت نزولها بعد سورة إبراهيم .

قال الألوسي : وهي سورة عظيمة ، فيها موعظة نفيسة ، فقد أخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الحلية ، وابن عساكر ، عن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب فأكرمه عامر ، وكلم فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجاءه الرجل فقال : إني استقطعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأديا ما في العرب واد أفضل منه . وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك .

فقال عامر : لا حاجة لي في ذلك ، فقد نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا .

ثم قرأ : : اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون (١)

٢ - وعندما نقرأ هذه السورة السكرية بتدبر وتأمل ، نراها في مطلعها تسوق لنا ما يهز القلوب ، ويحملها على الاستعداد لاستقبال يوم القيامة بالإيمان والعمل الصالح ، وبزجرها عن الغفلة والإعراض .

قال - تعالى - : : اقتراب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون

٣ - ثم تحكى السورة بعد ذلك ألوانا من الشبهات التي أثارها المشركون حول الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحول دعوته ، وردت عليهم بما يبطل شبهاتهم وأقوالهم ، فقال - تعالى - : : بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء ، بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ، .

٤ - ما آمنت قبلهم من قرية أهلكتناها أفهم يؤمنون . وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين

٥ - ثم ساق السورة السكينة بعد ذلك أدلة متعددة على وحدانية الله - تعالى - وعلى شمول قدرته ، منها قوله - عز وجل - : : أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون . لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا ، فسيقان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون

٦ - وقوله - سبحانه - : : أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ، وجعلنا في الأرض رواسي أن يمتد بهم ، وجعلنا فيها فجأجا سبلا لهم يمشون ، وجعلنا السحاب سفقا محفوظا وهم عن آياتها معرضون

٧ - وبعد أن ذكرت السورة ألوانا من نعم الله على خلقه ، وحكت جانباً من تصرفات المشركين السيئة مع النبي - صلى الله عليه وسلم - أتبع ذلك بتسليته - صلى الله عليه وسلم - عما قالوه في شأنه .

٨ - قال - تعالى - : : ولقد استهزؤا برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزون ، .

٩ - ثم عرضت السورة السكينة جانباً من قصص بعض الأنبياء ، نارة

على سبيل الإجمال ، وتارة بشئ من التفصيل ، فتحدثت عن موسى وهارون ، وعن إبراهيم ولوط ، وعن إسحاق ويعقوب ، وعن نوح وأيوب ، وعن داود وسليمان ، وعن إسماعيل وإدريس ، وعن يونس وزكريا .

وفي نهاية حديثها عنهم - صلوات الله وسلامه عليهم - عقيبت بالمقصود الاساسى من رسالتهم ، وهو دعوة الناس جميعا إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - ، وأنهم جميعا قد جاءوا برسالة واحدة في جوهرها ، فقال - تعالى - :
 « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » .

٧ - ثم تحدثت في أواخرها عن أشراط الساعة ، وعن أهوالها ، وعن أحوال الناس فيها ...

قال - تعالى - : « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون . واقرب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ، ياويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كننا ظالمين ... » .

٨ - ثم ختم - سبحانه - سورة الأنبياء بالحديث عن سنة من سنته التي لا تتخلف . وعن رسالة نبيه - صلى الله عليه وسلم - وعن موقفه من أعدائه ، فقال - تعالى - :

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون . إن فى هذا لبلاغاً لقوم عابدين . وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون . فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء ، وإن أدرى أقرب أم بعيد ما تنوعدون . لأنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون . وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين . قال رب أحكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون » .

وبعد : فهذا عرض إجمالي لسورة الانبياء ، ومنه نرى أنها قد أقامت
الوامة من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى صدق الرسول - صلى الله
عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن يوم القيامة حق . . .
كما حكمت شبهات المشركين وردت عليها بما يبطلها ، كما سأقت نماذج
متعددة من قصص الانبياء - عليهم الصلاة والسلام - .

• • •

التفسير

قال الله تعالى: « اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون (١) ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون (٢) لا هبة قلوبهم وأسرّوا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشرٌ مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون (٣) قال ربني يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم (٤) بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون (٥) ما آمنت قلوبهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون (٦) » .

وقوله - سبحانه - : « اقرب ، من القرب الذي هو ضد البعد .

والمعنى : قرب الزمن الذي يحاسب فيه الناس على أعمالهم في الدنيا ، والحال أن الكافرين منهم في غفلة تامة عن هذا الحساب ، وفي إعراض مستمر عن الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح .

قال الإمام ابن كثير : هذا تنبيه من الله - عز وجل - على إقتراب الساعة ودنوها ، وأن الناس في غفلة عنها ، أي لا يعملون لها ، ولا يستعدون من أجلها .

قال - تعالى - : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه ... » وقال : « اقرب الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يهرضوا ويقولوا سحر مستمر ، (١) . » وغير سبحانه - بالقرب مع أنه قد مضى على نزول هذه الآية وأمثالها أكثر من أربعة عشر قرناً ، لأن كل آت وإن طالت أوقات استقباله وترقبه ،

قريب الوقوع ، ولأن ذلك الوقت وإن كان كبيرا في عرف الناس ، إلا أنه عند الله - تعالى - قليل ، كما قال - سبحانه - : « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده ، وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » (١) .

وقال - تعالى - : « إنهم يرونه بعيدا . ونراه قريبا » (٢) .

وقال - سبحانه - : « اقترب للناس . . . بلفظ العموم ، مع أن ما بعده من ألفاظ الغفلة والإعراض يشعر بأن المراد بهم الكافرون ، للتنبيه على أن الحساب سيشمل الجميع ، إلا أنه بالنسبة للكافرين سيكون حسابا عسيراً .

قال صاحب الكشف : « وصفهم بالغفلة مع الإعراض ، على معنى : أنهم ظاهرون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون في عاقبتهم ، ولا يتفطنون لما ترجع إليه خاتمة أمرهم ، مع اقتضاء عقولهم أنه لا بد من جزاء للحسن والسيئ . وإذا فرغت لهم العصا . ونهبوا عن سنة الغفلة ، وفطنوا لذلك بما يتلى عليهم من الآيات والنذر ، أعرضوا وسدوا أسماعهم ونفروا » (٣) .

وفي التعبير عن اقتراب يوم القيامة باقتراب الحساب ، زيادة في التهيب والتخويف ، وفي الحض على الاستعداد لهذا اليوم ، لأنه يوم يحاسب فيه الناس على أعمالهم في الدنيا حسابا دقيقا . وإن نملك فيه نفس لنفس شيئا ، وإنما يجازى فيه كل إنسان بحسب عمله .

وقوله - سبحانه - : « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون » ، بيان لمواقف هؤلاء الغافلين اللاهين من يذكرهم بأحوال ذلك اليوم .

والمراد بالذكر : ما ينزل من آيات القرآن عن النبي - صلى الله عليه وسلم - والمراد بالمحدث : الحديث العهد بالنزول على النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو صفة لذكر .

أى : أن هؤلاء الغافلين المعرضين عن الاستعداد ليوم الحساب ، لا يصل إلى أسماعهم شيء من القرآن الكريم ، الذى أنزله الله - تعالى - على قلب نبيه - صلى الله عليه وسلم - آية فآية ، أو سورة بعد سورة فى أوقات متقاربة ، إلا استمعوا إلى هذا القرآن المحدث تنزيله على الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهم يلعنون ، دون أن يحرك منهم عاطفة نحو الإيمان به ، فهم لانطماس بصيرتهم ؛ وقسوة قلوبهم ، وجحود نفوسهم للحق ، لا يتعظون ولا يعتبرون .

وقوله : « ما يأتىهم من ذكر ... » يشعر بأن ما نزل من قرآن قد وصل إليهم دون أن يتعجبوا أنفسهم فى الحصول عليه ، بل أقام وهم فى أماكنتهم بدون سعى إليه .

وقوله « ذكر » فاعل و « من » مزيدة للتأكيد .

وقوله « من ربهم » متعلق بمحذوف صفة لذكر ، و « من » لا ابتداء الغاية أى : ما يأتىهم من ذكر كائن من ربهم وغالغهم ورازقهم ، فى حال من الأحوال ، إلا استمعوه وهم هازلون مستهترون .

وقوله : « لاهية قلوبهم » حال أخرى من أحوالهم الغريبة التى تدل على نهاية طغيانهم وجورهم ، لأنهم بجانب إستماعهم إلى ما ينزل من القرآن بلعب وغفلة ، تستقبله قلوبهم - التى هى محل التدبر والتفكير - بلبو واستخفاف .

ثم حكى - سبحانه - لونا من ألوان مكرهم وخبثهم فقال : « وأمروا النجوى الذين ظلموا ، والنجوى : المسارة بالحديث ، وإخفاؤه عن الناس .

أى : بعد أن استمعوا إلى القرآن بإعراض ولبو واستتار ، اختل بعضهم ببعض ، وبالغوا فى إخفاء ما يضررونه من سوء نحو النبي - صلى الله عليه وسلم - ونحو ما جاء به من عند الله - تعالى - ، وحاولوا أن يظهروا ذلك فيما بينهم لحسب ، مبالغة منهم فى المكر السيئ الذى حاق بهم .

وفوله - سبحانه - : « هل هذا إلا بشر مثلكم ، أفأتأتون السحر وأنتم تبصرون ، بيان لما قالوه في تناجيهم من سوء .
والاستفهام للنفي والانكار .

أى : أنهم قالوا في تناجيهم : ما هذا الذى يدعى النبوة ، وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - لا بشر مثلكم ، ولا يمكن أن يكون رسولا ، وما جاء نابه إنما هو السحر بعينه ، فكيف تذهبون إليه ، وتقبلون منه ما يدعيه ، والحال أنكم تعاینون بأبصاركم سحره .

وما حملهم على هذا القول الباطل إلا توهمهم أن لا يكون من البشر ، وأن كل ما يظهر على يد مدعى النبوة من البشر من خوارق ، إنما هو قبيل السحر .

قال الألوسى : « وأرادوا بقولهم : « ما هذا إلا بشر مثلكم ، أى : من جنسكم ، وما أنى به سحر ، تعلمون ذلك فتأتونه وتحضرونه على وجه الإذعان والقبول وأنتم تعاینون أنه سحر . قالوا ذلك بناء على ما ارتكز في اعتقادهم الزائغ أن الرسول لا يكون إلا ملوكا ، وأن كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق من قبيل السحر . وعنوا بالسحر . هنا القرآن الكريم ، ففي ذلك إنكار لحقيقته على أبلغ وجه ، فاقلمهم الله - تعالى - أنى يؤفكون . وإنما أسروا ذلك ، لأنه كان على طريق توثيق العهد ، وترتيب مبادئ الشر والفساد وتمهيد مقدمات المسكر والمكيد في هدم أمر النبوة . وإطفاء نور الدين ، بأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون . » (١)

هذا ، ودعوى المشركين أن الرسول لا يكون بشرا ، قد حكاها القرآن في كثير من آياته ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ، إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا » (٢) .

(١) تفسير الألوسى ج ١٩ ص ٩٠

(٢) سورة الإسراء الآية ٩١

وقد رد الله - تعالى - عليهم هذه الدعوى الكاذبة في كثير من آيات كتابه - أيضا - ، ومن ذلك قوله عز وجل - : وما أرسلناك من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى (١) .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما لقنه لنبيه - صلى الله عليه وسلم - من الرد عليهم ، فقال : « قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم » .

أى : قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى الرد على ما تناجوا به سرا : ربى الذى أرسلنى لإخراجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان . يعلم ما تقولونه سواء أكان سرا أم جهرا ، وسواء أكان القائل موجودا فى السماء أم فى الأرض ، وهو وحده السميع لجميع ما يسمع ، العليم بكل شئ فى هذا الكون .

وما دام الأمر كذلك فأنا سأضيق فى طريق مبلغا رسالته - سبحانه - ، أما أتم فسرون سوء عاقبتكم إذا ما سرتهم فى طريق الكفر والعناد . وفى قراءة سبعية بلفظ : قل ، على الأمر للنبي - صلى الله عليه وسلم - .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم .

وقوله - تعالى - : « بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراء ، بل هو شاعر » ، أضراب من جهته - تعالى - ، ولانتقال من حكاية قولهم السابق - هل هذا إلا بشر مثلكم إلى حكاية أقوال أخرى باطلة قالوها فى شأنه - صلى الله عليه وسلم - وفى شأن ما جاء به .

أى : أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بما قالوه قبل ذلك فى شأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أنه بشر وما جاء به سحر ، بل أضفوا إلى ذلك

أن القرآن أضغاث أحلام . أى : أخلط كأخلط الأحلام ، وأنه أباطيل لا حقيقة لها .

والأضغاث : جمع ضغث . وأصله ما جمع من أنواع شتى من الثبات ثم حزم في حزمة واحدة .

والأحلام : جمع حلم - بضم الحاء وسكون اللام - وهو ما يراه النائم مما ليس بحسن .

وقد استعير هذا التركيب لما يراه النائم من وساوس وأحلام خلال نومه . بل افتراه ، أى : اختلق هذا القرآن من عند نفسه .

دبل هو شاعر ، أى : أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - شاعر - فزعمهم - وما أتى به هو نوع من الشعر التخيلي الذي لا حقيقة له .

ثم أضافوا إلى هذا التخطيط واضطراب قو لهم : « فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » .

ورادهم بالآية هنا : آية كونية . والجملة جواب لشرط محذوف يفصح عنه السياق « والتقدير : إن لم يكن كما قلنا في شأنه من أنه إله شاعر بل كان رسولا حقا . فليأتنا بخارق يدل على صدقه كمناعة صالح ، وعصا موسى ، وإحياء عيسى للأموات ... فإن المرسلين السابقين فعلوا ذلك .

وكانهم - لانطماس بصائرهم وشدة جهالاتهم - لا يعتبرون القرآن الذي هو آية الآيات - لا يعتبرونه آية ومعجزة تدل على صدقه - صلى الله عليه وسلم - .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد صورت تخبط هؤلاء المشركين تصويراً حكيماً ، شأنهم في ذلك شأن الحائر المضطرب الذي لا يستطيع الثبات على قرار ، بل هو ليمحله وتعلله ينتقل من دعوى باطلة إلى أخرى أشد منها بطلاناً ...

وقد نفي القرآن عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كل هذه الدعاوى الباطلة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : د وما هو بقول شاعر قليل ما يؤمنون . ولا بقول كاهن قليل ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين ... (١) .

وقوله - سبحانه - د وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين . لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، (٢) .

ثم بين - سبحانه - جانباً من مظاهر فضله ورحمته بهؤلاء الذين أرسل إليهم رسوله محمداً - صلى الله عليه وسلم - فقال : د ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون .

أى : أن هؤلاء الجاهلين من قومك - أيها الرسول الكريم - قد طلبوا منك آية كونية كالتى جاء بها موسى وعيسى وصالح . . . وهذه الخوارق عندما جاء بها هؤلاء الرسل ولم يؤمن بها أقوامهم أهلكنا هؤلاء الأقوام . وفقاً لسنننا التى لا تتخلف فى إهلاك من يكذبون بآياتنا . ولو أنا أعطيناك هذه الخوارق ولم يؤمن بها قومك لأهلكناهم كما أهلكنا السابقين ، لذا اقتضت حكمتنا ورحمتنا أن نمنع عنهم ما طلبوه ، لأنهم بشر كالسابقين . وما دام السابقون لم يؤمنوا بهذه الخوارق ف هؤلاء أيضاً لن يؤمنوا بها .

فالاستفهام فى قوله : د أفهم يؤمنون ، الإنكار . أى : أن هؤلاء الكافرين من أمك - أيها الرسول الكريم - لن يؤمنوا بهذه الخوارق التى طلبوها متى جاءتهم لأنهم لا يقلون عتوا وعتادا عن السابقين الذين لم يؤمنوا بها فأهلكهم الله . وصدق الله إذ يقول : د إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الآليم ، (٣) .

(٢) سورة يس الآية ٦٩ ، ٧٠

(١) سورة الحاقة الآيات ٤١ - ٤٣

(٣) سورة يونس الآية ٩١ ، ٩٧

ثم بين - سبحانه - أن حكمته قد اقتضت أن يكون جميع الرسل من البشر وأن يعيشوا الحياة التي تقتضيها الطبيعة البشرية ، وأن يؤيدهم الله - تعالى - بالمعجزات الدالة على صدقهم ، فقال - تعالى - :

« وما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) وما جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) » .

أي : وما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ - أيها الرسول الكريم - إلى الأمم السابقة لإرسالها من البشر ، ليمشوا حياة البشر ، ويتمكنوا من التعامل والتخاطب والتفاهم مع من هم من جنسهم ، ولو كان الرسل من غير البشر لما كانت هناك وشيجة ورابطة بينهم وبين أقوامهم .

وهذه الجملة رد مفحم على المشركين الجاهلين الذين استبعدوا أن يكون الرسول بشرا وقالوا قبل ذلك : « ما هذا إلا بشر مثلكم ... » ،

وقوله - تعالى - « فوحي إليهم » استئناف مبين لكيفية الإرسال .

أي : اقتضت حكمته أن يكون الرسل من الرجال ، وأن يبلغهم ما نكلفهم به عن طريق الوحي المنزل إليهم من جهتنا ..

وقوله - سبحانه - : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » ، توبيخ لهم وتجهيل ، لأنهم قالوا ما قالوا بدون تعقل أو تدبر .

والمراد بأهل الذكر : علماء أهل الكتاب الذين كان المشركون يرجعون إليهم في أمور دينهم .

والفاء في قوله : « فاسألوا ... » لترتيب ما بعدها على ما قبلها . وجواب الشرط محذوف لدلالة الكلام عليه .

أى : هادامت قد بلغت بكم الجمالة أن تستبعدوا أن يكون الرسول بشرا .
فاسألوا أهل العلم فى ذلك ، فسيبينون لكم أن الرسول السابقين لم يكونوا
إلا رجالا .

قال القرطبي : قوله - تعالى - : فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ،
يريد أهل التوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وسماهم
أهل الذكر ، لأنهم كانوا يذكرون خير الأنبياء ، مما لم تعرفه العرب ، وكان
كفار قريش يراجعون أهل الكتاب فى أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - .

وقال ابن زيد : أراد بالذكر : القرآن . أى : فاسألوا المؤمنين العالمين من
أهل القرآن . . . ، (١) .

ثم أكد - سبحانه - هذه الحقيقة وهى كون الرسل من البشر فقال :
« وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين » .

والضمير فى « جعلناهم » يعود إلى الرسل ، والجسد مصدر جسد الدم بجسد
- من باب فرح - إذا التصق بفسيره ، وأطلق على الجسم جسد ، لالتصاق
أجزائه بعضها ببعض ، ويطلق هذا اللفظ على الواحد المذكور وغيره ولذلك
أفرد ، أو هو أفرد لإرادة الجنس .

أى : وما جعلنا الرسل السابقين عليك يا محمد أجسادا لا تأكل ولا تشرب
كالملائكة . وإنما جعلناهم مثلك يأكلون ويشربون ويتزوجون ويتناسلون
ويعتريهم ما يعتري البشر من سرور وحزن ، ويقظة ونوم . . . وغير ذلك
مما يحسه البشر .

وما جعلناهم - أيضا - خالدين فى هذه الحياة بدون موت ، وإنما جعلنا
لأعمارهم أجلا ههنا تنتهى حياتهم عنده بدون تأخير أو تقديم

قال - تعالى - : « إنك ميت وإنهم ميتون . ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ، (١) .

وقوله - سبحانه - : « ثم صدقناهم الوعد ... » ، بيان لسنة الله - تعالى - .
الجارية مع رسله - عليهم الصلاة والسلام - .

أى : ثم صدقنا هؤلاء الرسل ما وعدناهم به من جعل العاقبة لهم ، فأنجيناهم ،
من العذاب الذى أنزلناه بأعدائهم ، وأنجينا معهم ، من نشاء ، لإنجاءهم من
المؤمنين بهم ...

« وأهلكنا المسرفين ، الذين تجاوزوا الحدود فى كبرهم وتطاوّلهم على
الرسول الكرام ، وإعراضهم عن دعوتهم .

ولى هنا نرى الآيات الكريمة من أول السورة إلى هنا ، قد أُنذرت
الناس باقتراب يوم الحساب ، وحذرتهم من الغفلة عنه ، ومن الإعراض عن
الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح ، وحكت ما قاله المشركون من
تهم باطلة تتعلق بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وبما جاء به من عند
ربه - تعالى - وردت عليها بما يزعمها ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره
المجرمون .

ثم بين - سبحانه - أن ما أنزله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - هو
خير الآيات وأخفها وأشرفها ، وأن يشرف الأمة التى تنتسب إليه ، وأن
الأمم السابقة التى كذبت بالخوارق والمعجزات التى جاء بها الرسول - عليهم
السلام - أهلكها الله - تعالى - . هلاك استئصال ، فقال - تعالى - :

« لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذِكرُكم أفلا تعقلون (١٠) وكم
قصصنا من قرية كانت ظالمةً وأنشأنا بعدَهَا قومًا آخرين (١١) فلما

أَحْسُوا بِأَمْنًا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى
مَا أُرْفِتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينِكُمْ لِمَلِكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ (١٤) فَازَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدَ آخَامِيدِينَ (١٥).

قال الألوسي : قوله - تعالى - : «لقد أنزلنا لإيكم كتابا...» ، كلام
مستأنف لتحقيق حقيقة القرآن العظيم ، الذي ذكر في صدر السورة لإعراض
الناس عما يأتيهم من آياته ، واستهواؤهم به ، واضطرابهم في أمره ، وبيان علو
مرتبته ، إثر تحقيق رسالته - صلى الله عليه وسلم - ، ببيان أنه كسائر الرسل
السكرام ، وقد صدر الكلام بالتوكيد القسري ، لإظهار المزيد الاعتناء بضمونه
وليداننا ، بأن المخاطبين في أفهى مراتب التكبير ، والخطاب لقريش . وجوز
أن يكون لجميع العرب ... (١).

والمعنى : لقد أنزلنا لإيكم يا معشر العرب عن طريق رسولنا محمد - صلى
الله عليه وسلم - كتابا عظيم الشأن ، نير البرهان ، مشتملا على ما يسعدكم وهذا
الكتاب وفيه ذكركم ، أي : فيه شرفكم ، وعلو منزلتكم ، وحسن موعظتكم ،
وشفاء صدوركم ...

«أفلا تعقلون ، ذلك ، مع أن هذا الأمر واضح ، ولا يحتاج إلى جدال
أو مناقشة .

فلاستغفام لإنكار عدم تدبرهم في شأن هذا الكتاب الذي أنزله الله
- تعالى - ليظفروا بسببه بالذكر الجميل ، وبالموعظة الحسنة ، كما قال - تعالى -
« وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » (٢) .

وأن من مظاهر كون القرآن الكريم فيه ذكر العرب وشرفهم ، أنه نزل

(١) تفسير الألوسي ج ١٧ ص ١٤٠ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٤٤ .

بماقتهم ، وأنه المعجزة الباقية الخالدة بخلاف غيره من المعجزات التي أيد الله - تعالى - بها الرسل السابقين ، وأنه الكتاب الذي قادوا به البشرية قرونا طويلة . عندما حملوه إلى الناس ، فقرءوه عليهم ، وشرحوهم أحكامه وآدابه وتشريعاته وما أصيب العرب في دينهم ودينهم إلا يوم أن تخلوا عن العمل بهدايات هذا الكتاب ، وقصروا في تبليغه إلى الناس . . .

ثم بين - سبحانه - ما أنزله بالقوم الظالمين فقال : **وكم قسمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين ،**

وكم ، هنا خبرية مفيدة للتأكيد ، وهي في محل نصب على أنها مفعول مقدم ، **لقسمنا ،**

وأصل القسم : كسر الشيء حتى ينقطع وينفصل عن غيره . يقال : **قسم فلان ظهر فلان ،** إذا كسره حتى النهاية ، بخلاف **القسم** فهو صدع الشيء من غير قطع وانفصال .

قال القرطبي : **والقسم :** الكسر ، يقال : **قسمت ظهر فلان ،** وانقسمت منه ، **إذا انكسرت .**

والمعنى هنا به الإهلاك . وأما **القسم - بالفاء -** فهو الصدع في الشيء من غير بينونة ، (١) .

أى : وكثيرا من القرى الظالمة ، التي تجاوز أهلها حدود الحق ، ومردوا على الكفر والضلال ، أبدناها مع أهلها ، وعذبناها عذابا نكرا ، بسبب ظلمهم وبغبيهم ، وأنشأنا من بعدهم قوما آخرين ليسوا مثلهم .

وأوقع - سبحانه - فعل القسم على القرى ، الإشعار بأن الهلاك قد أصابها وأصاب أهلها معها . **قال الكلبي قد دمره - سبحانه -** قد دمرها .

أما عند الإنشاء فقد أوقع الفعل على القوم فقال : د وأنشأنا بعدها قوما آخرين ، للإيماء إلى أن هؤلاء القوم الآخرين ، الذين لم يكونوا أمثال السابقين ، هم الذين ينشئون القرى ويعمرونها .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : د ولم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً ، (١) .

ثم صور - سبحانه - حال هؤلاء الظالمين عندما أحسوا بالعذاب وهو نازل بهم فقال : د فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ، .

وقوله : د أحسوا ، من الإحساس . وهو إدراك الشيء بالحاسة . يقال : أحس فلان الشيء ، إذا علمه بالحوس وشعر به بحاسته .

وقوله : د يركضون ، من الركض ، وهو السير السريع : وأصله : أن يضرب الرجل دابته برجله ليحثها على الجرى لتسرع في المشى . والمقصود به هنا : الهروب بسرعة .

أى : فلما أحس هؤلاء الظالمون عذابنا المدمر ، وأيقنوا نزوله بهم ، وعلوا ذلك علواً مؤكداً ، إذا هم يفرجون من قريتهم يركضون ، أى : يهربون بسرعة وذهر ، حتى لكانهم من اضطرابهم وخوفهم يظنون أن ذلك سيذهبهم .

وإذا هنا لجائية . والجملة بعدها جواب د لما ، .

وقوله - سبحانه - : د لا تركضوا وارجعوا إلى ما أنزقم فيه ومساكنكم ، حكاية لما تقول لهم الملائكة - وهم يركضون هرباً - على سبيل التذكير والاستهزاء .

أى : يقال لهم من جهة الملائكة أو من جهة المؤمنين ، لا تركضوا وارجعوا

« وارجعوا الى ، قربتكم وإلى ما أنزفتم فيه ، أى : وإلى ما نعمتم فيه من العيش الهنىء . والخير الوفير ، الذى أبطركم وجعلكم تبحدون النعم : ولم تستعملوها فيما خلقت له .

فقوله : « أنزفتم ، من الترفه - بالتاء المشددة مع الغم - وهى النعمة والطعام الطيب . يقال : زف فلان - كفرح - إذا تنعم . وفلان أنزفته النعمة ، إذا أطغته أو نعمته .

وقوله : « ومسا كنكم ، مطوف على ، ما ، .

أى : لا تهربوا وارجعوا إلى ما نعمتم فيه من العيش الهنىء ، وإلى مسا كنكم التى كنتم تسكنونها ، وتتفاخرون بها .

« لعلكم تسألون ، أى : يقصدكم غيركم لسؤالكم عما نزل بكم ، فتجيبوه عن علم ومشاهدة .

قال صاحب الكشف : « قوله « لعلكم تسألون ، نهكم بهم وتوبيخ . أى : ارجعوا إلى نعيمكم ومسا كنكم لعلكم تسألون غدا عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومسا كنكم . فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة .

أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم فى مجالسكم ، وترتبوا فى مراتبكم حتى يسألكم حشمكم وعبيدكم ، ومن تملكون أمره . وينفذ فيه أمركم ونهيكم ، ويقول لكم : بم تأمرون ؟ وبماذا ترسمون ؟ وكيف نأنى ونذر كمادة المنعمين المخدمين .

أو يسألكم الناس فى أنديتكم . . . ويستشيرونكم فى المهمات . ويستضيئون بآرائكم .

أو يسألكم الوافدون عليكم ، ويستشارون سحائب خبركم . . . قيل لهم ذلك نهكما إلى تهكم ، وتوبيخنا إلى توبيخ ، (١) .

وهنا أدرك هؤلاء الظالمون ، أن الأمر جد لا هزل ، وأن العذاب نازل بهم لا محالة ، وأن القائلين لهم لا تركضوا . إنما يتهمون بهم . فأخذ أولئك الظالمون يتفجعون ويتحسرون قائلين : يا ويلنا إنما كنا ظالمين .

والويل : الفضيحة والبليّة والمصيبة التي يعقبها الهلاك . وهي كلمة جزع وتحسر .

وتستعمل عندما تحيط بالإنسان داهية عظيمة ، وكان المتحسر لزول مصيبة به ، ينادى ويلته ويطلب حضورها بعد تنزيلها منزلة من ينادى ...
أى : قالوا عندما يقنعوا أن الهلاك نازل بهم : يا هلاكنا إنما كنا ظالمين لأنفسنا ، مستوجبين للعذاب . بسبب إعراضنا عن الحق . وتمكذبنا لمن جاء به .

، واسم الإشارة في قوله - تعالى - : فما زالت تلك دعواهم ، يعود إلى الكلمات التي قالوها على سبيل التحسر عندما يثسروا من الخلاص والحرب ، وتأكدوا من الهلاك ، وهي قولهم : يا ويلنا إنما كنا ظالمين .

أى : فما زالوا يرددون تلك الكلمات بتفجع وتحسر واستعطاف .
وسميت هذه الكلمات دعوى ، لأن المولول كأنه يدعو الويل قائلا :
أيها الويل هذا أو انك فأقبل نحوى .

وقوله : حتى جعلناهم حصيداً خامدين ، بيان لما آل إليه حالهم .
وخامدين : من الخود بمعنى الهمود والانطفاء والانتها . يقال : خدت النار فحمدت خدا وخمردا ، إذا سكن لهيبها ، وانطفأ شررها .

أى : فما زالت تلك كلماتهم حتى جعلناهم في الهمود والهلاك كالنبات المحصود بالمنجل ، كالنار الخاملة بعد اشتعالها .

وهكذا تكون عاقبة الظالمين . وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على قدرته و وحدانيته ، وعلى أن من في السموات والأرض لا يستكبرون عن عبادته - تعالى - ، فقال - عز وجل - :
 « وما خلَقْنَا السمواتِ والأرضَ وما بينهما إلاَّ بَيْنَ يَدَيْهِ (١٦)
 لو أردنا أن نتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ
 نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ، وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا
 تَصِفُونَ (١٨) وَلَهُ مَنْ فِي السمواتِ والأرضِ ، وَمَنْ عِنْدَهُ
 لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ
 وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠) » .

والمعنى : إننا لم نخلق السموات والأرض وما بينهما من مخلوقات لا يعلمها إلا الله ، لم نخلق ذلك عبثاً . وإنما خلقناها هذه المخلوقات بحكمتنا السامية ، وقدرتنا النافذة ، ومشيتنا التي لا يقف في وجهها شيء .

وقوله - تعالى - : « لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ، استئناف مقرر لمضمون ما قبله ، من أن خلق السموات والأرض وما بينهما لم يكن عبثاً ، وإنما لحكم بالغه ، مستتبعه لغايات جليلة ، ومنافع عظيمة .

و « لو ، هنا حرف امتناع لامتناع . أى : امتناع وقوع فعل الجواب لامتناع وقوع فعل الشرط .

واللهو : الترويح عن النفس بما لا نقضيه الحكمة ، ولا يتناسب مع الجده وهو قريب من العبث الباطل . تقول : طرت بهذا الشيء الهو لهوا ، إذا تشاغلته به عن الجد ، ويطأقه بعضهم على الولد والزوجة والمرأة ...

أى : لو أردنا - على سبيل الفرض والتقدير - أن نتخذ ما نطلب به ، لاتخذناه من عندنا ومن جهتنا دون أن يمنعه أحد مما نريده . ولكنه لما لم نرد ذلك لأنه مستحيل علينا إستحالة ذاتية ، فيستحيل علينا أن نريده .

فالأية الكريمة من باب تطبيق المحال على المحال ، لأن كلا الأمرين يقتضى مع حكمة الله - تعالى - ومع ذاته الجليلة .

وقوله : « إن كنا فاعلين ، تأكيد لامتناع إرادة الله . ود إن ، نافية . أى : ما كنا فاعلين ذلك ، لأن اتخاذ الله يستحيل علينا .

وقوله - سبحانه - : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » ، إضراب عن إرادة اتخاذ الله ، وإثبات لما تقتضيه ذاته - تعالى - مما يخصاف ذلك .

والقذف : الرمي بسرعة . والاسم القذف - ككتساب - ، وهو سرعة السير ، ومنه قولهم : نافقه قذاف - بكسر القاف - إذا كانت متقدمة على غيرها في السير .

ويدمغه : أى : يمحقه ويزيله . قال القرطبي : وأصل الدمغ شج الراس حتى يبلغ الدماغ .

أى : ليس من شأننا أن نتخذ لهوا ، وإنما الذى من شأننا وحكمتنا ، أن نلقى بالحق الذى أرسلنا به رسلا ، على الباطل الذى تشبث به الفاسقون . فيدمغه ، أى : فيمحقه ويهلكه ويزيله إزالة تامة .

والتعبير القرآنى البليغ ، يرسم هذه السنة الإلهية فى صورة حسية متحركة حتى لكأنما الحق قذيفة تنطلق بسرعة فهوى على الباطل فتشق أم رأسه ، فإذا هو زاهق زائل .

قال الألوسى : « وفى إذا الفجائية ، والجملة الإسمية ، من الدلالة على كمال المسارعة فى الذهاب والبطلان ما لا يخفى ، فكأنه زاهق من الأصل ، (١) .

وقوله - تعالى - : « ولكم الويل مما تصفون ، وعيد شديد أولئك

الكافرين الذي نسبوا إلى الله - تعالى - ما لا يليق به، ووصفوه بأن له صاحبة وولداً سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً .

أى : وإلهم - أيها الضالون المكذبون - الويل والهلاك ، من أجل وصفكم له - تعالى - بما لا يليق بشأنه الجليل .

وقوله - تعالى - : « وله من في السموات والأرض . . . » استئناف ، يؤكد لما قبله من أن جميع المخلوقات خاضعة لقدرته - تعالى - .

أى : وله وحده - سبحانه - جميع من في السموات والأرض ، خلقاً ، وملكاً ، وتدبيراً ، وتصرفاً ، وإحياء ، وإماتة ، لا يخرج منهم أحداً عن علمه وقدرته - عز وجل - .

ثم بين - سبحانه - نماذج من عبادة الطائعين له ، بعد أن حكى أقوال أولئك الضالين ، فقال : « ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون » .

والاستحسار : الكلال والتعب . يقال : حسر البصر يحسر حسوراً - من باب قعد - إذا تعب من طول النظر ، ومنه قوله - تعالى - : « ثم أرجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير » أى : كليل متعب .

أى : ومن عنده من مخلوقاته وعلى رأسهم الملائكة المقربون ، لا يستكبرون عن عبادته - سبحانه - بل يخضعون له خضوعاً تاماً ، ولا يستحسرون ، أى : ولا يكلون ولا يتعبون . . .

بل هم ، يسبحون ، الله - تعالى - ويحمدونه ويكبرونه ، طوال الليل والنهار بدون فتور أو تراخ أو تقصير . يقال : فتر فلان عن الشيء بفتر فتوراً ، إذا سكن بعد حدة ، ولان بعد شدة ، ويقال : فتر الماء - من باب قعد - إذا سكن حره فهو فاتر .

قالوا : وذلك لأن تسبيح الملائكة لله - تعالى - يجرى منهم بمرى التنفس

منا ، فهو سجية وطبيعة . وكما أن اشتغالنا لا يمنحنا من السلام ، فكذلك اشتغالهم بالفسيح لا يمنهم من سائر الاعمال . (١٩) .

وبعد أن بين - سبحانه - أن من مخلوقاته من يقوم بتسبيحه وعبادته بدون انقطاع أو فتور ، أتبع ذلك بتوبيخ المشركين وبإقامة الأدلة على وحدانيته ، واستحالة أن يكون هناك من يشارك في ألوهيته فقال - تعالى - :

« أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) » .

قال الإمام الرازي : « اعلم أن الكلام من أول السورة إلى هنا كان في الثبوت وما يتصل بها من الكلام سؤالاً وجواباً ، وأما هذه الآيات فلها في بيان التوحيد ونفي الأضداد والأنداد . . . » (٢٠) .

والاستفهام في قوله « أَمْ اتَّخَذُوا . . . » الإنكار والتوبيخ . وقوله : « ينشرون » من النشر بمعنى الإحياء والبعث . يقال : أنشر الله - تعالى - الموتى إذا بعثهم بعد موتهم .

والمعنى : إن هؤلاء الضالين قد أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى في العبادة ، فهل هذه الآلهة التي اتخذوها تستطيع أن تعيد الحياة إلى الأموات ؟

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٢٣ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ج ١ ، ص ٩١ .

كلا إنما لا نستطيع ذلك بإقرارهم ومشاهدتهم ، ومادام الأمر كذلك فكيف
أباحوا لأنفسهم أن يتخذوا آلهة لا يستطيع أن تفعل شيئا من ذلك أو من
غ - يره ؟

إن اتخذهم هذا من أكبر الأدلة وأوضحها على جهالاتهم وسفاهاتهم
وسوء تفكيرهم .

قال صاحب الكشف مملخصه : « فإن قلت : كيف أنكر عليهم اتخاذ
آلهة تنشر . وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم ، لأنهم كانوا يشكرون البعث
أصلا وية ولون : من يحيى العظام وهى رميم ؟ قلت : الأمر كما ذكرت ولاكنهم
بإدعائهم لها الإلهية ، يلزمهم أن يدعوا لها الإنهار ، لأنه لا يستحق هذا الاسم
إلا القادر على كل مقدور ، والإنهار من جملة المفدورات . وفيه باب من
أحكم بهم ، والتوبيخ والتجهيل ، وإشعار بأن ما استبعدوه من الله - تعالى -
لا يصح استبعاده ، لأن الإلهية لما صحت صحت معها الاقتدار على الإبداء
والإعادة ، (١) .

وقوله - سبحانه - « من الأرض ، متعلق باتخذوا ، و « من » ابتدائية ،
أى : اتخذوها من أجزاء الأرض كالحجارة وما يشبهها ، ويجوز أن يكون
الجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة الآلهة . أى : اتخذوا آلهة كائنة من
الأرض .. وعلى كلا التقديرين ، فالمراد بهذا التعبير التحقير والتجهيل .

ثم ساق - سبحانه - دليلا عقليا مستمدا من واقع هذا الكون فقال :
« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ... » .

أى : لو كان فى السموات والأرض آلهة أخرى سوى الله - تعالى - ،
تدبر أمرهما ، لفسدتا وخرجتا عن نظامهما البديع ، الذى لا خلل فيه
ولا اضطراب .

وذلك لأن تعدد الآلهة يلزمه التنازع والتغالب بينهم . . . فيختل النظام لهذا الكون ، ويضطرب الأمر ، ويمم الفساد في هذا العالم .

ولما كان المشاهد غير ذلك إذ كل شيء في هذا الكون يسير بنظام محكم دقيق - دل الأمر على أن لهذا الكون كله ، إلهاً واحداً قادراً حكماً لا شريك له .

قال صاحب الكشف : والمعنى لو كان يتولاهما ويدبر أمرهما آلهة شتى غير الواحد الذي هو فاطرهما لفسدتا .

وفيه دلالة على أمرين : أحدهما : وجوب أن لا يكون مدبرهما إلا واحداً .
الثاني : أن لا يكون ذلك الواحد إلا إياه وحده ، لقوله ، إلا الله .

فإن قلت : لم وجب الأمران ؟ قلت : لعلنا أن الرعية تفسد بتدبير المملوكين لما يحدث بينهم من التغالب والتناكر والاختلاف .

قال عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو بن سعيد الأشدق : كان واقف أعز على من دم ناظري ، ولكن لا يجتمع لخلان في شؤل - أي : في عدد مع النفاق - ، (١) .

وقوله - تعالى - : « فسبحان الله رب العرش عما يصفون » ، تنزيهه لله - تعالى - عما قاله الجاهلون في شأنه - عز وجل - .

أي : فتزبها لله وتقديساً وتبرئة لذاته عن أن يكون له شريك في ألوهيته ، وجل عما وصفه به الجاهلون .

وقوله - تعالى - : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » ، تأكيد لوحدايته وقدرته - سبحانه - أي : لا يسأله سائل - سبحانه - عما يفعله بعباده من إعزاز وإذلال ، وهداية وإضلال ، وغنى وفقر ، وصحة ومرض ، وإسعاف وإشقاء . . . لأنه هو الرب المالك المتصرف في شئون خلقه ، وهم يسألون

يوم القيامة عن أعمالهم وأقوالهم لأنهم عبده ، وقد أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ، فمنهم من اتبع الرسل فسمد وفاز ، ومنهم من استحب العمى على الهدى فشقى وهلك .

وبعد أن ساق - سبحانه - دليلا عقليا على وحدانيته ، أتبعه بدليل آخر فقل ، فقال - تعالى - : : أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم ، هذا ذكر من معي وذكر من قبلي ... ،

قال الألوسي ما ملخصه : : هذا لإضراب وانتقال من إظهار بطلان كون ما اتخذوه آلهة ، لخلوها من خصائصها التي من جملتها الإنشاء . إلى تبكيثهم ومطالبتهم بالبرهان على دعواهم الباطلة ، وتحقيق أن جميع الكتب السماوية فاطقة بحقيقة التوحيد ، وبطلان الإشراك . . . (١) .

أى : إن هؤلاء الكافرين قد أضر كوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى في العبادة ، بسبب جهلهم وعنادهم ووجودهم لاحق ... قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل التبكيت والتوبيخ : هاتوا برهانكم ، على أن مع الله - تعالى - آلهة أخرى تستحق مشاركته في العبادة والطاعة ؟ ولا شك أنهم لا برهان لهم على ذلك .

وقوله - تعالى - : : هذا ذكر من معي وذكر من قبلي ، زيادة في تبكيثهم وفي إظهار عجزهم أى : هذا الوحي الإلهي الناطق بتوحيد الله - تعالى - موجود في القرآن الكريم المشتمل على ذكر المعاصرين لى من أنبأى ، وموجود في كتب الأنبياء السابقين ، كالتوراة التي أنزلها الله على موسى ، والإنجيل الذي أنزله على عيسى ، فن أين أنتم أنتم هؤلاء الشر كاء ، وكيف اتخذتموهم آلهة مع أنهم لا برهان عليهم لا من جهة العقل ولا من جهة النقل ؟

فانهم الإشارة : هذا ، في قوله : : هذا ذكر من معي ، مبتدأ ، مشار به

إلى الوحي الإلهي ، وقد أخبر عنه - سبحانه - - بمخيرين - كما يقول الشيخ
الجلل - : « فبالنظر للخبر الأول يراد به القرآن ، وبالنظر للخبر الثاني يراد به
ما عداه من الكتب السجارية ، (١) .

وقوله - تعالى - : « بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ، لضراب
من جهته - تعالى - عن مناقشتهم ومطالبتهم بالبرهان ، وانتقال من الأمر
بتبكيهم إلى الأمر بإهمالهم استصغاراً لشأنهم .

أى : دعهم - أيها الرسول الكريم - في باطلهم يعمهون ، فإنهم قوم أكثرهم
يجهلون الحق ، ولا يستطيعون التمييز بينه وبين الباطل . فهم لأجل ذلك منصرفون
عن الهدى ؛ ومتجهون إلى الضلال ، ومن جهل شيئاً عاداه ...

ثم بين - سبحانه - أن جميع الرسل - عليهم الصلاة والسلام - قد أمروا
أقوامهم بإخلاص العبادة لله ، ونفي الشرك والشركاء . فقال - تعالى - :
« وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ، .
أى : وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدونا
أنه لا إله يستحق العبادة والطاعة إلا أنا ، فعليه أن يأمر قومه بطاعتي وعبادتي
والخضوع لى وحدى .

هذا ، والمتدبر لهذه الآيات المكرمة ، يراها قد أقامت أحكم الأدلة العقلية
والنقلية على وجوب إخلاص العبادة لله الواحد القهار . وعلى أن الذين
يتخذون معه آلهة أخرى سفهاء جادلون .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك شبهة من الشبهات الباطلة التي تفوه بها
المشركون ، ورد عليهم رداً مفجعاً ، فقال - تعالى - :

« وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦)

(١) حاشية الجلل على الجلايين ج ٣ ص ١٢٤

لَا يَسْتَبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى، وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨)
وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلِكُ نَجْرِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي
الظَّالِمِينَ (٢٩) .

قال الآلوسى ماملخصه : وقوله - تعالى - : وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، ،
حكاية لجناية فريق من المشركين لإظهار بطلانها ، وبيان تنزهه - سبحانه -
عن ذلك ، إثر بيان تنزهه - جل وعلا - على الإطلاق . وهم حى من خزاعة
قالوا : الملائكة بنات الله ، ونقل الواحدى أن قريشا وبعض العرب قالوا ذلك .
والآية مشتملة على كل من نسب إليه ذلك كاليهود والنصارى . . . (١)
أى : وقال المشركون الذين انطمست بصائرهم عن معرفة الحق ، اتخذ
الرحمن ولدا سبحانه ، .

أى : تنزهه وتقدس الله - تعالى - عن ذلك جل وعلا عما يقولونه
علوا كبيرا .

وقوله : دبل عباد مكرمون ، لإضراب عما قالوه ، وإبطال له ، وثناء على
ملائكته الذين زعم فريق من المشركين أنهم بنات الله .

وعباد : جمع عبد . والعبودية لله - تعالى - معناها : إظهار التذلل له
- سبحانه - ، والخضوع لذاته .

ومكرم : اسم مفعول من أكرم . وإكرام الله - تعالى - لعبده معناها :
إحسانه إليه وإتمامه عليه .

أى : لقد كذب هؤلاء المشركون وزعمهم أن الملائكة بنات الله ، والحق
أن الملائكة هم عباد مخلوقون له - تعالى - ، ومقربون إليه ومكرمون عنده .

وقوله : « لا يسبقونه بالقول ، أى : لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ، ولا يقولون شيئاً بدون إذنه ، كما هو شأن العبيد الطائعين لسيدهم .

وأصل الكلام : لا يسبق قولهم قوله - عز وجل - « لا أنه - سبحانه - أسند السبق إليهم ، تنزيلاً لسبق قولهم لقوله ، منزلة سبقهم إياه ، للإشعار بمزيد طاعتهم وتنزيهم عن كل قول بغير إذنه - تعالى - .

وقوله : « وهم بأمره يعملون » بيان لتبعيتهم له - تعالى - في الأعمال .
لأن بيان تبعيتهم له - سبحانه - في الأقوال .

أى : وهم بأمره وحده يعملون لا بأمر أحد سواه ، ولا بأمر أنفسهم ، كما قال - تعالى - في آية أخرى : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقد وها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، (١) » .

ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر علمه الشامل ، وحكمه النافذ . فقال : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم . . . » ، أى : يعلم - سبحانه - أحوالهم كلها صغيرها وكبيرها ، متقدمها ومتأخرها ، « ولا يشفعون » لأحد من خلقه إلا لمن ارتضى الله - تعالى - شفاعتهم له .

« وهم من خشيته مشفقون » ، أى : وهم لحوفهم من الله ومن عقابه حذرن وجلون .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف الملائكة في هذه الآيات بجملة من الصفات الكريمة التي تدل على طاعتهم المطلقة لله - تعالى - وعلى إكرامه - سبحانه - لهم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أنهم مع كرامتهم عند الله - تعالى - لو ادعى أحد منهم - على سبيل الفرص - أنه لئله ، لعاقبه الله عتاباً شديداً ، فقال

- تعالى - : « ومن يقل منهم : إني إله من دونه ، فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزي الظالمين ، » .

أى : ومن يقل من الملائكة - على سبيل الفرض والتقدير - « إني إله من دونه ، أى : من دون الله - عز وجل - ، فذلك ، الذى ادعى هذا الادعاء الكاذب ، نجزيه جهنم ، أى : نجعل جزاءه الإلقاء فى جهنم كسائر المجرمين الكاذبين ، ولا يغنى عنه ما سبق له من طاعة وتكريم ، كذلك نجزي الظالمين ، أى : مثل هذا الجزاء الرادع الفظيع نجزي كل ظالم يضع الأمور فى غير موضعها ، إذ أن حقوق الله - تعالى - لا يجوز لأحد - كائناتنا من كان - أن ينسبها لنفسه ، سواء أكان ملكاً مقرباً ، أم نبياً مرسلًا .

وبعد أن ساق - سبحانه - ألواناً من الأدلة الكونية الشاهدة بوحدة إلهيته ، ومن الأدلة العقلية النافية للشركاء ، ومن الأدلة الوجدانية التى تهيج القلوب نحو الحق ... أتبع ذلك بتحريض الكافرين على التدبر فى ملكوت السموات والأرض . لعل هذا التدبر يهديهم إلى الإيمان ، فقال - تعالى - :

« أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ، وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ، وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) » .

وقوله « رتقا » مصدر رتقه رتقا : إذا سده . يقال : رتق فلان الفتق رتقا ، إذا ضمه وسده ، وهو ضد الفتق الذى هو بمعنى الشق والفصل .

وللعلماء فى معنى هذه الآية أقوال أشهرها : أن معنى « كائناتنا رتقا » ، أن السماء كانت صماء لا ينزل منها مطر ، وأن الأرض كانت لا يخرج منها نبات ،

ففتق الله - تعالى - السماء بأن جعل المطر ينزل منها ، وفتق الأرض بأن جعل
النبات يخرج منها .

وهذا التفسير منسوب إلى ابن عباس ، فقد سئل عن ذلك فقال : كانت
السموات رتقا لا تمطر ، وكانت الأرض رتقا لا تنبت ، فلما خلق - سبحانه -
للأرض أهلا ، فتق هذه بالمطر ، وفتق هذه بالنبات .. (١)

ومنهم من يرى أن المعنى : كانت السموات والأرض متلاصقتين كالشيء
الواحد ، ففتقهما الله - تعالى - بأن فصل بينهما ، ورفع السماء إلى مكانها ، وأبقى
الأرض في مقرها ، وفصل بينهما بالهواء ..

قال قتادة : قوله « كانتا رتقا » يعني أنهما كانا شيئا واحداً ففصل الله
بينهما بالهواء (٢).

ومنهم من يرى أن معنى « كانتا رتقا » أن السموات السبع كانت متلاصقة
بعضها ببعض ففتقها الله - تعالى - بأن جعلها سبع سموات منفصلة ، والأرضون
كانت كذلك رتقا ، ففصل الله - تعالى - بينها وجعلها سبعا .

قال مجاهد : كانت السموات طبقة واحدة مؤلفة ، ففتقها فجعلها سبع
سموات ، وكذلك الأرضين كانت طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبعا ، (٣).

وقد رجح بعض العلماء المعنى الأول فقال ماملاً بخصه : كونهما « كانتا رتقا »
بمعنى أن السماء لا ينزل منها مطر ، والأرض لا تنبت ، ففتق - سبحانه - السماء
بالمطر والأرض بالنبات ، هو الراجح وتدل عليه قرائن من كتاب الله
- تعالى - منها :

أن قوله - تعالى - : « أولم ير الذين كفروا .. » يدل على أنهم رأوا ذلك

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٢٢

(٢) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٤٨٣

(٣) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٢٨٣

لأن الاظهر في رأى أنها بصرية ، والذي يروونه بأبصارهم هو أن السماء تكون لا ينزل منها مطر ، والأرض لا نبات فيها . فيشاهدون بأبصارهم نزول المطر من السماء ، وخروج النبات من الأرض .

ومنها : أنه - سبحانه - أتبع ذلك بقوله : « وجعلنا من الماء كل شئ حى ، والظاهر اتصال هذا الكلام بما قبله . أى : وجعلنا من الماء الذى أنزلناه بفتقنا السماء وأنبتنا به أنواع النبات بفتقنا الأرض ، كل شئ حى .

ومنها : أن هذا المعنى جاء موضحا فى آيات أخرى ، كقوله - تعالى - : « والسماء ذات الرجوع . والأرض ذات الصدع ، والمراد بالرجوع : نزول المطر من السماء تارة بعد أخرى والمراد بالصدع : إنشقاق الأرض عن النبات . واختار هذا القول ابن جرير وابن عطية والفخر الرازى . .

فإن قيل : هذا الوجه مرجوح ، لأن المطر لا ينزل من السموات ، بل من سماء واحدة وهى سماء الدنيا ؟

قلنا : إنما أطلق عليه افظد الجمع ، لأن كل قطعة فيها سماء . كما يقال : ثوب أخلاق - أى : قطع - (١) .

والآية الكريمة مصدقة لتجهيل المشركين وتوبيخهم على كفرهم ، مع أنهم يشاهدون بأعينهم ما يدل دلالة واضحة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، ويعلمون أن من كان كذلك ، لا يصح أن تترك عبادته إلى عبادة حجر أو نحوه ، مما لا يضر ولا ينفع .

والمعنى : أولم يشاهد الذين كفروا بأبصارهم ، ويعلموا بعقولهم ، أن السموات والأرض كانتا رتقا ، بحيث لا ينزل من السماء مطر ، ولا يخرج من الأرض نبات ، ففتق الله - تعالى - السماء بالمطر ، والأرض بالنبات .

(١) راجع تفسير أضواء البيان ج ٤ ص ٥٦٢ الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

لأنهم بلا شك يشاهدون ذلك ، ويعقلونه بأفكارهم . ولكنهم لا يستيلاء
 اليهود والعناد عليهم ، يعبدون من دونه - سبحانه - ما لا ينفع من عبده ،
 ولا يضر من عصاه ...

وقال - سبحانه - : « كائنات ، بالتثنية ، باعتبار النوعين اللذين هما نوع
 السماء ، ونوع الأرض ، كما في قوله - عز وجل : « إن الله يمسك السموات
 والأرض أن تزولا ... » .

وقوله - تعالى - : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » . تأكيد لمضمون
 ما سبق ، وتقرير لوحدة أياته ونفاذ قدرته - سبحانه - والجمل بمعنى الخلق .
 و ، من ، ابتدائية .

أى : « وخلقنا من الماء بقدرتنا النافذة ، كل شيء متصف بالحياة الحقيقية
 وهو الحيوان ، أو كل شيء نام فيدخل النبات ، ويراد من الحياة ما يشمل النمو .
 وهذا العام مخصوص بما سوى الملائكة والجن بما هو حي ، لأن الملائكة
 - كما جاء في بعض الأخبار - خلقوا من النور ، والجن مخلوقون من النار .

قال - تعالى - : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار » . وخلق الجن
 من مارج من نار ، .

قال القرطبي : « رقى قوله - تعالى - : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » .
 ثلاث تأويلات : أحدها : أنه خلق كل شيء من الماء . قاله قتادة . الثاني :
 حفظ كل شيء بالماء . الثالث : وجعلنا من ماء الصلب - أى : الزخفة - كل
 شيء حي ... (١) .

وقوله : « أفلا يؤمنون » ، إنكار لعدم إيمانهم مع وضوح كل ما يدعو
 إلى الإيمان الحق ، والغناء للعطف على مقدر يستدعيه هذا الإنكار .

أى : أبشاهدون بأعينهم ما يدل على وحدانية الله وقدرته . ومع ذلك لا يؤمنون ؟

إن أمرهم هذا لمن أعجب العجب ، وأغرب الغرائب ١١ .
ثم ساق - سبحانه - أدلة أخرى على وحدانيته وقدرته فقال : د وجعلنا
في الأرض رواسى أن تميد بهم

الرواسى : جمع راسية ، من رسا الشئ . إذا ثبت ورسخ ، والمراد بها الجبال
الثابتة الراسخة في الأرض .

أى : وجعلنا في الأرض جبالا ثوابت ، كراهة أن د تميد بهم ، أى : أن
تضطرب وتتحرك بهم الأرض . يقال : ماد الشئ يميد يميدا - من باب باع -
إذا تحرك واهتز .

د وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون ، والعجاج . جمع فج وهو
الطريق الواسع .

والسبل : جمع سبيل وهو الطريق ، وهو بدل من د فجاجا ، .
أى : وجعلنا في الأرض طرقا واسعة ، ومنافذ متعددة ، لعلهم بذلك يهتدون
ويتوصلون إلى الأماكن التي يريدون الوصول إليها ، ويعلمون أن الذى وهبهم
كل هذه النعم ، هو الله - تعالى - الذى يجب أن يخلصوا له العبادة والطاعة .

وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ، أى : وجعلنا السماء
سقفا للأرض كما يكون السقف للبيت ، وجعلناه محفوظا من السقوط ومن
التشقق ، ومن كل شيطان رجيم ، وهم - أى المشركون - عن آياتها الدالة على
قدرتنا ووحدانيتنا وعلمنا . معرضون ذاهلون ، لا يتعظون ولا يتذكرون .
ومن الآيات الدالة على حفظ السماء من السقوط ، قوله - تعالى - :
د ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، إن الله بالناس لرؤوف رحيم ، (١) .

ومن الآيات الدالة على حفظها من التشقق والتفطر قوله - سبحانه - :
 «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج...» (١).
 وعلى حفظها من الشياطين قوله - تعالى - : «وحفظناها من كل شيطان
 رجيم» (٢).

ومن الآيات الدالة على إعراض هؤلاء المشركين عن العهد والعظات قوله
 - سبحانه - : «وكأن من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها
 معرضون» (٣).

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الدالة على قدرته ووحده بقوله - تعالى -
 «وهو الذي خلق الليل والنهار ، والشمس والقمر ، كل في فلك يسبحون» .

أى : وهو وحده - سبحانه - الذى خلق بقدرته الليل والنهار بهذا النظام
 البديع ، وخلق الشمس والقمر بهذا الإحكام العجيب «كل» ، أى : كل واحد
 من الشمس والقمر يسير فى فلكه وطريقه المقدر له بسرعة وانتظام ،
 كالسباح فى الماء .

وقوله : «يسبحون» من السبح وهو المر السريع فى الماء أو الهواء .
 وجاء يسبحون بضمير العقلاء . لتكون السباحة المستندة إليهما من فعل
 العقلاء ، كما فى قوله - تعالى - : «والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين» .
 هذا والمتأمل فى هذه الآيات يراها قد ساقّت جملة من الأدلة على وحدانية
 الله - تعالى - وعلى كمال قدرته .

ثم بين - سبحانه - أن مصير البشر جميعاً إلى الفناء ، وأن كل نفس ذائقة

(١) - سورة فى الآية ٦ .

(٢) - سورة الحجر الآية ١٧ .

(٣) - سورة يوسف الآية ١٠٥ .

الموت ، وأن من طبيعة الإنسان تعجل الأمور قبل أوانها ، وأن المشركين لو علموا المصير السيئ الذي ينتظرهم يوم القيامة ، لما قالوا ما قالوه من باطل ، ولما فعلوا ما فعلوه من قبائح ، قال - تعالى - :

« وما جعلنا لبشرٍ من قبلكَ الخلدَ ، أفإن مت فهم الخالدونَ (٣٤) كل نفس ذائقة الموت وتبْلُوكُم بالشرِّ والخيرِ فتنة وإلينا ترجعونَ (٣٥) وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونكَ إِلهَزُورًا ، هَذَا الَّذِي يذْكُر آلهتكم وهم يذكُر الرحمن هُم كَافِرُونَ (٣٦) خَلَقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ، سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُون (٣٧) ويقولون متى هَذَا الوعدُ إِنْ كنتم صادقينَ (٣٨) لو يعلم الذين كفروا حينَ لَا يكفونَ عن وجوههم النارَ وَلَا عَنْ ظُهورهم وَلَا هُمْ يُنصرونَ (٣٩) بل تأتيهم بغتةً فتنبهتهم ، فَلَا يستطيعون ردَّهَا وَلَا هُمْ يُنظرونَ (٤٠) ولقد استمزى برسُلٍ مِن قبلكَ خَلَقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ، مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَمِزُونَ (٤١) » .

قال القرطبي : : قوله - تعالى - : « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ... » أى : دوام البقاء فى الدنيا .

نزلت حين قالوا : نترى بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ريب المنون . وذلك أن المشركين كانوا يدفعون نبوته ويقولون : شاعر نترى به ريب المنون ، ولعله يموت كمات شاعر بنى فلان ، فقال الله - تعالى - : قد مات الأنبياء قبلك يا محمد ، وتولى الله دينه بالهصر والحياطة ، فمكذبا تحفظ دينك وشرعك ... (١) .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : « أفإن مت فهم الخالدون ، للانكار والنفي ... »

والمعنى : وما جعلنا - أيها الرسول الكريم - لبشر من قبلك - كما أننا من كان - الخلود في هذه الحياة ، وأنت إن مت فهم - أيضا - سيموتون في الوقت الذي حدده الله - تعالى - لانقضاء عمرك وأعمارهم ، وما دام الأمر كذلك قدرهم في جهالتهم بعمهون ، ولا تلتفت إلى شئانتهم فيك ، أو إلى تربصهم بك ، فإنك ميت وإنهم ميتون وكل شئ هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ، ورحم الله الإمام الشافعي حيث يقول :

نمى أناس أن أموت ، وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذي يبغى خلاف الذي مضى نهيا لأخرى مثلها ، وكان قد

وقال شاعر آخر :

إذا ما الدهر جر على أناس كلا كلمة أناخ بأخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيليقي الشامتون كما لقينا

ثم أكد - سبحانه - عدم خلود بشر في هذه الحياة فقال : وكل نفس ذائقة الموت . . .

أي : كل نفس أوجدها الله - تعالى - في هذه الحياة ، ستذوق مرارة نزول الموت بها ، ومفارقة روحها لجسدها .

قال الألوسي ما ملخصه : والموت عند الأشعري ، كيفية وجودية تضاد الحياة . وعند كثيرين غيره : أنه عدم الحياة عما من شأنه الحياة بالفعل . . .

وقال بعضهم : المراد بالنفس هنا : النفس الإنسانية لأن الكلام مسموع لنفي خلود البشر .

واختير عمومها لتشمل نفوس البشر والجن وسائر نفوس الحيوان ، (١) .

وقوله - تعالى - : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون » بيان لسنة من سنته - تعالى - في معاملة عباده .

وقوله - سبحانه - : « ونبلوكم » من البلو بمعنى الاختبار والامتحان . يقال : فلان بلاه الله بخير أو شر يبلوه بلوا ، وأبلاه وابتلاه ابتلاه ، بمعنى امتحنه ، (١) .

وقوله : « فتنة » مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه .

أى : كل نفس ذائفة الموت ، ونختبركم في هذه الحياة بألوان من النعم وألوان من المحن ، لنرى أنى أنى تكون عند النعمة ، وتصبرون عند المحنة ، أم يسكون حالكم ليس كذلك ؟ وفى جميع الأحوال فإن مرجعكم إلينا لا محالة ، وسنجازيكم بما تستحقون من ثواب على شكركم وصبركم ، وسنجازى غير الشاكرين وغير الصابرين بما يستحقون من عقاب ، ولا يظلم ربك أحدا .

قال بعض العلماء : والابتلاء بالشر مفهوم أمره ليتكشف مدى احتمال المبتلى ، ومدى صبره على الضر ، ومدى ثقته فى ربه ، ورجائه فى رحمته .. فاما الابتلاء بالخير فهو فى حاجة إلى بيان .

إن الابتلاء بالخير أشد وطأة .. فكثيرون يصمدون أمام الابتلاء بالشر ولكن القلة القليلة هى التى تصمد للابتلاء بالخير .

كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف ، وقليلون هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة .

كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان ، فلا تنهاوى نفوسهم ولا تذلل . وقليلون هم الذين يصبرون على الثراء ومغرياته وما يثيره من أطماع .. كثيرون يصبرون على المكفاح والجراح ، وقليلون هم الذين يصبرون على الدعة ، ولا يصابون بالحرص الذى يذل أعناق الرجال ...

إن الابتلاء بالشر قد يثير الكبرياء. ويستحث القامة ، ويجتذ الأعصاب لاستقبال الشدة . . . أما الرخاء فقد يرخي الأعصاب ويفقدها المقاومة . . .
إلا من عصم الله وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث يقول: عجبا
لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن
أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان
خيرا له ، (١) .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم
بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، (٢) .

وقوله - سبحانه - : ورجعوا بهم إلى ربهم يرجعون ، (٣) .
ثم حكى - سبحانه - جانباً من السفاهات التي كان المشركون يقابلون
بها النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : وإذا رآك الذين كفروا إن
يتخذونك إلا هزوا

أي : وإذا أبصرك المشركون - أي الرسول الكريم - سخروا منك ،
واستخفوا بك وقالوا على سبيل التهوين من شأنك : أهذا الذي يذكر آلهتكم ،
أي : أهذا هو مدعى النبوة الذي يذكر آلهتكم بسوء ويعيبها ، وينفي شفاعتها
لها . وأنها تقربنا إلى الله زلفى .

وقوله - سبحانه - : وهم يذكر الرحمن هم كفرون ، في محل نصب حال
من ضمير القول المقدر .

أي : أنهم يقولون فيما بينهم أهذا هو الرسول الذي يذكر آلهتكم بسوء ،

(١) في ظلال القرآن ج ١٧ ص ٥٢٣ الأستاذ سيد قطب رحمه الله .

(٢) سورة الأنعام الآية ٤٢ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٦٨ .

والحال أن هؤلاء المشركين الجاهلين ، كافرون بالقرآن الذي أنزله الله - تعالى - عليك - أيها الرسول الكريم - لتخرج الناس به من الظلمات إلى النور .

فآية الكريمة تنمى على هؤلاء المشركين جهالاتهم وسفاهاتهم . حيث استكثروا على الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يذم آلهتهم التي لا تنفع ولا تضر ولم يستكثروا على أنفسهم . أن يكفروا بمخالفتهم وبذكور الذي أنزله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - ليكون رحمة لهم .

قال صاحب الكشف : ، الذكر يكون بخير وبخلافه . فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد . كقولك للرحمن : سمعت فلانا يذكر كذا ، فإن كان الذكور صديقا فهو ثناء ، وإن كان عدوا فهو ذم ، ومنه قوله : « أهذا الذي يذكر آلهتكم » .

والمعنى : أنهم عاكفون على ذكر آلهتهم بهمهمهم ، وبما يجب أن لا تذكر به من كونهم شفعاء وشهداء ، ويسوءهم أن يذكرها ذاك بخلاف ذلك . وأما ذكر الله - تعالى - وما يجب أن يذكر به من الوحدانية ، فهم به كافرون لا يصدقون به أصلا ، فهم أحق بأن يتخذوا هزوا منك ، فإنك محق وهم مبطلون . فسبحان من أصلهم حتى تأدبوا مع الأوثان ، وأساءوا الأدب مع الرحمن ، (١) .

ثم بين - سبحانه - ما جبل عليه الإنسان من تسرع وتهجل فقال :
« وخلق الإنسان من عجل . . . » .

والعجل : طلب الشيء وتحريه قبل أوانه ، وهو ضد البطء .

والمراد بالإنسان : جنسه

والمعنى : خلق جنس الإنسان مجبولا على العجلة والتسرع ، فتراه يستعجل حدوث الأشياء قبل وقتها المحدد لها ، مع أن ذلك قد يؤدي إلى ضرره .

قالمراد من الآية الكريمة وصف الإنسان بالمبالغة في تعجل الأمور قبل وقتها ، حتى لسكانه مخلوق من نفس التعجل . والعرب تقول : فلان خلق من كذا ، يعنون بذلك المبالغة في اتصاف هذا الإنسان بما وصف به ، ومنه قولهم خلق فلان من كرم ، وخلق فلانة من الجمال .

وقوله : د ساريكم آياتي فلا تستعجلون ، تهديد وزجر لاولئك الكافرين الذين كانوا يستعجلون العذاب .

أى : ساريكم عقابي وانتقامى منكم - أيها المشركون - فلا تتعجلوا ذلك فإنه آت لا ريب فيه .

قال ابن كثير : والحكمة في ذكر عجلة الإنسان هنا . أنه - سبحانه - لما ذكر المستعجلين بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم . فقال - سبحانه - : د خلق الإنسان من عجل ، ، لأنه - تعالى - يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، يؤجل ثم يعجل ، وينظر ثم لا يؤخر ، ولهذا قال : د ساريكم آياتي ، أى : تقمى واقتدارى على من عصانى د فلا تستعجلون ، (١) .

وقال الألوسى : والنهى عن استعجالهم إياه - تعالى - مع أن نفوسهم جبلت على العجلة ، ليمنعوها عما تريده ، وليس هذا من التمسكليف بما يطاق . لأنه . . سبحانه - أعطاهم من الأسباب ما يستطيعون به كف النفس عن مقتضاها ، ويرجع هذا النهى إلى الأمر بالصبر ، (٢) .

ثم أكد - سبحانه - ما يدل على تعجلهم لما فيه هلاكهم فقال : د ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، .

أى : أن هؤلاء المشركين بلغ من طغيانهم وجبرلهم أنهم كانوا يتعجلون

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٣٦ .

(٢) تفسير الألوسى ج ١٧ ص ٤٩ .

العذاب الذى توعدكم الله - تعالى - به إذا ما استمروا على كفرهم . وبه ولون
 للرسول - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه - على سبيل التكم والاستهزاء -
 متى يقع هذا العذاب الذى توعدتمونا به . إننا مترقبون له ، فإن كنتم صادقين
 فى وعدكم ، فأسرعوا فى إنزاله . وأسرعوا فى دعوة ربكم - سبحانه - أن
 يأتى بالساعة .

وجواب الشرط لقوله : إن كنتم صادقين ، محذوف ، لدلالة ما قبله عليه .
 أى : إن كنتم صادقين فى وعدكم بأن هناك عذابا ينتظرنا ، فأتوا به بسرعة .
 وهنا يسوق القرآن ما يدل على غفلتهم وسوء تفكيرهم ، وعلى أنهم لو كانوا
 يعلمون ما ينتظرهم من عذاب يوم القيامة ، لما تفوهوا بما تفوهوا به .
 فيقول - سبحانه - : لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار
 ولا عن ظهورهم . ولا هم ينصرون .

وجواب « لو » محذوف . و « يعلم » بمعنى يعرف ، و « حين » مفعوله .

أى : لو عرف الكافرون وقت وقوع العذاب بهم . وما فيه من فظائع
 تجعلهم يعجزون عن دفع النار عن وجوههم وعن ظهورهم . . . لو يعرفون
 ذلك لما استعجلوه . ولما استخفوا بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وبأصحابه ،
 لكن عدم معرفتهم هى التى جعلتهم يستعجلون ويستخفون .

وخص - سبحانه - الوجوه والظهور بالذكر ، لكونهما أظهر الجوانب ،
 وليبيان أن العذاب سيغشاهم من أمامهم ومن خلفهم دون أن يملأوا له دفعا .

وقال - سبحانه - : ولا هم ينصرون ، لبيان أنهم مع عجزهم عن دفع
 العذاب بأنفسهم . فإن غيرهم - أيضا - لن يستطيع دفعه عنهم .

قال صاحب الكشف : « جواب « لو » محذوف . و « حين » مفعول به
 يعلم . أى : لو يعلمون الوقت الذى يستعملون عنه بقولهم : « متى هذا الوعد »
 وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام ، فلا يقدرّون على

دفعها ومنعها من أنفسهم ، ولا يجدون ناصرا يَنْصُرُهُمْ ، لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ، ولكن جهلهم به هو الذي هو به عندهم ، ويجوز أن يكون « يعلم » متروكا بلا تعديده ، بمعنى : لو كان معهم علم ولم يكونوا جاهلين ، لما كانوا مستعجلين ، وحين : منصوب بمضمر. أى حين لا يكفون عن وجوههم النار ، يعلمون أنهم كانوا على الباطل ... (١)

وقوله - سبحانه - « بل تأتيهم بغتة فتبهمهم » ... بيان لسرعة قيام الساعة ، ومفاجئتها لهم .

أى : بل تأتيهم الساعة الموعود بها ، وبعذابهم فيها ، مفاجأة من غير شعور بمجيئها ، « فتبهمهم » أى : فتدهشهم وتحيرهم . والبهت : الانقطاع والحيرة .

« فلا يستطيعون ردها » أى : فلا يستطيعون دفع الساعة أو ردها عنهم ، ولا هم ينظرون ، أى : ولا هم يملكون لتوبة أو معذرة .

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة بقسمة النبى - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من هؤلاء المشركين . فقال : « ولقد استهزى برسلك من قبلك ، لحاق بالذين سخرُوا منهم . ما كانوا به يستهزئون » .

أى : ولقد استهزى - أيها الرسول الكريم - برسلك كثيرين من قبلك ، فنزل هؤلاء المشركين المستهزين برسلك ، العذاب الذى كانوا يستهزئون به فى الدنيا ، ويستعجلون وسلكهم فى نزوله .

وصدرت الآية الكريمة بلام القسم ، وقد ، لزيادة تحقيق مضمونها ونأكيده وتكوين الرسل : للتفخيم والتكثير . أى : والله لقد استهزى برسلك كثيرين ذوى شأن خطير كائنين فى زمان قبل زمانك .

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١١٨ .

وعبر - سبحانه - بالفعل حاق ، لأن هذه المادة تستعمل في إحاطة الميكروه ، فلا يقال : فلان حاق به الخير ، ولأنها تدل على الشمول والازوم .

أى : فذل بهم العذاب الذى كانوا يستهزئون به فى الدنيا نزولا شاملا ، أحاط بهم من كل جهة إحاطة تامة .

وبذلك تكون الآيات السكرية ، قد بينت جانباً من سنن الله - تعالى - فى خلقه ، وحكت بعض الأفعال القبيحة التى كان المشركون يفعلونها مع النبي - صلى الله عليه وسلم - وهددتهم عليها تهديداً شديداً ، وساءت النبي - صلى الله عليه وسلم - عما ارتكبوه فى حقه .

ثم أمر - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يذكر هؤلاء الجاحدين بنعمه - تعالى - ، وأن ينذرهم بأسه وعقابه إذا ما استمروا فى كفرهم ، فقال - عز وجل - :

« قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ، بَلْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُمَرِّضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ، أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصَّمْعُ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ (٤٥) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) » .

وقوله - تعالى - : « يَكْفُرُكُمْ » أى : يرعاكم ويحفظكم . يقال : فلان كلاً

فلانا كلاً وكلاء - بالكسر - إذا حرسه ، واكتلاً فلان من غيره ، إذا احتس منه .

والاستفهام للإنكار والتفريع .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المستهزئين بك وبما جئت به من عند ربك : قل لهم من الذى يحرسكم ويحفظكم بالليل ، وأنتم نائمون والنهار ، وأنتم متيقظون من الرحمن ، أى : من عذاب الرحمن وبأسه إذا أراد أن يمسككم بسبب عكوفكم على كفركم وشركم .

وتقديم الليل على النهار ، لما أن الدواهي فيه أكثر ، والاخذ فيه أشد ، واختار - سبحانه - لفظ الرحمن ، للإشعار بأنهم يعيشون فى خيره ورحمته ، ومع ذلك لا يشكرونه - تعالى - على نعمه .

ولذا - أخير - سبحانه - عنهم بقوله : د بل هم عن ذكر ربهم معرضون ، أى : بل هم بعد كل هذا الإنكار عليهم ، والتنبيه لهم . عن ذكر ربهم وكتابه الذى أنزله لهدايتهم . معرضون شاردون ، لا يحاولون الانتفاع بتوجيهاته ، ولا يستمعون إلى إرشاداته .

فالجملة الكريمة تنفى عنهم الانتفاع بما يوجهه الرسول - صلى الله عليه وسلم - من هدايات وعظات .

ثم وجه - سبحانه - إليهم سؤالاً آخر فقال : د أم لهم آلهة ممنهمم من دوننا ... ؟

و د أم ، هنا هى للنقطعة التى بمعنى بل والهمزة ، فهى مشتملة على معنى الإضراب والإنكار .

والمعنى : وسلمهم - أيها الرسول الكريم - مرة أخرى : هؤلاء الجاحدين آلهة أخرى تستطيع أن تحرسهم وترعاهم سوانا نحن ؟ كلا ليس لهم ذلك .

فالجلمة الكريمة لإضراب عن وصفهم بالإعراض إلى توبيخهم على جهالاتهم بسبب اعتمادهم على آلهة لا تنفع ولا تضر .

وقوله : « لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون » ، نفى على أبلغ وجه لأن تكون هناك آلهة ترعاهم سوى الله - تعالى - .

أى : كلا ليس لهم آلهة تمنعهم من عذابنا إن أردنا أن نزاله بهم ، فإن هؤلاء الآلهة لا يستطيعون نصر أنفسهم فضلا عن نصر غيرهم ولا هم منا يصحبون أى يجارون ويمنعون من نزول الضر بهم .

قال ابن جرير : « وقوله « يصحبون » ، بمعنى يجارون ، تقول العرب : أنا لك جار وصاحب من فلان . بمعنى أجيرك وأمنعك منه . وهؤلاء إذا لم يصحبوا بالجواري ، ولم يكن لهم مانع من عذاب الله ، مع سخط الله عليهم ، فلم يصحبوا بخير ولن ينصروا ، (١) .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن نعمة أخرى من نعم الله عليهم لم يحسنوا شكرها ، فقال - تعالى - : « بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر »

أى : لا تلتفت - أيها الرسول الكريم - إلى هؤلاء المشركين الذين أعرضوا عن ذكر ربهم ، والذين زعموا أن آلهتهم تضر أو تنفع ، فإننا قد كلاًناهم برعايتنا بالليل والنهار ، ومتعناهم وآباءهم من قبلهم بالكثير من متع الحياة الدنيا ، حتى طالت أعمارهم في رخاء ونعمة ، فحملهم ذلك على الطغيان والبطر والإصرار على الكفر . وسنأخذهم في الوقت الذى نريده أحد عزيز مقتدر ، فإن ما أعطيناه لهم من نعم إنما هو على سبيل الاستدراج لهم .

ثم بلغت - سبحانه - أنظارهم إلى الواقع المشاهد في هذه الحياة فيقول : « أفلا يرون أن فاني الأرض فنقصها من أطرافها أفهم الغالبون » .

والعلماء في تفسير هذه الجملة المكرمة أقوال النصارى: أن المراد بنقص الأرض من أطرافها: إهلاك المشركين السابقين الذين كذبوا رسالهم، كقوم نوح وهاد وثمود، وهم يمرون على قرى بعض هؤلاء المكذبين، ويرون آثارهم وقد دمرت ديارهم.

والمعنى: أفلا ينظر هؤلاء المشركون الذين كذبوك يا محمد، فيرون بأعينهم ما حل بأمثالهم من كذبوا الرسل من قبلك. وكيف أنتاطوننا الأرض بهم، وجعلناهم أترا بعد عين.

والاستفهام في قوله: «أفهم الغالبون، الإنكار». أى: لم تكن الغلبة والعاقبة في يوم من الأيام لمن كذبوا رسل الله - تعالى -، وإنما العاقبة والظفر وحسن العاقبة لمن آمن بالرسول وصدقهم واتبع ما جاءوا به من عند ربهم.

وقد أشار الإمام ابن كثير إلى هذا المعنى بقوله: «أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاك الأمم الممكذبة والقرى الظالمة، وإنجائه لعباده المؤمنين، ولهذا قال: «أفهم الغالبون».

يعنى: بل هم المفلوبون الأسفلون الأخسرون الأرضون، (١). ومنها أن المراد بنقص الأرض من أطرافها: نقص أرض الكفر ودار الحرب، وتسليط المسلمين عليها وانتزاعها من أيديهم، بدليل الاستفهام الإنكارى في قوله: «أفهم الغالبون»، أى: لا ليسوا هم الذين يغلبون جندنا، وإنما جندنا هم الغالبون.

وقد صدر الألوسى تفسيره بهذا القول فقال: «أفلا يرون أن نأتى الأرض، أى: أرض الكفرة، وننقصها من أطرافها، بتسليط المسلمين عليها، وحوز ما يجوزونه منها، ونظامه في سلك ملكهم...» «أفهم الغالبون» على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين.

والمراد إنكار ترتيب الغالبية على ما ذكر من نقص أرض الكفر بتسليم المؤمنين عليها ، كأنه قيل : أبعد ظهور ما ذكر ورؤيتهم له يتوهم غلبتهم ، وفي التعريف تعريض بأن المسلمين هم المتعينون للغلبة المعروفون فيها ، (١) .

وقال صاحب الكشف : فإن قلت : أى فائدة في قوله « نأتى الأرض » ؟ قلت : فيه تصوير ما كان الله يجريه على أيدي المسلمين ، وأن عساكرهم وسراياهم كانت تغزو أرض المشركين وفنائها غالبية عليها ، ناقصة من أطرافها ، (٢) .

وهذان الرأيان مع وجاهتهما ، إلا أن رأى الأول الذى ذهب إليه ابن كثير أكثر شمولاً ، لأنه يتناول ما أصاب المكذبين للرسل السابقين من عقاب كما يعمل التهود للمكذبين المعاصرين للعهد النبوى ، بأنهم إذا استمروا فى طغيانهم فسيحل بهم ما حل بمن سبقهم .

وهناك من يرى أن المراد بنقص الأرض من أطرافها : موت العلماء ، أو خرابها عند موت أهلها ، أو نقص الأنفس والثمرات ولكن هذه الآراء ليس معها ما يرجحها .

ثم أمر الله - تعالى - ورسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يوجه إلى هؤلاء المشركين إنذاراً حاسماً ، فقال - تعالى - : « قل إنما أنذركم بالوحي » ،

أى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : لئنى بعد أن بينت ما بينت من هدايات وإرشادات أنذركم عن طريق الوحي الصادق ، بأن الساعة آتية لا ريب فيها ، فلا تستعجلوا ذلك فكل آت قريب . وسترون فيها ما ترون من أهوال وعذاب . وقوله « ولا يسمع الصم الدعاء » إذا ما يندرون ، توبيخ لهم وتجهيل .

أى : ولا يسمع الصم دعاء من يدعوهم إلى ما ينفعهم ، ولا يلتفتون إلى إنذار من ينذركم وذلك لكمال جهلهم ؛ وشدة عنادهم ، وانطماس بصائرهم .

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ٥٣

(٢) تفسير الكشف ج ٣ ص ١٢٠

ثم بين - سبحانه - حالهم عندما ينزل بهم شيء من العذاب فقال : « ولئن مستهم نفخة من عذاب ربك ليقولن يا ويلتنا إنا كنا ظالمين » .

أى : ولئن أصاب هؤلاء المشركين شيء قليل من عذاب ربك يا محمد . ليقولن على سبيل التفجع والتحسر وإظهار الخضوع : يا ويلتنا أى : هلاكنا إنا كنا ظالمين ، ولذلك نزل هذا العذاب وفي هذا التعبير ألوان من المبالغات منها : ذكر المس الذى يكفى فى تحققه لإيصال ما ، ومنها : ما فى النفخة من الزارة والقلة ، يقال : نفخ فلان فلانا نفخة ، أى : نفخة واحدة من عذاب ربك والمقصود من الآية السريعة بيان سرعة نازل هؤلاء المشركين ، بأقل شيء من العذاب الذى كانوا يستعجلونه ، وأنهم إذا ما نزل منهم شيء منه . أصيبوا بالهلع والجزع ، وتنادوا بالويل والشبور واعترفوا بالظلم وتجاوز الحدود .

ثم بين - سبحانه - مظاهرا من مظاهر عدله مع عباده يوم القيامة فقال : ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا

أى : ونحضر الموازين العادلة لحاسبة الناس على أعمالهم يوم القيامة وإعطاء كل واحد منهم ما يستحقه من ثواب أو عقاب ، دون أن يظلم ربك أحداً من خلقه .

« وإن كان منقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ، أى : وإن كانت الأعمال التى عملها الإنسان فى نهاية الحقايرة والقلة ، أتينا بها فى صحيفة عمله لتوزن ، وكفى بنا عادين وعصيين على الناس أعمالهم ، إذا لا يحفى علينا شيء منها سواء أكان قليلا أم كثيراً .

قال ابن كثير : « قوله : « ونضع الموازين . . . » الأكثر على أنه ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزنة فيه ، (١) .

وقال القرطبي : « الموازين : جمع ميزان ، قبل : لأنه يدل بظاهره على أن

لسكل مكلف ميزانا توزن به أعماله ، فتوضع الحسنات في كفه ، والسيئات في كفه . وقيل : يجوز أن يكون هناك موازين العامل الواحد ، يوزن بكل ميزان منها صنف من أعماله ... وقيل : ذكر الميزان مثل وليس ثم ميزان وإنما هو العدل . والذي وردت به الأخبار ، وعليه السواد الأعظم القول الأول . ود القسط ، صفة الموازين ووحيد لأنه مصدر ... (١) .

واللام في قوله : ليوم القيامة ، قيل للتوقيت . أى للدلالة على الوقت ، كقولهم : جاء فلان لخمس ليال بقين من الشهر . وقيل هي لام كي ، أى : لأجل يوم القيامة ، أو بمعنى في أى : في يوم القيامة .

وقوله - سبحانه - فلا تظلم نفس شيئا ... بيان للعدل الإلهي ، وأنه - سبحانه - لا يظلم أحدا شيئا مما له أو عليه . أى : فلا تظلم نفس شيئا من الظالم لا قليلا ولا كثيرا .

وقوله : وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، تصريح لدقة الحساب ، وعدم مغادرته لشيء من أعمال الناس . إذ الخردل حب في غاية الصغر والدقة ، ومثقال الشيء : وزنه .

وأنت الضمير في قوله : بها ، وهو راجع إلى المضاف الذي هو : مثقال ، وهو مذكر . لا كنسابه التانيث من المضاف إليه الذي هو : حبة من خردل . وقوله - سبحانه - : : وكفى بنا حاسبين ، بيان لإحاطة الله - تعالى - بعلم كل شيء . كما قال - تعالى - : : إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وفي معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : : إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما ، (٢) . وقوله - سبحانه - : : يا بني إنما إن تك مثقال حبة من خردل فتسكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ، (٣) .

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٢٩٤ .

(٢) سورة النساء الآية ٤٠ . (٣) سورة لقمان الآية ١٦ .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ذكرت أولئك المشركين بجانب من نعم الله - تعالى - عليهم ، وحضتهم على التدبر والاعتاظ ، وأنذرتهم بسوء العاقبة إذا ما استمروا في كفرهم وشركهم ، وصورت لهم دقة الحساب يوم القيامة ، وأن كل إنسان سيحاسب على عمله سواء أكان صغيراً أم كبيراً ، ولا يظلم ربك أحداً .

وبعد أن فصل - سبحانه - الحديث عن دلائل التوحيد والنبوة والمعاد ، ورد على المشركين رداً يفهمهم ، أتبع ذلك بالحديث عن قصص بعض الأنبياء تسلياً للرسول - صلى الله عليه وسلم - وثبوتاً لقلبه ، فقال - تعالى - :

« وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذَكَرْنَا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَذَا ذِكْرُ مَبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ ، أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٠) » .

والمراد بالفرقان والضياء وبالذكر : التوراة ، فيكون الكلام من عطف الصفات . والمعنى : ولقد أعطينا موسى وهارون - عليهما السلام - كتاب التوراة ليكون فارقاً بين الحق والباطل ، وليكون - أيضاً - ضياءً يستضيء به أتباعه من طيبات الكفر والضلالة ، وليكون ذكراً حسناً لهم ، وموعظة يتعظون بما اشتمل عليه من آداب وأحكام .

قال الألوسي : د قوله - سبحانه - : « وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذَكَرْنَا »

نوع تفصيلي لما أجل في قوله - تعالى - قبل ذلك : « وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم »

وتصديره بالتوكيد القسري لإظهار كمال الاعتناء بمضمونه .

والمراد : بالفرقان : التوراة ، وكذا بالضياء والذكر . والعطف

كافي قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث السكتيبة في المزدحم
وقيل: الفرقان هنا: النصر على الأعداء... والضياء التوراة أو الشريعة..
وعن الضحاك: أن الفرقان فرق البحر... (١).

وخص المتقين بالذكر، لأنهم هم الذين انتفعوا بما اشتمل عليه هذا الكتاب من هدايات.

وقوله - تعالى - : الذين يخشون ربهم بالغيب .. ، صفة مدح للمتقين .
أى : آتيننا موسى وهارون الكتاب الجامع لصفات الخير ليسكون هداية
للمتقين ، الذين من صفاتهم أنهم يخافون ربهم وهو غير مرئى لهم ، ويخشون
عذابه في السر والعلانية . وهم من الساعة مشفقون ، أى : وهم من الساعة
وما يقع فيها من حساب دقيق خائفون وجلون وليسوا كأولئك الكافرين
الجاحدين الذين يستعجلون حدوثها .

وخصت الساعة بالذكر مع أنها داخلية في الإيمان بالغيب ، للعناية بشأنها
حيث إنها من أعظم المخوقات ، ولشدتها على من أنكرها واستعجل قيامها .
واسم الإشارة في قوله : وهذا ذكر مبارك أنزلناه ، القرآن الكريم .
أى : وهذا القرآن الذى أنزلناه على عبدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - هو ذكر
وشرف لكم ، وهو كذلك كثير الخيرات والبركات لمن اتبع توجيهاته .
والاستفهام في قوله : أفأنتم له منكرون ، للتوبيخ والإنكار .
والخطاب للمشركين .

أى : كيف تنكرون كونه من عند الله مع أنكم بمقتضى فصاحتكم
تدركون من بلاغته ، ما لا يدركه غيركم ، ومع أنكم تعترفون بنزول التوراة
على موسى وهارون .

إن إنكاركم لكون القرآن من عند الله ، لهو دليل واضح على جهودكم
للحق بعد أن تبين لكم .

قال الجمل : «وتقديم الجار والمجرور على الممتلئ، دل على التخصيص. أى : أفانتم للقرآن خاصة دون كتاب اليهود تذكرون فإنهم كانوا يراجعون اليهود فيما عن لهم من المشكلات ، (١) » .

ثم تسوق السورة بعد بشئ من التفصيل قصة إبراهيم - عليه السلام - مع قومه ، وما دار بينه وبينهم من محاورات ومحاولات فتقول :

« وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رَشَدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ لَا كَيْدَ لَآصْنَامُكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَا ذَا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) » .

وقصة إبراهيم - عليه السلام - مع قومه ، قد وردت في سور متعددة منها : سورة البقرة ، والعنكبوت ، والصفات ...

وهنا تحدثنا سورة الأنبياء عن جانب من قوة إيمانه - عليه السلام - وعن سلامة حجته ، وعن تصميمه على تنفيذ ما رضى الله - تعالى - بالقول والعمل . والمراد بالرشد : الهداية إلى الحق والبعث عن ارتكاب ما نهى الله - تعالى - عنه .

والمراد بقوله - تعالى - « من قبل ، أى : من قبل أن يكون نبيا . والمعنى : ولقد آتينا - بفضلائنا وإحساننا - إبراهيم - عليه السلام - الرشاد

إلى الحق ، والهداية إلى الطريق المستقيم ، من قبل ، أى : من قبل النبوة بأن جنيناه ما كان عليه قومه من كفر وضلال .

وقد اكتفى الإمام ابن كثير بهذا المعنى فى قوله - تعالى - « من قبل ، فقال : يحضر - تعالى - عن خليله إبراهيم - عليه السلام - ، أنه آتاه رشده من قبل . أى : من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه ، كما قال - تعالى - : « ذلك حجتنا آتيناها لإبراهيم على قومه ... » (١) .

ومن المفسرين من يرى أن المقصود بقوله - تعالى - « من قبل ، أى . من قبل موسى وهارون ، فقد كان الحديث عنهما قبل ذلك بقليل فى قوله - تعالى - : « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكر المتقين ... » .

فيكون المعنى : ولقد آتينا إبراهيم رشده وهداه ، ووفقناه للنظر والاستدلال على الحق . من قبل موسى وهارون ، لأنه يسبقهما فى الزمان .

وقد رجح هذا المعنى الإمام الألوسى فقال : « ولقد آتينا إبراهيم رشده . أى : الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار ، وهو الرشد الكامل . أعنى : الاهتداء إلى وجوه الصلاح فى الدين والدنيا ... » من قبل ، أى : من قبل موسى وهارون . وقبل : من قبل البلوغ ... والأول مروي عن ابن عباس وابن عمر . وهو الوجه الأوفق لفظاً ومعنى ، أما لفظاً فللغرب . وأما معنى فلأن ذكر الأنبياء - عليهم السلام - للتأسى . وكان القياس أن يذكر نوح ثم إبراهيم ثم موسى ، لكن روعى فى ذلك ترشيح التسلى والتأسى ، فقد ذكر موسى ، لأن حاله وماقاساه من قومه ... أشبه بحال نبيينا - صلى الله عليه وسلم - . » (٢) .

ويبدو لنا أن الآية الكريمة تقسم للمعينين . أى : أن الله - تعالى - قد

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٤١ .

(٢) تفسير الألوسى ج ١٧ ص ٥٨ .

أعطى إبراهيم رشده، من قبل النبوة، ومن قبل موسى وهارون لسبقه لهما في الزمان .

وقوله : « وكنا به عالمين » ، بيان لسكّال علم الله - تعالى - أى : وكنا به وبأحواله وبسائر شئونه عالمين ، بحيث لا يخفى علينا شئ من أحواله أو من أحوال غيره .

وقوله : « إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون » ، بيان لما جاء به إبراهيم أباه وقومه من قول شديد يدل على شجاعته ورشده .

أى : وكنا به عالمين . وقت أن قال لأبيه وقومه على سبيل الإرشاد والتنبية : ما هذه التماثيل الباطلة التى أقبلتم عليها ، وصرتم ملازمين لعبادتها بدون انقطاع .

وسؤاله - عليه السلام - لهما بما التى هى لبيان الحقيقة ، من باب تجاهل العارف ، لأنه يعلم أن هذه الأصنام مصنوعة من الأحجار أو ما يشبهها ، وإنما أراد بسؤاله تنبيههم إلى فساد فعلهم . حيث عبدوا ما يصنعونه بأيديهم .

وعبر عن الأصنام بالتماثيل ، زيادة في التحقير من أمرها ، والتوهين من شأنها ، فإن التمثال هو الشئ المصنوع من الأحجار أو الحديد أو نحو ذلك ، على هيئة مخلوق من مخلوقات الله - تعالى - ، كالإنسان والحيوان ، يقال : مثلت الشئ بالشئ . إذا شبهته به .

فهو - عليه السلام - سماها باسمها الحقيقي الذى تستحقه ، دون أن يجاريهم في تسميتها آلهة .

وقوله : « عاكفون » ، من العكوف بمعنى المداومة والملازمة . يقال : عكف فلان على الشئ ، إذا لازمه وواظب عليه ، ومنه الاعتكاف لأنه حبس النفس عن التصرفات العادية .

وفي التعبير عن عبادتهم لها بالـعكوف عليها ، تفضيخ لفعلهم وتنفير لهم

منه ، حيث انكبوا على تعظيم من لا يستحق التعظيم ، وتعلقوا بعبادة تماثيلهم صنعوها بأيديهم .

وقوله - سبحانه : « قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، حكاية لما قالوه في ردِّهم على إبراهيم - عليه السلام - وهو ردِّ يدل على تحجر عقولهم ، وانطباع بصائرهم حيث قلدوا فعل آباؤهم بدون تدبر أو تفكير .

أى : قالوا في جوابهم على إبراهيم - عليه السلام - وجدنا آباءنا يعبدون هذه التماثيل فسرنا على طريقتهم .

وهنا يرد عليهم إبراهيم بقوله : « لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين » .

أى : لقد كنتم أنتم وآباؤكم الذين وجدتموهم يعبدون هذه الأصنام ، في ضلال عجيب لا يقدر قدره ، وفي فساد ظاهر واضح لا يفتنى أمره على عاقل ، لأن كل عاقل يعلم أن هذه الأصنام لا تستحق العبادة أو التقديس أو العكوف عليها ، والباطل لا يصير حقا يفعل الآباء له .

وعندما واجههم إبراهيم - عليه السلام - بهذا الحكم البين الصريح ، قالوا له : « أجتئنا بالحق أم أنت من اللاعبين » .

أى : أجتئنا يا إبراهيم بالحق الذى يجب علينا لنباعه ، أم أنت من اللاعبين اللاهين الذين يقولون ما يقولون بقصد الهزل والملاعبة .

وسؤالهم هذا يدل على نزوع عقيدتهم ، وشكهم فيما هم عليه من باطل ، إلا أن التفليد لآباؤهم . جعلهم يعطلون عقولهم ، ويستحبون العمى على الهدى .

ويجوز أن يكون سؤالهم هذا من باب الإنكار عليه . واستبعاد أن يكون آباؤهم على باطل ، وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشفاف بقوله : « بقوا متعجبين من فضيله إياهم ، وحسبوا أن ما قاله إنما قاله على وجه المزاح

والمداينة ، لا على طريق الجد ، فقالوا له : هذا الذى جئنا به ، أهو جد وحق أم لعب وهزل ، (١) .

وقد رد عليهم إبراهيم - عليه السلام - ردا حاسما يدل على قوة يقينه ، فقال :
 « بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن . . . » .

أى : قال لهم إبراهيم بلغة الواثق بأنه على الحق : أنا لست هازلا فيما أقوله لكم ، وإنما أنا جاد كل الجد فى إخباركم ، أن الله - تعالى - وحده . هو ربكم ورب آبائكم ، ورب السموات والأرض ، فهو الذى خلصهم وأنشأهم بما فيهم من مخلوقات بقدرته التى لا يعجزها شئ .

وقوله : « وأنا على ذلكم من الشاهدين » ، تدبيل المقصود به تأكيد خبرهم به ، وما دعاهم إليه . أى : وأنا على أن الله - تعالى - هو ربكم ورب كل شئ . من الشاهدين ، الذين يثقون فى صدق ما يقولون ثقة الشاهد على شئ . لا يشك فى صحته .

ثم أضاف إلى هذا التأكيد القولى ، تأكيد آخر فعلى ، فقال لهم : « وتالله لا أكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » .

أى : وحق الله الذى فطركم وفطر كل شئ . : لا جتهدن فى تعظيم أصنامكم ، بعد أن تنصرفوا بعيدا عنها . وتولوها أدباركم .

وأصل التأكيد : الاحتمال فى إيجاد ما يضر مع إظهار خلافه . وقد عبر به إبراهيم عن تمكيد الأصنام وتخطيها ، لأن ذلك يحتاج إلى احتمال وحسن تدبير .

وقد نفذ إبراهيم ما توعد به الأصنام ، فقد انتزع فرصة ذهب قومهم بعيدا عنها فخطمها ، قال تعالى : « فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون » .

والقاء في قوله : « فجعلهم ، فصبيحة . والجذاذ القطع الصغيرة جمع جذاذة من الجذ بمعنى القطع والكسر .

أى : قولوا مدبرين عن الأصنام . فجعلها بفأسه قطعاً صغيراً ، بأن حطمها عن آخرها - سوى الصنم الأكبر لم يحطه بل تركه من غير تكسير . لعلمهم إليه يرجعون فيسألونه كيف وقعت هذه الواقعة وهو حاضر ، ولم يستطع الدفاع عن إخوته الصغار ١١٩ .

ولعل إبراهيم - عليه السلام - قد فعل ذلك ليقيم لهم أوضح الأدلة على أن هذه الأصنام لا تصلح أن تكون آلهة ، لأنها لم تستطع الدفاع عن نفسها ، ولجعلهم على التكبر في أن الذى يجب أن يكون معبوداً ، إنما هو الخالق لكل شئ . ، والقادر على كل شئ .

قال الألوسى ما ملخصه : « وقوله : « لعلمهم إليه يرجعون ، لبيان وجه الكسر واستبقاء الكبير . وضمير « إليه » عائد إلى إبراهيم . أى : لعلمهم يرجعون إلى إبراهيم ، فيحاجهم ويبيحهم ...

وعن السكلى : أن الضمير للكبير : أى : لعلمهم يرجعون إلى الكبير ، كما يرجع إلى العالم في حل المشكلات فيقولون له . ما هؤلاء مكسورة ، ومالك صحيحاً ، والفأس في عنقك أو في يدك ؟ حينئذ يقين لهم أنه عاجز لا ينفع ولا يضر . ويظهر أنهم في عبادته على جمل عظيم (١) .

وعاد القوم إلى أصنامهم بعد تركهم إياها لفترة من الوقت ، فوجدوها قد تحطمت إلا ذلك الكبير ، فأصابهم ما أصابهم من الذل والعجب ، وبصور القرآن الكريم ذلك فيقول :

« قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَى

يذكركم يقال له إبراهيم (٦٠) قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون (٦١) قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم (٦٢) قال بل فعله كبيركم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون (٦٣) فرجموا إلى أنفسهم فقالوا إنكم الظالمون (٦٤) ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون (٦٥) .

أى : وحين رجع القوم من عيدهم ورأوا ما حل بأصنامهم ، قالوا ، على سبيل التفجع والإنكار : من فعل هذا ، الفعل المنع ، بآلهتنا ، التى نعظمها ، إنه ، أى هذا الفاعل ، لمن الظالمين ، لهذه الآلهة . لإقدامه على إهانتها وهى الجديرة بالتعظيم - فى زعمهم - ، ولأن الظالمين لنفسه حيث سيعرضها للعقوبة منا .

قالوا ، أى : بعضهم وهم الذين سمعوا من إبراهيم قوله : دونا الله لا تكبدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين .

و معنى فى يذكركم يقال له إبراهيم ، والمراد بالذكر هنا : الذكر بالسوء والذم .

أى : معنى فى يذكركم بالنقص والذم والتهديد بالسكيد ، وهذا الذى يقال له إبراهيم ، ولعله هو الذى فعل بهم ما فعل .

وهنا تشاوروا فيما بينهم وقالوا : إذا كان الأمر كذلك : فأتوا به ، وأحضروه على أعين الناس ، أى : أمام أعينهم ليتمكنوا من رؤيته على أتم وجه ، لعلهم يشهدون ، مساء لئلا له ، ومواجهتنا لإياه بالعقوبة التى يستحقها على فعله هذا ، أو يشهدون عليه بأنه هو الذى حطم الأصنام .

قال ابن كثير : وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم ، أن يقين فى هذا المحفل العظيم ، كثرة جهلهم ، وقلة عقلمهم ، فى عبادة هذه الأصنام ، التى (١٩ - سورة الأنبياء)

لا تدفع عن نفسها ضرا ، ولا تملك لها نفعا ... (١) .

وجاءوا بإبراهيم - عليه السلام - وقالوا له على سبيل الاستنكار والتهديد :
« أأنت فعلت هذا ، التكسير والتعطيم ، بآلهتنا ، التي نعبد ، يا إبراهيم ؟ »

وهنا يرد عليهم إبراهيم - عليه السلام - بتهكم ظاهر ، واستهزاء واضح فيقول : « بل فعله كبيرهم هذا ، يعنى الذى تركه بدون تعطيم ، فإن كنتم لم تصدقوا قولى ، فاسألوهم ، عن فعل بهم ذلك ، إن كانوا ينطقون ، أى : إن كانوا ، من يتمكن من النطق أجابوكم وأخبروكم عن فعل بهم ما فعل . »

فأنت ترى أن إبراهيم - عليه السلام - لم يقصد بقوله هذا الإخبار بأن كبير الأصنام هو الذى حطمها ، أو سؤلهم للأصنام عن حطمها ، وإنما الذى يقصده هو الاستهزاء بهم ، والسخرية بأفكارهم ، فكأنه يقول لهم : إن هذه التماثيل التى تعبدونها من دون الله ، لا تدرى إن كنت أنا الذى حطمتها أم هذا الصنم الكبير ، وأنتم تعرفون أنى قد بقيت قريبا منها بعد أن واثم عنها مدبرين ، وإذا كان الأمر كذلك فانظروا من الذى حطمها إن كانت لكم عقول تعقل ؟

قال صاحب الكشف : « هذا - أى قول إبراهيم لهم : بل فعله كبيرهم هذا - من معاريض الكلام ، ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعانى . »

والقول فيه أن قصد إبراهيم - عليه السلام - لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه ، وإثباته لها على أسلوب امرئى ، يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم .

وهذا كما لو قال لك صاحبك ، وقد كتبت كتابا بخط رشيق - وأنت شهير بحسن الخط - : « أنت كتبت هذا ؟ وصاحبك أسمى لا يحسن الخط ، ولا يقدر

إلا على خرمشة فاسدة - أى كتابة رديئة - فقلت له : بل كتبته أنت ، كان قصدك بهذا الجواب ، تقرير أن هذه الكتابة لك ، مع الاستهزاء به .. (١) .

وهذا التفسير للآية الكريمة من أن إبراهيم - عليه السلام - قد قال لقومه ما قال على سبيل الاستهزاء بهم ، هو الذى تطمئن إليه قلوبنا ، وقد تركنا أقوالا أخرى للمفسرين فى معنى الآية ، نظراً لضعف هذه الأقوال بالمناسبة لهذا القول .

وقوله - سبحانه - : « فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا لئنك أنتم الظالمون ، ديان للأثر الذى أحدثه رد إبراهيم - عليه السلام - .

أى : أنهم بعد أن قال لهم إبراهيم ، بل فعله كبيرهم هذا فاسألوه إن كانوا ينطقون ، أخذوا فى التفكير والتدبر ، فرجعوا إلى أنفسهم باللوم ، وقال بعضهم لبعض إنكم أنتم الظالمون ، حيث عبدتم ما لا يستطيع الدفاع عن نفسه ما حيث تركتم آلهتكم بدون حراسة ..

ولكن هذا الأثر ، وهذا اللوم لأنفسهم ، لم يلبث إلا قليلا حتى تبدد ، بسبب استيلاء العناد والجحود عليهم ، فقد صور القرآن حالهم بعد ذلك فقال : « ثم تكسوا على رؤوسهم لقعى ما هؤلاء ينطقون ، .

وقوله : « تكسوا ، فعل مبنى للجحول من النكس ، وهو قلب الشيء من حال إلى حال ، وأصله : قلب الشيء بحيث يصير أعلاه أسفله .

أى : ثم انقلبوا من لومهم لأنفسهم لعبادتهم لما لا يقدر على رفع الأذى عنه ، إلى التصميم على كفرهم وضلالهم ، فقالوا لإبراهيم على سبيل التهديد : لقد علمت أن هذه الأصنام لا تنطق ، فكيف تأمرنا بسؤالها ؟ إن أراك هذا لنا هو دليل على أنك تسخر بمقرلتنا ، ونحن لن نقبل ذلك ، وسننزل بك العقاب الذى تستحقه .

وقد شبه القرآن الكريم هودتهم إلى باطلهم وعنادهم ، بعد رجوعهم إلى أنفسهم باللوم ، شبه ذلك بالانتكاس ، لأنهم بمجرد أن خطرت لهم الفكرة السليمة ، أطفأوها بالتصميم على الكفر والضلال ، فكان مقلهم كمثل من انتمكس على رأسه بعد أن كان ماشيا على قدميه ، فيأله من تصوير بديع لحالة من يعود إلى الظلام ، بعد أن يتبين له النور .

والجملة الكريمة : « لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » ، جواب لقسم محذوف ، مضمول لقول محذوف ، والتقدير : ثم انكسوا على رؤوسهم قائلين : والله لقد علمت ما هؤلاء ينطقون .

ولم يملك إبراهيم إزاء انتكاسهم على رؤوسهم ، إلا أن يوجههم بعنف وضيق - وهو الحليم لأواه المنيب - وقد قابلوا تأنيبه لهم بتوعدة بالذاب الشديد - ولكن الله - تعالى - تجاه من مكرم ، قال - تعالى - :

« قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أَفَلَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٧) قَالُوا يَحْرُقُهُمْ وَأَنْصَرُوا أَهْلَهُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ، وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) » .

أي : قال إبراهيم لقومه بعد أن ضاق بهم ذرعا : أتركوا عبادة الله الذي خلقكم ، وتعبدون غيره أصناما لا تنفعكم بشيء من النفع ، ولا تضركم

بشيء من الضر ، ثم يضيف إلى هذا التيكيت لهم ، الضجر منهم ، فيقول :
 « أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » .

و « أف » اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر ، وأصله صوت المتضرر من
 الاستقذار الشيء . واللام في قوله « لكم » لبيان المتضجر لأجله .

أى : سحقا وقبحا لكم ، ولما تعبدونه من أصنام متجاوزين بها عبادة الله
 - تعالى - عن جهل وسخف وطغيان .

« أفلا تعقلون » ، ما أنتم فيه من ضلال واضح ، فترجعون عنه إلى عبادة
 الواحد القهار .

وعندما وصل إبراهيم في توبيخهم وتبكيتهم إلى هذا الحد ، أخذتهم العزة
 بالإثم ، شأنهم في ذلك شأن كل طاغية جهول ، يلجأ إلى القوة الفاشية بعد
 أن تبطل حجته ، فـ « ألوا فيما بينهم : « حرقوه وأنصروا آلهتكم إن كنتم
 فاعلين » .

أى : قال بعضهم لبعض بعد أن عجزوا عن مقارعة الحجة بالحجة ، وبعد
 أن رأوا إبراهيم قد أفهمهم بمنطقه الحكيم : « حرقوه » أى : بالنار ، فإنها
 أشد العقوبات .

قيل : إن الذى افترح عليهم ذلك هو رئيسهم : نمرود بن كنعان . وقيل :
 هو رجل من الفرس اسمه : هينون ...

وقوله : « وأنصروا آلهتكم .. » بيان لسبب تحريقه بالنار .

أى : حرقوه بالنار من أجل الانتصار لآلهتكم التى حطامها فى غيبتكم . إن
 كنتم فاعلين .

أى : إن كنتم بحق تريدون أن تنصروا آلهتكم نصرا يرضيها ، فاحرقوه
 بالنار .

قال صاحب الكشف : « أجمعوا رأيهم - لما غابوا - بإهلاكه : وهكذا المبطل إذا قرعت شبيبته بالحجة وافتضح . لم يكن أحد أبغض لإيمه من الحق ولم يبق له مفرع إلا منافسته ، كما فعلت قريش برسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين عجزوا عن المعارضة .

والذي أشار بإحراقه : نمرود . وعن ابن عمر : رجل من أعراب العجم . . واختاروا المعاقبة بالنار لأنها أهول ما يعاقب به وأفظحه ، ولذلك جاء : لا يعذب بالنار إلا غالقا ، (٢) .

وقوله - : « قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم . . . » مسبق بكلام مخدوف يفهم من سياق القصة .

والتقدير : وأحضر قوم إبراهيم الحطب ، وأضرموا نيرانا عظيمة ، وألقوا إبراهيم فيها ، فلما فملوا ذلك قلنا يا نار كوني - بقدرتنا وأمرنا - ذات برد ، وذات سلام على إبراهيم ، فكانت كما أمرها الله - تعالى - ، وصدق - سبحانه - إذ يقول : « بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » ، (٣) .

وتحوّلت النار إلى برد وسلام على إبراهيم ، وأراد الكافرون به كيدا ، أى إحراقا بالنار ، فجعلناهم ، بإرادتنا وقدرتنا ، « الأخسرين » ، حيث لم يصلوا إلى ما يريدون ، ولم يحققوا النصر لأهلهم ، بل رد الله - تعالى - كيدهم في نحورهم .

وقال - سبحانه - « فجعلناهم الأخسرين » ، بالإطلاق لتشمل خسارتهم كل خسارة سواء أكانت دنيوية أم أخروية .

وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم هذه الآيات آثارا منها : أن إبراهيم

(١) تفسير الكشف ج ٣ ص ١٢٦ .

(٢) سورة البقرة الآية ١١٧ .

- عليه السلام - حين جرى به إلى النار ، قالت الملائكة : ياربنا ما في الأرض أحد يعبدك سوى إبراهيم ، وأنه الآن يحرق فأذن لنا في نصرته ١١

فقال - سبحانه - : إن إستغاث بأحد منكم فلينصره . وإن لم يدع غيره فانا أعلم به ، وأنا وليه ، نخلوا بيني وبينه ، فهو خليلي ليس لي خليل غيره .

فأتى جبريل - عليه السلام - إلى إبراهيم ، فقال : ألك حاجة ؟ فقال إبراهيم : أما إليك فلا ، وأما إلى الله فنعم ١١

فقال له جبريل : فم لا نسأله ؟ فقال إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - : حسي من سؤالي عليه بحالي .. (١) .

ثم بين - سبحانه - نعماً أخرى أنعم بها على إبراهيم فقال : ونجيناك ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ...

والضمير في قوله . . ونجيناك ، يعود إلى إبراهيم . و لوطاً ، هو ابن أخيه ، وقيل : ابن عمه .

والمراد بالأرض التي باركنا فيها ، أرض الشام على الصحيح . وعدى ونجيناك ، إلى ، لتضمينته معنى أخرجناه .

أي : وأخرجناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها ، بأن جعلناها مهبطة للوحي ، وسبعنا الرسل لمدة طويلة ، وبأن جعلناها كذلك حاضرة بالخيرات وبالأموال وبالثمرات للأجيال المتعاقبة .

والآية الكريمة تشير إلى هجرة إبراهيم ومعه لوط - عليهما السلام - من أرض العراق التي كانوا يقيمان فيها ، إلى أرض الشام ، فرارا بدينهما . بعد أن أراد قوم إبراهيم أن يحرقوه بالنار ، فأبطل الله - تعالى - كيدهم ومكرهم ، ونجاه من شرهم .

وقد أشار - سبحانه - إلى ذلك في آيات أخرى منها قوله - تعالى - : فأمن له لوط وقال أنى مهاجر إلى ربى أنه هو العزيز الحكيم . . . (١) .

وقوله - تعالى - : ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة . . . ، بين أن النعمة أخرى من النعم التي أنعم الله - سبحانه - بها على إبراهيم .

والنافلة : الزيادة على الأصل . ولذا سميت صلاة السنن نافلة ، لأنها زيادة على الصلوات المفروضة . وإسحاق هو ابن إبراهيم . ويعقوب هو ابن إسحاق .

فلفظ « نافلة » ، حال من يعقوب . أى : ووهبنا لإبراهيم يعقوب حال كونه زيادة على إسحاق . وكلاهما من المذكورين وهم إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب .

« جعلنا صالحين » أى : جعلناهم أفراداً صالحين ، بأن وفقناهم لما نحبهم ونرضاه ، وبشرقناهم بالنبوة والرسالة .

« وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » أى : وجعلنا هؤلاء المذكورين ، أئمة في الخير ، يهدون ويرشدون غيرهم إلى الدين الحق بسبب إمرنا لهم بذلك ، وتكليفهم بقبليغ وحينئذ إلى الناس .

قال صاحب الكشف : وقوله - سبحانه - : « يهدون بأمرنا » فيه أن من صلح ليسكون قدوة في دين الله ، فالهداية محتومة عليه ، مأمور بها من جهة الله ليس له أن يخجل بها ، ويتشاغل عنها ، وأول ذلك أن يهتدى بنفسه ، لأن الإنتماع بهداه أعم ، والنفوس إلى الإقتداء بالمهدى أميل ، (٢) .

وقوله : « وأوحينا إليهم فعل الخيرات » أى : وأوحينا إليهم أن يفعلوا الطاعات ، وأن يأمرؤا الناس بفعلها ، وأوحينا إليهم كذلك : إقام الصلاة

(١) سورة المكنوت الآية ٢٦ .

(٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ١٢٧ .

ولإيتاء الزكاة ، أى : أن يقيموا الصلاة وأن يؤدوا الزكاة وأن يأمرؤا غيرهم بذلك . وعطف لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة على فعل الخيرات من باب عطف الخاص على العام . للاهتمام به إذ الصلاة أفضل العبادات البدنية المالمية وكانوا لنا هادين ، لا لغيرنا ، فهم لم يخطر ببالهم عبادة أحد سوانا ، لأنهم من المصطفين الأخيار .

هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة التى وردت فى قصة إبراهيم مع قومه . يراها قد حكمت لنا غيرة إبراهيم - عليه السلام - على دين الله - تعالى - وقرة عينه فى الدفاع عن الحق ، وبجأهده بما يعتقده بدون خوف من قومه ، وجمعه فى دعوته بين القول والعمل .

كما يراها قد بينت لنا أن من يدافع عن دين الله - تعالى - يدافع الله - سبحانه - عنه ، وينصره على أعدائه ، ويرد كيدهم فى نفورهم .

كما يراها - أيضا - قد أشارت إلى أن من هاجر من أرض إلى أخرى من أجل إعلاء كلمة الله - تعالى - رزقه الله نظير ذلك الخير والبركة ، والذرية الصالحة التى تهدي غيرها إلى الطريق المستقيم .

ثم ساق - سبحانه - جانباً من قصة لوط - عليه السلام - مع قومه فقال - تعالى - :

« وَلَوْ طَا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفُلْجَاتِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوِيًّا فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) » .

وقوله - تعالى - : « وَلَوْ طَا ، منصوب بفعل مضمر يفسره المذكور بعده وهو « آتيناه » .

أى : وآتيناه لوطا - عليه السلام - « حكما ، أى : نبوة ، أو حكمة تهديه

إلى ما يجب فعله أو تركه . ود علما ، أى : علما كثيرا لما ينبغي عليه وفهمه .

و نجيئناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث والمراد بالقرية : قرية سدوم التى أرسل الله - تعالى - لوطا لأهلها .

والأعمال الخبيثة التى كانوا يعملونها على رأسها الإشرار بالله - تعالى - ، وقاحشة اللواط التى اشتهروا بها دون أن يسبقهم إليها أحد . كما قال - تعالى - :
 « ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين
 أنتم لتأتون الرجال ، وتقطعون السيل - أى الطريق - ، وتأتون فى ناديتكم
 - أى فى مجالسكم المنكرة ، فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اعتنا بعباد الله
 إن كنت من الصادقين ... » (٥) .

أى : ونجيئنا لوطا بفضلنا ورحمتنا من العذاب الذى حل بأهل قريته الذين كانوا يعملون الأعمال الخبائث ، كما اشرك بالله - تعالى - واللواط ، وقطعهم الطريق ، وارتكابهم المنكر فى مجالسهم .

وقوله - تعالى - : « إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ، تعبيل لنجاة لوط - عليه السلام - بما حل بهم .

أى : جعلنا هذه القرية عاليها سافلها ، ونجيئنا لوطا ومن آثر معه من العذاب الذى حل بسكانها « إنهم كانوا قوم سوء ، أى : أصحاب عمل سيء » فاسقين ، أى : خارجين عن طاعتنا .

« وأدخلناه ، أى : لوطا ، فى رحمتنا ، أى : فى أهل رحمتنا فى الدنيا والآخرة » لأنه من الصالحين ، الذين سبق لهم منا الحسن .

ثم ذكرت السورة السكرية جانباً من قصة نوح مع قومه . قال - تعالى - :

« وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ السَّكَرَبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمِينَ (٧٧) » .

أى : واذكر - أيضا - أيها المخاطب عبدا ، نوحا ، - عليه السلام - . إذ نادى من قبل ، أى : حين نادانا واستجار بنا من قبل زمان لإبراهيم ومن جاء بعده من الأنبياء .

وهذا النداء الذى نادى به نوح ربه ، قد جاء ذكره فى آيات منها قوله - تعالى - : « وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلْنَنصُرْهُ مِنْهُ الْمَجِثُونَ . وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ السَّكَرَبِ الْعَظِيمِ ... » (١) .

وقوله - سبحانه - : « وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْآرِضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ... » (٢) .

« فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، أَى : أَجَبْنَا لَهُ دَعَاهُ ، وَلَمْ نُخَيِّبْ لَهُ رَجَاءَ فِينَا .
« فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ، الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ « مِنَ السَّكَرَبِ الْعَظِيمِ ، أَى :
« مِنَ الطُّوفَانِ الْعَظِيمِ الَّذِى أَغْرَقَ الْكَافِرِينَ ، وَالَّذِى كَانَتْ أَمْوَاجُهُ كَالْجِبَالِ .
« وَأَصْلُ السَّكَرَبِ : الْغَمُّ الشَّدِيدُ . يُقَالُ : فُلَانٌ كَرِبَهُ هَذَا الْأَمْرُ ، إِذَا ضَايَقَهُ
« وَجَعَلَهُ فِي أَقْصَىٰ دَرَجَاتِ الْهَمِّ وَالْخَوْفِ .

قال الألوسى : « وَكَانَهُ عَلَى مَا قِيلَ مِنْ كَرْبِ الْأَرْضِ ، وَهُوَ قَلْبُهَا بِالْخَفَرِ .
« إِذَا الْغَمُّ يَشِيرُ النَّفْسَ لِثَارَةِ ذَلِكَ ، أَوْ مِنْ كَرْبِ الشَّمْسِ إِذَا دَنَتْ لِلْغَيْبِ ، فَإِنْ
« الْغَمُّ الشَّدِيدُ ، تَمَكَّدَ شَمْسُ الرُّوحِ تَغَرَّبَ مِنْهُ ... وَفِي وَصْفِهِ بِالْعَظِيمِ تَأْكِيدٌ
« لَشِدِّهِ » (٣) .

(١) سورة الصافات الآيتان ٧٥ ، ٧٦ .

(٢) سورة نوح الآية ٢٦ .

(٣) تفسير الألوسى ج ١٧ ص ٧٣ .

« ونصرناه ، بفضلنا وإحساننا » من القوم الذين كذبوا بآياتنا ، الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا . وعلى أن نوحا رسولا من رسلنا .

والمراد بهؤلاء القوم : قومه الذين لبث نوح فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما . يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله . فلم يؤمن به إلا قليل منهم .

« إنهم كانوا قوم سوء ، أى : إنهم كانوا قوما يعملون أعمال السوء والفحش » فأغرقناهم أجمعين . بسبب إصرارهم على الكفر والمعصيان ، ولم تنج منهم إلا من اتبع نوحا عليه السلام .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبا من قصة نبيين كريمين هما داود وسليمان فقال - تعالى - :

« وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ، إِذْ نَفَّثَتْ فِيهِ فُتْمُ الْقَوْمِ ، وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ، وَكُلًّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ ، اتَّحِصِّنْكُمْ مِنْ بِأْسِكُمْ فَلَوْلَ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠) وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢) » .

وقوله - سبحانه - : « وداود ... » منصوب - أيضا - بفعل مقدر ، أو معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : « ونوحا إذ نادى ... » .

وسليمان هو ابن داود ، وكلاهما من أنبياء الله - تعالى - ، ويختتم اسميهما إلى يعقوب - عليه السلام - وكانت وفاته قبل ميلاد المسيح - عليه السلام - بألف سنة تقريبا ، وقد جمع الله - تعالى - لهما بين الملك والنبوة .

والحرث : الزرع . قيل : كان كرما - أى عنبيا - تداءت عناقيده .
وقوله : « نفشت » من النفش وهو الرعى الميل خاصة . يقال : نفشت
الغنم والإبل ، إذا رعت ميلا بدون راع .

وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات روايات ملخصة : أن
رجلين دخلا على داود - عليه السلام - أحدهما - : صاحب زرع ، والآخر
صاحب غنم . فقال صاحب الزرع لداود : يا نبي الله إن غنم هذا قد نفشت في
حرتي ، فلم تبق منه شيئا .

فحكم داود - عليه السلام - لصاحب الزرع أن يأخذ غنم خصمه في مقابل
إتلافها لزراعته ،

وعند خروجهما التقيا سليمان - عليه السلام - فأخبراه بحكم أبيه . فدخل
سليمان على أبيه فقال له : يا نبي الله ، إن القضاء غير ما قضيت . فقال له : كيف ؟
قال : ادفع الغنم إلى صاحب الزرع لينتفع بها ، وادفع الزرع إلى صاحب
الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان . ثم يعود كل منهما إلى صاحبه ما تحت يده .
فيأخذ صاحب الزرع زراعته ، وصاحب الغنم غنمه . . . فقال داود - عليه
السلام - : القضاء ما قضيت يا سليمان (١) .

والمعنى : اذكر - أيها الرسول الكريم - قصة داود وسليمان ، وقت أن
كانا يحكمان في الزرع الذي نفشت فيه غنم القوم ، أى : تفرقت فيه وانتشرت
ليلا دون أن يكون معها راع فرعته وأفسدته .

قال القرطبي : « ولم يرد - سبحانه - بقوله « إذا ذبحك في الحرث » الاجتماع
في الحكم وإن جمعهما في القول ، فإن حكيم على حكم واحد لا يجوز . وإنما
حكم كل واحد منهما على انفراده ، وكان سليمان القام لها بتفهم الله
- تعالى - له (٢) .

(١) راجع تفسير ابن جرير ١٧ ص ٢٨ ونسبه ابن كثير ح ٥ ص ٣٤٩ .

(٢) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٢٠٧ .

وقوله - تعالى - : وكننا لحكمهم شاهدين ، جملة معترضة جى . بها ابيان
شمول علم الله - تعالى - ، وإحاطته بكل شئ .

أى : وكننا لما حكم به كل واحد منهما عالمين وحاضرين ، بحيث لا يغيب
عنا شئ مما قالاه .

وضمير الجمع فى قوله لحكمهم ، : لداود وسليمان ، واستدل بذلك من قال
إن أقل الجمع إثنان وقيل : ضمير الجمع يعود عليهما وعلى صاحب "زرع
وصاحب الحرث" . أى : وكننا للحكم الواقع بين الجميع شاهدين .

والضمير المنصوب فى قوله تعالى - : ففهمناها سليمان ، يعود إلى القضية
أو المسألة التى عرضها الخيام على داود وسليمان .

أى : فهمنا سليمان الحكم الأنسب والأوفق فى هذه المسألة أو القضية ،
وذلك لأن داود - كما يقول بعض العلماء - قد أتجه فى حكمه إلى مجرد التمهويض
لصاحب الحرث ، وهذا عدل لحسب . أما حكم سليمان فقد تضمن مع العدل
البناء والتعمير ، وجعل العدل دافعا إلى البناء والتمعير . وهذا هو العدل الحى
الإيجابى فى صورته البيانية الدافعة ، وهو فتح من الله وإلهام يهبه من يشاء ، (١) .

وقوله - سبحانه - : وكلا آتينا حكما وعلما ، ثناء من الله - تعالى - على داود
وسليمان - عليهما السلام - ، والمقصود من هذا الثناء دفع ما قد يثار إلى بعض
الاذهان من أن داود لم يكن مصيبا فى حكمه .

أى : وكلا من داود وسليمان قد أعطينا من عندنا وحكما ، أى : نبوة وإصابة
فى القول والعمل ، علما ، أى : فقها فى الدين ، وفهما سليما للأمر .

وقد توسع بعض المفسرين فى الحديث عن هذا الحكم الذى أصدره داود
وسليمان فى قضية الحرث أكان بوحي من الله إليهما ، أم كان باجتهاد منهما ؟
وقد رجح بعض العلماء أنه كان باجتهاد منهما فقال : اعلم أن جماعة من

العلماء قالوا : إن حكم داود وسليمان في الحرث المذكور في هذه الآية كان بوحى ، إلا أن ما أوحى إلى سليمان كان ناسخاً لما أوحى إلى داود .

وفي الآية قرينتان على أن حكمهما كان باجتهاد لا بوحى ، وإن سليمان أصاب فاستحق الثناء باجتهاده وإصابته ، وأن داود لم يصب فاستحق الثناء باجتهاده ، ولم يستوجب لوما ولا ذمًا لعدم إصابته .

كما أتى - سبحانه - على سليمان بالإصابة في قوله : ففهمناها سليمان ، وأتى عليهما في قوله : وكلا آتينا حكما وعلما .

فدل قوله : إذ يحكمان ، على أنهما حكما فيها معاً ، كل منهما بحكم مخالف لحكم الآخر ، ولو كان وحياً لما ساغ الخلاف . ثم قال : ففهمناها سليمان ، فدل ذلك على أنه لم يفهمها داود ، ولو كان حكمه فيها بوحى لكان مفهماً لإياها كما ترى .

فقوله : إذ يحكمان ، مع قوله : ففهمناها سليمان ، قرينة على أن الحكم لم يكن بوحى بل باجتهاد ، وأصاب فيه سليمان دون داود بتفهم الله لإياه ذلك .

والقرينة الثانية : هي أن قوله - تعالى - : ففهمناها . . . تدل على أنه فهمه لإياها من نصوص ما كان عندهم من الشرع ، لا أنه - تعالى - أنزل عليه فيها وحياً جديداً ناسخاً ، لأن قوله - تعالى - : ففهمناها ، أليق بالأول من الثاني كما ترى (٢) .

ثم بين - سبحانه - نماذج من النعم التي أنعم بها على داود - عليه السلام - فقال : وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين

والتسخير : التذليل أى : وجعلنا الجبال والطير يسبحن الله - تعالى - ويقدرسنه مع داود ، امتثالاً لأمره - سبحانه - .

قال ابن كثير : وذلك لطيب صوته ، بتلاوة كتابه الزبور ، وكان إذا ترنم

به تقف الطير في الهواء فتجاوبه ، وترد عليه الجبال تأويها . ولهذا لما مر النبي - صلى الله عليه وسلم - على أبي موسى الأشعري ، وهو ينلوا القرآن من اللبل ، وكان له صوت طيب ، فوقف واستمع إليه وقال : لقد أوتي هذا من مزامير آل داود (١) .

وقال صاحب الكشف : دفن قلت : لم قدمت الجبال على الطير ؟ قلت : لأن تسخيرها وتسييحها أعجب ، وأدل على القدرة ، وأدخل في الإعجاز ، لأنها جاد ، والطير حيوان ، إلا أنه غير ناطق روى أنه كان يمر بالجبال مسبحا وهي تجاوبه . وقيل : كانت تسير معه حيث سار (٢) .

وتسييح الجبال والطير مع داود - عليه السلام - هو تسييح حقيقي ، وليس بكيفية يعلمها الله - تعالى - كما قال - سبحانه - : : تسيح له السموات السبع والأرض ومن فهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا نفقهون تسييحهم (٣) .

وشبهه بالآية التي معنا قوله - تعالى - : ولقد أتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد (٤) .

وقوله - سبحانه - : اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب . إلنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق . والطير محشورة كل له أواب ، (٥) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : : وكنا فاعلين ، أي : وكنا فاعلين ذلك لداود من تسخير الجبال والطير معه يسبحن الله ويبرهنه عن كل سوء . . . على سبيل التكريم له ، والتأييد لقبوته ، إذا أن قدرتنا لا يعجزها شيء . سواء أكان هذا الشيء مألوفا للناس أم غير مألوف .

(٢) تفسير الكشف ج ٣ ص ١٢٩

(٤) سورة سبأ آية ١٠

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٥٢

(٣) سورة الإسراء آية ٤٤

(٥) سورة ص الآيات ١٧ - ١٩

وقوله - تعالى - : «وعلمناه صنعة لبوس لكم لنحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون» ، بيان لنعمة أخرى من النعم التي أنعم الله بها على داود .

واللبوس : كل ما يلبس كاللباس والملبس : والمراد به هنا : الدروع .

أى : وبجانب ما منحنا داود من فضائل ، فقد علمناه من لدنا صناعة الدروع بحذق وإتقان ، وهذه الصناعة التي علمناه إياها بمهارة وجودة ، لنحصنكم من بأسكم .

أى : لنجعلكم في حرز ومأمن من الإصابة بآلة الحرب . وتقى بهضكم من بأس بعض ، لأن الدرع تقى صاحبها من ضربات السيوف ، وطعنات الرماح .

يقال : أحصن فلان فلانا ، إذا جعله في حرز وفي مكان منيع من العدوان عليه .

والاستفهام في قوله : «فهل أنتم شاكرون» ، للتحضيض والامر . أى : فاشكروا الله - تعالى - على هذه النعم ، بأن تستعملوها في طاعته - سبحانه - .

قال القرطبي - رحمه الله - : وهذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب ، وهو قول أهل العقول والآلباب . لا قول الجملة الأغبياء القائلين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء ، فالسبب ستة الله في خلقه ، فمن طعن في ذلك فقد طعن في الكتاب والسنة ، وقد أخبر الله - تعالى - عن نبيه داود أنه كان يصنع الدروع وكان - أيضاً - يصنع الخوص ، وكان يأكل من عمل يده ، وكان آدم حراثاً ، وفوح نجاراً ، ولقمان خياطاً ، وطالوت دباغاً . . . فالصناعة يكف بها الإنسان نفسه عن الناس ، ويدفع بها على نفسه الضرر والبأس . وفي الحديث إن الله يحب المؤمن المحترف المتعفف ، ويبغض السائل الماحف ، (١) .

(١) تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٢٢١ .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانباً من نعمه على سليمان بن داود فقال :
 « وسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إن الأرض التي باركنا فيها... »
 وقوله : « وسليمان الريح... » معطوف على معمول « سخرنا » في قوله
 - تعالى - قبل ذلك : « وسخرنا مع داود الجبال يسبحن ، وعاصفة حال من
 الريح .

أى : وسخرنا لسليمان الريح حال كونها عاصفة أى : شديدة الهبوب ، كما
 سخرنا مع أبيه الجبال يسبحن والطير .

يقال : عصفت الريح تعصف ، إذا اشتدت . ففى عاصف وعاصفة وعصوف
 سميت بذلك لتحطيمها ما تمر عليه فتجعله كالعصف وهو التين .

وقوله - تعالى - : « تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها ، أى :
 جعلناها مع قوتها وشدتها تجري بأمر سليمان وإذنه إلى الأرض التي باركنا
 فيها وهى أرض الشام . وقيل : يحتمل أن يكون المراد بها ما هو أهم من
 أرض الشام .

ووصفت الريح هنا بأنها عاصفة . وفى آية أخرى بأنها رخاء قال - تعالى - :
 « تجري بأمره رخاء حيث أصاب » . لأنها قارة تكون عاصفة ، وتارة تكون
 لينة رخاء . على حسب ما تقتضيه حكمته - سبحانه - .

والى هذا المعنى أشار صاحب الكشف بقوله : « فإن قلت : وصفت هذه
 الرياح بالعصف تارة وبالرخاء أخرى ، فما التوفيق بينهما ؟

قلت : كانت فى نفسها رضية طيبة كالنسيم ، فإذا مرت بكرسيه أبعثت
 به فى مدة يسيرة ، على ما قال : « غدوها شهر ورواحها شهر » . فكان جمعها
 بين الأمرين أن تكون رخاء فى نفسها وعاصفة فى عملها ، مع طاعتها لسليمان
 على حسب ما يريد... » (١) .

وقال - سبحانه - هنا : د تجرى بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها ، أي تجرى بأمره إلى تلك الأرض في حال إيبابه ورجوعه إليها ، حيث مقر ملكته وممكنه ، فالمقصود من الآية الكريمة الإخبار عن جريانها في حال عودته إلى ملكته .

أما الآية الأخرى التي تقول : فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، أي : حيث أراد لها أن تجري ، فالمقصود منها الإخبار عن جريانها في غير حال عودته إلى ملكته ، وبذلك أمكن الجمع بين الآيتين ، إذ لا جهة فيهما منفكة .

وقوله - تعالى - : د وكنا بكل شيء عالمين ، أي : وكنا بكل شيء يجرى في هذا الكون عالمين علما مطلقا لا كعلم غيرنا من خلقنا . فإنه علم محدود بما نشأه ونقدره .

فالحكمة الكريمة ببيان لإحاطة علم الله - تعالى - بكل شيء ، والتنبيه بأن ما أعطاه الله - تعالى - لاسماعيل - إنما كان بإرادته - سبحانه - وعلمه .

وقوله - سبحانه - : د ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك ... ببيان لمنة أخرى من المنن الكثيرة التي امتن بها - سبحانه - على عبده ونبيه سليمان .

ويغوصون من الغوص وهو النزول تحت الماء ، ومنه الغوص الذي ينزل تحت الماء لاستخراج الجواهر وغيرها .

وقوله : د من يغوصون له ، في محل نصب عطفا على معمول د سخرنا ، السابق .

أي : وسخرنا - أيضا - لاسماعيل من يغوصون له ، أي : لأجله ، من شياطين ، فينزلون تحت مياه البحار ليستخرجوا له منها الجواهر النفيسة كاللؤلؤ والمرجان .

وفي التعبير بقوله : دله ، إشعار بأن غرضهم لم يكن لمنفعة أنفسهم أو باختيارهم ، وإنما هم كانوا يفرصون من أجل مصلحة سليمان - عليه السلام - وبأمره .

وقوله : د ويعملون عملا دون ذلك ، أى : لم تكن مهمتهم الغوص فقط وإنما كان سليمان يسخرهم ويكلفهم بأعمال أخرى كثيرة كبناء المدائن والقصور وصنع التماثيل والمحاريب ... كما قال - تعالى - : ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب ، ، قائم الإشارة في قوله د ويعملون عملا دون ذلك ، يعود إلى الغوص أى : ويعملون له عملا كثيرا سوى ذلك الغوص .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : د وكنائهم حافظين ، أى : وكنا هؤلاء الشياطين حافظين لهم من أن يخرجوا عن طاعته . أو أن يوجد منهم فساد لما هم مسخرون له .

وتلك نعمة كبرى لسليمان - عليه السلام - حيث جعل - سبحانه - الشياطين لا يستطيعون أن يربفوا عن أمره .

هذا وقد ذكر بعض المفسرين عند تفسيرهم لهذه الآيات قصصا متعددة منها قصة بساط الريح الذي قيل إن سليمان كان يجلس عليه هو وجنده ، فيطير بهم إلى الشام في وقت قصير ، ومنها صفة حمل الريح له : وصفة جنوده من الجن والإنس والطير .

وقد رأينا عدم ذكر ذلك هنا ، لأنه لم يرد ما يؤيده من الآثار الصحيحة .

ثم ساق - سبحانه - جانباً من قصة أيوب - عليه السلام - وهي قصة تمثّل الامتلاء بالضر في أشد صورته ، قال - تعالى - :

«وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّ مَسَّنِيَ الضُّرُّ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» (٨٣)
 فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ، رَحْمَةً
 مِنَّا عِنْدَنَا وَفِي كُتُبٍ لِلْعَالَمِينَ (٨٤) .

قال ابن كثير : يذكر الله - تعالى - عن أيوب - عليه السلام - ما كان
 قد أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده ، وذلك أنه كان له من الدواب
 والأنعام والحراث شي كثير ، وأولاد كثيرة ، ومنازل مرضية . فابتلى في ذلك
 كله ، وذهب عن آخره ، ثم ابتلى في جسده ... ولم يبق من الناس أحد يحنو
 عليه سوى زوجته ... وقد كان نبي الله أيوب غاية في الصبر ، وبه يضرب
 المثل في ذلك ... (١) .

وقال الألوسي : وهو ابن أموص بن رزاح بن عيص بن إسحاق ، وحكي
 ابن عساکر أن أمه بنت لوط ، وأن أباه من آمن بإبراهيم فعلى هذا كانت
 بعثته قبل موسى وهارون . وقيل : بعد شعيب . وقيل : بعد سليمان ... (٢) .
 والضر - بالفتح - يطلق على كل ضرر - وبالضم - خاص بما يصيب
 الإنسان في نفسه من مرض وأذى وما يشبههما .

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم أو أيها المخاطب - عبدنا أيوب
 - عليه السلام - وقت أن نادى ربه ، وتضرع إليه بقوله : يارب أنى أصابني
 ما أصابني من الضر والتعب ، وأنت أجل وأعظم رحمة من كل من يتصف بها .
 فانت ترى أن أيوب - عليه السلام - لم يزد في تضرعه عن وصف حاله
 «أنى مسنى الضر» ووصف خالقه - تعالى - بأعظم صفات الرحمة دون أن

يقترح شيئا أو يطلب شيئا ، وهذا من الأدب السامى الذى لمسكه الانبياء مع خالقهم - عز وجل - .

قال صاحب الكشف : «الطاف - أيوب - فى السؤال ، حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة ، وذكر ربه بغاية الرحمة ، ولم يصرح بالمطالوب . ويحكى أن عجوزا تمرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت : يا أمير المؤمنين ، مشيت جردان - أى فئران - بينى على العصا فقال لها : ألفت فى السؤال ، لا جرم لأجعلها نثب وثب الفهود ، وملا بيتها حبا . . . » (١)

وبعد أن دعا أيوب ربه - تعالى - بهذه الثقة ، وبهذا الأدب والإخلاص ، كانت الإجابة المتمثلة فى قوله - تعالى - : « فاستجبنا له ، أى : دعاه ونصره » فكشفنا ما به من ضر ، أى : فأزلنا ما نزل به من بلاء فى جسده ، وجعلناه سليما معافا . بأن أمرناه أن يضرب برجله الأرض ففعل ، فنبعت له عين فاغتسل منها ، فزال عن بدنه كل مرض أصابه بإذن الله - تعالى - .

قال - سبحانه - : « واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب . أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . . . » (٢) .

وقال - تعالى - : « وآتيناه أهله ومثلهم معهم ، أى : لم نخيب رجاء أيوب حين دعانا ، بل استجبنا له دعاه ، بفضلنا وكرمنا ، فأزلنا عنه المرض الذى نزل به ، ولم نكتف بهذا - أيضا - بل عوضناه عن فقدته من أولاده ، ورقةناه مثلهم معهم .

قال الألوسى مالم يخصه : وقوله : « وآتيناه أهله ومثلهم معهم . . . » أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس قال : سألت النبي - صلى الله عليه وسلم - عن قوله : « وآتيناه أهله ومثلهم معهم » فقال : رد الله - تعالى - أمراته إليه ، وزاد فى شبابها ، حتى ولدت له ستا وعشرين ذكرا .

فلا معنى على هذا : آتينا في الدنيا مثل أهله عددا مع زيادة مثل آخر .
وعن فتادة : إن الله أحيا له أولاده الذين هلكوا في بلائه ، وأوتى مثلهم
في الدنيا ... (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله - تعالى - : «رحمة من
هنا» وذكرى للعابدين ، أى : أجبنا له دعاه ، وفعلنا معه ما فعلناه من ألوان
الخيرات ، من أجل رحمتنا به ، ومن أجل أن يكون ما فعلناه معه عبادة وعظما
وذكرى لغيره من العابدين ، حتى يقتدوا به في صبره على البلاء ، وفي المداومة
على شكرنا في السراء والضراء .

وخص - سبحانه - العابدين بالذكر ، لأنهم أكثر الناس بلاء وإمتحانا ،
ففي الحديث الشريف : «أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل
فالأمثل» .

وفي حديث آخر : «يبتلى الرجل على قدر دينه ، فإن كان في دينه صلابة
زيد في بلائه» (٢) .

وقد كان أقرب آية في الصبر ، وبه يضرب المثل في ذلك .

هذا ، وقصة أيوب - عليه السلام - ستأتى بصورة أكثر تفصيلا في سورة
«ص» ، وقد تركنا هنا أفواجا عن كيفية مرضه ، وعن مدة هذا المرض ...
نظرا لضعفها ، ومما قلنا له قصة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - من
الأمراض المنفرة .

ثم أشارت السورة لإشارات بحملها إلى قصة كل من إسماعيل وإدريس
وذى الكفل ، قال - تعالى - :

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٥٤ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ٨١ .

« وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ . كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) »
وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) » .

وإسماعيل : هو الابن الأكبر لإبراهيم - عليهما السلام - وهو الذبيح الذي افتداه الله - تعالى - بذبيح عظيم .

وإدريس : هو واحد من أنبياء الله - تعالى - . قالوا : وهو جدد نوح - عليه السلام - وأنه ولد في حياة آدم . وبعث بعد موته .

أما ذو الكفل : فقد قال الألوسي في شأنه ماملخصه : دظاهر نظام ذي الكفل في سلك الأنبياء أنه منهم ، وهذا ذهب إليه الأكثر . واختلاف في اسمه : فقيل : بشر وهو ابن أيوب ، بعثه الله - بعد أبيه ، وكان مقبياً بالشام ...

وقيل : هو إلياس بن ياسين وينتهي نسبه إلى هارون - عليه السلام - .

وقيل : هو زكريا والدي يحيى - عليهما السلام - وسمى بذلك لكفالاته مريم .

وقيل : لم يكن نبياً وإنما كان عبداً صالحاً ... (١) .

ثم مدح - سبحانه - هؤلاء الأنبياء فقال : دكل من الصابرين ، أى : كل واحد منهم من عبادنا الصابرين الذين تحملوا في سبيلنا الكثير من المصاعب والآلام .

« وَأَدْخَلْنَاهُمْ ، بِفَضْلِنَا وَإِحْسَانِنَا ، فِي رَحْمَتِنَا ، الّتي وسعَتْ كلَّ شَيْءٍ » . لإنهم من ، عبادنا الصالحين ، حلل رسالتنا ، وتبليغها إلى أقوامهم بصدق وحريه وأمانة .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانباً من قصة يونس - عليه السلام - فقال :

« وَذَا التَّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي »

الظَّالِمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)
فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) .

والمراد بذى الغون : يونس بن متى - عليه السلام - ، والغون : الحوت .
وجمعه نينان وأنوان . وسمى بذلك لا ابتلاع الحوت له .

قال - تعالى - : « وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون .
فسام فـ . كان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم ... » (١)

وملخص قصة يونس « أن الله - تعالى - أرسله إلى أهل نينوى بالعراق في
حوالي القرن الثامن قبل الميلاد ، فدعاهم إلى إخلاص العبادة لله - عز وجل -
فاستمعوا عليه : فضاقت بهم ذرعا ، وتركهم وهو غضبان لذهب إلى ذيرهم ،
فوصل إلى شاطئ البحر ، فوجد سفينة فركب فيها ، وفي خلال سيرها في البحر
ضاقت بركابها ، فقال ربانها : إنه لا بد من أن أحد الركاب يلقى بنفسه في البحر
لينجو الجميع من الغرق . . لجأت القرعة على يونس . فألقى بنفسه في البحر ،
فالتقمه الحوت . . ثم نبذه إلى الساحل بعد وقت يعده الله - تعالى - ، فأرسله
- سبحانه - إلى قومه مرة أخرى فآمنوا ... »

وسياتي تفصيل هذه القصة في سورة الصافات - بإذن الله - .

والمعنى : « واذكر - أيها المخاطب لتعتبر وتتهفظ - هـ . هذا ذا النون . وقت
أن فارق قومه وهو غضبان عليهم ، لأنهم لم يسارعوا إلى الاستجابة له .

قال الجمل : « وقوله : إذ ذهب مغاضبا ، أي : غضبان على قوله ، فالمفاعلة
ليست على بابها فلا مشاركة كعاقبت وسافرت ، ويحتمل أن تكون على بابها
من المشاركة ، أي غاضب قومه وغاضبه حين لم يؤمنوا في أول الأمر » (٢) .

(١) سورة الصافات الآيات ١٣٩-١٤٢ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٤٣ .

وقوله - تعالى - : فظن أن لن نقدر عليه ، بيان لما ظنه يونس - عليه السلام - حين فارق قومه غاضبا عليهم بدون إذن من ربه - عز وجل - .
 أى : أن يونس قد خرج غضبان على قومه لعدم استجابتهم لدعوته . فظن أن لن نصيق عليه ، عقابا له على مفارقتهم من غير أمرنا ، أو فظن أننا لن نقضى عليه بعقوبة معينة في مقابل تركه لقومه بدون إذننا .

فقوله : د نقدر عليه ، بمعنى نصيق عليه ونعاقبه . يقال : قدر الله الرزق يقدره - بكسر الدال وضمة الميم - إذا ضيقه . ومنه قوله - تعالى - : د الله يسط الرزق لمن يشاء ويقدر (١) وقوله : د وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه (٢) أى : ضيقه عليه .

ثم بين - سبحانه - ما كان يردده يونس وهو في بطن الحوت فقال : د فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانه إني كنت من الظالمين ،
 والغناء في قوله د فنادى ، فصيحة .

والمراد بالظلمات : ظلمات البحر ، وبطن الحوت ، والليل . . .

أى : خرج يونس غضبان على قومه ، فحدث له ما حدث من النقام الحوت له ، فلما صار في جوفه المظلم ، بداخل البحر المظلم ، أخذ يتضرع إليهم . بقوله : أشهد أن لا إله إلا أنت يا إلهى مستحق للعبادة ، د سبحانه . أى : أنزلهك تنزيها عظيما د إني كنت من الظالمين ، لنفسي حين فارقت قومي بدون إذن منك . ولإني أعترف بخطي . - يا إلهى - فتقبل توبتي ، واغسل حوبتي .

هذا وقد ذكر ابن جرير وابن كثير وغيرهما من المفسرين هنا روايات متعددة عن المدة التي مكثها يونس في بطن الحوت ، وعن فضل الدماء الذي

تضرع به إلى الله - تعالى - ، ومن ذلك ما رواه ابن جرير عن سعد بن وقاص - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : يا أيها الله الذي إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ، دعوة يونس بن متى . قال : قلت : يا رسول الله ، هي يونس خاصة أم جماعة المسلمين ؟ قال : هي يونس ابن متى خاصة وللمؤمنين عامة ، إذا دعوا بها . ألم تسمع قول الله - تعالى - : « فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ، ونجينا من الغم ، وكذلك ننجي المؤمنين ، فهو شرط من الله لمن دعاه به (١) » .

ثم بين - سبحانه - أنه قد أجاب يونس دعاءه فقال : « فاستجبنا له ، أى : دعاءه وتضرعه ونجينا من الغم ، أى : من الحزن الذي كان فيه حين التقمه الحوت وصار في بطنه » .

وقد بين - سبحانه - في آية أخرى ، أن يونس - عليه السلام - لم يسمح الله للبعث في بطن الحوت إلى يوم البعث . قال - تعالى - : « فلو لا أنه كان من المسبحين . للبعث في بطنه إلى يوم يبعثون » .

وقوله - تعالى - : « وكذلك ننجي المؤمنين ، بشارة لكل مؤمن يقتمدى يونس في إخلاصه وصدق توبته ، ودعائه لربه » .

أى : ومثل هذا الإيجاء الذي فعلناه مع عبدنا يونس ، ننجي عبادنا المؤمنين من كل غم ، متى صدقوا في إيمانهم ، وأخلصوا في دعائهم .

• • •

ثم سافت السورة الكريمة بعد ذلك جانباً من قصة زكريا ويحيى فقال - تعالى - :



« وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى ، وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) » .

زكريا هو ابن آزن بن بركيا ، ويتصل نسبه بسليمان - عليه السلام - .
وكان عيسى قريب العهد به ، حيث كفل زكريا مريم أم عيسى .

أى : وأذكر - أيها المخاطب - حال زكريا - عليه السلام - وقت أن نادى ربه وتضرع إليه فقال : يارب لا تتركني فردا أى : وحيدا بدون ذرية . وأنت خير الوارثين ، أى : وأنت خير حى باق بعد كل الأموات .

فكانت نتيجة هذا الدعاء الخالص أن أجاب الله لزكريا دعاءه فقال :
« فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، أى : دعاءه وتضرعه .

« وَوَهَبْنَا لَهُ ، بفضلتنا وإحساننا ابنه ، يحيى ، - عليهم السلام - .

« وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، بأن جعلناها تله بعد أن كانت عقيما تكريما له .
ورحمه به .

وقوله : « إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ، تعليل لهذا العطاء الذى منحه - سبحانه - لالنبياؤه - عليهم الصلاة والسلام - . والضمير فى « إِنَّهُمْ » يعود للأنبياء السابقين . وقيل : يعود إلى زكريا وزوجه ويحيى .

أى : لقد أعطيناكم ما أعطيناكم من ألوان النعم ، لأنهم كانوا يبادرون فى فعل الخيرات التى ترغينا ، ويجتهدون فى أداء كل قول أو عمل أمرناهم به .
« وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، أى : ويجأرون إلينا بالدعاء ، راغبين فى آلائنا ونعمنا وراهبين خائفين من عذابنا ونقمنا .

فقوله « رغبا ورهبا ، مصدران بمعنى اسم الفاعل ، منصوبان على الحال ، وفعلهما من باب « طرب » ، وكانوا لنا خاشعين ، أى : مخبتين متضرعين لا متكبرين ولا متجبرين .

وهذه الصفات الحميدة ، استحق هؤلاء الأخيار أن ينالوا خيرنا وعطاءنا ورضانا .

• • •

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن هؤلاء الأنبياء الكرام ، بذكر جانب من قصة مريم وابنها عيسى فقال :

« والَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١) » .

وقوله : « أحصنت » من الإحصان بمعنى المنع ، يقال : هذه درع حصينة أى : مانعة صاحبها من الجراحة . ويقال : هذه امرأة حصينة ، أى : مانعة نفسها من كل فاحشة بسبب عفتها أو زواجها .

أى : واذكر - أيضا - أيها المخاطب خير مريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها ، أى : حفظته ومنعته من النكاح مطلقا . والتعبير عنها بالوصول لتفخيم شأنها ، وتزويجها عن السوء .

« فنفخنا فيها من روحنا » ، أى : فنفخنا فيها من جهة روحنا ، وهو جبريل عليه السلام - حيث أمرناه بذلك فامتثل أمرنا ، فنفخ في جيب درعها ، فكان بذلك عيسى ابنها ، ويؤيد هذا التفسير قوله - تعالى - فى سورة مريم : « قال - أى جبريل لمريم - : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ، .

أى : لا كون سببا فى هبة الغلام لك عن طريق النفخ فى درعك فيصل هذا النفخ إلى الفرج فيكون الحمل بعيسى بإذن الله وإرادته .

والمراد بالآية في قوله - سبحانه - : « وجعلناها وابنها آية للعالمين » :
الامر الخارق للعادة ، الذي لم يسبقه ولم يأت بعده ما يشابهه .

أى : وجعلنا مريم وابنها عيسى آية بيّنة ، وموجزة واضحة دالة على كمال
قدرتنا للناس جميعا ، إذ جاءت مريم بعيسى دون أن يمسهما بشر ، ودون أن
تكون بغيا .

قال صاحب الكشف : « فإن قلت : هلا قبل آيتين كما قال - سبحانه - :
« وجعلنا الليل والنهار آيتين ، ؟ قلت : لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة .
وهي ولادتها لإياه من غير خل ، (١) .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن قصص عدد كبير من الانبياء في سورة
الانبياء ، عقب - سبحانه - على ذلك ببيان أنهم - عليهم السلام - قد جاءوا
بمقيدة واحدة ، هي إخلاص العباد لله - تعالى - فقال :

« إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) » .

ولفظ الأمة يطلق بإطلاقات متعددة . يطلق على الجماعة كما في قوله - تعالى -
« ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يمسقون . . . » . ويطلق على
الرجل الجامع للخير ، كما في قوله - تعالى - : « وإن إبراهيم كان أمة قانتا لله
حنيفا . . . » . ويطلق على الحين والزمان ، كما في قوله - سبحانه - : « وقال النبي
نجا منهما واذكر بعد أمة . . . » أى وتذكر بعد حين من الزمان .

والمراد بالأمة هنا : الدين والملة . كما في قوله - تعالى - : « وإنا وجدنا
آباءنا على أمة . . . » أى : على دين وملة معينة .

والمعنى : إن ملة التوحيد التي جاء بها الانبياء جميعا ، هي ملتكم ودينكم أيها
الناس ، فيجب عليكم أن تتبعوا هؤلاء الانبياء ، وأن تخلصوا لله - تعالى -

العبادة والطاعة ، فهو - سبحانه - ربكم ورب كل شيء ، فاعبدوه حق العبادة لتنالوا رضاه ومحبته .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حال الناس من الدين الواحد الذي جاء به الرسل ، وعاقبة من اتبع الرسل وعاقبة من خافهم فقال :

« وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ . كُلُّ إِلَيْنَا رَاغِمُونَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤) وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجَ وَمَنْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُّوها وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَمَنْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) » .

والضمير في قوله - تعالى - : « وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ » يعود للناس الذين نفرضوا في شأن الدين شيئا وأحزابا . أى : وافترق الناس في شأن الدين الحق فرقا متعددة ، وسنحاسبهم جميعا على أعمالهم حسابا دقيقا ، يجازى فيه المحسن خير ، ويعاقب فيه المسيء على إساءته .

وقال - سبحانه - : « فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ » ، بالنفي المفيد للعموم ، لبيان كمال عدالته - تعالى - ، وتنزيهه - عز وجل - عن ظلم أحد ، أو أخذ الشيء بما يستحقه .
وعبر عن العمل بالسمى ، لإظهار الاعتداد به ، وأن صاحب هذا العمل الصالح ، قد بذل فيه جهدا مشكورا ، وسمى من أجل الحصول عليه سعيا بذل فيه طاقته .

ثم أكد - سبحانه - بعد ذلك ما سبق أن قرره من أن الكل سيرجعون إليه للحساب ، فقال : « وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ » .

وللمفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة أقوال منها :

أن المعنى : وحرام - أى : وممتنع امتناعاً تاماً - على قرية أهلكتنا أهلها بسبب فسوتهم عن أسرفاء، وتكذبهم لرسالتنا أنهم لا يرجعون لإيماننا فى الآخرة للحساب .

فلاية الكريمة تأكيد لما قررته الآيات السابقة ، من أن الذين قطعوا أمرهم بينهم ، والذين آمنوا وعملوا صالحاً فى دنياهم ، الكل سيرجعون إلى الله - تعالى - ليحازيهم بما يستحقون يوم القيامة .

وقد أكدت الآية الكريمة رجوعهم إليه - تعالى - يوم القيامة بأسلوب يدبغ . حيث نفت عن الأذهان ما قد يتبادر من أن هلاك الكافرين بالعذاب فى الدنيا ، قد ينجيهم من الحساب والعقاب يوم القيامة ، وأثبتت أن الرجوع يوم القيامة للحساب مؤكد .

قال صاحب فتح القدير : وقوله « وحرام على قرية أهلكتناها . . . » قرأ أهل المدينة « وحرام » ، وقرأ أهل الكوفة « وحرم » - بكسر الحاء وإسكان الراء - ومما لفتان مثل : حلال وحل ...

ومعنى « أهلكتناها » : قدرنا إهلاكها . وجملة « أنهم لا يرجعون ، فى محل رفع مبتدأ » ، وقوله : « حرام » ، خبرها . . . والمعنى : وممتنع البتة عدم رجوعهم لإيماننا للجزاء . . . (١) .

وقال بعض العلماء : وجعل أبو مسلم هذه الآية من تقمة ما قبلها ، ودلاء فيها على بابها . وهى مع لفظ « حرام » ، من قبيل نفي النفي . فيدل على الإثبات ، والمعنى : وحرام على القرية المهلكة . عدم رجوعها إلى الآخرة ، بل واجب رجوعها للجزاء ، فيكون الغرض لإبطال قول من ينكر البعث ، وتعميق ما تقدم من أنه لا كفران لسعى أحد وأنه - سبحانه - سيحييه ويعمله بجنه ، (٢) .

(١) تفسير فتح القدير ج ٣ ص ٤٢٦ الشوكانى .

(٢) تفسير القاسمى ج ١٧ ص ٤٣٠٩ .

ومنهم من يرى أن لا ، زائدة . وأن المراد بالرجوع : رجوع الهالكين إلى الدنيا فيكون المعنى : وحرام على أهل قرية أهلكتهم بسبب كفرهم ومعاصيهم ، أن يرجعوا إلى الدنيا مرة أخرى بعد هلاكهم .

ومنهم من يرى أن المراد بقوله - تعالى - : أنهم لا يرجعون ، أى : لا يرجعون إلى التوبة أو إلى الإيمان .

قال صاحب الكشف : استعير الحرام للممتنع وجوده ، ومنه قوله - تعالى - : : إن الله حرمهما على الكافرين ، أى : منعهما منهم . . . ومعنى الرجوع : الرجوع من الكفر إلى الإسلام والإقامة . ويجاز الآية : إن قوما عزم الله - تعالى - على إهلاكهم غير متصور أن يرجعوا وينيبوا إلى أن تقوم القيامة . . . (١) .

ويبدو لنا أن القول الأول هو أقرب إلى الصواب ، لأنه هو المتبادر من ظاهر الآية ، ولأنه هو المستقيم مع سياق الآيات ، ولأنه بعيد عن التكليف ، إذ أن الآية الكريمة واضحة في بيان أن حكمة الله قد اقتضت أن يرجع المهلكون في الدنيا بسبب كفرهم ومعاصيهم إلى الحياة يوم القيامة ليحاسبوا على أعمالهم كما قال - تعالى - : : قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم . .

ولعل مما يؤيد هذا الرأي قوله - تعالى - : بعد ذلك : : حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج . . .

فإن حتى هنا ابتدائية ، وما بعدها غاية لما يدل عليه ما قبلها فكأنه قيل : إن هؤلاء المهلكين ممنوع البتة عدم رجوعهم إلينا وإنما هم سيستمرون على هلاكهم حتى تقوم الساعة فيرجعوا إلينا للحساب ، ويقولون عند مشاهدته : يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا .

(١) تفسير الكشف ج ٣ ص ١٣٤ .

ويأجوج وماجوج اسمان أعجميان لقبيلتين من الناس . قيل : ما أخوذان من الأوجج - وهى الاختلاط أو شدة الحر . وقيل : من الأوج وهو سرعة الجرى . والمراد بفتحهما : فتح السد الذى على هاتين القبيلتين ، والذى يحول بينهما وبين الاختلاط بغيرهم من بقية الناس .

وهم من كل حذب ينسلون ، والحذب : المرتفع من الأرض كالجبل ونحوه . و ينسلون ، من النسل - بإسكان السين - ، وهو مقاربة الخطو مع الإسراع فى المسير ، يقال : نسل الرجل فى مشيته إذا أسرع ، وفعله من باب قعد وضرب .

أى : وهم - أى يأجوج وماجوج من كل مرتفع من الأرض ، يسرعون السير إلى المحشر ، أو إلى الآماكن التى يوجههم الله - تعالى - إليها ، وقيل إن الضمير دهم ، يعود إلى الناس المسوقين إلى أرض المحشر .

وقوله : د واقرب الوعد الحق . . . معطوف على د فتحت . . . ، أى : فتح السد الذى كان على يأجوج وماجوج ، وقرب موعد الحساب والجزاء .

قال الألوسى : وهو ما بعد الففخة الثانية لا الففخة الأولى . . . وهذا الفتح لسد يأجوج وماجوج يكون فى زمن نزول عيسى من السماء ، وبعد قتله الدجال . فقد أخرج مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث طويل : إن الله - تعالى - يوحى إلى عيسى بعد أن يقتل الدجال : أنى قد أخرجت عبدا من عبادى ، لا يدان لك بقتالهم ، فخرز عبادى إلى الطور ، فيبعث الله - تعالى - يأجوج وماجوج وهم كما قال - سبحانه - ومن كل حذب ينسلون ، ثم يرسل الله عليهم نفزا - أى : رضا - فى رقابهم فيصبحون موتى كموت نفس واحدة ، (١) .

وقوله : د فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا . . . جواب الشرط وهو قوله - تعالى - قبل ذلك د إذا فتحت يأجوج وماجوج . . . والضمير د هى ، للقصة والشأن . ود إذا ، للمفاجأة .

قال الجمل : د قوله : د فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ... فيه وجهان : أحدهما - وهو الأجود - أن يكون هي ضمير القصة . وشاخصة : خبر مقدم . وأبصار : مبتدأ مؤخر ، والجملة خبر لهي لأنها لا تفسر إلا بجملة مصرح بجزأها ... (١) .

والمعنى : لقد تحقق ما أخبرنا به من أمارات الساعة ، ومن خروج يأجوج ومأجوج ، ومن عودة الخلق إلينا للحساب ... ورأى المشركون كل ذلك فإذا بأبصارهم سرفة الأجفان لا تكاد تطرف من شدة الهول والفرع .

يقال : شخص بصر فلان يشخص شخصاً فهو شاخص ، إذا فتح عينيه وصار لا يستطيع تحريكهما .

وقوله : د يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا ، مقول لقول محذوف .

أي : أن هؤلاء الكافرين يقولون وهم شاخصو البصر : يا هلاكنا أقبل فهذا أوانك ، فإننا قد كنا في الدنيا في غفلة تامة عن هذا اليوم الذي أحضرنا فيه للحساب .

وقوله : د بل كنا ظالمين ، لإضراب عن وصف أنفسهم بالغفلة ، إلى وصفها بالظلم وتجاوز الحدود .

أي : لم تكن في الحقيقة في غفلة عن هذا اليوم وأحواله ، فقد أخبرنا وعلنا به ، بل الحقيقة أننا كنا ظالمين هؤلاء الرسل لأننا لم نطعمهم ، وكنا ظالمين لأنفسنا حيث عرضناها لهذا العذاب الأليم .

وهكذا يظهر الكافرون الندامة والحسرة في يوم لا ينفعهم فيه ذلك .

وقوله - سبحانه - : د إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ... زيادة في تقريرهم وتوبيخهم .

والحصب - بفتح حين - ما تحصب به النار . أى : يلقى فيها لتزداد به اشتعالا
كالحصب والحشب ..

أى : إنكم - أيها الكافرون - وأصنامكم التى تعبدونها من دون الله - تعالى -
وقود جهنم ، وزادها الذى تزداد به اشتعالا .

وفى إلقاء أصنامهم معهم فى النار مع أنها لا تعقل ، زيادة فى حسرتهم
وتبكيتهم ، حيث رأوا بأعينهم مصير ما كانوا يتوهمون من ورائه المنفعة .

قال صاحب الكشف : فإن قلت لم قرنوا بألهمهم ؟ قلت : لأنهم لا يزالون
لمقارنتهم فى زيادة غم وحسرة ، حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم والنظر إلى
وجه العدو باب من العذاب ، ولأنهم قدروا أنهم يستشفعون بهم فى الآخرة ،
ويستغفون بشفاعتهم ، فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا ، لم يكن شيء
أهبط إليهم منهم ، (١) .

وجملة : أنتم لها واردون ، بدل من : حصب جهنم ، ، أو مستأنفة .

أى : أنتم - أيها الكافرون - ومعكم أصنامكم داخلون فى جهنم دخولا
لا مفر لكم منه .

وجاء الخطاب بقوله : أنتم ، على سبيل التغليب ، وإلا فالجميع داخلون فيها .
ولا يدخل فى هذه الآية ما عبده هؤلاء المشركون من الأنبياء والصالحين
كموسى والعزير والملائكة ، فإن عبادتهم لهم كانت عن جهل وضلال منهم ،
فإن هؤلاء الأخيار ما أمروهم بذلك ، وإنما أمروهم بعبادة الله - تعالى - وحده .
ثم أقام - سبحانه - هؤلاء الكافرين الأدلة على بطلان عبادتهم لتخير
فقال : لو كان هؤلاء آية ما وردوها .

أى : لو كان هؤلاء الأصنام المعبودون من دون الله آلهة حقا - كما زعمتم
أيها الكافرون - ما ألقى بهم فى النار ، وما قذفوا فيها كما يقذف الحطب ،

وحيث تبين لكم دخولهم إياه ، فقد ثبت بطلان عبادتكم لها ، وأن هذه الآلهة المزعومة لا تملك الدفاع عن نفسها فضلا عن غيرها .

وقوله « وكل فيها خالدون » ، تذييل مقرر لما قبله . أى : وكل من العابدين والمعبودين باقون في هذه النار على سبيل الخلود الأبدى .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ببيان حال الكافرين في جهنم فقال :
« لهم فيها زفير »

أى : لهم فيها تنفس شديد يخرج من أقصى أفواههم بصعوبة وعسر ، كما هو شأن المغموم المحزون . وأصل الزفير : ترديد النفس حتى تنتفخ منه الصلوع .

« وهم فيها لا يسمعون » ، أى : وهم في جهنم لا يسمعون ما يريحهم ، وإنما يسمعون ما فيه تؤيبخهم وعذابهم ، أى : وهم فيها لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة ما هم فيه من هول وخوف .

وبعد هذا الحديث الذى ترتجف له القلوب . . . أتبع القرآن ذلك بحديث آخر تسر له النفوس ، وتشرح له الصدور ، فقال - تعالى - :

« إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ ، أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا الْقَرَعِ الْأَكْبَرُ وَتَلْقَاهُمُ فِيهَا الْمَلَائِكَةُ ، هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) » .

والحسنى : تأنيت الأحسن ، وصفة لموصوف محذوف .

أى : إن الذين سبقت لهم منا في دنياهم المنزلة الحسنى بسبب إيمانهم الخالص لأهلهم الصالح ، وقولهم الطيب .

« أولئك » ، الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ، عنها مبعدون ، أى : عن « أولئك » ، الموصوفون بتلك الصفات السيئة ، عنها مبعدون ، أى : عن رحمة الله - تعالى - ورحمته .

وقوله : ولا يسمعون حسيسها ، تأكيد لعدم عن النار . وأصل الحسيس الصوت الذى تسمعه من شيء قريب منك .

أى : هؤلاء المؤمنون الصادقون الذين سبقت لهم من خالقهم الدرجة الحسنى لا يسمعون صوت النار ، الذى يحس من حركة لحيها وهيجانها ، لأنهم قد استقروا فى الجنة ، وصاروا فى أمان وأطمئنان .

وقوله - سبحانه - : وهم فيها اشتهت أنفسهم خالدون ، بيان لغورهم بأنهم ما تتمناه الأنفس بعد بيان بعدم عن صوت النار .

أى : وهم فيها تتمناه أنفسهم ، ونشتهيهم أنفسنا ، وتشرح له صدورهم ، خالدون خلودا أبديا لا ينفضه حزن أو انقطاع .

وقوله - تعالى - : لا يحزنهم الفزع الأكبر . . . بيان لنجاتهم من كل ما يفزعهم ويدخل القلق على نفوسهم .

أى : لأن هؤلاء الذين سبقت لهم منا الحسنى ، لا يحزنهم ما يحزن غيرهم من أهوال يشاهدونها ومحسونها فى هذا اليوم المصيب ، وهو يوم القيامة وما يشتمل عليه من مواقف متعددة . فالمراد بالفزع الأكبر : الخوف الأكبر الذى يعترى الناس فى هذا اليوم .

وفضلا عن ذلك فإن الملائكة تستقبلهم بفرح واستبشار ، فنقول لهم على سبيل التهئة : ه هذا يومكم الذى كنتم توعدون ، به فى الدنيا من خالقكم - عز وجل - . فى مقابل إيمانكم وعملكم الصالح .

قالو : وهذا الاستقبال من الملائكة للمؤمنين ، يكون على أبواب الجنة ، أو عند الخروج من القبور .

ثم ختم - سبحانه - سورة الانبياء ببيان جانب من أحوال هذا الكون يوم القيامة ، وبيان سنته فى خلقه ، وبيان نعمه على عباده ، وبيان ما أمر به نبيه - صلى الله عليه وسلم - ، فقال - تعالى - :

« يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِّلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ
نَعِيدُهُ ، وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ
بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا
لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا
يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا
فَقُلْ أَذْشَكُم عَلَىٰ سِوَاءِ ، وَإِنْ أَذْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩)
إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَذْرِي لَعَلَّةُ
فِتْنَةٍ لَّكُمْ وَمتاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا
الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢) » .

وقوله - سبحانه - : « يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِّلِ لِلْكِتَابِ ... »
الظرف فيه منصوب بقوله - تعالى - قبل ذلك ، لا يحزنهم الفزع الأكبر ،
أو بقوله - سبحانه - : « وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ » .

وقوله : « نَطْوِي » ، من الطوى وهو ضد النشر . والسجل : الصحيفة التي
يكتب فيها .

والمراد بالكتب : ما كتب فيها من الألفاظ والمعاني ، فالكتب بمعنى
المكتوبات . واللام بمعنى على .

والمعنى : إن الملائكة تتلقى هؤلاء الأخيار الذين سبق لهم من الله
- تعالى - الحسنى بالفرح والسرور ، يوم يطوى - سبحانه - السماء طياً مثل
الصحيفة على ما فيها من كتابات .

وفي هذا التشبيه إشعار بأن هذا الطى بالنسبة لقدرته - تعالى - في منتهى السهولة والبسر ، حيث شبه طى السماء بطى الصحيفة على ما فيها .

وقيل : إن لفظ « السجل » اسم للملك من الملائكة ، وهو الذى يطوى كتب أعمال الناس بعد موتهم ...

والإضافة في قوله « كطى السجل » من إضافة المصدر إلى مفعوله والجار والمجرور صفة لمصدر مقدر . أى : يطوى السماء طيا كطى الرجل أو الملك الصحيفة على ما كتب فيها .

وقرأ أكثر القراء السبعة : « للكتاب » بالإفراد . ومعنى القراءتين واحد لأن المراد به الجنس فيشمل كل الكتب .

وقوله - تعالى - : « كما بدأنا أول خلق نعيده » بيان لصحة الإعادة قياسا على البدء ، إذ الكل داخل تحت قدرته - عز وجل - .

أى : نعيد أول خلق لإعادة مثل بدئنا إياه ، دون أن ينالنا تعب أو يمسا لغوب ، لأن قدرتنا لا يعجزها شيء : قال - تعالى - : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ... » .

قال صاحب الكشف : « وما أول الخلق حتى يعيده كما بدأه ؟ قلت : أوله لإيجاده من العدم ، فكما أوجده أولا عن عدم . يعيده ثانيا من عدم » .

وقوله - تعالى - : « وعدا علينا إنا كنا فاعلين » تأكيد للإعادة . ولفظ « وعدا » منصوب بفعل محذوف . و « علينا » في موضع الصفة له .

أى : هذه الإعادة وعدنا بها وعدا كائنا علينا باختيارنا وإرادتنا ، إنا كنا محققين هذا الوعد ، وقادرين عليه ، والعاقل من يقدم في دنياه العمل الصالح الذى ينفعه عند بعثه للحساب .

ثم ساق - سبحانه - سنة من صفته التى لا تتخلف فقال : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ، أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » .

والمراد بالزبور : الكتاب المزبور أى : المكتوب ، مأخوذ من قولهم :
زبرت الكتاب إذا كتبته .

ويشمل هنا جميع الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل والزبور .
والمراد بالذكر : اللوح المحفوظ الذى هو أم الكتاب .
وقيل : المراد بالزبور : كتاب داود خاصة . وبالذكر التوراة ، أو العلم .
والمقصود بالأرض هنا : أرض الجنة .

فيكون المعنى : ولقد كتبنا فى الكتب السماوية ، من بعد كتابتنا فى اللوح
المحفوظ . أن أرض الجنة نورثها يوم القيامة لعبادنا الصالحين .
وهذا القول يؤيده قوله - تعالى - فى شأن المؤمنين : وقالوا الحمد لله الذى
صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض التى كنزنا فيها ، فنعلم أجر
العاملين ، (١) .

ومن المفسرين من يرى أن المراد بالأرض هنا : أرض الدنيا فيكون
المعنى :

ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن هذه الأرض التى يعيش عليها
الناس مؤمنهم وكافرهم ، ستكون فى النهاية لعبادنا الصالحين .

قال الألوسى ما ملخصه : وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أن المراد
بالأرض فى الآية : أرض الجنة ، وإنما الأرض التى يختص بها الصالحون .
لأنها لهم خلقت ، وغيرهم إذا حصلوا فيها فعلى وجه التبعية ، وأن الآية ذكرت
عقب ذكر الإعادة وليس بعدها أرض يستقر عليها الصالحون ، ويمتنع الله بها
عليهم سوى أرض الجنة .

وفى رواية أخرى عن ابن عباس أن المراد بها أرض الدنيا يرثها المؤمنون .
ويستولون عليها .

أخرج مسلم وأبو داود والترمذى عن ثوبان قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن الله - تعالى - زوى لى الأرض فرايت مشارقتها ومغارها ، وإن أمقى سيبلىح لملكها مازوى لى منها ... (١) .

ويبدو لنا أن لا مانع من أن يكون المراد بالأرض التى يرثها العباد الصالحون ، ما يشمل أرض الجنة وأرض الدنيا ، لأنه لم يرد نص يخصص أحد المعنيين .

وقد سار على هذا التعميم الإمام ابن كثير فقال عند تفسيره لهذه الآية : « يقول الله - تعالى - بخبر عما قضاه لهباده الصالحين ، من السعادة فى الدنيا والآخرة ، ووراثه الأرض فى الدنيا والآخرة ، كقوله - تعالى - : « إن الأرض يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ، وقال - سبحانه - : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » .

وأخير - تعالى - أن هذا مكتوب مسطور فى الكتب الشرعية ، فهو كائن لا محالة ، ولهذا قال : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ... » (٢) .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : « إن فى هذا لبلاغاً لقوم عابدين » ، يعود على القرآن الكريم الذى منه هذه السورة .

والبلاغ : الشئ الذى يكفى الإنسان الوصول إلى غايته . يقال : فى هذا الشئ بلاغ أى : كفاية أو سبب لبلوغ المقصد .

أى : إن فى هذا القرآن ، وفيما ذكر فى هذه السورة من آداب وهدايات وعقائد وتشريعات ، لبلاغاً وكفاية فى الوصول إلى الحق ، لقوم عابدين .

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٥٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٨٠ .

وخص العابدين بالذكر ، لأنهم هم المنتفعون بتوجيهات القرآن الكريم ،
إذ العابد لله - تعالى - بإخلاص ، يكون خاشع القلب ، نقي النفس ، مستعدا
للتلقي والتدبر والانتفاع .

ثم بين - سبحانه - أن من مظاهر فضله على الناس أن أرسل إليهم نبيه
- صلى الله عليه وسلم - ليكون رحمة لهم فقال : وما أرسلناك إلا رحمة
للعالمين .

أى : وما أرسلناك - أيها الرسول الكريم - بهذا الدين الحنيف وهو دين
الإسلام ، إلا من أجل أن تكون رحمة للعالمين من الإنس والجن .

وذلك لأننا قد أرسلناك بما يسعدهم في دينهم وفي دنياهم وفي آخرتهم حتى
اتبعوك ، واستجابوا لما جئتكم به ، وأطاعوك فيما تأمرهم به أو تنهاهم عنهم .
وفي الحديث الشريف : إنما أنا رحمة مهداة ، فرسالته - صلى الله عليه
وسلم - رحمة في ذاتها ، ولكن هذه الرحمة انتفع بها من استجاب لدعوتها ،
أما من أعرض عنها فهو الذي ضيع على نفسه فرصة الانتفاع .

ورحم الله صاحب الكشف فقد وضع هذا المعنى فقال : وأرسل - صلى الله
عليه وسلم - رحمة للعالمين ، لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه . ومن خالف
ولم يتبع ، فإنه أتى من عذبه نفسه ، حيث ضيع نصيبه منها . ومثاله : أن يفجر
الله عيناً عذيقة - أى : كبيرة عذبة - ، فيسقى ناس زروعهم ، ومواشيهم بما فيها
فيفلقوا ، ويبقى ناس مفراطون فيضيعوا . فالعين المفجرة في نفسها نعمة من
الله - تعالى - ورحمة للفريقين ، ولكن الكسلان محنة على نفسه ، حيث حرمها
ما ينفعها ، (١) .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يخبر الناس بأن رسالته
لحمتها وسداها الدعوة إلى عبادة الله - تعالى - وحده فقال : قل إنما يوحى
إلى أنما إلهكم إله واحد

أى : قل - يا محمد - للناس : إن الذى أوحاه الله - تعالى - إلى من تكاليف وهدايات وعبادات وتشريعات . . . تدور كلها - حول إثبات وحدانيته - سبحانه - ووجوب إخلاص العبادة له وحده .

قال الآلوسى - رحمه الله - : ذهب جماعة إلى أن فى الآية حصرين . الأول : لقصر الصفة على الموصوف ، والثانى : لقصر الموصوف على الصفة . فالأول : قصر فيه الوحى على الوجدانية .

والثانى : قصر الله - تعالى - على الوجدانية . والمعنى : ما يوحى إلى إلا اختصاص الله بالوجدانية ، ومعنى هذا القصر أنه الأصل الأصيل وما عداه راجع إليه ، أو غير منظور إليه فى جانبه . . . (١) .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : : فهل أنتم مسلمون ، للتحضيض . أى : مادام الأمر كما ذكر لكم فأسلموا لتسلموا .

ثم أرشد - سبحانه - النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى ما يقوله للناس فى حال إعراضهم عن دعوته ، فقال : : فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء وآذنتكم : من الإيدان بمعنى الإعلام والإخبار . ومنه الأذان للصلاة بمعنى الإعلام بدخول وقتها .

قال بعضهم : آذن منقول من آذن إذا علم ، ولكنه كثير استعماله فى إجرائه مجرى الإنذار والتحذير ، (٢) .

أى : فإن أعرضوا عن دعوتك - أيها الرسول الكريم - فقل لهم : لقد أعلمتكم وأخبرتكم بما أمرنى ربى أن أعلمكم وأخبركم به ، ولم أخص أحدا منكم بهذا الإعلام دون غيره ، وإنما أخبرتكم جميعا د على سواء ، أى : حال كونكم جميعا مستوين فى العلم .

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٠٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٢٠٠ .

فقوله : د على سواء ، في موضع الحال من المفعول الأول لأذنتكم . أى :
فقد أعلتكم ما أمرني ربي به حالة كونهم مستوين في هذا العلم .

ويحوز أن يكون الجار والمجرور في موضع الصفة لمصدر مقدر . أى :
فقد أذنتكم إني أنا على سواء .

وقوله - تعالى - : د وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون ، إرشاد منه
- سبحانه - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - إلى ما يقوله لهم - أيضا - في حال
إعراضهم عن دعوته .

و د إن ، نافية . أى : فإن عرضوا عن دعوتك يا محمد ، فقل لهم : لقد
أعلتكم جميعا بما أمرني الله بقبليخه إليكم ، وإني بعد هذا التبليغ والتحذير
ما أدري وما أعرف ، أقرب أم بعيد ما توعدون به من العذاب ، أو من غلبة
المسلمين عليكم ، أو من قيام الساعة ، فإن علم ذلك وغيره إلى الله - تعالى -
وحده ، وما أنا إلى مبلغ عنه .

فهو - سبحانه - الذي يعلم ما تجمرون به وما تسرونه من أقوال وأعمال .
ويعلم - أيضا - ما تسكنونه في نفوسكم من كفر وجحود وكراهية لى
ولاتباعى ، وسيما قبكم - سبحانه - على ذلك العقاب الذى تستحقونه .

وقوله - سبحانه - : د وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ، زيادة
في تأكيد أن علم ما سينزل بهم من عقاب مرده إلى الله - تعالى - وحده .

أى : وإني - أيضا - ما أدري ، لعل تأخير عقابكم - بعد أن أمرضتم عن
دعوتى - باب الامتحان والاختبار لكم ، أو من باب الاستدراج لكم إلى
حين مقدر عنده - سبحانه - ، ثم يأخذكم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر .

وفي إسناد علم ما سينزل بهم إلى الله - تعالى - وحده ، مخوف لهم أى :
مخوف ، وأدب ليس بعده أدب من النبي - صلى الله عليه وسلم - مع الله
- عز وجل - .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : وقال رب احكم بالحق ، وربنا الرحمن المستعان ، أى : قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة وهو يتضرع إلى ربه : رب احكم بيني وبين هؤلاء الذين أذنهم على سواء بالحق ، وربنا الرحمن ، أى : الكثير الرحمة على عباده المستعان ، أى : المطلوب منه العون ، على ما تصفون ، أى : على ما تصفونه بالسنتكم من أنواع الكذب والزور والبهتان .

وقرأ أكثر القراء السبعة ، قل رب احكم بالحق ... ، بصيغة الأمر . وهذه القراءة تدل على أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد أمره الله - تعالى - أن يقول ذلك .

وصيغة ، قال ... ، تدل على أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد امتثل أمر ربه ، فقال ما أمره بقوله .

وبعد : فهذا تفسير لسورة الانبياء ، عليهم الصلاة والسلام - نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة . مدينة نصر

الجمعة ١٧ / ١ / ١٤٠٥ هـ - ١٢ / ١٠ / ١٩٨٤ م

فهرس إجمالى لتفسير «سورة الانبياء»

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة والتحميد	٢٢٩
١	اقرب للناس حسابهم ...	٢٣٥
٧	وما أرسلنا قبلك إلا رجالا ...	٢٤٢
١٠	لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم ...	٢٤٤
١٦	وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا مبين ...	٢٥٠
٢١	أم اتخذوا آلهة من الأرض ...	٢٥٣
٢٦	وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ...	٢٥٧
٣٠	أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ...	٢٦٠
٢٤	وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ...	٢٦٦
٤٢	قل من يكاثركم بالليل والنهار ...	٢٧٤
٤٨	ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ...	٢٨١
٥١	ولقد آتينا إبراهيم رعهه من قبل ...	٢٨٣
٥٩	قالوا من فعل هذا بآلهتنا ...	٢٨٨
٦٦	قال اتعبدون من دون الله مالا ينفعكم ...	٢٩٢
٧٤	ولوطا آتينا حكما وعلما ...	٢٩٧
٧٦	ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له ...	٢٩٩
٧٨	وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرف ...	٣٠٠
٨٣	وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر ...	٣٠٩
٨٥	وإسماعيل وإدريس وذا السكفل ...	٣١٢
٨٧	وذا النون إذ ذهب ماضيا ...	٣١٦
٨٩	وزكريا إذ نادى ربه ...	٣١٧
٩١	والقى أحصنت فرجها ...	٣١٨
٩٢	إن هذه أمتكم أمة واحدة ...	٣١٩
٩٣	وتقطعوا أمرهم بينهم ...	٣٢٥
١٠١	إن الذين سبقتم من الحسنى ...	٣٢٧
١٠٤	يوم نطوى السماء كطى السجل لا يكتب ...	

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة الحج

دكتور
محمد شبيب طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

الجزء السابع عشر

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)
، صدق الله العظيم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه.

أما بعد : فهذا تفسير لسورة الحج ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصاً
لوجهه ، ونافعاً لعباده ، إنه - سبحانه - أكرم مسئول ، وأعتز مأمول .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

المؤلف

د / محمد سيد طنطاوى

تعريف بسورة الحج

١ - سورة الحج هي السورة الثانية والعشرون في ترتيب المصحف .
وعدد آياتها ثمان وتسعون آية في المصحف السكوفي ، وسبع وتسعون في المكي
وخمس وتسعون في البصري ، وأربع وتسعون في الشامي .
وسميت بسورة الحج ، لحديثها بشيء من التفصيل عن أحكام الحج .

٢ - ومن العلماء من يرى أنها من السور المكية ، ومنهم من يرى أنها
من السور المدنية .

والحق أن سورة الحج من السور التي فيها آيات مكية ، وفيها آيات مدنية
فمثلا : الآيات التي تتحدث عن الإذن بالقتال ، من الواضح أنها آيات مدنية ،
لأن القتال شرعه الله - تعالى - بالمدينة ، وكذلك الآيات التي تتحدث عن
أحكام الحج ، لأن الحج فرض بعد الهجرة .

قال الآلوسي بعد أن ذكر أقوال العلماء في ذلك : « والأصح أن سورة
الحج مختلطة ، فيها آيات مدنية ، وفيها آيات مكية ، وإن اختلف في التعمين ،
وهو قول الجمهور » (١) .

وقال بعض العلماء : « والذي يغلب على السورة هو موضوعات السور
المكية وجو السور المكية . فموضوعات التوحيد ، والتخويف من الساعة ،
وإثبات النبوة ، وإنكار الشرك ، ومشاهد القيامة ، وآيات الله المبثوثة في
صفحات الكون ... بارزة في السورة . وإلى جوارها الموضوعات المدنية
من الإذن بالقتال ، وحماية الشعائر ، والوعد بنصر الله لمن يقع عليه البغي
وهو يرد العدوان ، والامر بالجهاد في سبيل الله » (٢) .

٣ - وقد افتتحت السورة الكريمة افتتاحاً حاراً ترشح له النفوس ، حيث تحدثت عن أحوال يوم القيامة ، وعن أحوال الناس فيه ...

قال - تعالى - : يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

٤ - وبعد أن سافت السورة الكريمة نماذج متنوعة لأحوال الناس في هذه الحياة ، وأقامت الأدلة على أن البعث حق ... أتبع ذلك بإشارة المؤمنين بما يشرح صدورهم .

قال - تعالى - : وإن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ، إن الله يفعل ما يريد .

ثم بينت السورة الكريمة أن كل شيء في هذا الكون يسجد لله - تعالى - وأن كثيراً من الناس ينال الثواب بسبب إيمانه وعمله الصالح ، وكثيراً منهم يصيبه العقاب بسبب كفره وفسوقه .

قال - تعالى - : ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ، ومن ين الله فاله من مكرم ، إن الله يفعل ما يشاء .

٥ - وبعد أن عقدت السورة الكريمة مقارنة بين خصمين اختصموا في ربهم ، وبينت عاقبة كل منهما ... أتبع ذلك بمحدث مفصل عن فريضة الحج ، فذكرت سوء عاقبة الكافرين الذين يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ، كما بينت أن الله - تعالى - قد أمر نبيه إبراهيم بأن يؤذن للناس بالحج ، لكي يشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ، كما بشرت الذين يعظمون حرمة الله بالخير وحسن الثواب ، ووصفت من يشرك بالله بأنه كائن آخر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق .

ثم ختمت حديثها عن فريضة الحج ببيان أن الهدى الذى يقدمه الحاج هو من شعائر الله ، فليهم أن يقدموه بإخلاص وسخاء ، وأن يشكروا الله - تعالى - على نعمه .

قال - تعالى - : والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف ، فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا الفقاع والمعتز ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين .

ثم بينت السورة أن الله - تعالى - قد شرع لعباده المؤمنين الجهاد فى سبيله ، وبشروهم بأنه معهم يدافع عنهم ، ويجعل العاقبة لهم ، فقال - تعالى - : وإن الله يدافع عن الذين آمنوا ، إن الله لا يحب كل خوان كفور . أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير

ثم أخذت السورة الكريمة فى تسليية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من قومه .

قال - تعالى - : : وإن يكذبوك فقد كذبت قبلكم قوم نوح وعاد وثمود . وقوم إبراهيم وقوم لوط . وأصحاب مدين وكذب موسى ، فأمليت للكافرين ، ثم أخذتهم فكيف كان نكير . .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله بأن يمشى فى طريقه دون أن يهتم بأذى المشركين ، وأن يجابههم بكلمة الحق بدون خوف أو وجل ، فقال - تعالى - : قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم . .

٧ — وبدد أن بين - سبحانه - مظاهر حكمته فى هداية من اهتدى ، وفى

ضلال من ضل ، أتبع ذلك بحديث مستفيض عن ألوان نعمه على خلقه ،
فقال - تعالى - :

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ، إن الله لطيف خبير ... ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض ، والفلك تجري فى البحر بأمره ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، إن الله بالناس لرؤوف رحيم . وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ، إن الإنسان لكفور ... »

٨ - ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بقداين : أحدهما : وجهه إلى الناس جميعاً ، وبين لهم فيه ، أن الذين يعبدونهم من دون الله لن يخلفوا ذباباً ولو اجتمعوا له .

والثانى : وجهه - سبحانه - إلى المؤمنين ، وأمرهم فيه بمداومة الركوع والسجود والعبادة له - عز وجل - وبالمواظبة على فعل الخير وعلى الجهاد فى سبيله .

قال - تعالى - : « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبىكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ، وفى هذا ليسكن الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم ، فنعم المولى ، ونعم النصير . »

٩ - هذا : والمتأمل فى هذه السورة الكريمة ، يرى أن من أبرز ما اهتمت بالحديث عنه ما يأتى :

(١) بيان أنواع الناس فى هذه الحياة ، وعاقبة كل نوع . نرى ذلك واضحاً فى قوله - تعالى - :

« ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ، ويتبع كل شيطان مريد . »

« ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . »

« ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة . »

(ب) إقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى أن البعث حق ، بأسلوب منطقي واضح ، يقنع العقول ، ويهدي القلوب .

نرى ذلك في قوله - تعالى - : « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإذا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً . وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور . »

(ح) الحديث المفصل عن فريضة الحج ، وما اشتملت عليه هذه الفريضة من منافع وآداب وأحكام .

(د) المقارنة بين مصير المؤمنين ومصير الكافرين ، نرى ذلك في آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : « هذان خصمان اختصموا في ربهم . فالذين كفروا قطع لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم . »

« إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ، يحملون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير . »

(هـ) بيان سنن الله في خلقه ، والتي من أعظمها : دفاعه عن المؤمنين ،

ونصره لهم، ترى ذلك في مثل قوله - تعالى - : «إن الله يدافع عن الذين آمنوا»
ولينصرون الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز .

والتي من أعظمها - أيضا - عدم إخلاف وعده . قال - تعالى - :
«ويستجلبونك بالعذاب وإن يخلف الله وعده ، وإن يوما عند ربك كألف
سنة بما تعدون . وكأين من قرية أهلكنا وهي ظالمة ثم أخذناها إلى
المصير .»

(و) يمتاز أسلوب السورة - في مجموعة - بالقوة والعنف ، والشدة
والرهبة ، والإنذار والتحذير ، وغرس التقوى في القلوب بأسلوب تخشع
له النفوس .

نرى ذلك في كثير من آياتها ، ومن ذلك ، قوله - تعالى - :

«يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تأذول
كل مرصعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى
وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .»

وقوله - تعالى - : «ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير
أو تهوى به الریح في مكان سحيق .»

وقوله - تعالى - : «فالذين كفروا قطعت لهم نياح من نار يصب من فوق
رءوسهم الحميم . يصهر به مافي بطونهم والجلود . ولهم مقامع من حديد .»

وقوله - سبحانه - : «فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة ، فهي خاوية
على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد . أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم
قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي
القلوب التي في الصدور .»

وبجانب هذه الشدة في الأسلوب ، نرى في السورة - أيضا - أسلوبا آخر
فيه من اللين والرفقة والبشارة المؤمنين مافيه ، وبكيفية قوله - تعالى - :

« إن الله يدخل الذين آمنوا و عملوا الصالحات جنات تجري من تحتها
الأنهار، يحملون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير وهدوا
إلى الطيب من القول ، وهدوا إلى صراط الحميد ، .
نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من عباده المؤمنين الصادقين ، وأن
يحشرنا معهم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

كتبه الراجى عفوه

محمد سيد طنطاوى

مفتى الديار المصرية

التفسير

قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) » .

افتتحت سورة الحج بهذا النداء الموجه من الخالق - عز وجل - إلى الناس جميعا ، يأمرهم فيه بأعمال أمره ، وباجتناب نهيه ، حتى يفوزوا برضاه يوم القيامة .

وقوله - سبحانه - : « إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ، تعليل للأمر بالتقوى .

قال القرطبي : « الزلزلة شدة الحركة ، ومنه قوله - تعالى - : « وَزَلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ... » ، وأصل الكلمة من زل فلان عن الموضع ، أى : زال عنه وتحرك ، وزلزل الله قدمه ، أى : حركها وهذه اللفظة تستعمل في تهويل الشيء ، (١) .

وقال الألوسي : « والزلزلة : التحريك الشديد ، والإزعاج العنيف ، بطريق التكرير ، بحيث يزيل الأشياء من مقارها ، ويخرجها عن مراكزها .

وإضافتها إلى الساعة ، من إضافة المصدر إلى فاعله ، لكن على سبيل المجاز في النسبة كما قيل في قوله - تعالى - : « بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » ؛ لأن المحرك حقيقة هو الله - تعالى - ، والمفعول الأرض أو الناس ، أو من إضافته إلى

المفعول ، ليكن على إجرائه مجرى المفعول به انساها كما في قوله : يا سارق الليلة أهل الدار ... ، (١) .

والمعنى : يأبى الناس انقوا ربكم انقاء تاما ، بأن تصونوا أنفسكم عن كل مالا برضيه ، وبأن تصارعوا إلى فعل ما يحبه ، لأن ما يحدث في هذا السكون عند قيام الساعة ، شيء عظيم ، ترنجف لهولة القلوب ، وتخشع له النفوس .

وقال - سبحانه - : إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، بصيغة الإجمال والإبهام لهذا الشيء العظيم ، لزيادة التهويل والتخويف .

ثم فصل - سبحانه - هذا الشيء العظيم تفصيلا يزيد في وجل القلوب فقال : يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ... ، .

والضمير في ترونها ، يعود إلى الزلزلة لأنها هي المتحدث عنها ، والظرف « يوم » منصوب بالفعل تذهل ، والرؤية بصرية لأنهم يرون ذلك بأعينهم .

والذهول : الذهاب عن الأمر والانشغال عنه مع دهشة وحيرة وخوف وقول عبد الله بن رواحة - رضى الله عنه - :

ضربا يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

أى : أن هذه الزلزلة من مظاهر شدتها ورهبتها ، أنكم ترون الأم بسببها تنسى وتترك وليدها الذى ألقته ثديها . وكأنها لا تراه ولا تحس به من شدة الفزع .

قال صاحب الكشف : « فإن قلت : لم قيل « مرضعة ، دون مرضع ؟ قلت : المرضعة التى هى فى حال الإرضاع . لقمة ثديها الصبي ، والمرضع : التى من شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع فى حال وصفها به ، فقيل : مرضعة ، ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه ، وقد ألقمت الرضيع ثديها

نزعتة عن فيه لما يلحقها من الدهشة و عما أرضعت ، عن إرضاعها : أو عن
الذى أرضعته وهو الطفل . . . (١) .

وقوله - سبحانه - : و نضع كل ذات حمل حملها ، بيان لحالة ثانية تدل
على شدة الزلزلة وعلى عنف آثارها .

أى : وترونها - أيضا - تجعل كل حامل تضع حملها قبل تمامه من
شدة الفزع .

ثم بين - سبحانه - حالة ثالثة للآثار التى تدل على شدة هذه الزلزلة فقال :
و يرى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . .

أى : وترى - أيها المخاطب - الناس فى هذا الوقت العصب ، هينهم كهيئة
السكارى من قوة الرعب والفزع . وما هم على الحقيقة بسكارى ، لأنهم لم
يشربوا ما يسكرهم ولكن عذاب الله شديد . أى : ولكن شدة عذابه - سبحانه -
هى التى جعلتهم بهذه الحالة التى تشبه حالة السكارى فى الذهول والاضطراب ،

وقد أشار صاحب الكشف إلى هذا المعنى فقال : و تراهم سكارى على
التشبيه ، وما هم بسكارى على التحقيق ، ولكن ما رهبهم من خوف عذاب
الله ، هو الذى أذهب عقولهم ، وطير تمييزهم ، وردم فى نحو حال من يذهب
السكر بعقله وتميزه

وقد علق صاحب الانتصاف على عبارة صاحب الكشف هذه فقال :
قال أحمد : والعلماء يقولون : إن من أدلة المجاز صدق تقيضه ، كقولك : زيد
حار ، إذا وصفته بالبلادة ، ثم يصدق أن تقول : وما هو بحار ، فتفى عنه
الحقيقة ، فكذلك الآية ، بعد أن أثبت السكر المجازى فى الحقيقة أبلغ فى
مؤكد الباء . والسر فى تأكيد : التنبيه على أن هذا السكر الذى هو بهم فى
تلك الحالة ليس من المجهود فى شيء ، وإنما هو أمر لم يجهدوا مثله من قبل .

والاستدراك بقوله ، ولكن عذاب الله شديد ، راجع إلى قوله : وما هم
بسكارى ، وكأنه تعليل لإثبات السكر المجازى ، فكأنه قيل : إذا لم يكونوا
سكارى من الخمر فما هذا السكر الغريب وما سببه ؟ فقال : شدة عذاب الله
تعالى . . . (١) .

هذا ، وقد اختلف العلماء في وقت هذه الزلزلة المذكورة هنا ، فمنهم من
يرى أنها تكون في آخر عمر الدنيا ، وأول أحوال الساعة ، ومنهم من يرى
أنها تكون يوم القيامة ، بعد خروج الناس من قبورهم للحساب .

وقد وفي هذه المسألة حقها الإمام ابن كثير فقال ما ملخصه : قال قائلون :
هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا . وأول أحوال الساعة .

وقال آخرون : بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال ، كائن يوم القيامة
في العرصات ، بعد القيام من القبور .

ثم ساق - رحمه الله - سبعة أحاديث استدلل بها أصحاب الرأى الثانى .

ومن هذه الأحاديث ما رواه الشيخان عن أبى سعيد الخدرى قال : قال
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول الله - تعالى - يوم القيامة : يا آدم .
فيقول : لبيك ربنا وسعديك . فينادى بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من
ذريتك بعثا إلى النار ، قال يارب ، وما بعث النار ؟ قال من كل ألف - أراه
قال : تسعمائة وتسعة وتسعين ، حينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد ،
وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . فشق ذلك على
الناس حتى تغيرت وجوههم .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة
وتسعين ومنكم واحد ، ثم أقم في الناس كالشجرة البيضاء في الثور الأسود ،

(١) تفسير الكشاف وحاشيته ج ٣ ص ١٤٢ .

والنبي لا يرجو أن تكونوا ربيع أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: ثلث أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: شطر أهل الجنة، فكبرنا، (١)،

وعلى الرأي الأول تكون الزلزلة بمعناها الحقيقي، بأن تنزاول الأرض وتضطرب، ويعقبها طلوع الشمس من مغربها، ثم تقوم الساعة.

وعلى الرأي الثاني تكون الزلزلة المقصود بها شدة الخوف والفرع، كما في قوله - تعالى - في شأن المؤمنين بعد أن أحاطت بهم جيوش الأحزاب: «هنالك ابتلى المؤمنون وزالوا زلازلا شديداً»، فالمقصود: أصيبوا بالفرع والخوف، وليس المقصود أن الأرض تحركت واضطربت من تحتهم.

وبعد هذا الافتتاح الذي يغرس الخوف في النفوس، ويحملها على تقوى الله وخشيته، ساقط السررة حال فزع من الناس يجادل بالباطل، ويتبع خطرات الشيطان، فقال - تعالى -:

«ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد» (٢) كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٤).

و «من»، في قوله «ومن الناس»، للتبويض، وقوله «يجادل»، من الجدل بمعنى المفاوضة على سبيل المنازعة والمخاصمة والمغالبة، مأخوذ من جدلت الحبل. أي: أحكمت قتله، كان المتجادلين يحاول كل واحد منهما أن يقوى رأيه، ويضعف رأي صاحبه.

والمراد بالمجادلة في الله: المجادلة في ذاته وصفاته وتشريعاته.

وقوله: «بغير علم»، حال من الفاعل في يجادل. وهي حال موضحة لما تشعر به المجادلة هنا من الجهل والعناد.

أى : ومن الناس قوم استولى عليهم الجهل والعناد ، لأنهم يجادلون وينازعون في ذات الله وصفاته ، وفي وحيه وفي أحكامه بغير مستند من علم عقلى أو نقلى ، وبغير دليل أو ما يشبه الدلائل .

وقوله - سبحانه - : « ويتبع كل شيطان مرئيه » معطوف على ما قبله . والمريد والمتمرد : البالغ أقصى الغاية في الشر والفساد ، يقال : مرد فلان على كذا - من باب نصر وظرف - إذا عتا وتجبر واستمر على ذلك .

وأصل المادة للدلالة والتجرد ، ومنه قولهم : شجرة مرادة ، أى : لمسا . لا ورق لها . وغلام أمرد . أى : لم ينبت في ذقنه شعر ...

أى : يجادل في ذات الله وصفاته بغير علم بعلمه ، ويتبع في جداله وتطاوله وعناده ، كل شيطان عار عن الخير ، متجرد للفساد ، لا يعرف الحق أو الإصلاح ، ولا هما يعرفانه ، وإنما هو خالص للشر والغى والمنكر من القول والفعل .

وتقييد الجدال بكونه بغير علم ، يفهم منه أن الجدال بعلم لإحقاق الحق وإبطال الباطل ، سائغ محمود ، ولذا قال الإمام الفخر الرازى : « هذه الآية بمفهومها تدل على جواز المجادلة الحقة ، لأن تخصيص المجادلة مع عدم العلم بالدلائل ، يدل على أن المجادلة مع العلم جائزة ، فالمجادلة الباطلة : هى المرادة من قوله - تعالى - : « ماض به لك إلا جدلا » ، والمجادلة الحقة هى المرادة من قوله : « وجادلهم بالتي هى أحسن » ، (١) .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة هذا المجادل بالباطل ، والمتبع لكل شيطان مرئيه ، فقال : « كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير » . أى : كتب على هذا الشيطان ، وقضى عليه ، أنه من تولاه ، أى اتخذه ولياً وقدوة له ، فإنه يضله ، أى : فهان هذا الشيطان أن يضل تابعه عن كل خير ، ويهديه إلى عذاب السعير ، أى : وأن شأن هذا الشيطان - أيضا - أن

يهدى متبعه إلى طريق النار المستعرة وفي التعبير بقوله « ويهديه إلى عذاب السعير » تهكم بمن يتبع هذا الشيطان ، إذ سمي - سبحانه - قيادة الشيطان لاتباعه هداية .

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هاتين الآيتين نزلتا في شأن النضر ابن الحارث ، أو العاص بن وائل ، أو أبي جهل . . . وكانوا يجادلون النبي - صلى الله عليه وسلم - بالباطل . . .

ومن المعروف أن نزول هاتين الآيتين في شأن هؤلاء الأشخاص ، لا يمنع من عمومهما في شأن كل من كان على شاكلة هؤلاء الأتقياء ، إذ العمرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ولذا قال صاحب الكشاف : وهي عامة في كل من تعامل في الجدل فيما يجوز على الله وما لا يجوز ، من الصفات والأفعال . ولا يرجع إلى علم . ولا بعض فيه بضرر قاطع ، وليس فيه إنباع للبهتان ، ولا نزول على النصفة ، فهو يخبط عشواء ، غير فارق بين الحق والباطل (١) .

ثم ساق - سبحانه - أم القضايا التي جادل فيها المشركون بغير علم ، واتبعوا في جدالهم فيها خطوات الشيطان ، وهي قضية البعث ، وأقام الأدلة على صحتها ، وعلى أن البعث حق وواقع فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نَّفْثَةٍ ، ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ، ثُمَّ مِّن مَّضْغَةٍ مَُّخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مَخْلُوقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَتُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ، ثُمَّ لِّنَبْلُغُنَّ أَشَدَّكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَّن يَمُوتُ ، وَمِنْكُمْ مَّن يَرْدُ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لَكِنِّي لَا يَعْلَمُ مِزَانِ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا

عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج (٥) ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير (٦) وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور (٧) .

قال أبو حيان في البحر : لما ذكر - سبحانه - من يجادل في قدرة الله بغير علم ، وكان جدالهم في الحشر والمعاد ، ذكر دليلين واضحين على ذلك ، أحدهما : في نفس الإنسان وابتداء خلقه . وتطوره في أطوار سبعة ، وهي : التراب ، والنطفة ، والعلقة ، والمضغة ، والإخراج طفلا ، وبلوغ الأشد ، والتوفى أو الرد إلى أرذل العمر .

والدليل الثاني : في الأرض التي يشاهد تنقلها من حال إلى حال . فإذا اعتبر العاقل ذلك ثبت عنده جوازه عقلا ، فإذا ورد الشرع بوقوعه ، وجب التصديق به ، وأنه واقع لا محالة (١) .

والمراد بالناس هنا : المشركون وكل من كان على شككتهم في إنكار أمر البعث واستبعاده . لأن المؤمنين يعترفون بأن البعث حق ، وأنه واقع بلا أدنى شك أو ريب .

والمعنى : يا أيها الناس إن كنتم في شك من أمر إعادتكم إلى الحياة مرة أخرى للحساب يوم القيامة ، فانظروا وتفكروا في مبدأ خلقكم ، فإن هذا التفكر من شأنه أن يزيل هذا الشك ، لأن الذي أوجدكم الإيجاد الأول . وخلقكم من التراب . قادر على إعادتكم إلى الحياة مرة أخرى ، إذا إعادة - كما يعرف كل عاقل - أيسر من ابتداء الفعل .

وقد قرب - سبحانه - هذا المعنى في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى : - وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم (٢) .

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٦ ص ٣٥١ .

(٢) سورة الروم الآية ٣٧ .

وأنى - سبحانه - بأن المفيدة لك فقال : . إن كنتم في ريب من البعث ، مع أن كونهم في ريب أمر محقق نزولاً للتحقق منزلة المشكوك فيه ، ونزولها لموضوع البعث عن أن يتحقق الشك فيه من أى عاقل ، وتوبيخاً لهم لوضعهم الأمور في غير مواضعها .

ووجه الإتيان فى الدالة على الظرفية ، للإشارة إلى أنهم قد امتا كهم الريب وأحاط بهم إحاطة الظرف بالمظروف .

قال الألوسى : . وقوله : «فإنا خلقناكم من تراب ، دليل جواب الشرط ، أو هو الجواب بتأويل ، أى : إن كنتم في ريب من البعث ، فانظروا إلى مبدأ خلقكم ليحول ريبكم ، «فإنا خلقناكم من تراب ، وخلقهم من تراب فى ضمن خلق أبيهم آدم منه . . .» (١) .

وقال بعض العلماء ماملخصه : «التحقيق فى معنى قوله - تعالى - «فإنا خلقناكم من تراب ، : أنه - سبحانه - خلق أباهم آدم منه ، ثم خلق من آدم زوجه حواء ، ثم خلق الناس منهما عن طريق التباسل .

فلما كان أصلهم الأول من تراب ، أطلق عليهم أنه خلقهم من تراب ، لأن الفروع تتبع الأصل . وعلى ذلك يكون خلقهم من تراب هو الطور الأول . . .» (٢) .

ثم بين - سبحانه - الطور الثانى من أطوار خلق الإنسان فقال : . ثم من نطفة ، . وهذا اللفظ مأخوذ من النطف - بفتح النون مع التشديد ولما كان الطاء - بمعنى السيلان والتقاطر . يقال : نطفت القرية ، إذا تقاطر الماء منها بقلّة .

والنطفة تطلق فى اللغة : على الماء القليل ، والمراد بها هنا : الماء المختلط من الرجل والمرأة عند الجماع ، والمعبر عنه بالمنى

(١) تفسير الألوسى ج ١٧ ص ١٦ .

(٢) أضواء البيان ج ٥ ص ٢٠ الشيخ محمد الأمين العنقيطى - رحمه الله - .

وقوله : . ثم من مضغة ، هو الطور الرابع ، والمضغة قطعة صغيرة من اللحم تتحول إليها العلقة .

وقوله - سبحانه - : « خلقة وغير خلقة » صفة للمضغة .

والمراد بالخلقة : التامة الخلقة ، السالمة من العيوب ، والمراد بخير الخلقة : ما ليست كذلك كان تكون ناقصة الخلقة .

وقد اكتفى بهذا المعنى صاحب الكشف فقال : والمخلقة : المستواة للمساء من النقصان والعيب . يقال : خلق السوق والعود ، إذا سواه وملسه ، من قولهم : صخرة خلفاء ، إذا كانت ملساء . كان الله - تعالى - يخلق المصنغ متفاوتة . منها : ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب ، ومنها ما هو على عكس ذلك التفاوت ، تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم وققصانهم . . . ، (١) .

وقيل : « خلقة » ، أى : مستبينة الخلق ، ظاهرة التصوير . « وغير خلقة » ، أى : لم يستبين خلقها ولا ظهر تصويرها كالسقط الذى هو مضغة ولم تظهر صورته الإنسانية بعد .

وقيل : « خلقة » ، أى : نفخ فيها الروح . « وغير خلقة » ، أى : لم ينفخ فيها الروح .

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه صاحب الكشف واكتفى به أولى بالقبول ، لأنه هو المشهور من كلام العرب . فهم يقولون : حجر أخلق أى : أملس مصت لا يؤثر فيه شيء ، وصخرة خالقا ، أى : ليس بها تشويه أو كسر .

وقوله - تعالى - : « لنبين لكم ، متعلق بقوله : « خلقتناكم » ، أى : خلقتناكم على هذا النحو العجيب ، وفي تلك الأطاوار البديعة ، لنبين لكم كمال قدرتنا ، وبلغ حكمةنا . وأنتا لا يعجزنا إعادة كل حى إلى الحياة بعد موته .

وحذف مفعول ، نبين ، الإشعار بأن أفعاله - تعالى - الدالة على كمال قدرته ، لا يحيط بها وصف ، ولا تندما عبارة .

أى : لتبين لكم عن طريق المشاهدة ، ما يدل على كمال قدرتنا دلالة يعجز الوصف عن الإحاطة بها .

وقوله - تعالى - : : ونقر في الأرحام ما تشاء إلى أجل مسمى . كلام مستأنف مسوق لبيان أحوال الناس بعد تمام خلقهم ، وتوارد تلك الأطوار عليهم .

أى : ونقر ونثبت في أرحام الأمهات ما نشاء لإقراره وثبوته فيهما من الأجنة والأحمال ، إلى أجل معلوم عندنا ، وهو الوقت المحدد للولادة والوضع ، وما لم نشأ لإقراره من الحمل لفظته الأرحام وأسقطته ، إذ كل شئ بمشيئتنا وإرادتنا .
وقوله - تعالى - : : ثم نخرجكم طفلا ، بيان للطور الخامس من أطوار خلق الإنسان .

أى : ثم نخرجكم من أرحام أمهاتكم بعد استقراركم فيها إلى الوقت الذى حددناه ، طفلا صغيرا . أى : أطفالا صغارا ، وإنما جاء مفردا باعتبار إرادة الجنس الشامل للواحد والمتعدد ، أو باعتبار كل واحد منهم ، وهو حال من ضمير المخاطبين .

ومن الأساليب العربية المعهودة ، أن الاسم المفرد إذا كان اسم جنس .
يكثر إطلاقه على الجمع ، ومن ذلك قوله تعالى - : : واجعلنا للمتقين إماما ،
أى : أئمة . وقوله - سبحانه - : : فإن طبن لكم عن شئ منه أنفسا ،
أى : أنفسا ، ومن هذا القبيل قول الشاعر :

وكان بنو فزارة شر عم فسكنت لهم كشر بنى الأخينا
أى : شر أعمام .

وقوله - تعالى - : : ثم لتبغضوا أشدكم ، بيان للطور السادس والأشد :

قوة الإنسان وشدة واشتعال حرارته . من الشدة بمعنى الارتفاع والقوة . يقال : شدة النهار إذا ارتفع ، وهو مفرد جاء بصيغة الجمع . أو جمع لا واحده ، أو جمع شدة - كأنعم ونعمة .

قال الآلوسى : « والجملة علة لنخرجكم ، وهى معطوفة على علة أخرى مناسبة لها .

كأنه قبل : ثم نخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً ثم لتبلغوا أشدكم ، أى كما لكم فى القوة والعقل والتمييز . وقيل : علة لمحدوف . والتقدير : ثم نملأكم لتبلغوا أشدكم . . .

وتقديم التبيين « لنبين لكم » على ما بعده ، مع أن حصوله بالفعل بعد الشكل ، الإيذان بأنه غاية الغايات ومقصود الذات .

وإعادة اللام فى « لتبلغوا » مع تجريد فقر ونخرج عنها ، للاشعار بأصالة البلوغ بالنسبة إلى الافرار والاخراج ، إذ عليه يدور التكليف المؤدى إلى السعادة والشقاوة ،^(١) .

وقوله - سبحانه - : « ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لىكى لا يعلم من بعد علم شيئاً » بيان للطور السابع والآخر .

أى : منكم - أيها الناس - من يبلغ أشده فى هذه الحياة ، ومنكم من يموت قبل ذلك ، ومنكم من يعيش إلى أرذل العمر أى : أخسه وأدونه ، فيصير من بعد علمه بالأشياء وفهمه لها ، لا علم له ولا فهم ، شأنه فى ذلك شأن الأطفال .

قال - تعالى - : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين ، فالآية الكريمة تصور أطوار خلق الإنسان ومراحل حياته أكل تصوير ، للتنبيه على مظاهر قدرة الله - تعالى - ، وعلى أن البعث حق وصدق .

وبعد إقامة هذا الدليل من نفس الإنسان وتطور خلقه على صحة البعث ،
ساق - سبحانه - الدليل الثاني عن طريق مشاهدة الأرض وتنقلها من حال
إلى حال ، فقال - تعالى - « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت
وربت وأنبثت من كل زوج بهيج » ،

وقوله : « هامدة » أى : يابسة . يقال : همدت الأرض تهمد - بضم الميم -
همودا ، إذا يبست .

ومعنى : « اهتزت » : تحركت . يقال : هز فلان الشيء فاهتز ، إذا حركه
فتحرك .

ومعنى : « ربت » ، زادت بسبب تداخل الماء والنبات فيها . يقال : ربا الشيء
يربو ربوا ، إذا زاد ونما . ومنه الربا والربوة .

أى : وترى - أيها العاقل - يهرك الأرض يابسة لا نبات فيها . فإذا
ما أنزلنا عليها بقدرتنا الماء ، تحركت بسبب خروج النبات منها ، وانتفخت
بسبب ما يتخللها من الماء والنبات ، وأنبثت بعد ذلك من كل صنف بهيج فضر
حسن المنظر .

وشبيه بهذه الآية فى أن لإحياء الأرض بعد موتها ، دليل على لإحياء الناس
بعد موتهم ، بقدرة الله - تعالى - وإرادته ، قوله - عز وجل - : « ومن
آياته أنك ترى الأرض خاشعة - أى يابسة - فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت
وربت ، إن الذى أحياءها للحى الموتى إنه على كل شيء قدير » (١) .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على وحدانيته وقدرته فقال : « ذلك
بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شيء قدير » .

واسم الإشارة يعود إلى المذكور من خلق الإنسان وإحياء الأرض
بعد موتها .

أى : ذلك الذى ذكرناه لكم دليل واضح ، وبرهان قاطع ، على أن الله - تعالى - هو الإله الحق ، الذى يجب أن تخلصوا له العبادة والطاعة ، لأنه هو وحده الخالق لكل شئ ، ولأنه هو وحده الذى يعيد الموتى إلى الحياة ، ولأنه هو وحده الذى لا يعجزه شئ .

وخص - سبحانه - إحياء الموتى بالذكر ، مع أنه من جملة الأشياء المقدور عليها ، للتصريح بما هو محل النزاع وهو البعث ، ولدحض شبه المنكرين له . ثم أكد - سبحانه - ذلك تأكيداً دامغاً فقال : « وأن الساعة ، وما تشتمل عليه من حساب ونواب وعقاب ، آتية لا ريب فيها ، أى : لا ريب ولا شك فى إتيانها فى الوقت الذى يريده الله - تعالى - .

« وأن الله ، - تعالى - وحده » يبعث من فى القبور ، ليحاسبهم على أعمالهم . وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أقامت أعظم الأدلة وأوضحها على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وعلى أن البعث حق وصدق وأنه لا ريب فيه . ثم ساقّت السورة الكريمة بعد ذلك نموذجين لصنفين من الناس ، أحدهما : متكبر مغرور ، والآخر مذبذب لا ثبات له فى عقيدة فقال - تعالى - :

« وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِي عَظْفُهُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ، وَأَنَّ اللَّهَ لِبَئْسَ بَظْلَامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ، ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَمَا لَا يَضُرُّهُ ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُوا لِمَن ضَرُّهُ أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِ ، لِبَنَسِ الْمَوْتَى وَلِبَنَسِ الْعَشِيرِ (١٣) » .

قال ابن كثير - رحمه الله - : لما ذكر - تعالى - حال الضلال الجاهل المقلدين لغيرهم في الآية الثالثة من هذه السورة وهي قوله - سبحانه - : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد » ، ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع ، فقال : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » ، أى : بلا عقل صحيح ، ولا نقل صحيح صريح . بل بمجرد الرأى والهوى ، (١) .

ولعل مما يؤيد مذهب إمامه ابن كثير من أن الآية الثالثة من هذه السورة في شأن المقلدين لغيرهم ، أنه - سبحانه - قال فيها في شأنهم : « ويتبع كل شيطان مريد » .

أما في هذه الآية فقد قال في شأن هذا النوع من الناس : « ثانی عطفه لیضل عن سبیل الله . . . » ، أى : لیضل غیره ویصرفه عن طاعة الله - تعالى - وإتباع طریق الحق .

وقد نفت الآية السکرمة عن المجادل ، استناده إلى أى دلیل أو ما يشبه الدلیل ، فهو يجادل في ذات الله - تعالى - وفي صفاته ، بغير علم ، يستند لإمامه وبغير هدى ، يهديه ويرشده إلى الحق وبغير كتاب منير ، أى : وبغير وحى یغیر عقله وقلبه ، وبوضوح له سبیل الرشاد .

فأنت ترى أن الآية قد جردت هذا المجادل من أى مستند لإمامه في جداله سواء كان عقلياً أم نقلياً ، بل أثبت له الجهالة من جميع الجهات .

ثم صورته السورة السکرمة بعد ذلك بتلك الصورة المزرية ، صورة الجاهل المغرور المتعجرف ، فقال - تعالى - : « ثانی عطفه لیضل عن سبیل الله » .

وقوله « ثانی » ، من الثقی بمعنى اللی والمیل عن الإستقامة . يقال : فلان ثقی الشئ إذا رد بعينه على بعض فائثنى أى : مال والتوى .

والعطف - بكسر العين - الجانب - وهذا التعبير كناية عن غروره وصفه مع جهله . أى : أنه مع جداله بدون علم ، متكبر معجب بنفسه ، معرض عن الحق ، مجتهد فى إضلال غيره عن سبيل الله - تعالى - وعن الطريق الذى يوصل إلى الرشاد .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة هذا الجاهل المغرور المضل لغيره فقال :
« له فى الدنيا خزي ، أى : هوان وذلة وصغار .

« ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ، أى : ونجمه - يوم القيامة يدرك طعم العذاب المحرق . ويصطلى به جزاء غروره وشموخه فى الدنيا بغير حق .
وتقول له ملائكتنا وهى تصب عليه ألوان العذاب وذلك بما قدمت يداك ، أى : ذلك الذى تذوقه من عذاب محرق سببه : جهلك وغرورك وإصرارك على الكفر ، وحرصك على إضلالك لغيرك .

وأستد - سبحانه - سبب ما نزل بهذا المكافاة من خزي وعذاب إلى يديه ، لأنهما الجارحتان اللتان يزاوول بهما أكثر الأعمال .

وقوله - سبحانه - « وأن الله ليس بظلام للعبيد » ، بيان لعدله - تعالى - مع عباده أى : وأن الله - تعالى - ليس بذى ظلم لعباده أصلاً ، حتى يعذبهم بدون ذنب ، بل هو عادل رحيم بهم ، ومن مظاهر عدله ورحمته أنه يضاهف الحسنات ، ويعاقب على السيئات ، ويعفو عن كثير من ذنوب عباده .

ثم بين - سبحانه - نوعاً آخر من الناس ، لا يقل جرماً عن سابقه فقال - تعالى - : « ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه . . . »

قال صاحب الكشف : « على حرف ، أى : على طرف من الدين لافى وسطه وقلبه . وهذا مثل أن يكونهم على قلق واضطراب فى دينهم - لا على سكون وطمأنينة ، كالذى يكون على طرف من العسكر ، فإن أحس بظفر

وغنيمة قروا اطمأن ، وإلا فر وطار على وجهه . . . (١) .

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما أخرجه البخاري عن ابن عباس قال : كان الرجل يقدم المدينة ، فإذا ولدت امرأته غلاما ، وتنجت خيله قال : هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ، ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء . . . (٢) .

والمتأمل في هذه الآية السكرية يراها قد صورت المذنبين في عقيدتهم أكل تصوير ، فهم يقيسون العقيدة بميزان الصفات التجارية ، إن ربحوا من ورائها فرحوا ، وإن خسروا فيها أصابهم الغم والحزن .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - في شأن المنافقين : « ومنهم من يلزك في الصدقات إن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » (٣) . والتعبير بقوله - سبحانه - « على حرف » بصور هذا النوع من الناس ، وكأنه يتأرجح في عبادته كما يتأرجح من يكون على طرف الشيء . فهو معرض للسقوط في أية لحظة .

والمراد من الخير في قوله تعالى - : « فإن أصابه خير اطمأن به » : الخير الدنيوي من صحة وغنى ومنافع دنيوية .

أي : فإن نزل بهذا المذنب في عبادته خير دنيوي « اطمأن به » أي : ثبت على ما هو عليه من عبادة ثباتا ظاهريا ، وأيس ثباتا قلبيا حقيقيا كما هو شأن المؤمنين الصادقين الذين لا يزحزحهم عن إيمانهم وعد أو وعيد .

« وإن أصابته فتنة ، أي : مصيبة أو شر » انقلب على وجهه ، أي : ارتد ورجع عن عبادته ودينه إلى الكفر والمماص .

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٤٦

(٢) تفسير الألوسي ج ١٧ ص ١٣٤ .

(٣) سورة التوبة الآية ٥٨ .

وقوله - تعالى - : « خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين »
 ببيان أسوء عاقبة صنيعه .

أى : هذا الذى يعبد الله على حرف ، جمع على نفسه خسارتين ، خسارة
 الدنيا بسبب عدم حصوله على ما يريد منها ، وخسارة الآخرة بسبب إرتداده
 إلى الكفر وغشيمان السيئات ، وذلك الذى جمعه على نفسه هو الخسران
 الواضح ، الذى لا ينازع فى شأنه عاقلان ، إذ لا خسران أشد وأظهر ، من
 الخسران الذى ضيع دنياه وآخرته .

ثم بين - سبحانه - مظاهر خسران هذا المذنب ، وأحواله القبيحة فقال :
 « يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه . . . » .

أى : يعبد سوى الله - تعالى - أوثانا وأصناما ، إن ترك عبادتها لا يستطيع
 أن تضره ، وإن عبدها فلن تستطيع أن تنفعه .

وذلك ، الذى يفعله هذا الشقى من عبادته لما لا يضر ولا ينفع ، هو
 الضلال البعيد ، بعدا شاسعا عن كل صواب ورشاد .

ثم أضاف - سبحانه - إلى تبكيت هذا المذنب وتقريعه ، تقريحا آخر
 فقال : « يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ، لبئس المولى ولبئس العشير » .

والمولى : هو كل من انعقد بينك وبينه سبب ، يهلك تواليه ويؤهلك ،
 وتناصره ويناصررك ، والعشير : هو من يعاشرك ويخالطك فى حياتك .
 أى يعبد هذا الإنسان الجاهل المضطرب ، معبودا ضرره أقرب من
 منفعة لبئس الناصر ولبئس الصاحب هذا المعبود .

فإن قيل ، كيف نجمع بين هذه الآية التى جعلت المعبود الباطل ضرره
 أقرب من نفعه ، وبين الآية السابقة عليها التى نفت عنه الضر والنفع نفيا تاما .
 وقد أجاب العلماء عن هذا التساؤل بإجابات منها : أن لفظ « يدعو » فى
 الآية الشافية بمعنى يقول

وقد صدر الآلوسى تفسيره للآية بهذا الرأى فقال ما ملخصه : قوله - تعالى -
 « يدعو لمن ضره أقرب من نفعه » ، إستئناف يبين مآل دعائه وعبادته غير الله
 - تعالى - ، ويقرر كون ذلك ضلالا بعيدا . فالدعاء هنا بمعنى القول -

أى : يقول الكافر يوم القيامة برفع صوت ، وصراخ حين يرى تضرره
 بمعبوده ودخوله النار بسببه ، ولا يرى منه أثرا مما كان يتوقعه منه من نفع
 أو دفع ضرر : والله لبئس الذى يتخذ ناصرا - من دون الله - ولبئس الذى
 يعاشر ويخالط ، فكيف بما هو ضرر محض ، هار عن النفع بالسكينة . وفى هذا
 من المبالغة فى تقييح حال الصنم والإيمان فى ذمه مالا يخفى . (١) .

ومنها ما ذكره الإمام القرطبى فقال : « قوله - تعالى - « يدعو لمن ضره
 أقرب من نفعه » ، أى : هذا الذى أنقلب على وجهه يدعو من ضره أدنى من
 نفعه فى الآخرة . لأنه بعبادته دخل النار . ولم ير منه نفعا أصلا ، ولا كنه
 قال : ضره أقرب من نفعه ، ترفيعا للكلام ، كقوله - تعالى - : « وإن نادوا لياكم
 لعلى هدى أو فى ضلال مبين » (٢) .

ومنها : ما ذكره بعض العلماء من أن الآية الأولى فى شأن الذين يعبدون
 الأصنام ، إذ الأصنام لا تنفع من عبدها ، ولا تضر من كفر بها ، وإذا قال
 فيها : « لا يضره وما لا ينفعه » . والقرينة على أن المراد بذلك الأصنام . التعبير
 بلفظه « ما » ، فى قوله : « لا يضره وما لا ينفعه » لأن لفظ « ما » ، يأتى - غالبا -
 لما لا يعقل . والأصنام كنعقل .

أما الآية الثانية فهى فى شأن من عيّد بهض الطاعة من دون الله ، كفرعون
 القائل لقومه : « ما علمت لكم من إله غيرى » ، فإن فرعون وأمثاله من الطاعة
 المعبودين ، قد يندفون نعم الدنيا على عابديهم . وهذا النفع الدنيوى بالنسبة

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٢٥ .

(٢) تفسير القرطبى ج ١٢ ص ١٨ .

لما سئلوا عنه من عذاب لا شيء . ففضر هذا المعبود بخلود عابده في النار .
أقرب من نفعه بعرض قليل زائل من حطام الدنيا .

والقرينة على أن المراد بالمعبود الباطل في الآية الثانية بعض الطغاة الذين
هم من جنس العقلاء : هي التعبير « بمن » التي تأتي - غالباً - لمن يعقل ، كما قال
- تعالى - : « يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ... » (١) .

ويبدو لنا أن هذا القول الأخير له وجه من القبول .

وبذلك ترى السورة الكريمة قد - اقتصرت - لنا نماذج من أحوال الناس في
هذه الحياة ، لكي يحذرهم المؤمنون لئلا يهلكوا عن بينة وبجور من حى
عن بينة .

ثم بينت السورة الكريمة ما أعد الله - تعالى - للمؤمنين الصادقين من
حسن الثواب ، بعد أن صرحت بما توعد به - سبحانه - للمجادين فيه بغير علم
بسوء العقاب ، فقال - تعالى - :

« إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) » .

أى : إن الله - تعالى - بفضلته وكرمه ، يدخل عباده ، الذين آمنوا ، إيماناً
حقاً ، وعملوا ، الأعمال الصالحات جنات تجري من تحت أشجارها ،
والأنهار إن الله - تعالى - يفعل ما يريد فعله على حسب ما تقتضيه حكمته ومشيبته
دون أن ينازعه في ذلك منازع . أو يعارضه معارض ، فهو - سبحانه - لا يسأل
عما يفعل .

ثم بين - سبحانه - أن نصرته لنبيه - صلى الله عليه وسلم - آت لا شك فيه
مهما كره ذلك الكارهون ، فقال - تعالى - :

(١) أضواء البيان ج ٥ ص ٤٨ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي .

« مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَلْيَمِذْ
بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبُ كَيْدَهُ مَا يَغِیْظُ (١٥)
وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (١٦) » .

والعلماء في تفسير الآية الأولى أقوال :

أولها : أن الضمير في قوله « يظن » يعود إلى أعداء النبي - صلى الله عليه وسلم -
وفي قوله « ينصره » ، يعود إليه - صلى الله عليه وسلم -

والمعنى : « من كان يظن ، من الكافرين الكارهين للحق الذي جاء به محمد
- صلى الله عليه وسلم - « أن لن ينصره الله » .

أى : أن لن ينصر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - « في الدنيا والآخرة
فليمذد ، هذا الكافر « بسبب » ، أى : بحبل « إلى السماء » ، أى : إلى سقف بيته ،
لأن العرب تسمى كل ماعلاك فهو سماء .

« ثم ليقطع » ، ثم ليختنق هذا الكافر بهذا الحبل ، بأن يشده حول عنقه .
ويتدلى من الحبل المعلق بالسقف حتى يموت .

« فلينظر هل يذهبن كيده ما يغىظ » ، أى : فليتنفكر هذا الكافر في أمره ،
هل يزيل فعله هذا ما امتلأت به نفسه من غيظ لنصر الله - تعالى - لنبيه
- صلى الله عليه وسلم - ؟

كلا ، فإن ما يفعله بنفسه من الإختناق والغىظ ، لن يغير شيئاً من نصر الله
- تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ، فأيمت هذا الكافر بغىظه وكيده .

فالمراد بالآية الكريمة : بيان أن ما قدره الله - تعالى - من نصر لنبيه
- صلى الله عليه وسلم - لن يحول بين تنفيذه حائل ، مهما فعل الكافرون ،
وكره الكارهون ، فليموتوا بغىظهم ، فإن الله - تعالى - ناصر نبيه لا محالة ،

وصح ورد الضمير في قوله « أن لن ينصره » ، إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -

وسلم - مع أنه لم يسبق له ذكر ، لأن الكلام دال عليه في الآيات السابقة ، إذ المراد بالإيمان في قوله - تعالى - في الآية السابقة ، وإن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... : الإيمان بصدق النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما جاء به من عند ربه - تعالى - .

وعبر - سبحانه - عن إختناق هذا الحاقد بالحبل بقوله : ثم ليقطع ، لأن قطع الشيء يؤدي إلى إتهانه وهلاكه . والمفعول محذوف . والتقدير : ثم ليقطع نفسه أو حياته .

وقد صدر صاحب الكشف تفسيره للآية بهذا القول فقال : وهذا كلام قد دخله إختصار .

والمعنى : إن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة ، فمن كان يظن من ساعديه وأعاده أن الله يفعل خلاف ذلك . . . فليستحق وسعه ، ليستفرغ جهوده في إزالة ما يغيظه . بأن يفعل ما يفعله من بلغ به الغيظ كل مبلغ ، حتى مد جبلا إلى سماء بيته فاخنتق ، فلينظر - هذا الحاسد - وليصور في نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه ؟

وسمى - سبحانه - فعل هذا الكافر كيدا ، لأنه وضعه موضع الكيد ، حيث لم يقدر على غيره ، أو ساء كذلك على سبيل الإستهزاء ، لأنه لم يكده محسود ، إنما كاد به نفسه .

والمراد : إنه ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظه . . . (١)

وثانيها : أن الضمير في قوله : « أن ينصره » ، يعود إلى « من » في قوله « من » ، لأن يظن ، وأن النصر هنا بمعنى الرزق .

فيكون المعنى : من كان من الناس يظن أن لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة فليخنتق ، وليقتل نفسه ، إذ لا خير في حياة ليس فيها رزق الله وعونه ، أو فليخنتق فإن إختناقه لن يغير شيئا مما قضاه الله - تعالى - .

قال الألوسي : « واستظهر أبو حيان كون الضمير في « ينصره » عائداً على « من » ، لأنه المذكور ، وحق الضمير أن يعود على المذكور . . . وفسر النصر بالرزق .

قال أبو عبيدة : وقف علينا سائل من بني بكر فقال : من ينصرني نصره الله - أي : من يرزقني رزقه الله .

والمعنى : أن الأرزاق بيد الله - تعالى - لا تنال إلا بمشيئته ، فمن ظن أن الله - تعالى - غير رازقه ، ولم يصبر ولم يستسلم فليختنق ، فإن ذلك لا يقلب القسمة ولا يردّه مرزوقاً .

والغرض : الحث على الرضا بما قسمه الله - تعالى - لا كن يعبد على حرف . . . (١) .

وثالثهما : أن الآية في قوم من المسلمين استبطاً وانصر الله - تعالى - ، لاستعجالهم وشدة غيظهم وحنقهم على المشركين ، فنزلت الآية لبيان أن كل شيء عند الله بمقدار .

ويكون المعنى : من كان من الناس بظن أن لن ينصره الله ، واستبطاً حدوث ذلك ، فلبمت غيظاً . لأن للنصر على المشركين وقتاً لا يقع إلا فيه بإذن الله ومشيئته .

ويبدو أن أقرب الأقوال إلى الصواب ، القول الأول ، وعليه جمهور المفسرين ، ويؤيده قوله - تعالى - : « إنا لننصر رسلنا الذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » (٢) .

وقوله - سبحانه - : « وإذا خلو عرضوا عليكم إلا نامل من الغيظ » ، قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور (٣) .

(١) تفسير الألوسي ج ١٧ ص ١٢٧ .

(٢) سورة غافر الآية ٤١ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١١٤ .

ثم مدح - سبحانه - القرآن الكريم فقال : ، وكذلك أنزلناه آيات
بينات ... ، أى : ومثل ذلك الإنزال البليغ الواضح ، أنزلنا القرآن آيات
بينات الدلالة على معانيها الحكيمة ، وتوجيهاتها السديدة .

وأن الله - تعالى - يهdy من يريد هدايته إلى صراط المستقيم ، فهو الهادى
الذى ليس هناك من هاد سواه .

ثم بين - سبحانه - أن مرد الفصل بين الفرق المختلفة إليه وحده ، إذ هو
العليم بكل ما عليه كل فرقة من حق أو باطل ، فقال - تعالى - :

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَالَّذِينَ هَادُوا ، وَالصَّابِّينَ ، وَالنَّصَارَى ،
وَالْمَجُوسَ ، وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ، إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) » .

ففى هذه الآية الكريمة حدثنا القرآن عن ست فرق من الناس : أما الفرقة
الأولى ، فهى : فرقة الذين آمنوا . والمراد بهم : الذين آمنوا بالنبي - صلى الله
عليه وسلم - وصدقوه واتبعوه .

وابتدأ القرآن بهم ، للإشعار بأن دين الإسلام هو الدين الحق ، القائم
على أساس أن الفوز برضا الله - تعالى - لا ينال إلا بالإيمان والعمل الصالح ،
ولا فضل لأمة على أمة إلا بذلك ، كما قال - تعالى - : ، إن أكرمكم عند الله
أتقاكم .

وأما الفرقة الثانية فهى : الذين هادوا ، أى : صاروا يهودا . يقال : هاد
فلان وتهود أى : دخل فى اليهودية .

وسموا يهودا نسبة إلى « يهوذا » ، أحد أولاد يعقوب - عليه السلام - ،
وقلبت الذال دال عند التعريب . أو سموا يهودا حين تابوا من عبادة العجل
مأخوذ من هاد يهود هوذا بمعنى تاب . ومنه قوله - تعالى - : « إنا هدانا إليك ،
أى : تبنا إليك » .

والفرقة الثالثة هي فرقة الصائبين ، جمع صابىء ، وهو الخارج من دين إلى آخر .

يقال : صبا الظلف والنايب والنجم - كمنع وكرم - إذ طلع .

والمراد بهم : الخارجون من الدين الحق إلى الدين الباطل . وهم قوم يعبدون الكواكب والملائكة ، يزعمون أنهم على دين صابىء بن شيث ابن آدم .

والفرقة الرابعة هي فرقة النصارى ، جمع نصران بمعنى نصراني كندامى وتدمان . والباء في نصراني للمبالغة ، وهم قوم عيسى - عليه السلام - ، قيل : سموا بذلك لأنهم كانوا أنصارا له : وقيل : إن هذا الاسم مأخوذ من الناصرة ، هي القرية التي كان عيسى قد نزل بها .

وأما الفرقة الخامسة فهي فرقة المجوس ، وهم قوم يعبدون الشمس والقمر والنار . وقيل : هم قوم أخذوا من دين النصارى شيئا ، ومن دين اليهود شيئا ، ويقولون : بأن العالم أصليين نورا وظلمة ..

وأما الفرقة السادسة والأخيرة فهي فرقة الذين أشركوا . والمشهور أنهم عبدة الأصنام والأوثان . وقيل ما يشملهم ويشمل معهم كل من اتخذ مع الله - تعالى - إلها آخر .

وقوله - سبحانه - : : إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد ، بيان لما سيكون عليه حالهم جميعا يوم القيامة ، من حكم عادل سيحكم الله - تعالى - به عليهم .

أى : إن الله يحكم بين هؤلاء جميعا بحكمة العادل يوم القيامة ، إنه - سبحانه - على كل شيء شهيد ، بحيث لا يخفى عليه شيء من أحوال خلقه . قال الجمل ما ملخصه : : ولهذه الآية قيل : الأدبان ستة . واحد للرحمن وهو الإسلام .

وخمسة للشيطان وهي ما عداه . وأن الثانية واسمها وخبرها في عمل رفع
خير لأن الأولى .

وقوله : « إن الله على كل شيء شهيد » ، تعليل لقوله : « إن الله يفصل
بينهم ... » ، وكان قائلاً قال : أمذا الفصل عن علم أولاً ؟ فقيل : إن الله على
كل شيء شهيد . أى : علم به على مشاهدة ، (١) .

• • •

ثم بين - سبحانه - أن الكون كله يخضع لسلطانه - تعالى - ويسجد
لوجهه فقال :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ،
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ، وَكَثِيرٌ مِنَ
النَّاسِ ، وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ، وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرَمٍ
إِنَّ اللَّهَ يَعْمَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) » .

والاستفهام في قوله « أَلَمْ تَرَ ... » ، للتقرير . والرؤية هنا بمعنى العلم وذلك
لأن سجود هذه الكائنات لله - تعالى - آمنا به عن طريق الإخبار دون أن
نرى كيفية .

والسجود في اللغة : التذلل والخضوع مع انخفاض بانحناء وما يشبهه .
وخص في الشرع بوضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة .

والمراد به هنا دخول الأشياء جميعها تحت قبضة الله - تعالى - وتسخير
وانقيادها لكل ما يريده منا انقياداً تاماً ، وخضوعها له - عز وجل - بكيفية

هو الذى يعلمها ، فنحن نؤمن بأن هذه الكائنات تسجد لله - تعالى - ونفوض
كيفية هذا السجود له - تعالى - .

والمعنى : لقد علمت - أيها العاقل - أن الله - تعالى - يسجد له ، ويخضع
لسلطانه جميع من فى السموات وجميع من فى الأرض .

وقوله : د والشمس والقمر والنجوم ، عطف خاص على قوله : د من
فى السموات ، .

ونص - سبحانه - عليها مفردا لإياها بالذكر ، لشبهها ، ولاستبعاد بعضهم
حدوث السجود منها ، ولأن آخرين كانوا يعبدون هذه الكواكب ، فين
- سبحانه - أنها عابدة وساجدة لله ، وليست معبودة .

وقوله - تعالى - : د والجبال والشجر والدواب ، عطف خاص على د من
فى الأرض ، ونص - سبحانه - عليها - أيضا - لأن بعضهم كان يعبدها ،
أو يعبد ما يؤخذ منها كالأصنام .

وقوله - تعالى - : د وكثير من الناس ، بيان للذين اهتدوا إلى طريق الحق .
أى : ويسجد له - كذلك - كثير من الناس ، وهم الذين خلصت عقولهم
من شوائب الشرك والكفر ، وظهرت نفوسهم من الأدناس والأوهام .

وقوله : د وكثير حق عليه العذاب ، بيان لحال الذين استعجبوا العمى
على الهدى .

أى : وكثير من الناس حق وثبت عليهم العذاب ، بسبب إصرارهم على
الكفر ، وإيثارهم النى على الرشد .

ثم ختم - سبحانه - الآية السكرية بما يدل على نفاذ قدرته ، وعموم مشيئته
فقال : د ومن بين الله فإله من مكرم ، لأن الله يفعل ما يشاء . .

و د من ، شرطية وجوابها د فإله من مكرم ، ومكرم اسم فاعل من
أكرم .

أبى : ومن يهتبه الله ويخزئه ، فالله من مكرم بكرمه ، أو منقذ ينقذه بما هو فيه من شقاء ، إن الله - تعالى - يفعل ما يشاء فعلة بدون حسيب يحاسبه ، أو معقب يعقب على حكمه .

قال - تعالى : « والله يحكم لامعقب الحكمة وهو سريع الحساب » .

• • •

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك صورة فيها ما فيها من وجوه المقارنات بين مصير الكافرين ومصير المؤمنين . لكي يتحاز كل ذى عقل سليم إلى فريق الإيمان لا الكفر ، فقال - تعالى - :

« هَذَانِ خَصِمَانِ اِخْتَصِمُوا فِي رَبِّهِمْ ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ، يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يَدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ (٢٤) » .

ذكر المفسرون في سبب نزول قوله - تعالى - « هذان خصمان اختصموا في ربهم » ... روايات أشار الإمام ابن كثير إلى معظمها فقال : « ثبت في الصحيحين عن أبي ذر : أنه كان يقيم قسما أن هذه الآية « هذان خصمان » ... نزلت في حمزة وصاحبيه . وعتبة وصاحبيه ، يوم برزوا في بدر . »

وعن قتادة قال : اختصم المسلمون وأهل الكتاب ، فقال أهل الكتاب :

فبينما قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ، فنحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون :
 كتابنا يقضى على المكتب كلها ، ونبينا خاتم الانبياء ، فنحن أولى بالله منكم .
 فأطلع الله الإسلام على من ناوراه - أى فصر الله الإسلام - ، وأنزل الآية .
 وعن مجاهد فى الآية : مثل الكافر والمؤمن اختصاصا فى البعث .

وهذا القول يشمل الأقوال كلها ، وينتظم فيه قصة بدر وغيرها ، فإن
 المؤمنين يريدون نصر دين الله والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان ، (١) .
 أى : هذان خصمان اختصموا فى ذات ربهم فى صفاته ، بأن اعتقد كل فريق
 منهم أنه على الحق ، وأن خصمه على الباطل .

قال الجمل : «والخصم فى الأصل مصدر ولذلك يوحد ويذكر غالبا ، وعليه
 قوله - تعالى - : «وهل أناك نبا الخصم إذ تسوروا المحراب» . ويجوز أن
 يثنى ويؤنث ، ولما كان كل خصم فريقا يجمع طوائف قال : «اختصموا» .
 بصيغة الجمع كقوله - تعالى - : «ولن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، فالجمع
 مراعاة للمعنى» (٢) .

وقوله - سبحانه - : «فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار» ، تفصيل
 وبيان لحال كل خصم وفريق .
 أى : فالذين كفروا جزاؤهم أنهم قطع الله - تعالى - لهم من النار ثيابا ،
 والبسهم إياها .

قال الألوسى : «أى أعد الله لهم ذلك ، وكأنه شبه لإعداد النار المحيطة بهم
 بتقطيع ثياب وتفصيلها لهم على قدر جثثهم . فى الكلام استعارة تمثيلية
 تهكمية ، وليس هناك تقطيع ثياب ولا ثياب حقيقة . وكان جمع الثياب الإيذان

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٠١ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٥٩ .

يقراكم النار المحيطة بهم ، وكون بعضها فوق بعض وعبر بالماضي . لأن الإعداد قد وقع ، فليس من التعبير بالماضي لتحققه (١) .

وقوله : د يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، زيادة في عذابهم د أى : لم تقطع لهم ثياب من نار لحسب ، وإنما زيادة على ذلك يصب من فوق رؤوسهم د الحميم ، أى : الماء البالغ أقصى درجات الشدة في الحرارة .

وقوله : د يصهر به مافى بطونهم والجلود ، . بيان للأثار التى تترتب على هذا العذاب .

والفعل د يصهر ، مأخوذ من الصهر بمعنى الإذابة . يقال : صهر فلان للشحم يصهره إذا أذابه .

أى : فذلك الحميم الذى يصب من فوق رؤوسهم من آثاره أنه يذاب به مافى بطونهم من الشحوم والأحشاء ، كما تذاب به جلودهم - أيضاً . - . فقوله : د والجلود ، عطف على د ما ، المرصولة في قوله د مافى بطونهم ، أى : يذاب به الذى في بطونهم عذاب به أيضا جلودهم .

وقيل : إن لفظ الجلود مرفوع بفعل محذوف معطوف على د يصهر ، . والتقدير : يصهر به مافى بطونهم من أحشاء وشحوم ، وتحرق به الجلود . قالوا : وذلك لأن الجلود لا تذاب وإنما تنقبض وتنكمش إذا أصابت بالنار .

والضمير في قوله - سبحانه - : دولهم مقامع من حديد ، يعود إلى الكفرة المعذبين بهذا الحميم الذى تصهر به البطون .

والمقامع : جمع مقمعة - بكسر الميم وسكون القاف وفتح الميم الثانية - ، وهى آلة تستعمل في القمع عن الشيء ، والزجر عنه . يقال : قمع فلان فلانا إذا قهره وأذله .

أى : وخصصت لهؤلاء الكافرين مضارب من حديد تضربهم بها الملائكة على رؤوسهم زيادة في إذلالهم وقهرهم .

وقيل : إن الضمير في د لهم ، يعود على خزنة النار . أى : ولخزنة النار مضارب من حديد يضربون بها هؤلاء المكافرين .

وعلى كلا القولين فالآية تصور هوان هؤلاء المكافرين أكل تصوير .

وقوله - سبحانه - : : كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ، بيان لما يقابلون به عندما يريدون الترحيح عن النار .

أى : كلما أراد هؤلاء الكافرون أن يخرجوا من النار ومن غمها وكرها وسعيرها ، أعيدوا فيها مرة أخرى ، كما قال - تعالى - : د يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ، (١) .

وقوله - تعالى - : د وذوقوا عذاب الحريق ، مقول لقول محذوف . أى : أعيدوا فيها وقيل لهم على لسان خزنة النار : ذوقوا العذاب المحرق لأبدانكم . هذا هو حال فريق المكافرين ، وهو حال يزال القلوب ويرهب المشاعر ، ويفزع النفوس .

ولكن القرآن كمادته في قرن التهيب بالترغيب : لا يترك النفوس في هذا الفرع ، بل يتبع ذلك بما يمسح عنها خوفها ورعبها عن طريق بيان حال المؤمنين فيقول : د إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار

وغير - سبحانه - الأسلوب فلم يقل : والذين آمنوا على سبيل العطف على الذين كفروا . . تعظيم لسان المؤمنين ، وإشعار بمباينة حالهم لحال خصمائهم المكافرين .

أى : إن الله - تعالى - بفضلته وإحسانه يدخل عباده الذين آمنوا وعملوا في دنياهم الأعمال الصالحات ، جنات عاليات تجري من تحت أشجارها وتمازها الأنهار .

وقوله : يحملون فيها من أساور من ذهب وأواثا ولباسهم فيها حرير ، بيان لما ينالون في تلك الجنات من خير وفير ، وعطاء جزيل .

أى : يتزينون في تلك الجنات بأساور كائنة من الذهب الخالص ، ومن اللؤلؤ الثمين ، أما لباسهم الدائم فيها فهو من الحرير الرقيق الناعم الفاخر .

قال الألوسى : وقوله : ولباسهم فيها حرير ، غير الأسلوب حيث لم يقل [ويلبسون فيها حريرا ، الإيذان بأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غنى عن البيان ... ثم إن الظاهر أن هذا الحكم عام في كل أهل الجنة ، وقيل هو باعتبار الأغلب ، لما أخرجه النسائى وابن حبان وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة . وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه ، (١) .

قالوا : ومحلّه فيمن مات مصرا على ذلك .

وقوله - تعالى - : وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد ، بيان لحسن خاتمهم ، ولعظم النعم التي أنعم الله بها عليهم .

أى : وهدى الله - تعالى - هؤلاء المؤمنين إلى القول الطيب الذى يرضى الله - تعالى - عنهم ، كان يقولوا عند دخولهم الجنة : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور . الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ، (٢) .

(١) تفسير الألوسى ج ١٧ ص ١٣٦ .

(٢) سورة فاطر الآيات ٣٤ ، ٣٥ .

وهدام - أيضاً - خالقهم إلى الصراط الحمود ، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم بنعمة الإيمان والإسلام ، فصاروا بسبب هذه النعمة يقولون الأفعال الطيبة ، ويفعلون الأفعال الحميدة .

قال الشوكاني : قوله : وهدوا إلى الطيب من القول . . . أى : أرشدوا إليه . قيل : هو لا إله إلا الله . وقيل : القرآن . وقيل : هو ما يأتيهم من الله من بشارات . وقد ورد في القرآن ما يدل على هذا القول الجميل هنا ، وهو قوله - سبحانه - : الحمد لله الذي صدقنا وعده . . . الحمد لله الذي هدانا لهذا . . . الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن . . .

ومعنى : وهدوا إلى صراط الحميد ، أنهم أرشدوا إلى الصراط الحمود وهو طريق الجنة ، أو صراط الله الذي هو دينه القويم وهو الإسلام ، (١) .

وبعد هذا الحديث المؤثر عن الخصمين وعن عاقبة كل منهما . . . جاء الحديث عن المسجد الحرام ، وعن مكانته ، وعن الأمر ببناؤه وعن وجوب الحج إليه ، وعن المنافع التي تعود على الحجاج ، وعن سوء مصير من يصد الناس عن هذا المسجد ، جا - قوله - تعالى - :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ ، وَمَنْ يَرِذْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نَذِفْهُ مِنَ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢٥) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ، وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ

الله في أيام معلوماته على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها
وأطعموا البائس الفقير (٢٨) ثم ليقتضوا تقشهم وليؤفوا نذورهم ،
وليطوفوا بالبيت العتيق (٢٩) .

قال الإمام الرازي : « أعلم أنه - تعالى - بعد أن فصل بين الكفار والمؤمنين
ذكر عظم حرمة البيت ، وعظم كفر هؤلاء الكافرين فقال : « إن الذين
كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام .

قال ابن عباس : الآية نزلت في أبي سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عام الحديبية عن المسجد الحرام ، عن
أن يحجوا ، أو يعتمر ، وينحروا الهدى فذكره رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - قتالهم ، وكان محرماً بعمرة ، ثم صالحوه على أن يعود في العام
القادم . . . (١)

وصح عطف المضارع وهو « يصدون » على الماضي وهو « كفروا » لأن
المضارع هنا لم يقصد به زمن معين من حال أو لاستقبال ، وإنما المراد به
تجرد الاستمرار ، كما في قولهم : فلان يحسن إلى الفقراء ، فإن المراد به
استمرار وجود إحسانه .

ويجوز أن يكون قوله « يصدون » خبر المبتدأ محذوف أي : وهم
يصدون عن المسجد الحرام . وخبر إن في قوله - سبحانه - « إن الذين
كفروا » محذوف لدلالة آخر الآية عليه .

والمعنى : إن الذين أصروا على كفرهم ، ما أنزله الله - تعالى - على نبيه
محمد - صلى الله عليه وسلم - ، واستمروا على منع أهل الحق من أداء شعائره

دين الله - تعالى - ، ومن زيارة المسجد الحرام . . هؤلاء الكافرون سوف نذيقهم عذابا ألما .

ويصح أن يكون الخبر محذوفا للتحويل والإرهاب . وكان وصفهم بالكفر والصدكاف في معرفة مصيرهم المهيمن .

قال الفرطبي : وقوله - تعالى - : « والمسجد الحرام » قيل إنه المسجد نفسه وهو ظاهر القرآن ، لأنه لم يذكر غيره ، وقيل الحرم كله ، لأن المشركين صدوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه عنه عام الحديبية ، فنزل خارجا عنه . . . وهذا صحيح لكنه قصد منا بالذكر المهم المقصود من ذلك ، (١) .

وقوله - سبحانه - : « الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد » ، تشریف لهذا المكان حيث جعل الله - تعالى - الناس تحت سقفه سواء ، وتشنيع على الكافرين الذين صدوا المؤمنين عنه .

ولفظ سواء ، قرأه جمهور القراء بالرفع على أنه خبرية قدم ، والعاكف مبتدأ والباء معطوفة عليه أي : العاكف والباد سواء فيه . أي مستويان فيه . وقرأه حفص عن عاصم بالنصب على أنه المفعول الثاني لقوله « جعلناه » بمعنى صيرناه . أي : جعلناه مستويا فيه العاكف والباد . ويصح أن يكون حالا من الهاء في « جعلناه » . أي : وضعناه للناس حال كونه سواء العاكف فيه والباد .

والمراد : بالعاكف فيه : المقيم فيه . يقال : عاكف فلان على الشيء ، إذ لازمه ولم يفارقه . والباد : الطارىء عليه من مكان آخر . وأصله من يكون من أهل البواد الذين يسكنون المضارب والخييام ، وينقلون من مكان إلى آخر .

أى : جعلناه للناس على العموم ، يصلون فيه ، يطوفون به ، ويحترمون به ويستوى تحت سقفه من كان مقبلاً في جواره ، وملازماً للتردد عليه ، ومن كان زائراً له وطارئاً عليه من أهل البرادى أو من أهل البلاد الأخرى سوى مكة .

فهذا المسجد الحرام يقساوى فيه عباد الله ، فلا يملك أحد منهم ، ولا يتردد فيه أحد منهم ، بل الكل فوق أرضه وحت سقفه سواء .

وقوله - تعالى - : « ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم . نهدد لكل من يحاول ارتكاب شيء نهى الله عنه في هذا المسجد الحرام .

والإلحاد : الميل . يقال . ألحد فلان في دين الله ، أى : مال وحاد عنه .

و « من » ، شرطية وجوابها ، نذقه ، ومفعول يرد ، محذوف لقصد التعميم . أى : ومن يرد فيه مراداً بالإلحاد ويصح أن يكون المفعول قوله « بإلحاد » ، على أن الباء زائدة .

أى : ومن يرد في هذا المسجد الحرام لإلحاداً أى : ميلاً وحيدة عن أحكام الشريعة وأدائها بسبب ظلمه وخروجه عن طاعتنا ، نذقه من عذاب أليم لا يقادر قدره ، ولا يسكنه كمنه .

وقد جاء هذا التهديد في أقصى درجاته لأن القرآن توعده بالعذاب الأليم كل من ينوى ويريد الميل فيه عن دين الله ، وإذا كان الأمر كذلك ، فمن ينوى ويفعل يكون عقابه أشد ، ومصيره أقبح .

ويدخل تحت هذا التهديد كل ميل عن الحق إلى الباطل ، أو عن الخير إلى الشر كالاحتكار ، والغش .

ولذا قال ابن جرير بعد أن ساق الأقوال في ذلك : « وأولى الأقوال التى ذكرناها في تأويل ذلك بالصواب : القول الذى ذكرناه من أن المراد بالظلم (٢٥ - سورة الحج)

في هذا الموضع ، كل مصيبة لله ، وذلك لأن الله عم بقوله : « من يرد فيه بإلحاد بظلم ، ولم يخص به ظملا دون ظلم في خير ولا عقل ، فهو على عمومته فإذا كان ذلك كذلك فتأويل الكلام : ومن يرد في المسجد للحرام بأن يعمل بظلم فيعصى الله فيه ، نذقه يوم القيامة من عذاب موجه له ، (١) .

ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن بناء البيت ونظيره فقال - تعالى - : « وإذا بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا يشرك بي شيئا . . . » .
وبوأننا من التبوؤ بمعنى النزول في المكان . يقال بوأته منزلا ، أي : أنزله فيه ، وهما أنه له ، ومكنته منه .

والمعنى : وأذكر أيها العاقل لتعتبر وتمتثل وقت أن هيأنا لنبيتنا إبراهيم مكان بيتنا الحرام ، وأرشدناه إليه . لكي يبنيه بأمرنا ، ليكون مثابة للباس وأمانا .

قال بعض العلماء : « والمفسرون يقولون بوأه له ، وأراه إياه ، بسبب رجح تسمى الخجوج ، كمنست مافوق الأساس ، حتى ظهر الأساس الأول الذي كان مندرسا ، فبناه إبراهيم وإسماعيل عليه . . . وأن عمل البيت كان مريض غنم لرجل من جرهم .

وغاية ما دل عليه القرآن : أن الله بوأ مكانه لإبراهيم ، فبناه له ، وعرفه إياه ليبنيه في محله ، وذهبت جماعة من أهل العلم إلى أن أول من بناه إبراهيم ولم يبن قبله .

وظاهر قوله - تعالى - على لسان إبراهيم : « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم . . . » يدل على أنه كان مبثيا واندرس كما يدل عليه - أيضا - قوله هنا « مكان البيت » ، لأنه يدل على أن له مكانا سابقا كان دهر وفا ، (٢) .

(١) تفسير ابن جرير ج ١٧ ص ١٠٥ .

(٢) تفسير أضواء البيان ج ٥ ص ٦٢ .

و « أن ، في قوله - تعالى - « أن لا تشرك بي شيئاً ، مفسدة ، والتفسير - كما يقول الألوسي - باعتبار أن التبوئة من أجل العبادة ، فكأنه قيل : أمرنا إبراهيم بالعبادة ، وذلك فيه معنى القول دون حروفه . أو لأن بوأناه بمعنى قلنا له تبوأ .

والمعنى : واذكر - أيها المخاطب - وقت أن هيأنا لإبراهيم - عليه السلام - مكان بيننا الحرام ، وأوصيناه بعدم الإشتراك بنا ، وبإخلاص العبادة لنا ، كما أوصيناه - أيضاً - بأن يطهر هذا البيت من الأرجاس الحسية والمعنوية الشاملة الكفر والبدع والاضلالات والنجاسات ، وأن يجعله مهلاً للطائفين به ، وللقائمين فيه لأداء فريضة الصلاة .

قال الشوكاني : والمراد بالقائمين في قوله : « وطهر » يبق للطائفين والقائمين ، المصلون .

وذكر « الركع السجود » ، بعده ، لبيان أركان الصلاة دلالة على عظم شأن هذه العبادة ، وقرن الطواف بالصلاة ، لأنهما لا يشرعان إلا في البيت ، فالطواف عنده والصلاة إليه ، (١) .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، أنه لا يجوز أن يترك عند بيت الله الحرام ، قدر من الاقتدار ولا نجس من الأنجاس المعنوية ولا الحسية ، فلا يترك فيه أحد يرتكب ما لا يرضى الله ، ولا أحد يلوثه بقذر من النجاسات .

ثم ذكر - سبحانه - ما أمر به نبيه إبراهيم بعد أن بوأه مكان البيت فقال : « وأذن في الناس بالحج . يأتوك رجالاً ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق »

والآذان : الإعلام . و « رجالاً ، أي : مشاة على أرجلهم ، جمع راجل . يقال : رجل فلان يرجل - كيفرج - فهو راجل ، إذا لم يكن معه ما يركبه ،

والضامر : البعير المهزول من طول السفر . وهو اسم فاعل من ضمير - بزقة قد - يضمير ضمورا فهو ضامر ، إذا أصابه الهزال والتعب .
وجملة : يأتين من كل فج عميق ، صفة لقوله « كل » ، والجمع باعتبار المعنى . كأنه قيل : وركبانا على ضوامر من كل طريق بعيد .
والفج في الأصل : الفجوة بين جبلين ، ويستعمل في الطريق المتسع والمراد به هنا : مطلق الطريق وجمعه لجحاج .

والعميق البعيد ، مأخوذ من العمق بمعنى البعد ، ومنه قولهم : بئر عميقة ، أي بعيدة الغور .

والمعنى : واعلم يا إبراهيم الناس بفريضة الحج ، يا نوك مسرعين مشاة على أقدامهم ، ويا نوك راكبين على دوابهم المهزولة ، من كل مكان بعيد .
قال ابن كثير : أي : ناد - يا إبراهيم - في الناس داعيا لإيادهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه ، فذكر أنه قال : يارب ، وكيف أبلغ الناس وصوتي لا يصل إليهم ؟ فقيل : ناد وعلينا البلاغ . فقام على مقامه ، وقيل : على الحجر ، وقيل على الصفا ، وقيل : على أبي قبيس ، وقال : يا أيها الناس ؛ إن ربكم قد اتخذ بيتا فخوه فيقال : إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصخرة أرجاء الأرض . . وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدبر وشجر ، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة : لبيك اللهم لبيك ، (١) .

وقيل : إن الخطاب في قوله - تعالى - : « واذن . . . » ، للرسول - صلى الله عليه وسلم - وأن الكلام عن إبراهيم - عليه السلام - قد انتهى عند قوله - تعالى - : « والركع السجود » .

وجمهور المفسرين على أن الخطاب لإبراهيم - عليه السلام - لأن سياق الآيات يدل عليه ، ولأن التوافد على هذا البيت موجود منذ عهد إبراهيم ،

وما يزال وعد الله يتحقق منذ هذا العهد إلى اليوم وإلى الغد ، وما تزال أفئدة
ملايين الناس تهوى إليه ، وقلوبهم تشرح لرؤيته ، وتسعد بالطواف من
حوله .

وقوله - سبحانه - : « ليشهدوا منافع لهم » متعاق بقوله « ليشهدوا » .
أي : يأنوك الناس راجلين وراكبين من كل مكان بعيد ، ليشهدوا
وليحصلوا منافع عظيمة لهم في دينهم وفي دنياهم .
ومن مظاهر منافعهم الدينية : غفران ذنوبهم ، وإجابة دعائهم ، ورضا
الله - تعالى - عنهم .

ومن مظاهر منافعهم الدنيوية : اجتماعهم في هذا المكان الطاهر ، وتعارفهم
وتعاونهم على الخير والتقوى ، وتبادلهم المنافع فيما بينهم عن طريق البيع والشراء
وغير ذلك من أنواع المعاملات التي أحلها الله - تعالى - .

وجاء لفظ « منافع » بصيغة التثنية ، للتعميم والتعظيم والتكثير . أي :
منافع عظيمة وشاملة لأمور الدين والدنيا ، وليس في الإمكان تحديد هالكثيراتها
وقوله « ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام »
معطوف على قوله « ليشهدوا » .

والمراد بالأيام المعلومات : الأيام العشر الأولى من شهر ذي الحجة ، أو
هي أيام النحر ، أو يوم العيد وأيام التشريق .
والمراد بهيمة الأنعام : الإبل والبقر والغنم .

أي : ليشهدوا منافع لهم « وليكثروا من ذكر الله ومن طاعته في تلك
الأيام المباركة . وليشكروه على ما رزقهم من بهيمة الأنعام التي يتقربون إليه
- سبحانه - عن طريق ذبحها وإراقة دماها ، واستجابة لأمره - عز وجل - .

وقوله - سبحانه - « فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » : إرشاد منه
- تعالى - إلى كيفية التصرف فيها بعد ذبحها .

أى : فكلوا من هذه البهيمة بعد ذبحها ، وأطعموا منها الإنسان البائس ،
أى : الذى أصابه بؤس ومكره بجانب فقره واحتياجه .

قال الألوسى : «والأمر فى قوله : فكلوا منها ... ، للإباحة بناء على أن
الأكل كان منهيًا عنه شرعا ، وقد قالوا : [إن الأمر بعد المنع يقتضى الإباحة
وبدل على سبق النهى قوله - صلى الله عليه وسلم - : «كنت نهييكم عن
أكل لحوم الأضاحى فكلوا منها وادخروا ، .

وقيل : لأن أهل الجاهلية كانوا يتخرجون فيه ، أو للندب على . واساءة
الفقراء ومساواتهم فى الأكل منها ... ، (١)

ثم بين - سبحانه - ما يفعلونه بعد حلهم وخروجهم من الإحرام فقال :
«ثم ليقتضوا نفثهم ، وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ، .

والمراد بالقضاء هنا : الإزالة ، وأصله القطع والفصل فأريد به الإزالة
على سبيل المجاز .

والنفث : الوسخ والقذر ، كطول الشعر والأظفار يقال : نفث فلان
- كفروح - يتفث تفثا فهو تفث ، إذا ترك الاغتسال والتطيب والتنظيف
فأصابته الأوساخ .

والمراد بالطواف هنا : طواف الإفاضة ، الذى هو أحد أركان الحج ،
وبه يتم التحلل .

والعتيق : القديم حيث إنه أول بيت وضع لعبادة الله فى الأرض ، وقبل
سمى بالعتيق لأن الله - تعالى - أعتقه من أن يتسلط عايه جبار فيهدمه أو
يخربه .

والمعنى : ثم بعد حلهم وبعد الإتيان بما عليهم من مناسك . فابزىلوا عنهم

أدراهم وأوساخهم ، وليوفوا نذورهم التي نذروها لله - تعالى - في حجهم ، وليطوفوا أطواف الإفاضة ، بهذا البيت القديم الذي جعله الله - تعالى - أول بيت لعبادته ، وصانه من إعتداء كل جبار أنيم .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد توعدت كل من يصد الناس عن هذا البيت بأشد ألوان الوعيد ، وبينت أن الناس فيه سواء ، وتحدثت عن جانب من فضله - سبحانه - على نبيه إبراهيم - عليه السلام - حيث أرشده إلى مكان هذا البناء ، وشرفه بتميئته ليسكون أول مكان لعبادته - تعالى - ، وأمره بأن ينادى في الناس بالحج إليه ، ليشهدوا منافع عظيمة لهم .

• • •

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن الذين يعظمون حرمت الله ، وعما أحله الله لمباده من الأنعام ، وعن سوء عاقبة من يشرك بالله ، فقال - تعالى - :

« ذَلِكَ وَمَنْ يَعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَأَحِلَّتْ لَكُمُ الْآنِعَامُ إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُمْفَاءَ اللَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) وَمَنْ يَعْظَمْ شِمَارَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ يَحْمِلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) » .

وامم الإشارة ذلك ، في قوله : « ذَلِكَ وَمَنْ يَعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ » ،

يؤتى به مثل هذا التركيب للفصل بين كلامين والمشهور في مثل هذا التركيب الإتيان بلفظ «هذا» كما في قوله - تعالى - : «هذا وإن المتقين لحسن مآب» .

وجىء هنا بلفظ ذلك للإشعار بتعظيم شأن المتحدث عنه ، وعلو منزلته وهو يعود إلى المذكور من تهية مكان البيت لإبراهيم ، وأمره بتعظيمه ... الخ .

قال صاحب الكشف : « قوله ذلك ، خير مبتدأ محذوف . أى : الأمر والشأن ذلك . كما يقدم السكاك جملته من كتابه في بعض المعاني ، ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال : هذا ، وقد كان كذا » (١) .

والحرمان : جمع حرمة . والحرمة كل ما أمر الله - تعالى - باحترامه ، ونهى عن قوله أو فعله ، وبدخل في ذلك دخولا أوليا ما يتعلق بمناسك الحج كتحریم الرفث والفسوق والجدال والصيد ، وتعظيم الحرمات يكون بالعلم بوجوب مراعاتها ، وبالعمل بمقتضى هذا العلم .

والمعنى : ذلك الذى ذكرناه لكم عن البيت الحرام ، وعن مناسك الحج ، هو جانب من أحكام الله - تعالى - في هذا الشأن فاتبعوها ، والحال أن يعظم حرمات الله - تعالى - بأن يترك ملاستها وإتلافها ، فهو أى : هذا التعظيم ، خير له عند ربه ، إذ بسبب هذا التعظيم لتلك الحرمات ينال رضا ربه وثوابه .

وقد جاء النهى في هذه الجملة عن فعل هذه الحرمات بأبلاغ أسلوب . حيث عبر عن إجتناهم بالتعظيم وبأفعل التفضيل وهو أفعل . خير ، وإيضافها إلى ذاته .

فمكانه - سبحانه - يقول : إذا كان ترك هذا التعظيم لحرمات الله . يؤدى

إلى حصولكم على شيء من المتاع الدنيوي الزائل ، فإن الاستمساك بهذا التعظيم أفضل من ذلك بكثير عند ربكم وخالفكم ، فكونوا عقلاء ولا تنسبوا لوالدني الذي هو أدنى بالذي هو خير .

ثم بين - سبحانه - بعض الأحكام التي تتعلق بالأنعام وهي الإبل والبقر والغنم فقال : ، وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم

أي : وأحل الله - تعالى - لكم - فضلا عنه ورحمة - ذبح الأنعام وأكلها إلا ما يتلى عليكم تحريم ذبحه وأكله فاجتنبوه .

وهذا الإجمال هنا ، قد جاء ما فصله قبل ذلك في سورة الأنعام في قوله : - تعالى - : ، قل لا أجد فيها أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به

قال بعض العلماء : ، ثم إنه ليس المقصود بما يتلى ، ما ينزل في المستقبل ، كما يعطيه ظاهر الفعل المضارع . بل المراد ما سبق نزوله مما يدل على حرمة الميتة وما أهل لغير الله به . أو ما يدل على حرمة الصيد في الحرم أو حالة الإحرام .

وعلى هذا يكون السرف في التعمير المضارع ، التنبيه إلى أن ذلك المنلو يندفع استحضاره والالتفات إليه والجملة معترضة لدفع ما عساه يقع في الوم من أن تعظيم حرمة الله في الحج قد يقضى باجتناب الأنعام ، كما نفى باجتناب الصيد ، (١) .

ثم أمرم - سبحانه - باجتناب ما يفضيه ، وحضهم على الثبات على الدين الحق فقال - تعالى - : ، فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به ، والفاء في قوله : ، فاجتنبوا ، هي الفصيحة . والرجس : الشيء المستفذر الذي تعافه النفوس . ومن ، في قوله

(١) تفسير آيات الأحكام ج ٢ ص ٧٢ لفيلة المرحوم الشيخ محمد علي السابح ،

• من الأوثان، بيانية والأوثان : الأصنام ، يدخل في حكمها ومعناها عبادة كل معبود من دون الله - تعالى - كأننا من كان .

وسماها - سبحانه - رجسا ، زيادة تقييدها وفي التنزيل منها .

والزور : الكذب والباطل . وكل قول مائل عن الحق فهو زور ، لأن أصل المائة التي هي الزور من الأضرار بمعنى الميل والاعوجاج ، ومنه قوله - تعالى - : « وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين » ، أي : تميل .

وقوله « حنفاء » جمع حنيف وهو المائل عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق . والمعنى : مادام الأمر كما ذكرت لكم ، فاجتنبوا - أيها الناس - عبادة الأوثان أو تعظيمها ، واجتنبوا أيضاً - القول المائل عن الحق ، وليكن شأنكم وحالكم الثبات على الدين الحق ، وعلى إخلاص العبادة لله - تعالى - الذي خلقكم ، وخلق كل شيء .

وهذه الجملة الكريمة مؤكدة لما سبق وجوب تعظيم حرمة الله ، ومن وجوب التمسك بما أحله الله والبعد عما حرمه .

قال الألوسي : « وقوله - تعالى - : « واجتنبوا قول الزور » ، تعميم بعد تحفظ ، فإن عبادة الأوثان رأس الزور ، لما فيها من إعدام الامتثال ، كما - تعالى - لما حدث على تعظيم الحرمات ، أتبع ذلك بما فيه رد لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحار والسواثم ومخوفا ، والافتراء على الله - تعالى - بأنه حكم بذلك . ولم يعطف قول الزور على الرجس ؛ بل أعاد العامل لمزيد الاعتناء . والإضافية بيانية ... » (١)

وجملة « حنفاء » ، وجملة « غير مشركين » ، حالان مؤكداً لما قبلهما من وجوب اجتناب عبادة الأوثان ، واجتناب قول الزور .

أي : اجتنبوا ما أمرناكم باجتنابه حال كونكم ثابتين على الدين الحق ، مخلصين لله العبادة .

ثم صور - سبحانه - حال من يشرك بالله تصويراً تنخلع له القلوب ،
ويحول كل عاقل على إجتناّب هذا الرّجس فقال : ومن يشرك بالله فكأنما
خر من السماء فتخطفه الطّير ، أو تهوى به الرّيح في مكان سحيق ، .

أى : ومن يشرك بالله - تعالى - في عبادته ، ومات على ذلك ، فكأنما
سقط من السماء إلى الأرض ، فاخطفته جوارح الطّير بسرعة فزقت
أوصاله ، أو تسقطه الرّيح في مكان بعيد أشد البعد بحيث لا يعثر له على أثر .
والمقصود من هذه الجملة تقييح حال الشّرك والمشرّكين ، وبين أن
الوقوع في الشّرك يؤدى إلى الهلاك الذى لا نجاة معه بحال ، لأن من يسقط
من السماء فتمزق أوصاله ، وتخطفه الطّير أو تاقى به الرّيح في مكان بعيد
لا يطمع له في نجاة ، بل هو هالك لا محالة .

قال صاحب الكشف : - يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب
والمفرق ، فإن كان تشبيهاً مركباً فكأنه قال : من أشرك بالله قد أهلك نفسه
لهلاكه ليس بعده نسيئة ، بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء
فاخطفته الطّير فتفرق مزعاً - أى قطعاً - في حواصلها ، أو عصفت به الرّيح
حتى هوت به في بعض المطاوح - أى المقاذف - البعيدة .

وإن كان مفارقاً فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء ، والذى ترك الإيمان
وشرك بالله بالساقط من السماء والأهواء التى تنوزع أفكاره بالطّير المختطفة ،
والشيطان الذى يطوح به في وادى الضلالة ، بالرّيح التى تهوى بما عصفت به
في بعض المهادى المتلفة (١) .

ثم أمر - سبحانه - بتعظيم شعائره بعد أن أمر بتعظيم حرمانه فقال :
وذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب . .

قال القرطبي : : « شعائره : جمع شعيرة . وهى كل شئ . - تعالى - فيه أمر

أشعر به وأعلم . ومنه شعار القوم في الحرب ، أى : علامتهم التى يتعارفون بها .
ومنه إشعار البدنة وهو العطن فى جانبها الأيمن حتى يسيل الدم فيه يكون علامة
لها . . فشعار الله : إعلام دينه لا سيما ما يتعلق بالمناسك وقال قوم : المراد
هنا تسمين البدن . والاهتمام أمرها . . . (١) .

والمعنى : ذلك الذى أمرناكم به أو نهيناكم عنه عليكم امتثاله وطاعته ،
والحال أن من يعظم شعائر الله ، التى من بينها الذبائح التى يقرب بها إليه
- تعالى - يكون تعظيمه إياها عن طريق تسمينها وحسن اختيارها دليلا
على تقوى القلوب ، وحسن صلتها بالله - سبحانه - وخشيتها منه : وحرصها
على رضاه - عز وجل - .

قال الآلوسى : دو تعظيمها أن تختار حسنا مما فى غاية الأيمان روى أنه
- صلى الله عليه وسلم - أهدى مائة بدنة فيها جل لأبى جهل فى أنفه برة - أى
حلقة - من ذهب . وعن عمر أنه أهدى نجبية طلبت منه بثلاثمائة دينار ، فسأل
النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يبيعهما ويشتري بهما بدنا فتناه عن ذلك ،
وقال له : بل أهدها . . . (٢) .

وفى إضافة هذه الشعائر إلى الله - تعالى - : حرص على الاهتمام بها ، وفل
ما يرضى الله - تعالى - بالنسبة لها .

والضمير المؤنث فى قوله « فإنها من تقوى القلوب » يعود على الفعلة التى
يتضمنها الكلام ، أو إلى الشعائر بخذف المضاف ، أى : فإن تعظيمها أى
الشعائر من تقوى القلوب ، لحذف المضاف لدلالة الكلام عليه .

(١) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٥٦ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٥٠ .

وقوله - سبحانه - : « فليكن فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق » ، بيان لبعض مظاهر نعم الله - تعالى - عليهم في هذه الأنعام .
 أى : لكم - أيها المؤمنون - في تلك الأنعام التي تقدمونها قربة لله - تعالى - ، منافع ، تصل إليكم عن طريق ركوبها ولبنها ونسلها وهذه المنافع موقوفة إلى وقت معين ، هو وقت ذبحها أو وقت تعيينها وتسميتها هديا ، أما بعد ذلك فاتركوا الانتفاع بها للفقراء والمحتاجين ، فهذا أكثر ثوابا لكم عند الله - تعالى - .

وقوله - سبحانه - : « ثم محلها إلى البيت العتيق » ، بيان لما كان ذبحها .
 والمحل مأخوذ من حل الشيء . يحل - بالكسر - حلولا إذا وجب أو انتهى أجله . والمراد به في الآية مكان الحلول ، أى : المكان الذي ينتهى فيه أجل تلك الأنعام ، أو المكان الذي يجب ذبحها فيه .
 والمعنى : لكم في تلك الأنعام منافع إلى أجل مسمى ثم المكان الذي تذبح فيه مفتة إلى البيت العتيق . ومتصل به .

والمقصود بهذا المحل الحرم كله ، لأن البيت ليس مكانا للذبح .
 وبعضهم يرى أن المراد بالمحل في قوله : « ثم محلها إلى البيت العتيق » : تحلل الحجاج من إحرامهم بعد أداء شعائر الحج المعبر عنها بقوله - تعالى - :
 « ذلك ومن يعظم شعائر الله . . . » .

قال القرطبي : « قوله - تعالى - : « ثم محلها إلى البيت العتيق » ، يريد أنها تقضى إلى البيت ، وهو الطواف . فقوله : « محلها » ، مأخوذ من إحلال الحرم والمعنى : أن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة ورمى الجمار والسعى ينتهى إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق . فالبيت على هذا التأويل مراد بنفسه (١) .

ثم بين - سبحانه - أنه قد شرع لكل أمة الذبائح التي ينتفعون بها ، لكي يذكروه - سبحانه - ويشكروه ويخلصوا له العبادة ، ولكي يطعموا منها المسائل والمحتاج ، فقال - تعالى - :

« وَإِكُلْ أُمَةً جَعَلْنَا مِنْكُمْ لِيُذَكِّرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ . فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ ، فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْخَاشِعِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ ، وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ ، وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥) وَالْبُذْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ » ، فاذكروا اسم الله عليها صوافاً ، فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانيع والمستتر ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون (٣٦) لن ينال الله لحومها ولادِمائها ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين (٣٧) . »

والمنسك - بفتح السين وكسرها - مأخوذ من المنك بمعنى العبادة ، فيجوز أن يراد به المنك نفسه ، ويجوز أن يراد به مكانه أو زمانه .

ويبدو أن المراد به هنا عبادة خاصة وهي الذبح تقرباً إلى الله - تعالى - .

قال الألوسي : « والمنسك موضع المنك إذا كان اسم مكان ، أو المنك إذا كان مصدراً . وفسره مجاهد هنا بالذبح وإراقة الدماء على وجه التقرب إليه - تعالى - فجعله مصدراً ، وحمل المنك على عبادة خاصة ، وهو أحد استعمالاته وإن كان في الأصل بمعنى العبادة مطلقاً ، وشاع في أعمال الحج . . . » (١) .

وجملة د وليكل أمة . . . ، معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : - لكم فيها منافع إلى أجل المسمى

والمعنى : جعلنا لكم - أيها المؤمنون - منافع كثيرة في هذه الأنعام إلى وقت معين ، ثم تكون نهايتها وذبحها عند البيت الحرام ، كما جعلنا وشرعنا لمن قبلكم من الأمم شعيرة الذبح ليتقربوا بها إلينا ، وأرشدناهم إلى الذكر الذي يذبحون فيه ، وإلى أفضل الطرق التي تجمل ، ذبائحهم مقبولة عندنا .

وفي هذه الجملة الكريمة د وليكل أمة جعلنا منسكا ، تحريك لنفوسهم نحو الإقدام على إراقة الدم تقربا إلى الله ، لأن هذه الذبائح ليست من شعائر هذه الأمة وحدها ، وإنما هي من شعائرها ومن شعائر الأمم التي سبقتها .

وقوله - تعالى - : د ليدكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام . ، بيان للعلة التي من أجلها شرعت تلك الذبائح .

أي : شرعناها لكم وللأمم السابقة عليكم الإكثار من ذكر الله عند ذبحها فهو - سبحانه - الذي رزقكم إياها بفضلته وإحسانه ، فليسكنكم أن تكثروا من ذكره وشكره ، ليزيدكم من خيره ورزقه .

وفي هذه الجملة الكريمة تفريع وتوبيخ لمن يذكرون غير اسم الله - تعالى - عند الذبح ، وتأكيده لوجوب ذكر اسمه - تعالى - ، حتى لا كان المقصود الأعظم من وراء ذبح هذه الأنعام ، هو المداومة على ذكر اسم الله - عز وجل - وعلى شكره - سبحانه - على نعمه ، أما ما سوى ذلك كالأكل منها ، والانتفاع بها . . . فهي مقاصد فرعية .

ثم عقب - سبحانه - على ذلك بتقرير وحدانيته ، وبوجوب إسلام الوجه إليه ، فقال : د فإلهكم إله واحد فله أسلموا . ،

أي : شرعنا لكم ذلك لأن إلهكم إله واحد لا شريك له لا في ذاته ولا في صفاته ، فله وحده أسلموا وجوهكم ، وأخلصوها لعبادته وطاعته .

بجملته ، فإلهكم إله واحد ، بمثابة العلة لما قبلها من تخصيص اسمه المكرم
بالذكر عند الذبح ، لأن تفردّه - سبحانه - بالألوهية يستلزم هذا التخصيص .
وقوله - تعالى - دله أسلموا ، مرتب على ما قبله ، لأنه متى ثبت أن المستحق
للعباداة والطاعة هو الله الواحد الأحد ، فعليهم أن يسلموا وجوههم إليه

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يبشر الخبيثين برضاه
- سبحانه - ويثوبته فقال : د بشر الخبيثين ، أى : المتواضعين لله - تعالى -
المطمئنين إلى عدالة قضائه فيهم ، ولفظ د الخبيثين ، من الإخبات . وهو في
الأصل نزول الخبيث - بفتح الخاء وسكون الباء - .

أى : المكان المنخفض ، ثم استعمل في اللين والتواضع . يقال : فلان
مخبت ، أى : متواضع خاشع لله رب العالمين .

وحذف - سبحانه - المبشر به لتمويله وتعظيمه ، أى : وبشر - أيها
الرسول الكريم - هؤلاء المتواضعين لله - تعالى - بالثواب العظيم ، والأجر
الكبير الذى لا تحيط بوصفه عبارة .

ثم مدحهم - سبحانه - بأربع صفات فقال : د الذين إذا ذكر الله وجلت
قلوبهم . .

أى : بشر هؤلاء الخبيثين الذين من صفاتهم أنهم إذا سمعوا ذكر الله
- تعالى - وصفاته ، وحسابه لعباده يوم القيامة ، خافت قلوبهم ، وحذرت
معبيته - تعالى - :

والذين من صفاتهم كذلك : الصبر على ما يصيبهم من مصائب وعن في هاه
الحياة ، والمداومة على أداء الصلاة في مواعيدها بإخلاص وخشوع ، والإنفاق
بما رزقهم الله - تعالى - على الفقراء والمحتاجين .

فإن قيل : كيف نجتمع بين هذه الآيات التى وصفت المؤمنين الصادقين بأنهم

إذا ذكر الله وجلت قلوبهم . وبين قوله - تعالى - في آية أخرى : « ألا يذكر الله تطمئن القلوب » .

فالجواب : أنه لا تنافي بين الآيتين ، لأن من شأن المؤمن الصادق أنه إذا استحضر وعيد الله وحسابه لعباده يوم القيامة ، امتلأ قلبه بالخشية والخوف والوجل .

فإذا ما استحضر بعد ذلك رحمته - سبحانه - وسمة عفوه ، اطمأن قلبه وسكن روعه ، وثبت يقينه ، وانشرح صدره ، واستسلم لقضاء الله وقدره بدون تردد أو تشكك أو جزع .

فالوجل والاطمئنان أمران يجدهما المؤمن في قلبه ، في وقتين مختلفين . وفي حالتين متباينتين .

ويؤخذ من هاتين الآيتين : أن التواضع لله - تعالى - ، والمراقبة له - سبحانه - والصبر على بلائه ، والمحافظة على فرائضه . . . كل ذلك يؤدي إلى رضا - عز وجل - وإلى السعادة الدنيوية والأخروية .

ثم أكد - سبحانه - ما سبق الحديث عنه من وجوب ذكر اسمه - تعالى - عند الذبح ، ومن وجوب شكره على نعمه فقال : « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله » .

والبدن : جمع بدنة . وهي الإبل خاصة التي تهدي إلى البيت الحرام للتقرب بها إلى الله - تعالى - وقيل : البدن تطلق على الإبل والبقر . وسميت بهذا الاسم لبدانتها وضخامتها . يقال : بدن الرجل - بوزن كرم - إذا كثرت لحمه ، وضخم جسمه .

أي : وشرعنا لكم ، أيها المؤمنون - التقرب إلينا بالإبل البدينة السمينة وجعلناها ذلك شعيرة من شعائر ديننا ، وعلامة من العلامات الدالة على قوة إيمان من ينفذ هذه الشعيرة بتواضع وإخلاص .

وقوله - تعالى - : «لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ، حَلَّةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ مَقْرُورَةٌ لِمَا قَبْلُهَا . أَيْ : لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فِي الدُّنْيَا عَنْ طَرِيقِ الْإِنْتِفَاعِ بِأَلْبَانِهَا وَوَبَرِّهَا . . . وَلَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فِي الْآخِرَةِ عَنْ طَرِيقِ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ الَّذِي تَتَالَوْنَهُ مِنْ خَالِقِكُمْ بِسَبَبِ اسْتِجَابَتِكُمْ لِمَا أُرْشِدُكُمْ إِلَيْهِ .

وقوله - تعالى - : « فَذَكِّرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ ، إِرْشَادٌ لِمَا يَقُولُهُ الذَّابِحُ عِنْدَ ذَبْحِهَا .

وصَوَافٍ : جَمْعُ صَافَةٍ . أَيْ : قَائِمَاتٌ قَدْ صَفَفْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَأَرْجُلَهُنَّ . اسْتِعْدَادًا لِلذَّبْحِ .

أَيْ : إِذَا مَا هَيَّأْتُمْ هَذِهِ الْإِبِلَ لِلذَّبْحِ ، فَذَكِّرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا ، بِأَنْ تَقُولُوا عِنْدَ نَحْرِهَا : بِسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُمَّ مِنْكَ وَإِلَيْكَ .

وقوله - سبحانه - : « فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَسَكُّوْا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ، بَيَانٌ لِمَا يَذْبُقُ عَلَيْهِمْ فَعَلُهُ بَعْدَ ذَبْحِهَا .

وَوَجَبَتْ بِمَعْنَى سَقَطَتْ : وَهُوَ كُنَايَةٌ عَنْ مَوْتِهَا . يُقَالُ : وَجَبَ الْجِدَارُ إِذَا سَقَطَ ، وَوَجَبَتِ الشَّمْسُ إِذَا غَابَتْ .

وَالْقَانِعُ : هُوَ الرَّاغِي بِمَا قَدَرَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - لَهُ ، فَلَا يَتَعَرَّضُ لِسُؤَالِ النَّاسِ مَا خُوِذَ مِنْ قَنْعٍ يَقْنَعُ - كَرَضِي يَرْضَى - وَزَنَا وَمَعْنَى .

وَالْمُعْتَرَّ : هُوَ الَّذِي يُسْأَلُ غَيْرَهُ لِيُعْطِيَهُ . يُقَالُ : فَلَانٌ يَمْتَرِي الْأَغْنِيَاءَ ، أَيْ : يَذْهَبُ إِلَيْهِمْ طَالِبًا عَطَاءَهُمْ .

وَقِيلَ : الْقَانِعُ هُوَ الطَّامِعُ الَّذِي يُسْأَلُ غَيْرَهُ ، وَالْمُعْتَرَّ : هُوَ الَّذِي يَتَعَرَّضُ لِلْعَطَاءِ مِنْ غَيْرِ سُؤَالٍ وَطَلَبٍ .

أَيْ : فَإِذَا مَا سَقَطَتْ جُنُوبُ هَذِهِ الْإِبِلِ عَلَى الْأَرْضِ ، وَأَعْدَدْتُمُوهَا لِلذَّكْلِ فَسَكُّوْا مِنْهَا ، وَأَطْعَمُوا الْفَقِيرَ الْقَانِعَ الَّذِي لَا يُسْأَلُكُمْ ، وَالْفَقِيرَ الْمُعْتَرَّ الَّذِي يَتَعَرَّضُ لَكُمْ بِالسُّؤَالِ وَالطَّلَبِ .

ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله عليهم ، حيث ذلّل هذه الأنعام لهم فقال : « كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون » .

وقوله « كذلك » ، نعت لمصدر محذوف . أى : مثل ذلك التسخير البديع سخرنا لكم هذه الأنعام ، وذلّلناها لكم ، وجعلناها منفادة لأمركم ، لعلكم بعد أن شاهدتم هذه النعم ، وانتمتعتم بها ، تكونون من الشاكرين لنا ، المستجيبين لتوجيهاتنا وإرشادنا .

قال صاحب الكشف : « من اتق الله على عباده واستحمد إليهم ، بأن سخر لهم البدن مثل التسخير الذى رأوا وعلوا . يأخذونها منفادة للأخذ طيبة ، فيعقلونها ويحسبونها صافية قوائمها ، ثم يطعنون فى لبانها . ولولا تسخير الله لم تطعن ، ولم تكن بأعجز من بعض الوحوش التى هى أصغر منها جرماً ، وأقل قوة ، وكفى بما يتأبد من الإبل مشاهداً على ذلك » (١) .

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن شعائر الحج ، بتوجيه عباده إلى وجوب الإخلاص له ، والاستجابة لأمره ، وشكره على نعمه ، فقال - تعالى - : « إن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم »

أى : إن يصل إلى الله - تعالى - لحم هذه الأنعام ودماؤها ، من حيث هى لحوم ودماء ، ولكن الذى يصل إليه - سبحانه - وبشبيكم عليه ، هو تقواكم ومراقبتكم له - سبحانه - وخوفكم منه ، واستقامتكم على أمره وإخلاصكم للعبادة له .

قالوا : وفى هذا إشارة إلى قبح ما كان يفعله المشركون ، من تقطيعهم للحوم الأنعام ، ونشرها حول الكعبة ، وتلطيفها بالدماء ، وتحذير المسلمين من أن يفعلوا فعل هؤلاء الجاهلاء ، إذ رضا الله - تعالى - لا ينال بذلك ، وإنما ينال بتقوى القلوب .

ثم كرر - سبحانه - تذكيره لإيام بنعمه ، ليكون أدعى إلى شكره ووطأته فقال : « كذلك سخرناها لكم ، لشكروا الله على ما هداناكم وبشر المحسنين » .
 أي : كهذا التسخير العجيب الذي ترونه سخرنا لكم هذه الانعام ، لكي تشكروا الله وتعظموه وتقنصوه بسبب هدايته لكم إلى الإيمان .

وبشر - أيها الرسول الكريم - المحسنين لأفوالهم وأفعالهم ، بثوابنا الجزيل وبعطائنا الواسع .

وبذلك نرى أن سورة الحج قد سبجت بنا سبجا ضويلا في حديثها عن البيت الحرام ، وعن آداب الحج ومناسكه وأحكامه ، وعن الجزاء الحسن الذي أعده - تعالى - للمستجيبين لأمره .

وبعد هذا الحديث عن الشعائر والمناسك ، أذن - سبحانه - للمؤمنين بالقتال في سبيله ، للدفاع عن دينه وشعائره ، ووعدهم - عز وجل - بالنصر متى نصره وحافظوا على فرائضه ... فقال - تعالى - :

« إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ » (٣٩) الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ هَادِيَةُ الْأُمُورِ (٤١) .

قال الفخر الرازي : « أعلم أنه - تعالى - لما بين ما يلزم في الحج ومناسكه وما فيه من منافع الدنيا والآخرة ، وما كان من صد الكفار عنه ، أتبع ذلك ببيان ما يزيل الصد . ويؤمن معه التمكن من الحج فقال - تعالى - « وإن الله يدافع عن الذين آمنوا . . . » (١) .

ومفعول « يدافع » محذوف . وجاء التعبير بقوله - تعالى - « يدافع » بصيغة المفاعلة ، للمبالغة في الدفاع والدفع ، أو للدلالة على أن ذلك حاصل للمؤمنين كلها حصل من الكافرين عدوان عليهم .

أى : « إن الله - تعالى - بفضل وكرمه يدافع عن المؤمنين أعداءهم وخصومهم ، فيرد كيدهم في نحورهم .

ويصح أن يكون « يدافع » بمعنى يدفع ، ويؤيده قراءة ابن كثير وأبي عمرو . أى : « إن الله - تعالى - يدفع السوء عن عباده المؤمنين الصادقين ، ويجعل العاقبة لهم على أعداءهم .

فالجملة السكرية بشاره للمؤمنين ، وتقوية لثقتهم ، حتى يقبلوا على ما شرعه الله لهم من جهاد أعدائهم ، بثبات لا تردد معه . وبأمل عظيم في نصر الله وتأيدته . وقوله سبحانه - : « إن الله لا يحب كل خوان كفور » ، تعليل لوعده - سبحانه - للمؤمنين بالدفاع عنهم ، ويجعل العاقبة لهم .

والخوان : هو الشديد الخيانة . والكفور : هو المبالغ في كفره وجحوده ، فاللفظان كلاهما صيغة مبالغة .

قال الألوسي : « وصيغة المبالغة فيهما لبيان أن المشركين كذلك ، لا للتقيد المشعر بمحبة الخائن والكافر . . . » (٢) .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٦ ص ١٦٢ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٧ ص ١٦١ .

أى : إن الله - تعالى - يدافع عن المؤمنين لمحبتهم لهم ، ويبغض هؤلاء الكافرين الذى بلغوا فى الحيانة والكفر أقصى الدرجات .

وأثر التعبير بقوله - تعالى - : لا يحب ، على قوله : يبغض أو يكره ، للإشمار بأن المؤمنين هم أحباء الله - تعالى - ، وللتعريض هؤلاء الكافرين الذين تجاوزوا كل حد فى كراهيتهم الحق .

ثم رخص - سبحانه - للمؤمنين بأن يقاتلوا فى سبيله فقال : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » .

وقوله - تعالى - « أذن » ، فعل ماض مبني للمجهول مأخوذ من الإذن بمعنى الإباحة والرخصة . والمقصود لإباحة مشروعية القتال ، وقد قالوا : بأن هذه الآيات ، أول ما نزل فى شأن مشروعية القتال .

أخرج الإمام أحمد والترمذى عن ابن عباس قال : لما خرج النبي - صلى الله عليه وسلم - من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ليهلكوا . فنزلت هذه الآيات .

وقرأ ابن كثير وابن طاهر وحزمة والكسائي « أذن » ، بالبناء للفاعل . والمأذون لهم فيه هو القتال ، وهو محذوف فى قوة المذكور بدليل قوله « يقاتلون » ، والباء فى قوله « بأنهم ظلموا » ، للسببية .

أى : أذن الله - تعالى - للمؤمنين ، ورخص لهم ، بأن يقاتلوا أعداءهم الذين ظلمهم ، وآذوهم ، واعتدوا عليهم ، بعد أن صبر هؤلاء المؤمنون على أذى أعدائهم صبرا طويلا .

قال الألوسى : « والمراد بالموصول أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - الذين فى مكة ، فقد نقل الواحدى وغيره ، أن المشركين كانوا يؤذونهم ، وكانوا يأتون النبي - صلى الله عليه وسلم - بين مضروب ومشجوج ويتظلمون إليه فيقول لهم : اصبروا فإنى لم أؤمر بالقتال حتى هاجر - صلى الله عليه وسلم - ،

فزلت هذه الآية . وهي أول آية تزلت في القتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية^(١) .

وقوله - تعالى - : « وإن الله على نصرهم لقدير » ، وعد منه - سبحانه - المؤمنين بالنصر وحض لهم على الإقدام على الجهاد في سبيله بدون تردد أو وهن .

أى : « وإن الله - تعالى - لقادر على أن ينصر عباده المؤمنين . وعلى أن يمكن لهم في الأرض ، وعلى أن يجعلهم الوارثين لأعدائهم الكافرين » .

قال الإمام ابن كثير ماملخصه : « وقوله : « وإن الله على نصرهم لقدير » ، أى : هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال ، ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته ، كما قال - تعالى - : « فإذا لقيتم الذين كفروا فعضرب الرقاب ، حتى إذا اثقتهم ففصدوا الوثاق فإماتنا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلوا بعضكم ببعض » . . . »

وإنما شرع - سبحانه - الجهاد في الوقت الالئق به ، لأنهم لما كانوا بمكة ، كان المشركون أكثر عددا . فلو أمر المسلمون بالقتال لشق ذلك عليهم . . . فلما استقروا بالمدينة ، وصارت لهم دار إسلام ، ومعقلا يلجأون إليه شرع الله جهاد الأعداء ، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك . . . »^(٢) .

وقوله - سبحانه - : « الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » . . . ، بيان لبعض الأسباب التي من أجلها شرع الله الجهاد في سبيله . أى : « إن الله - تعالى - لقدير على نصر المؤمنين الذين أخرجهم الكافرون من ديارهم بغير حق . وبغير أى سبب من الأسباب ، سوى أنهم كانوا يقولون ربنا الله - تعالى - وحده » ، وإن تعبد من دونه إلهاً آخر .

(١) تفسير الألوسى ج ١٧ ص ١٦٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٣١ .

أى : ليس هناك ما يوجب إخراجهم - فى زعم المشركين - سوى قتلهم ربنا الله .

ثم حرض - سبحانه - المؤمنين على القتال فى سبيله ، بأن بين لهم أن هذا القتال يقتضيه نظام هذا العالم وصلاحه ، فقال - تعالى - : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » .

والمراد بالدفع : إذن الله للمؤمنين فى قتال المشركين . والمراد بقوله : « بعضهم » ، الكافرون . وبقوله : « ببعض » ، المؤمنون .

والصوامع : جمع صومعة ، وهى بناء مرتفع يتخذة الرهبان معابد لهم .
والبيع : جمع بئعه - بكسر الباء - وهى كنائس النصرانى التى لا تختص بالرهبان .

والصلوات : أما كن العبادة لليهود .

أى : ولولا أن الله - تعالى - أباح للمؤمنين قتال المشركين ، لاحت المشركون فى الأرض فسادا ، ولهدموا فى زمن موسى وعيسى أما كن العبادة الخاصة بأتباعهما ، ولهدموا فى زمن الرسول - صلى الله عليه وسلم - المساجد التى تقام فيها الصلاة .

قال القرطبي : وقوله - تعالى - : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ... »
أى : ولولا ما شرعه الله - تعالى - للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء . لاستولى أهل الشرك . وعطلوا ما بناه أهل الديانات من مواضع العبادات ، ولسكنه دمع بأن وجب القتال ليفرغ أهل الدين للعبادة . فالجهاد أمر متقدم فى الأمم . وبه صلحت الشرائع ، واجتمعت المتعبدات ، فمكأنه قال : « إذن فى القتال ، فليقاتل المؤمنون . ثم قوى هذا الأمر فى القتال بقوله : « ولولا دفع الله الناس ... الآية » ، أى : لولا الجهاد والقتال لتغلب أهل الباطل على أهل الحق .

في كل أمة . . . (١) .

فألاية الكريمة تفيد أن الله - تعالى - قد شرع القتال لإعلاء الحق وإزهاق الباطل . ولولا ذلك لاختل نظام هذا العالم . وانتشر فيه الفساد .

والتمهيد بقوله - تعالى - : « لهدمت بالفتنة الإسماعيليين بأن عدم مشروعية القتال ، يؤدي إلى فساد ذريع ، وإلى تحطيم شديد لما كن العبادة والطاعة لله - عز وجل - . »

وقدم الصوامع والبيع والصلوات على المساجد ، باعتبار أنها أقدم منها في الوجود ، أو للانتقال من الشريف إلى الأشرف .

ثم ساق - سبحانه - بأسلوب مؤكد سنة من سنته التي لا تتخلف فقال : « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز ، . »

أى : والله لينصرن - سبحانه - من ينصر دينه وأولاده ، لأنه - تعالى - هو القوى على كل فعل يريد ، العزيز الذي لا يغالبه مغالب ، ولا ينازعه منازع .

وقد أنجز - سبحانه - وعده وسنته ، فسلط عباده المؤمنين من المهاجرين والأنصار ، على أعدائه ، فأذلوا الشرك والمشركين ، وحطموا دولتي الكافرين والقيصرة ، وأورثهم أرضهم وديارهم .

ثم وصف - سبحانه - هؤلاء المؤمنين الذين وعدم ينصره بأكرم الصفات ليزم عن غيرهم فقال : « الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولهم عاقبة الأمور ، . »

أى : ولينصرن الله - تعالى - هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، والذين من صفاتهم أنهم إذا ما مكناهم في الأرض ، ونصرناهم على أعدائهم ، شكروا لنا ما أكرمناهم به ، فأقاموا الصلاة في مواقيتها

يخشع وإخلاص ، وقدموا زكاة أموالهم للمحتاجين ، وأمروا غيـرم
بالمعروف ونهوه عن المنكر والله - تعالى - وحده عاقبة الأمور ومردّها
ومرجعها في الآخرة ، فيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

فآية الكريمة تبين أن أولى الناس بنصر الله ، هم هؤلاء المؤمنون
الصادقون ، الذين أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن
المنكر ...

وشبيهه بهذه الآية قوله - تعالى - : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في
الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » .

وقوله - تعالى - : « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت
أقدامكم ... » .

وبعد أن أذن الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين في
القتال ، وبشرهم بالنصر ... أتبع ذلك بتسليته - صلى الله عليه وسلم - عما
أصابه من حزن بسبب تكذيب المشركين له ووبخ - سبحانه - أولئك المشركين
على اعتبارهم بمن سبقهم فقال - تعالى - :

« وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢)
وقوم إبراهيم وقوم لوط (٤٣) وأصحاب مدّين وكذب موسى
فأمايت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير (٤٤) فكأين من
قرية أهلكتناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها ، وبئر معطلة
وقصر مشيد (٤٥) أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب
يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولا
تعمى القلوب التي في الصدور (٤٦) ويستعجلونك بالعذاب ولن

يُخَافُ اللَّهَ وَعَدَهُ ، وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧)
 وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ (٤٨)
 قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَمَّوْا فِي آيَاتِنَا
 مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) .

والمعنى : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - لأن هؤلاء المشركين قد كذبوك
 فيما جئتهم به من عند ربك ، وأعرضوا عنه ، فإن قوم نوح ، وقوم هود ،
 وقوم صالح ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط ، وقوم شعيب ، وقوم موسى ، قد
 كذبوا هؤلاء الأنبياء الكرام ، وما يقال لك من هؤلاء المشركين ، قد قيل
 للرسول من قبلك .

قال - تعالى - : وكذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر
 أو مجنون . أنواصوا به بل هم قوم طاغون . فتول عنهم فما أنت بملوم . وذكر
 فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، (١) .

واستغنى في عاد وثمود عن ذكر القوم ، لاشتهارهم بهذا الاسم الذي يدل
 دلالة واضحة على هؤلاء الظالمين .

وقال - سبحانه - وأصحاب مدين ، ولم يقل وقوم شعيب ، لأنهم هم السابق
 في التكذيب له - عليه السلام - على أصحاب الأيكة ، ولأنهم هم أهلها أصحاب
 الأيكة فكانوا غرباء عنه .

قال - سبحانه - وكذب موسى ، لأنه لم يكذب من جميع قومه وهم
 بنو إسرائيل . وإنما كان المكذب له هو فرعون وماله ، والإشارة إلى أن موسى

- عليه السلام - قد جاء إلى الناس بآيات واضحات تدل على صدقه، ومع ذلك فقد قوبل بالكذب من فرعون ومثله .

ثم بين - سبحانه - ما حل بهؤلاء من عقوبات فقال : « فأملت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير » .

والإملاء : الإمهال ، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .
والنكير : اسم مصدر بمعنى الإنكار . يقال : أنكرت على فلان فعله ، إذا ردعته وزجرته عنه .

أى : هؤلاء الأقوام الذين كذبوا أنبياءهم ، لم أعاجلهم بالعقوبة ، بل أمليت لهم وأملت لهم ، ثم أخذتهم أخذ عزيز مقتدر ، فانظر - أيها العاقل - كيف كان إنكارى عليهم ؟ لقد كان إنكارا مخيفا مهلكا ، فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خصه فناء به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، (١) .

وقال - سبحانه - « فأملت للكافرين ، بالإظهار دون الإضمار ، لزيادة التشنيع عليهم ، والاستفهام فى قوله - تعالى - : « فكيف كان نكير » ، للتحويل والتعجيب . أى : لقد كان إنكارا فظيما حول حياتهم إلى موت ، وعمرانهم إلى خراب ، وغرورهم إلى ذلة وهوان ... فعلى مشركى قريش أن يعتبروا بذلك ويتعظوا ... وإلا فالعاقبة معروفة لهم .

وبعد هذا البيان المشتمل على سوء عاقبة هذه الأمم التى كذبت رسلا .. أنبغ ذلك - سبحانه - ببيان مصير كثير من الأمم الظالمة فقال : « فكأن من قرية أهلكتنا ، وهى ظالمة » ، فهى غارية على عروشها وبئر معطلة ، وقصر مشيد ، .

وكلمة «كأن» مركبة من كاف التشبيه، ومن أى الاستفهامية المنوطة،
ثم هجر معنى جزئها وصارت كلمة واحدة بمعنى كم الخبرية المفيدة للتكثير،
ويكنى بها عن عدد مبهم فتقرر إلى تمييز بعدها. ومميزها غالبا ما يجري بمن كافي
هذه الآية وفي غيرها. قال - تعالى - : «وكان من نبي قاتل معريون كثير،
«وكان من آية في السموات والأرض يبرون هليها وهم عنها معرضون».

قال الآلوسى : «وقوله : فكان من قرية» منصوب بمضمرة بفسره قوله
- تعالى - «وأهلكنها» أى : فأهلكنها كثير من القرى أهلكنها. «أو مرفوع
على الابتداء» وجلة «أهلكنها» خبره.

أى : فكثير من القرى أهلكنها. «وقوله : «وهي ظالمة» جملة حالية
من مفعول أهلكنها ...» (١).

ولفظ «خاوية» بمعنى سائطه أو خالية. يقال خوى البيت يحوى إذا سقط
أو خلا ممن يسكنه.

والعروش : جمع عرش. وهو سقف البيت. ويسمى العريش. وكل
ما يعمأ ليستظل به فهو عريش.

وبئر معطلة أى : مهجورة لهلاك أهلها، يقال بئر فلان الأرض إذا حفرها
ليستخرج منها الماء.

والمشيد : المخصص بالشيد وهو الحص. يقال شاد فلان بيته يشيده.
إذا طلاه بالشيد.

والمعنى : وكثير من القرى أهلكنها بسبب ظلمهم وكفرهم، فإذا ما نظرت
إليها وجدت خالية من أهلها، وقد سقطت سقفها على جدرانها. وكثير من
الآبار التي كانت تنفجر بالماء عطلناها وصارت مهجورة، وكثير - أيضا -

من القصور المشيدة الفخمة أخليناها من أهلها . وذلك لأنهم كذبوا رسلنا ،
وجحدوا نعمنا ، فدمرناهم تدميرا . وجعلنا مساكنهم من بعدهم أنرا بدمعين .
فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على أشد ألوان الوعيد
والتهديد الكفار قريش الذين كذبوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأعرضوا
عن دعوته .

وشبه هذه الآية قوله - تعالى - : « وكأين من قرية عتت عن أمر ربها
ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها
وكان عاقبة أمرها خسرا » (١) .

ثم ينتقل القرآن الكريم من هذا التهديد الشديد ، إلى التوبيخ والتفريع
لحولاء المشركين ، الذين لا يعتبرون ولا يتعظون فيقول : أفلم يسروا في
الأرض فتسكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ... ؟

والاستفهام للتوبيخ والإنكار ، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام .
والعنى : إن مصارع الغافرين وديارهم ، يمر بها كفار قريش ، ويعرفونها ،
فهم يرون في طريقهم إلى الشام قرى صالح . وقرى قوم لوط ... قال - تعالى - :
« ولأنكم لترون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون » .

والشأن في هذه الرؤية أن تجعل صاحبها يعتبر ويتعظ ، متى كان عنده
قلب يعقل ما يجب فهمه أو أذن تسمع ما يجب سماعه وتنفيذه ، ولكن هؤلاء
الجاهلين يرون مصارع الغافرين فلا يعقلون ولا يعتبرون ويسمعون الأحاديث
عن تلك الآبار المعطلة ، والقصور الخالية من سكانها ، والمنازل المهدامة ،
فلا يتعظون .

وقوله - تعالى - « فإنها لا تعى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ،
بيان لسبب انعدام بصائرهم ، وقسوة قلوبهم .

والضمير في قوله « فإنها » ، للقصة . أى : فإن الحال أنه لا يعتمد بمعنى
الابصار ، لكن الذى يعتمد به هو عمى القلوب التى فى الصدور ، وهؤلاء
المشركون قد أصيبوا بالعمى الذى هو أشنع عمى وأقبحه . وهو عمى القلوب
عن الفهم وقبول الحق .

وذكر - سبحانه - أن مواضع القلوب فى الصدور ، لزيادة التأكيد ،
ولزيادة إثبات العمى لتلك القلوب التى حدد - سبحانه - موضعها
تحديدا دقيقا .

قال الألوسى : وقال كلام تذييل لتمويل ما نزل بهم من عدم فقه القلب ، وأنه
العمى الذى لاعمى بعده ، بل لاعمى إلا هو ، أى المعنى : إن أبصارهم صحيحة سالمة
لاعمى بها . وإن العمى بقلوبهم ، فكأنه قيل : أفلم يسيروا فى الأرض فتكون
لهم قلوب ذات بصائر ، فإن الآفة ببصائر قلوبهم لا بأبصار عيونهم ، وهى الآفة
التي كل آفة دونها . كأنه يحشهم على إزالة المرض وينعى عليهم تقاعدهم عنها (١) .
ثم أكد - سبحانه - لنظائس بصائرهم ، حيث بين أنهم - لم يبدل أن يتوبوا
إلى الله ويستغفروه ، استعجلوه لعذاب فقال : ويستعجلونك بالعذاب ، ولن
يخلف الله وعده . وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون .

أى : أن هؤلاء الطغاة بدل أن يسيروا فى الأرض فيعتبروا ويتعظوا ،
أخذوا يطلبون منك - أيها الرسول الكريم - نزول العذاب عاجلا ، على سبيل
الاستهزاء بك والاستخفاف بما هددناهم به ، ويقولون لك : متى هو ؟
فاجلثة الكريمة . ويستعجلونك بالعذاب ، خبرية فى اللفظ ، إستفهامية
فى المعنى .

وقوله - سبحانه - : « ولن يخلف الله وعده » ، جملة حالية جىء بها
لتهديدهم على استهجالهم العذاب . أى : والحال أن الله - تعالى - لن يخلف

ما وعدهم به من العذاب . بل هو منجزه في الوقت الذي يريده هو وليس الذي يريدونه هم .

وقوله - سبحانه - : **وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون** ، جملة مستأنفة سبقت لبيان أن حساب الأزمان في تقدير الله - تعالى - يخالف ما يقدره البشر .

أى دعهم - أيها الرسول الكريم - يستعجلون العذاب ، فذلك دأب الظالمين في كل حين ، وسبيل الجاهلين في كل زمان ، وأعلمهم أن الله - تعالى - أن يخلف وعده لإيائهم به في الوقت المحدد لذلك ، وإن يوما عنده - تعالى - كألف سنة مما يعدونه هؤلاء في دنياهم ، وسيأتيتهم هذا اليوم الذي يطول عليهم طولا شديدا ، لما يرون فيه من عذاب مهين .

قال القرطبي : **وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون** ، قال ابن عباس وبجاهد : يعنى من الأيام التي خلق فيها السموات والأرض . وقال عكرمة : يعنى من أيام الآخرة ، أعلمهم الله إذا استعجلوه بالعذاب في أيام قصيرة وأنه يأتيهم به في أيام طويلة . وقال الفراء : هذا وعيد لهم بامتداد عذابهم في الآخرة .

وقبل المعنى : **وإن يوما في الخوف والشدّة في الآخرة كألف سنة من سنى الدنيا فيها خوف وشدّة** . (١) .

ثم أكد - سبحانه - أن إملأه للظالمين ، سيعقبه العذاب الأليم ، ، فقال : **وكان من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير** ، .

أى : وكثير من القرى الظالمة أمهلت عقوبة أهلها إلى أجل مسمى ، ثم أخذتها بعد ذلك أخذا شديدا ، جعلهم في قراهم جائنين كأن لم يغنوا فيها ، وسيرجعون إلينا فيجدون عذابا أشد وأبقى ، إذ أن مصيرهم إلى غيرى .

وبعد هذا العرض لمصارع الغابرين ، وبيان سنة الله - تعالى - في المكذبين ، يأمر - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يرشد الناس إلى مصيرهم فيقول : « قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين » .
 أي : قل - أيها الرسول الكريم - للناس إن وظيفتي أن أذكركم وأخوفكم من عذاب الله ، بدون التباس أو غموض .

« فالذين آمنوا ، وعملوا الأعمال الصالحات لهم من ربهم مغفرة واسعة ، ورزق كريم ، لا انقطاع معه ولا امتناع .

« والذين سمعوا في آياتنا معاجزين ، أي : والذين بذلوا كل جهودهم في إبطال آياتنا الدالة على وحدانيةنا وقدرتنا وصدق رسلنا ، وأسرعوا في تكذيبها وغالبوا المؤمنين وعارضوهم ليظهروك بمظهر العاجز عن الدفاع عن دينهم وعن عقيدتهم .

« أولئك ، الموصوفون بهذا السعي الأثيم ، أصحاب الجحيم ، أي : الملازمون للنار المتأججة ملازمة الممالك لما يملكونه .

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن فضل الله - تعالى - على أنبيائه ورسله حيث عصمهم من كيد الشيطان ووسوسته ، وحفظ دعوتهم من تكذيب المكذبين ، وعبث العاشين ... فقال - تعالى - :

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ، فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ، ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (٥٢) لِيَجْمَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ،
 (٢٧ - سورة الحج)

فَتَخَبَّتْ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . (٥٤) .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات : وقد ذكر كثير من المفسرين ما هنا قصة الغرانيق (١) ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة ، ظنا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا . ولمكنها من طرق كلها مرسلّة ، ولم أرها مستندة من وجه صحيح .

ثم قال - رحمه الله - : قال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن حبيب ، حدثنا أبو داود ، حدثنا شعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم - بمكة سورة النجم ، فلما بلغ هذا الموضع : « أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى » .

قال : فألقى الشيطان على لسانه : « تلك الغرانيق العلاء وإن شفاعتهن ترنجي » . قالوا : - أي المشركون - : ما ذكر ألهتنا بخير قبل اليوم ، فسجد وسجدوا فأنزل الله - تعالى - هذه الآية : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته .. » (٢) .

وجمع - سبحانه - بين الرسول والنبي . لأن المقصود بالرسول من بعث بكتاب ، وبالنبي من بعث بغير كتاب . أو المقصود بالرسول من بعث بشرع جديد ، وبالنبي من بعث لتقرير شرع من قبله . ولفظ « تمنى » هنا : فسره العلماء بتفسيرين :

أولهما : أنه من التمنى ، بمعنى محبة الشيء ، وشدة الرغبة في الحصول عليه

(١) الغرانيق : المراد بها هنا الأصنام . وهي في الأصل تطلق على الذكور من طير الماء ، واحدها : غرنوق - بضم فسكون فضم - سمي به الطائر لبياضه . وقد كان المشركون يزعمون أن الأصنام تشفع لهم عند الله - تعالى - فسموها بالغرانيق تشبيها لها بالطيور التي ترتفع نحو السماء .

(٢) راجع لتفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٨ ، طمة داد الشعب .

ومفعول « ألقى » محذوف ، والمراد بإلقاء الشيطان في أمنيته : محاولته صرف الناس عن دعوة الحق ، عن ضربيق لإلقاء الأباطيل في نفوسهم ، وتثبيتهم على ما هم فيه من ضلال .

والمعنى : وما أرسلنا من قبلك - يا محمد - من رسول ولا نبي ، إلا إذا أتى هداية قومه إلى الدين الحق الذي جاءهم به من عند ربهم ، ألقى الشيطان الوسواس والشبهات في طريق أمنيته لكي لا تتحقق هذه الأمنية ، بأن يوم الشيطان الناس بأن هذا الرسول أو النبي ساحر أو مجنون ، أو غير ذلك من الصفات القبيحة التي برا الله - تعالى - منها رسله وأنبياءه .

قال - تعالى - : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون » . أتواصوا به ، بل هم قوم طاغون ، (١) .

والآية السكرية على هذا التفسير واضحة المعنى ، وبؤيدها الواقع ، إذ أن كل رسول أو نبي بعثه الله - تعالى - كان حريصا على هداية قومه ، وكان يتمنى أن يؤمنوا جميعا ، بل إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كاد يهلك نفسه هما وغما بسبب إصرار قومه على الكفر .

قال - تعالى - : « فلاملك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » ، (٢) .

إلا أن قوم كل رسول أو نبي منهم من آمن به ، ومنهم من أعرض عنه بسبب إغواء الشيطان لهم ، وإيهامهم بأن ما هم عليه من ضلال هو عين الهدى .

وإلى هذا التفسير أشار صاحب الكشاف بقوله : « قوله - تعالى - : « ومن رسول ولا نبي » ، دليل بين على تعابر الرسول والنبي . والفرق بينهما أن الرسول من الأنبياء : من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه . والنبي غير

(١) سورة الذاريات الآية ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) سورة الكهف الآية ٦ .

الرسول : من لم ينزل عليه كتاب ، وإنما أمر أن يدعوا الناس إلى شريعة من قبله .

والسبب في نزول هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أعرض عنه قومه وشاقوه ، وخالفته عشيرته ولم يشايعوه على ما جاء به : تمى لفرط ضجره من إعراضهم ، ولحرصه وتهالكه على إسلامهم أن لا ينزل عليه ما ينفرم ، لعله يتخذ ذلك طريقا إلى استئثارهم واستنزاهم عن غيرهم . (١) .

أما التفسير الثاني للفظ : تمى ، فهو أنه بمعنى قرأ وتلا . ومنه قول حسان ابن ثابت ، في رثاء عثمان - رضى الله عنه :

تمى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر

أى : قرأ وتلا كتاب الله في أول الليل . وفي آخر الليل وفاه أجله .

ومفعول : ألقى ، على هذا المعنى محذوف - أيضا . - والمراد بما يلقه الشيطان في قراءته : ما يلقه في معناها من أكاذيب وأباطيل ، ليصد الناس عن اتباع ما يقرؤه الرسول وما يتلوه ، وليس المراد أنه يلقى فيه ما ليس منها بالزيادة أو بالنقص ، فإن ذلك محال بالنسبة لكتاب الله تعالى . - الذى تكفل سبحانه - بحفظه فقال : **: إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ، (٢) .**

والمعنى : وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - من رسول ولا نبي إلا إذا قرأ شيئا مما أنزأناه عليه ، ألقى الشيطان في معنى قراءته الشبه والباطل ، ليصد الناس عن اتباع ما يتلوه عليهم هذا الرسول أو النبي .

قال الآلوسى - رحمه الله - : **: والمعنى : وما أرسلنا من قبلك رسولا ولا نبيا . إلا وحاله أنه إذا قرأ شيئا من الآيات ، ألقى الشيطان الشبه والتخيلات فيما يقرؤه على أوليائه ، ليجادلوه بالباطل ، ويردوا ما جاء به ، كما قال - تعالى -**

(١) تفسير السكشاف ج ٣ ص ١٦٤ .

(٢) سورة الحجر الآية ٩ .

« وإن الشياطين لبوحدون إلى أوليائهم ليعادلوكم ، . وقال - سبحانه - :
« وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى
بعض زخرف القول غرورا ... »

وهذا كقولهم عند سماع قراءة الرسول - صلى الله عليه وسلم - « حرمت
عليكم الميتة والدم ... » : إن محمدا يحل ذبيحة نفسه ويحرم ما ذبحه الله .
وكقولهم عند سماع قراءة لقوله - تعالى - « إنكم وما تعبدون من دون الله
حصب جهنم » ، إن عيسى قد عبد من دون الله ، وكذلك الملائكة تدعبدوا
من دون الله ... » (١) .

والآية الكريمة على هذا التفسير - أيضاً - واضحة المعنى ، إذ المراد
بما يليق به الشيطان في قراءة الرسول أو النبي ، تلك الشبه والباطيل التي
يلقيها في عقول الضالين ، فيجعلهم يؤمنونها تأويلاً سبقها ويفهمونها فهماً
خاطئاً .

وقوله - تعالى - : « فينسخ الله ما يليق الشيطان ثم يحكم الله آياته
واقفه عليهم حكيم » بيان لسنة - سبحانه - التي لا تتخلف في إحقاق الحق .
ولإبطال الباطل .

وقوله « فينسخ » من النسخ بمعنى الإزالة . يقال : نسخت الشمس الظل
إذا أزالته .

أى : فيزيل - سبحانه - بمقتضى قدرته وحكمته ما ألقاه الشيطان في
القلوب التي شاء الله - تعالى - لها الإيمان والثبات على الحق . ثم يحكم - سبحانه -
آياته بأن يجعلها متقنة ، لا تقبل الرد ، ولا تختمل الشك في كونها من عنده
- عز وجل - واقفه عليهم بجميع شئون خلقه ، حكيم في كل أقواله وأفعاله
وتصرفاته .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن الحكمة في إلقاء الشيطان لشبهه وضلالته هي إمتحان الناس فقال : د ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم .

أى : فعل ما فعل - سبحانه - ليجعل ما يلقيه الشيطان من تلك الشبه في القلوب ، فتنة وإختباراً وإمتحاناً ، للذين في قلوبهم مرض ، أى : شك وإرتياب وهم المنافقون ، وللذين قست قلوبهم ، وهم الكافرون والمجاهرون بالجحود بالعناد .

ف قوله - تعالى : د ليجعل . . . متعلق د باللقى ، أى : ألقى الشيطان في أمنيه الرسل والأنبياء - ليجعل الله - تعالى - ذلك الإلقاء فتنة للذين في قلوبهم مرض .

ومعنى كونه فتنة لهم : أنه سبب لنزاديتهم في الضلال ، وفي إصرارهم على الفسوق والعصيان .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الفريقين فقال : د وإن الظالمين ، وهم من في قلوبهم مرض ، ومن قست قلوبهم د لى شقاق بعيد ، أى لى خلاف للحق شديد . بسبب نفاقهم وكفرهم .

ثم بين - سبحانه - حكمة أخرى لما فعله الشيطان من إلقاء الشبه والوساوس في القلوب فقال :

د وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به . فتخبت له قلوبهم .

والضمير في د أنه ، يعود إلى ما جاء به الرسل والأنبياء من عند ربهم .
أى : وفعل ما فعل - سبحانه - أيضاً ، ليعلم العلماء من عباده ، الذين حبب - سبحانه - إليهم الإيمان ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، أن ما جاء به الرسل والأنبياء هو الحق الثابت من ربك ، فيزدادوا إيماناً به د فتخبت لهم قلوبهم ، أى : فتخضع وتسكن وتطئن إليه نفوسهم .

و « وإن الله ، - تعالى - دلهادى الذين آمنوا ، به وصدقوا أنبياءه ورسله
 د إلى صراط مستقيم ، يوصلهم إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

هذا ، وقد أبطل العلماء - قديما وحديثا - قصة الغرانيق ، ومن العلماء
 القدماء الذين تصدوا لهذا الإبطال الإمام الفخر الرازى ، فقد قال ما ملخصه :
 « قصة الغرانيق باطلة عند أهل التحقيق ، واستدلوا على بطلانها بالقرآن
 والسنة والمعقول .

أما القرآن فن وجوه منها قوله - تعالى - : « ولو تقول علينا بعض
 الأقارب . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين ، وقوله - سبحانه - :
 « وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى ، : وقوله - عز وجل -
 « قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى . »

وأما السنة ، فقد قال الإمام البيهقى : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل .
 وأيضا فقد روى البخارى فى صحيحه أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قرأ
 سورة « النجم » وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجن ، وليس
 فيه حديث الغرانيق . وروى هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها ألبتة
 حديث الغرانيق .

وأما المعقول فن وجوه منها : أن من جوز على الرسول - صلى الله
 عليه وسلم - تعظيم الأوثان فقد كفر ، لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم
 معيه - صلى الله عليه وسلم - كان فى نقي الأوثان .

ومنها : أننا لو جوزنا ذلك لارتفع الأمان عن شرعه . . فإنه لافرق
 فى العقل بين نقصان من الوعى وبين الزيادة فيه .

فهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة . أكثر
 ما فى الباب أن جمعا من المفسرين ذكرها . لكنهم ما بالغوا حد التواتر . وخير
 الواحد لا يعارض الدلائل العقلية والعقلية المتواترة ، (١) .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : «أعلم أن مسألة الغرائب مع إستحالتها شرعا ودلالة القرآن على بطلانها لم تثبت من طريق صالح للاحتجاج به ، وصرح بعدم ثبوتها خلق كثير من علماء الحديث كما هو الصواب .

والحاصل : أن القرآن دل على بطلانها ، ولم تثبت من جهة النقل ، مع استحالة الإلقاء على لسانه - صلى الله عليه وسلم - شرعا ولو على سبيل السهو .
والذي يظهر لنا أنه الصواب : هو أن ما يلقيه الشيطان في قراءة النبي : الشكوك والوساوس المانعة من تصديقها وقبولها ، كإلقائه عليهم أنها - محر أو شعر أو أساطير الأولين ...

والدليل على هذا المعنى : أن الله - تعالى - بين أن الحكمة في الإلقاء المذكور لإمتحان الخلق ، لأنه قال : « ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ... » ثم قال : « وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك ... » فهذا يدل على أن الشيطان يلقى عليهم ، أن الذي يقرؤه النبي ليس بحق ، فيصدقه الأشقياء ، ويكذبه المؤمنون الذين أوتوا العلم ، ويعلمون أنه الحق لا الكذب ، كما يزعم لهم الشيطان في إلقائه ... (١)

ثم بين - سبحانه - أن الكافرين سيستمرون على شكهم في القرآن حتى تأتيتهم الساعة ، وأنه - تعالى - سيحكم بين الناس يوم القيامة ، فيجازي الذين أساءوا بما عملوا . ويجازي الذين أحسنوا بالحسن . فقال - عز وجل - :

« ولا يزالُ الذينَ كفَرُوا في مِرْيَةٍ مِنْهُ حتى تأتيتهم الساعةُ بفتنةٍ أُولَئِكَ هُمُ عَذَابُ يَوْمِ عَقِيمٍ (٥٥) الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا

(١) تفسير أضواء البيان - ٥ ص ٧٣١ لفضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطى

وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥٧) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قَتَلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) .

قال الجبل : « لما ذكر - سبحانه - حال الكافرين أولاً ، ثم حال المؤمنين ثانياً ، عاد إلى شرح حال الكافرين ، فهو رجوع لقوله : « وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ، والمرية بالسكسر والضم . اغتان مشهورتان » (١) . والضمير في قوله : « منه ، يعود إلى القرآن الكريم ، أو إلى ما جاء به الرسول من عند ربه ، وقيل إلى ما ألقاه الشيطان .

وقد رجح ابن جرير كونه للقرآن فقال : « وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : هي كناية عن ذكر القرآن الذي أحكم الله آياته وذلك أن ذلك من ذكر قوله : « وليعلم الذين أوتوا العلم ... » أقرب منه من ذكر قوله « فينسخ الله ما يلقي الشيطان ... » (٢) .

والمعنى : ولا يزال الذين كفروا في شك وريب مما أوحاه الله إليك من قرآن ، بسبب قسوة قلوبهم ، واستيلاء الجحود والعناد على نفوسهم . وسيستمررون على هذه الحال ، حتى تأنيهم الساعة ، أي : القيامة « بغثة ، أي : جفاة » أو يأنهم عذاب يوم عقيم ، أي : لا مثل له في هوله وشدة عذابه ، ولا يوم بعده ، إذ كل يوم يلد ما بعده من الأيام ، إلا هذا اليوم وهو القيامة فإنه لا يوم بعده .

قال ابن كثير : « وقوله : « أو يأنهم عذاب يوم عقيم ، قال مجاهد : قال أبي بن كعب : هو يوم بدر .

(١) حاشية الجبل على الجلالين ج ٣ ص ١٧٦ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١٧ ص ١٣٥ .

وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد واختاره ابن جرير .
وفي رواية عن عكرمة ومجاهد هو يوم القيامة لا ليلة له ، وكذا قال
الضحاك والحسن .

وهذا القول هو الصحيح ، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به ،
لسكن هذا هو المراد . ولهذا قال : « الملك يومئذ لله يحكم بينهم » كقوله
« مالك يوم الدين » (١) .

ثم بين - سبحانه - مظاهر قدرته ، وشمول قهره لغيره فقال : « الملك
يومئذ لله يحكم بينهم ... » ، والتنوين في قوله « يومئذ » عوض عن جملة .

أى : السلطان القاهر ، والتصرف الكامل ، يوم تأنيهم الساعة بغنة
أو يوم يأتيهم عذابها يكون لله - تعالى - وحده ، كما أن الحكم بين الناس جميعا
يكون له وحده - سبحانه - « فالذين آمنوا وعملوا الصالحات »
يكونون في هذا اليوم « في جنات النعيم » ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا التي
جاءتهم بها رسلنا « فأولئك لهم عذاب مهين » ، أى : لهم عذاب ينالون بسببه
ما ينالون من هوان وذل .

« والذين هاجروا ، من ديارهم » في سبيل ، لإعلاء كلمة الله ، ونصرة
دينه ، ثم قتلوا ، أى : قتلهم الكفار في الجهاد « أو ماتوا » ، أى : على فراشهم .
هؤلاء وهؤلاء « ليرزقنهم الله » - تعالى - بفضله وكرمه « رزقا حسنا »
يرضونهم ويسرهم يوم يلقونه ، حيث يبوئون جنته .

قال - تعالى - : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء
عند ربهم يرزقون .. » (٢) .

وقال - سبحانه - « ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يذكره »

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٤٢ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٦٩

الموت فقد وقع أجره على الله ، (١) .

وقوله - عز وجل - : « وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » ، تذييل قصد به بيان أن عطاءه - سبحانه - فوق كل عطاء ، لأنه يرزق من يشاء بغير حساب ، وبعضه من يشاء دون أن يتنازعه منازع ، أو يعارضه معارض ، أو ينقصه ما عنده شيء .

وقوله - تعالى - : « لِيَدْخُلْنَهُمْ مَدْخَلًا يُرْضَوْنَ » ، استثناف مقرر لما قبله . و « مَدْخَلًا » أي : إدخالا ، من أدخل يدخل - بضم الياء - وهو مصدر ميمي للفعل الذي قبله ، والمفعول محذوف .

أي : ليدخلهم الجنة إدخالا يرضونه .

وقرأ نافع « مَدْخَلًا » - بفتح الميم - على أنه اسم مكان أريد به الجنة .
أي : ليدخلهم مكانا يرضونه وهو الجنة .

« وَإِنَّ اللَّهَ - تعالى - « لَعَلِيمٌ » ، بالذی يرضيهم ، وبالذی يستحقه كل إنسان من خير أو شر « حلیم » ، فلا يعاجل بالعقوبة ، بل يستر ويعفو عن كثير .

ثم بشر - سبحانه - عباده الذين يقع عليهم العدوان بالنصر على من ظلمهم ، فقال - تعالى - :

« ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ، ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٦٠) ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ، وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢) » .

واسم الإشارة ذلك ، في قوله - تعالى - ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به

يعود إلى ما ذكره - سبحانه - قبل ذلك من أن الملك له يوم القيامة ، ومن الرزق الحسن الذي منحه للمهاجرين في سبيله ثم قتلوا أو ماتوا .

والعقاب : مأخوذ من التعاقب ، وهو مجيء الشيء بعد غيره . والمراد به هنا : مجازاة الظالم بمثل ظلمه .

قال القرطبي : قال مقاتل : نزلت هذه الآية في قوم من مشركي مكة . لقوا قوما من المسلمين لليتين بقيتا من الحرم ، فقالوا : إن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم - يكرهون القتال في الشهر الحرام قاتلوا عليهم ، فناشدهم المسلمون أن لا يقاتلوا في الشهر الحرام ، فأبى المشركون إلا القتال ، فحملوا عليهم فميت المسلمون ونصرهم الله على المشركين ، وحصل في أنفس المسلمين شيء من القتال في الشهر الحرام ، فأنزل الله الآية ...

فمعنى من عاقب بمثل ما عوقب به ، أى : من جازى الظالم بمثل ما ظلمه ، فسمى جزاء العقوبة عقوبة لاستواء الفعلين في الصورة . فهو مثل : جزاء سيئة سيئة مثلها ، (١) .

وقوله ثم بغى عليه ، أى : أن الظالم المبتدئ زبا ظلم عاد مرة أخرى فبغى على المظلوم وآذاه .

وقوله لينصرنه الله ، وعهد مؤكده منه - سبحانه - تنصرة المظلومين . والجملة جواب قسم عذوف . أى والله لينصرن - سبحانه - المظلوم على الظالم في الحال أو المسأل .

وقوله : إن الله لعفو غفور ، تعليل للنصرة ، وبيان بأن المظلوم عندهما

ترك العدو عن الظالم ، لا يؤاخذ - سبحانه - على ذلك ، مادام لم يتجاوز في رد العدوان الحدود المشروعة ، وهي الافتصار على القصاص بالمثل :

أى : إن الله - تعالى - لكثير العفو عن عباده ، وكثير المغفرة لذنوبهم وخطاياهم .

ثم بين - سبحانه - أن نصره للظالم مرجعه إلى شمول قدرته على كل شيء ، فقال - تعالى - : ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل

ومعنى : يولج : يدخل . يقال : ولج فلان منزله إذا دخله .

أى : ذلك الذى فعلناه من نصره المبغى عليه على الباغى ، كأن بسبب أن قدرتنا لا يمجزها شيء ، ومن مظاهر ذلك : أننا ندخل جزءا من الليل في النهار فيقصر الليل ويزيد النهار . وندخل جزءا من النهار في الليل فيحصل العكس . وأنتم ترون ذلك بأعينكم وتشاهدون كيف يسيران بهذا النظام البديع .

وأن الله سميع عليم ، أى : وأن الله - تعالى - سميع لكل المسموعات ، بصير بكل المبصرات ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

وقوله - سبحانه - : ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل . . . ، بيان لحقيقته - عز وجل - للعبادة والطاعة والخضوع التام .

واسم الإشارة يعود إلى ما وصف به نفسه قبل ذلك من صفات القدرة الباهرة والعلم التام . .

أى : ذلك الذى تراه - أيها العاقل - في هذا السكون من مخلوقات ، ومن نصر المظلوم ، ومن إدخال الليل في النهار وإدخال النهار في الليل ، سببه أن الله - تعالى - هو الإله الحق الذى يجب أن تعبد له الوجوه . وأن ما عداه من معبودات آلهة باطلة ما أنزل الله بها من سلطان .

«وَأَن آتَاهُ - تعالى - وحده - هو العلي ، أى : العالى على جميع الكائنات بقدرته ، وكل شيء دبره - الكبير ، أى : العظيم الذى لا يدانىسه فى عظمته أحد .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة ، قد وصفت الله - تعالى - بما هو أهل له من صفات الجلال والكمال .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على سعة فضله ورحمته بعباده فقال :
« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِغُ الْأَرْضَ مُخْضَرَّةً ،
إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ » (٦٣) له ما فى السموات وما فى الأرض وإن الله
لهو الغنى الحميد (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ ،
وَالْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ
إِلَّا بِإِذْنِهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ » (٦٥) وهو الذى أحياكم
ثم يميتكم ثم يحييكم ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ » (٦٦) .

والاستفهام فى قوله : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِغُ الْأَرْضَ
مُخْضَرَّةً ... » للتقرير .

وقوله : « مُخْضَرَّةً ، أى : ذات خضرة بسبب الثبات الذى ينبته الله فيها
بعد نزول المطر عليها .

والمعنى : لقد رأيت ببصرك ، أيها المخاطب ، أن الله - تعالى - قد أنزل
من السماء ماء ، فتصير الأرض بسببه ذات خضرة ، وفى ذلك أعظم الأدلة
على كمال قدرته ، وعظيم رحمته بعباده .

وقال - سبحانه - « فتصبح ، بصيغة المضارع ، لاستحضار صورة
الاخضرار ، الذى اتصفت به الأرض بعد نزول المطر عليها ، وصيغة الماضى
لا تفيد دوام استحضارها ، لأن الفعل الماضى يفيد إتمامه » .

ولم ينصب هذا الفعل المضارع في جواب الاستفهام ، لأن الاستفهام تقريرى فهو فى معنى الخبر ، والخبر لا جواب له ، فكأنه قيل : لقد رأيت ، ولأن السببية هنا غير متحققة ، إذ الرؤية لا يتسبب عنها إخضرار الأرض ، وإنما إخضرارها يكون بسبب نزول المطر .

وقد أشار صاحب الكشف إلى ذلك فقال : « فإن قلت : هلا قيل : فأصبح ؟ ولم صرف إلى لفظ المضارع ؟

قلت : لنكتة فيه وهى إفادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان ، كما تقول : أنعم على فلان عام كذا ، فأروح وأغدو شاكرًا له . ولو قلت : فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموضع . فإن قلت : فما له رفع ولم ينصب جوابا للاستفهام ؟ قلت : لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض ، لأن معناه إثبات الإخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الإخضرار . مثاله أن تقول لصاحبك ألم تر أنى أنعمت عليك فتشكر ، إن نصبت فأنت ناف لشكره . شاك تفرطه فيه ، وإن رفعت فأنت مثبت للشكر . وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم فى علم الإعراب وتوقير أهله ، (١) .

وقال بعض العلماء ماملا خصه : « فإن قيل : كيف قال فتصبح مع أن إخضرار الأرض قد يتأخر عن صبيحة المطر ؟

فالجواب : أن تصبح هنا بمعنى نصير ، والعرب تقول : فلان أصبح غنيا ، أى : صار غنيا . أو أن الفاء للتمقيب ، وتعقيب كل شئ بحسبه ، كقوله - تعالى - : « ثم خلقنا النطفةعلقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا مضغة عظما . . » مع أن بين كل شيئين أربعين يوما ، جاء فى الحديث الصحيح . . . ، (٢) .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « إن الله لطيف خبير ، أى : إن الله - تعالى - لطيف بعباده .

(١) تفسير الكشف ج ٣ ص ١٦٨ .

(٢) تفسير أضواء السالكين ، ج ٥ ص ٧٦٢ .

ومن مظاهر لطفه بهم ، إزاله المطر على الأرض للانتفاع بما تنبت به من كل زوج بهيج ، وهو - تعالى - خير بأحوال عباده . لا يعزب عن علمه منقال ذرة من هذه الأحوال .

فإنه - سبحانه - دله ما في السموات وما في الأرض ، خلقا وملكا وتصرفا ، وإن الله هو الغني ، عن كل ما سواه ، الحميد ، أي : المستوجب للحمد من كل خلقه .

وقوله - تعالى - : ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض ، والفلك تجري في البحر بأمره ، ويسبك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه بيان لألوان أخرى من النعم التي أنعم بها على بني آدم .

أي : لقد علمت - أيضا - أيها العاقل ، أن الله - تعالى - سخر لكم - يا بني آدم - ما في الأرض من دواب وشجر وأنهار ، وغير ذلك مما تحتاجونه لحياتكم ، وسخر لمنفعتكم السفن التي تجري في البحر بتقديره وإرادته وإذنه .

وهو - سبحانه - الذي يسبك السماء ويمنعها من أن تقع على الأرض ، فتلك من فيها ولو شاء - لأذن لها في الوقوع فتقطت على الأرض فأهلكك من عليها .

قال الجمل : د وقوله : د إلا بإذنه ، : الظاهر أنه استثناء مفرغ من أعم الأحوال ، وهو لا يقع إلا في الكلام الموجب ، إلا أن قوله : د ويسبك السماء أن تقع على الأرض ، في قوة النفي . أي : لا يتركها تقع في حالة من الأحوال إلا في حالة كونها ملتبسة بمشيئة الله - تعالى - د قالبا الملبسة (١) .

وقوله - سبحانه - : إن الله بالناس لرؤوف رحيم ، أي : لكثير الرأفة والرحمة بهم ، ومن علامات ذلك أنه سخر لهم ما في الأرض ، وسخر لهم الفلك ، وأسبك السماء عنهم ، ولم يسقطها عليهم .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا . ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، إنه كان حليماً غفوراً » (١) .
ثم ختم - سبحانه - هذه النعم بما هو أجلها وأعظمها فقال : « وهو الذي أحياكم ، أي . بعد أن كنتم أمواتاً في بطون أمهاتكم ، وقبل أن ينفخ بقدرته الروح فيكم .

« ثم يحييكم ، أي : عند البعث والحساب .

« إن الإنسان لكفور ، أي : لكثير الجحود والكفران لنعم ربه التي لا تحصى .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد ذكرت أنواعاً متعددة من الأدلة على قدرته - سبحانه - ، كما ذكرت ألواناً من نعمه على عباده ، ومن ذلك إنزال الماء من السماء فتصبح الأرض غضرة بعد أن كانت يابسة . وتسخير ما في الأرض للإنسان ، وتسخير الفلك لخدمته ومنفعته ، وإسكاء السماء أن تقع على الأرض إلا بمشيئته - تعالى - وإيجادنا من العدم بقدرته ورحمته .

وبعد أن عرضت السورة الكريمة دلائل قدرة الله - تعالى - ورحمته بعباده أتبع ذلك ببيان أنه - سبحانه - قد جعل لكل أمة شرعة ومنهاجا ، وأمرت النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يمضي في طريقة لتبليغ رسالة الله - تعالى - دون أن يلتفت إلى عمار المشركين له ، وأن يفوض الحكم فيهم إليه - سبحانه - فهو العليم بكل شيء ، فقال - تعالى - :

« لكل أمة جعلنا منسكاً م ناسكوه ، فلا ينازعنك في الأمر ، وادعُ إلى ربك إنك على هدى مُستقيم (٦٧) وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون (٦٨) الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه

تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) .

قال الآلوسی: «قوله - تعالى - : لكل أمة جعلنا منسكهم ناسكوه ... ، كلام مستأنف جىء به لجزر معاصريه - صلى الله عليه وسلم - من أهل الأديان السماوية عن منازعته ، ببيان حال ما تمسكوا به الشرائع ، وإظهار خطئهم» (١) . والمراد بالامة هنا : القوم الذين يدينون بشريعة معينة . والمزاد بالمنسك المنهج والشريعة التي يتبعونها في عقيدتهم وفي معاملاتهم ..

أى : شرعنا لكل أمة من الأمم السابقة منهاجا يسرون عليه في اعتقادهم وفي طريقة حياتهم ، فالامة التي وجدت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى - عليهما السلام - شريعتها التوراة ، والامة التي وجدت من مبعث عيسى حتى مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - شريعتها الإنجيل . والامة التي وجدت منذ مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى يوم القيامة شريعتها القرآن .

وعلى كل أمة أدركت بعثة محمد - صلى الله عليه وسلم - أن تتبعه فيما جاء به من عند ربه ، لأن شريعته هي الشريعة الناسخة لما قبلها ، والمهيمنة عليها .

ويرى بعضهم أن المراد بالمنسك هنا : المكان الذي يذبحون فيه ذبائحهم تقربا إلى الله - تعالى - .

وقد رجح الإمام ابن جرير ذلك فقال ماملخصه: «وأصل المنسك في كلام العرب : الموضع المعتاد الذي يعتاده الرجل ويألفه لخير أو شر . يقال : إن لفلان منسكا يعتاده ، يراد مكانا يخشاه ويألفه لخير أو شر . وقد اختلف أهل التأويل في معنى المنسك هنا : فقيل : عيد ، وقيل : إراقة الدم ... والصواب من القول في ذلك أن يقال : عني بذلك إراقة الدم أيام النحر بمنى ، لأن المناسك التي كان المشركون جادلوا فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

كانت إراقة الدم في هذه الأيام... ولذلك قلنا : عني بالمنسك في هذا الموضوع : الذبح.... (١).

ويبدو لنا أن القول الأول ، وهو تفسير المنسك بالشريعة الخاصة أقرب إلى الصواب لشموله للذبح وغيره .

والضمير في قوله : دم ناسكوه ، يعود لكل أمة .

أى : جعلنا لكل أمة شريعة تسير على تعاليمها ، وتمج على نهجها .
والفاء في قوله - تعالى - : فلا ينازعك في الأمر ، لترتيب النهى على ما قبلها .

والمنازعة : المجادلة والمخاصمة . والمراد بالأمر : ما جاء به النبى - صلى الله عليه وسلم - من عند ربه - تعالى - من تشريعات وأحكام .

أى : قد جعلنا لكل أمة من الأمم السابقة شريعة تتبع تعاليمها ، وما دام الأمر كذلك ، فاسلك أنت وأتباعك - أيها الرسول الكريم - الشريعة التى أوحيناها لإليك ، وأمرناك بإتباعها ، ولا تلتفت إلى مخاصمة من ينازعك فى ذلك من اليهود أو النصارى أو غيرهم ، فإن منازعتهم لك فيما جئت به من عند ربك ، يدل على جهلهم وسوء تفكيرهم . لأن ما جئت به من عند ربك مصدق لشريعتهم . ومهيمن عليها وناسخ لها .

ثم أرشده - سبحانه - إلى ما يجب عليه نحو دينه فقال : وادع إلى ربك لما نك لعلى هدى مستقيم .

أى : وادع هؤلاء الذين ينازعونك فيما جئتهم به من الحق ، وادع غيرهم معهم إلى ترك التنازع والتخاصم ، وإلى الدخول فى دين الإسلام ، فإنك أنت على الصراط المستقيم ، الذى لا إغواج فيه ولا التباس .

ثم بين له - سبحانه - ما يفعله إذا ما جادلوا فى منازعتهم له فقال : وجادلوك فقل الله أعلم بما تعملون .

أى : وإن أبوا إلا جادلتك بعد أن ظهر الحق ، ولزمتهم الحجة ، فقل لهم - أيها الرسول الكريم : أمرى وأمركم إلى الله - تعالى - ، فهو الذى يتولى الحكم بينى وبينكم يوم القيامة ، لأنه - سبحانه - هو العالم بحالى وحالكم .

وهذه الجملة الكريمة قد تضمنت تهديدهم على استمرارهم فى جداولهم بعد أن تبين لهم الحق ، كما تضمنت وجوب إعراض الرسول - صلى الله عليه وسلم - عنهم .

ثم أكد - سبحانه - هذا التهديد والإعراض فقال : « الله يحكم بينكم » ، أيها المسلمون وبين هؤلاء الكافرين « يوم القيامة فيما كنتم فيه » ، فى لدنيا « تختلفون » ، من أمر هذا الدين وحيثما يتبين من هو على الحق ومن هو على الباطل ، وسيجازى - سبحانه - كل فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب . ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بتأكيد عليه بكل شئ . فقال : « ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض ... »

أى : لقد علمت - أيها الرسول الكريم - وتيقنت ، أن الله - تعالى - لا يعزب عن علمه مثقال ذرة مما يحصل فى السموات والأرض من أقوال أو أفعال . « إن ذلك ، الذى يجرى فى السموات والأرض كائن وثابت وفى كتاب » هو اللوح المحفوظ المشتمل على جميع أحوال الخلق .

« إن ذلك ، الذى ذكرناه لك من الحكم بين الناس ، وعن العلم بأحوالهم ومن تسجيل أعمالهم » على الله - تعالى - « يسير » ، وهين ، لأنه - سبحانه - له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

ثم وبخ - سبحانه - الكافرين على جهلهم ، حيث عبدهم ، ووردونهم ، لا يتفقههم ولا يضرهم . وحيث كرهوا الحق وأصحابه ، فقال - تعالى - :

« وَيَبْذُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَالًا يَنْزُلُ بِهِ سُلْطَانًا ، وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١) ، إِذَا تَلَّٰ عَلِمَهُ آثَانًا مِّنَاتِ

تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر ، يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ، قل : أفأنبئكم بشر من ذلكم ، النار وعدّها الله الذين كفروا وبئس المصير (٧٢) .

ان هؤلاء المشركين الذين ينازعونك فيما جنتهم به من عند ربك ، يتربصون . وهم إليه - أيها الرسول الكريم - من إخلاص العبادة لله - تعالى - ويعبدون من دونه - سبحانه - آلهة أخرى . لا دليل لهم على عبادتها من عقل أو نقل .

لذا قوله - سبحانه - : وما لم ينزل به سلطانا ، نفى لأن يكون لهم دليل مسمّى على عبادتها وقوله - تعالى - : وما ليس لهم به علم ، نفى لأن يكون لهم عقل على عبادتها .

والتمكين في قوله : سلطانا وعلم ، للتقليل . أى : لا دليل لهم أصلا لا من جهة السمع ، ولا من جهة العقل ، ومع ذلك يتمسكون بهذه العبادة الباطلة .

وقوله - تعالى - : وما للظالمين من نصير ، تهديد بسوء المصير هؤلاء المشركين .

أى : وما للظالمين الذين وضعوا العبادة في غير موضعها ، من نصير ينصرهم من عقاب الله وعذابه ، لأنهم بسبب عبادتهم لغير الله - تعالى - ، قد قطعوا عن أنفسهم كل رحمة ومغفرة .

ثم بين - سبحانه - أنهم بجانب ضلالهم ، تأخذهم العزة بالإثم إذا ما انصحهم الناصحون بالإقلاع عن هذا الضلال فقال : وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر ، يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا

وقوله : يسطون ، من السطو ، بمعنى الوثب والبطش بالغير . يقال : سطا فلان على فلان ، إذا بطش به بضرب أو شتم أو سرقة أو ما يشبه ذلك .

أى : وإذا تتلى على هؤلاء الظالمين ، آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا من قبل عبادنا المؤمنين ، تعرف . - أيها الرسول الكريم - في وجوه الذين كفروا ، هذه الآيات البينات ، المنسكرة ، أى : ترى في وجوههم الإنكار لها ، والغضب منها ومن قارتها ، والمنكرامية والحبوس عند سماعها .

بل ويكادرن فوق ذلك ، يبطشون بالمؤمنين الذين يتلون عليهم آياتنا ، ويمتدون عليهم بالسب تارة . وبالضرب تارة أخرى .

وذلك لأن هؤلاء الظالمين ، حين عجزوا عن مقارعة الحججة بالحجة ، لجأوا إلى السطو والعدوان ، وهذا شأن الطغاة الجاهلين في كل زمان ومكان .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لهؤلاء الطغاة على سبيل التهديد والوعيد ، ما من شأنه أن يردعهم عن سطوهم وبغيهم فقال : **قل أفأنتمكم بشر من ذلكم .**

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الظالمين ألا أخبركم بما هو أشد المما من غيظكم على من يتلو عليكم آياته ، ومن همكم بالسطو عليه ؟

أشد من كل ذلك النار ، التي وعد بها الله الذين كفروا ، أى : وعدهم بدخولها ، وباصطلاء بسعيرها وببئس المصير ، مصير هؤلاء الكافرين . قال الجمل : وقوله : **النار** ، خبر مبتدأ محذوف ، كأن سائلاً سأله فقال : **والأشهر ؟** فقيل : **النار** ، أى : هو النار . **وحينئذ** فالوقف على ذلكم ، أو على النار .

ويصح أن يكون لفظ النار مبتدأ ، والخبر : **وعدها الله** . وعلى هذا فالوقف على : **كفروا . . .** (١) .

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى الناس . بين فيه أن كل آلهة تعبد من دونه - عز وجل - فهي باطلة وهي أعجز من أن تدافع عن نفسها ، وأن كل عابد لها هو جاهل ظالم . فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِثْلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْنَاهُمُ الذُّبَابَ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضُمُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦) » .

والمثل : الشبيه والنظير ، ثم أطلق على القول السائر المعروف ، لمائة مضربه - وهو الذي يضرب فيه - بمورده وهو الذي ورد فيه أولاً : ولا يكون إلا لما فيه غرابة .

ولنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفي ، وتقريب الشيء المعقول من الشيء المحسوس ، وعرض الغائب في صورة الشاهد ، فيكون المعنى ضرب له المثل أوقع في القلوب ، وأثبت في النفوس .

وسمى الله - تعالى - مأساقه في هذه الآية التكريمة مثلاً . لأن ما يفعله المشركون من عبادتهم لآلهة عاجزة ، يشبه المثل في غرابته وفي التعجب من فعله . قال صاحب الكشف : « فإن قلت : الذي جاء به - سبحانه - ليس بمثل ، فكيف سماه مثلاً ؟

قلت : قد سميت الصفة أو القصة الرائعة الملتقاة بالاستغراب مثلاً ، تشبيهاً لها ببعض الأمثال المسيرة ، لكونها مستحسنة مستغربة عندهم (١) . والمعنى : يا أيها الناس لقد بينا لكم قصة مستغربة . وحالا عجيبة ، لما يعبد من دون الله - تعالى - فاستمعوا إلينا بتدبر وتعقل .

وقوله : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ... » ، بيان للمثل وتفسير له .

والذباب : اسم جنس واحدة ذبابة - وهي حشرة معروفة بطايشها وضعفها وقذارتها .

أى : إن المعبودات الباطلة التى تعبدونها أيها المشركون ، لن تستطيع أن تخلق ذبابة واحدة ، حتى لو اشتركت جميعها فى محاولة خلق هذه الذبابة .

قال صاحب الكشف : وهذا من أبلغ ما أنزله الله فى تجهل قريش ، واستركاك عقولهم . والشهادة على أن الشيطان قد خزمهم بخزائمه - أى قدر وبطهم برباطه ، حيث وصفوا بالإلهية - التى تقتضى الاقتدار على المقدورات كلها - صوراً وتمائيل ، يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه وأذله وأصغره وأحقره ، ولو اجتمعوا لذلك ونساندوا ... (١) .

وقوله - سبحانه - : « وإن يسلمهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه » ، بيان لعجز تلك الآلهة الباطلة عن أمر آخر سوى الخلق .

أى : وفضلا عن عجز تلك الأصنام مجتمعة عن خلق ذبابة ، فإنها إذا اختطف الذباب منها شيئا من الأشياء لا تستطيع استرداده منه لعجزها عن ذلك . قال القرطبي : « وخص الذباب لأربعة أمور تخصه : لمهاتته وضعفه ، ولاستقذاره وكثرته . فإذا كان هذا الذى هو أضعف الحيوان وأحقره ، لا يقدر من عبده من دون الله - تعالى - على خلق مثله ، ودفع أذيته ، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين ، وأربابا مطاعين ، وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان » (٢) .

ثم ختم - سبحانه - الآية السكريمة بما على عجز الخاطف والمخطوف منه فقال : « ضعف الطالب والمطلوب » .

قال الألوسي : « الطالب : عابد غير الله - تعالى - والمطلوب الآلهة . وكون عابد ذلك طالب لدعائه إياه ، واعتقاده نفعه ، وضعفه لطالبه النفع من غير جهته ، وكون الآخر مطلوبا ظاهرا كضعفه .

(١) تفسير الكشف ج ٣ ص ١٧١ . (٢) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٩٧ .

وقيل : « الطالب الذباب يطلب ما يسلبه من الآلهة ، والمطلوب : الآلهة .
على معنى المطلوب منه ما يسلب ... » (١) .

وعلى أية حال فإن هذا التعليل يدل دلالة واضحة على عجز كل معبود باطل . وأنه قد تساوى في عجزه مع أضغف مخلوقات الله وأحقرها .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن هؤلاء المشركين ، قد وضعوا الأمور في غير موضعها ، لجهلهم وغباهم فقال : « ما قدروا الله حق قدره ... » .

أى : ما عظموا الله حق تعظيمه ، وما عرفوه حق معرفته ، حيث تركوا عبادة الواحد القهار ، وعبدوا ما يعجز عن رد ما سلبه الذباب منه .

« إن الله لقوى ، على خلق كل شيء - عزيز ، لا يغالبه مغالب ، ولا يدافعه مدافع . »

ثم بين - سبحانه - أن له مطلق التصرف في إختيار رسله فقال : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ... » .

أى : الله - تعالى - وحده هو الذى يختار من بين ملائكته رسلا يرسلهم لتبليغ وحيه إلى أنبيائه ، كما إختار جبريل - عليه السلام - لهذه الوظيفة . وهو الذى يختار من بين الناس رسلا ، كما إختار إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم لهذه المهمة ، فهو - سبحانه - أعلم حيث يجعل رسالته .

« إن الله ، تعالى - سميع ، لأقوال عباده بصير ، بأحوالهم ، لا تخفى عليه خافية من شئ » .

« يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، أى : يعلم ما قدوا من أعمال ، وما يعملون الآن ، وما سيعملونه في المستقبل ، إذ أن علمه - سبحانه - ليس مقيدا بزمن أو مكان ، وإلى الله ، تعالى وحده ترجع الأمور ، كلها لا إلى غيره . »

ثم وجه - سبحانه - في نهاية الصورة ندا . إلى عباده المؤمنين ، أمرهم فيه بالمداومة على طاعته ، وبالإخلاص في عبادته ، وبالجهد في سبيله ، وبالإعتصام بحبله ، فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ، وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ، وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ . هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ، وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) » .

والمراد بالركوع والسجود هنا : الصلاة ، وعبر عنها هما ، لأنهما أهم أركانها وفادام - سبحانه - بصفة الإيمان ، لخصهم على الامتثال لما أمروا به .

أى : يا من آمنتم بالله - تعالى - وبملائكته وبكتبه وبرسوله وباليوم الآخر حافظوا على أداء الصلاة في مواقيتها بخشوع وإخلاص ، لأن هذه الصلاة من شأنها أن تنهاكم عن الفحشاء والمنكر ، وأن ترفع درجاتكم عند خالقكم .

وقوله - تعالى - : « واعبدوا ربكم ، أى : واعبدوا ربكم الذى تولاكم برعايته وتربيته فى كل مراحل حياتكم ، عبادة خالصة لوجه الكريم .

وقوله : « وافعلوا الخير ، تعميم بعد التخصيص ، إذ فعل الخير يشمل كل قول عمل يرضى الله - تعالى - . كإتفاق المالك فى وجوه البر ، وكصلة الرحم وكالإحسان إلى الجار ، وكغير ذلك من الأفعال التى حضت عليها تعاليم الإسلام .

وقوله - تعالى - : « لعلكم تفلحون ، تدبيل قصد به التحريض على امتثال ما أمرهم الله - تعالى - به والفلاح : الظفر بالمطلوب .

أى : أدوا الصلاة بخشوع ومواظبة ، واعبدوا ربكم عبادة خالصة ، وافعلوا الخير الذى يقربكم من خالقكم ، لئكى تنالوا رضاه وثوابه - عز وجل - .

فكلمة « لعل ، لتعليل ، وبصح أن تكون على معناها الحقيقى وهو الرجاء .

ولسكن على تدبير صدوره من العباد ، فيكون المعنى : وافعلوا الخير حالة كونهم راجين الفلاح ، ومتوقعين الفوز والنجاح .

والمتمأل في هذه الآية المكريمة يراها أنها قد جمعت أنواع التكليف الشرعية ، وأحاطت بها من كل جوانبها .

قال الآلوسى ماملخصه : « وهذه الآية آية سجدة عند الشافعى وأحمد ، لظاهر ما فيها من الأمر بالسجود ، والحديث عقبة بن عامر قال : قلت يا رسول الله ، أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدة تين ؟ قال : نعم . فمن لم يسجد بها فلا يقرأها . »

وذهب أبو حنيفة ومالك إلى أنها ليست آية سجدة . لأنها مقرونة بالأمر بالركوع ، والمعهود في مثله من القرآن ، كونه أمراً بما هو ركن للصلاة ، كما في قوله - تعالى - : « يا أيها الذين آمنوا سجدوا لله جميعاً ولا على الأصنام أو على ما خلق من دابة فكل ساجدة لله وحده لا شريك له » . (١)

وبعد أن أمر - سبحانه - بالصلاة والعبادة وبفعل الخير ، أتبع ذلك بالأمر بالجهاد فقال - تعالى - : « وجاهدوا في الله حق جهاده ، »

والجهاد مأخوذ من الجهد ، وهو بذل أقصى الطاقة في مدافعة العدو .

وهو أنواع : أعظمها : جهاد أعداء الله - تعالى - من الكفار والمنافقين والظالمين والمبتدعين في دين الله - تعالى - ما ليس منه .

كذلك من أنواع الجهاد : جهاد النفس الأمارة بالسوء وجهاد الشيطان .

وإضافة حق إلى جهاد في قوله : « حق جهاده » ، إضافة الصفة إلى الموصوف

أى : وجاهدوا - أيها المؤمنون - في سبيل الله - تعالى - ومن أجل إعلاء كلمته ، ونهر شريعته ، جهاداً كاملاً صادقاً لا تردد معه ولا تراجع .

قال صاحب الكشف : « قوله : « وجاهدوا » ، أمر بالغزو وجهادة

النفس والهوى . وهو الجهاد الأكبر . عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه رجع من بعض غزواته فقال : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر في الله ، أي : في ذات الله ومن أجله . يقال : هو حق عالم ، وجدعالم ، ومنه : حق جهاده .

فإن قلت : ما وجه هذه الإضافة وكان القياس حق الجهاد فيه ، أو حق جهادكم فيه ، كما قال : وجاهدوا في الله ؟

قلت الإضافة تكون بأدنى ملازمة وإختصاص . فلما كان الجهاد مختصا بالله من حيث إنه مقبول لوجهه ومن أجله ، صحت إضافته إليه . (١) .
وجملة : هو لإجتياكم ، مستأنفة ، لبيان علّة الأمر بالجهاد . والاجتيا : الاختيار والاصطفاء .

أي : جاهدوا - أيها المؤمنون - من أجل إعلاء كلمة الله ، لأنه - سبحانه - هو الذي اختاركم للذب عن دينه ، واصطفاكم لحرب أعدائه وجدير بمن إختاره الله واصطفاه . أن يكون مطيعا له .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر لطفه بعباده فقال : وما جعل عليكم في الدين من حرج ،

أي : ومن مظاهر رحمته بك - أيها المؤمنون - أنه سبحانه - لم يشرع في هذا الدين الذي تدبنون به ما فيه مشقة بكم ، أو ضيق عليكم ، وإنما جعل أمر هذا الدين ، مبني على اليسر والتخفيف ورفع الحرج ، ومن قواعده التي تدل على ذلك : أن الضرر يزال . وأن المشقة تجلب التيسير ، وأن اليقين لا يرفع بالشك ، وأن الأمور تتبع مقاصدها ، وأن التوبة الصادقة النصوح تحب ما قبلها من ذنوب . ومن الآيات التي تدل على أن هذا الدين مبني على التيسير ورفع الحرج قوله - تعالى - : لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، وقوله - سبحانه - : لا يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر .

وفي الحديث الشريف : د بعثت بالحنيفية السمحاء . .

قال بعض العلماء : د وأنت خبير بأن هناك فرقا كبيرا ، بين المشقة في الأحكام الشرعية ، وبين الحرج والعسر فيها ، فإن الأولى حاصلة ولما يخلو منها تكليف شرعى ، إذ التكليف هو التزام ما فيه كلفة ومشقة ، أما المشقة الزائدة عن الحد التى تصل إلى حد الحرج ، فهى المرفوعة عن المكلفين .

فقد فرض الله الصلاة على المكلف ، وأوجب عليه أداؤها ، وهذا شئ لا حرج فيه . ثم هو إذا لم يستطع الصلاة من قيام ، فله أن يؤديها وهو قاعد أو بالإيماء ... وهكذا جميع التكاليف الشرعية ... (١) .

والخلاصة أن هذا الدين الذى جاءنا به محمد - صلى الله عليه وسلم - من عنده - عز وجل - مبني على التخفيف والتيسير ، لا على الضيق والحرج ، والذين يجدون فيه ضيقا وحرجا ، هم التاكيدون عن هديه ، الخارجون على تعالجه .

ورحم الله الإمام القرطبي فقد قال : د رفع الحرج إنما هو لمن استقام على منهاج الشرع ، وأما السراق وأصحاب الحدود فعليهم الحرج ، وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقة دين ... (٢) .

والمراد بالملة فى قوله - تعالى - : د ملة أبيكم إبراهيم ، الدين والشرعية . ولفظ د ملة ، هنا منصوب بزعم الخافض .

أى : ما جعل عليكم - أيها المؤمنون - فى دينكم من حرج ، كما لم يجعل ذلك - أيضا - فى ملة أبيكم إبراهيم .

ويصح أن يكون منصوبا على المصدرية بفعل دل عليه ما قبله من نفي الحرج ، بعد حذف المصدر المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه . أى : وسع عليكم فى دينكم توسعة ملة أبيكم .

(١) تفسير آيات الأحكام ج ٣ ص ٩٨ للمرحوم الشيخ محمد على السابيس .

(٢) تلمذ القدر طبر ١٢ ص ١٠١ .

ووصف - سبحانه - إبراهيم - عليه السلام - بالآبوة لهذه الأمة ، لأن رسول هذه الأمة - صلى الله عليه وسلم - ينتهى نسبه إلى إبراهيم . ورسول هذه الأمة - صلى الله عليه وسلم - كالأب لها من حيث إنه - صلى الله عليه وسلم - لم - جاءها من عند ربه - عز وجل - بما يحجبها ويسعدها .

والضمير د هو ، فى قوله - تعالى - : د هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا يعود إلى الله - تعالى - أى : هو - سبحانه - الذى سماكم المسلمين من قبل نزول القرآن ، وسماكم - أيضا - بهذا الإسم فى هذا القرآن .

وقيل : الضمير د هو ، يعود إلى إبراهيم . أى : إبراهيم هو الذى سماكم المسلمين .

ومن وجوه ضعف هذا القول : أن الله - تعالى - قال : د وفى هذا ، أى سماكم المسلمين فى هذا القرآن ، وإبراهيم - عليه السلام - لحق بربه قبل نزول هذا القرآن فأزغان طويلة د وأيضاً فإن السياق يؤيد أن الضمير د هو ، يعود إلى الله - تعالى - لأن الأفعال السابقة كقوله د هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، تعود إليه - عز وجل - .

ثم بين - سبحانه - أسباب هذا الاجتباء والاصطفاء فقال : د ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، .

والمراد بشهادة الرسول على أمته : الإخبار بأنه قد بلغهم رسالة ربه .

والمراد بشهادة هذه الأمة على غيرها من الناس : الإخبار بأن الرسل الذين أرسلهم الله - تعالى - إلى هؤلاء الناس ، قد بلغوهم رسالة ربهم ، ونصحوهم بإخلاص العبادة لله وحده .

ويؤيد ذلك ما رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : د يدعى نوح - عليه السلام - يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يا رب . فيقال له : هل باخت ما أرسلت به ؟ فيقول : نعم .

فيقال لامته : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير . فيقال له : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد - صلى الله عليه وسلم - وأمه ، فيشهدون أنه قد بلغ .

وشبيه هذه الجملة قوله - تعالى - : : وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتسكنوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ، (١) .

والمعنى : فعلنا ما فعلنا من اجتباائكم ، والتيسير عليكم ، وتسميتكم بالمسلمين ، ليكون الرسول - صلى الله عليه وسلم - شهيدا عليكم يوم القيامة بأنه قد بلغكم ما أمر ببلغيه إليكم ، ولتسكنوا أتم شهداء على الناس بأن رسلكم قد بلغهم رسالة ربهم .

ومادام الأمر كذلك ، فاقیموا الصلاة ، أيها المؤمنون بأن تؤدوها في أوقاتها بإخلاص وخشوع ، وآتوا الزكاة ، التي كلمكم الله - تعالى - بإتائها إلى مستحقيها ، واعتصموا بالله ، أي : التمسوا إليه ، واستعينوا به في كل أموركم ، فإنه - سبحانه - هو مولاكم ، أي : ناصركم ومتولى شئونكم ، ومالك أمركم ، وهو - تعالى - دغم المولى ونعم النصير ، أي : هو - عز وجل - نعم المالك العظيم لأمركم ، ونعم النصير القوي لشأنكم .

وبعد : فهذه سورة الحج ، وهذا تفسير محرر لها .

فسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر د / محمد سيد طنطاوى

الثلاثاء ٢٧ من صفر سنة ١٤٠٥ هـ مفتي جمهورية مصر العربية

الموافق ٢٠/١١/١٩٨٤ م

فهرس إجمالى لتفسير «سورة الحج»

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة والتهجد	٣٤١
١	يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة ...	٣٥٠
٣	من الناس من يجادل في الله بغير علم ...	٣٥٤
٥	يأيها الناس إن كنتم في ريب مما نزلنا ...	٣٥٦
٨	ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ...	٣٦٣
١٤	إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ...	٣٦٩
١٥	من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة ...	٣٧٠
١٧	إن الذين آمنوا والذين هادوا ...	٣٧٣
١٨	ألم تر أن الله يبدله من في السموات ومن في الأرض ...	٣٧٥
١٩	هذان خصمان اختصموا في ربهم ...	٣٧٧
٢٥	إن الذين كفروا ويصدون ...	٣٨٢
٢٠	ذلك ومن يعظم حرمات الله ...	٣٩١
٢٤	ولسلك أمة جعلنا منسكا ليدكروا ...	٣٩٨
٣٨	إن الله يدافع عن الذين آمنوا ...	٤٠٤
٤٢	وإن يكذبوك فقد كذبت قبلكم ...	٤١٠
٥٢	وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ...	٤١٧
٥٥	ولا يزال الذين كفروا في مرية منه ...	٤٢٤
٦٠	ذلك ومن عاقب بمنى ما عاقب به ...	٤٢٧
٦٣	ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ...	٤٣٠
٦٧	لسلك أمة جعلنا منسكا ...	٤٣٣
٧١	ويصدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا ...	٤٣٦
٧٣	يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ...	٤٣٩
٧٧	يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ...	٤٤٢